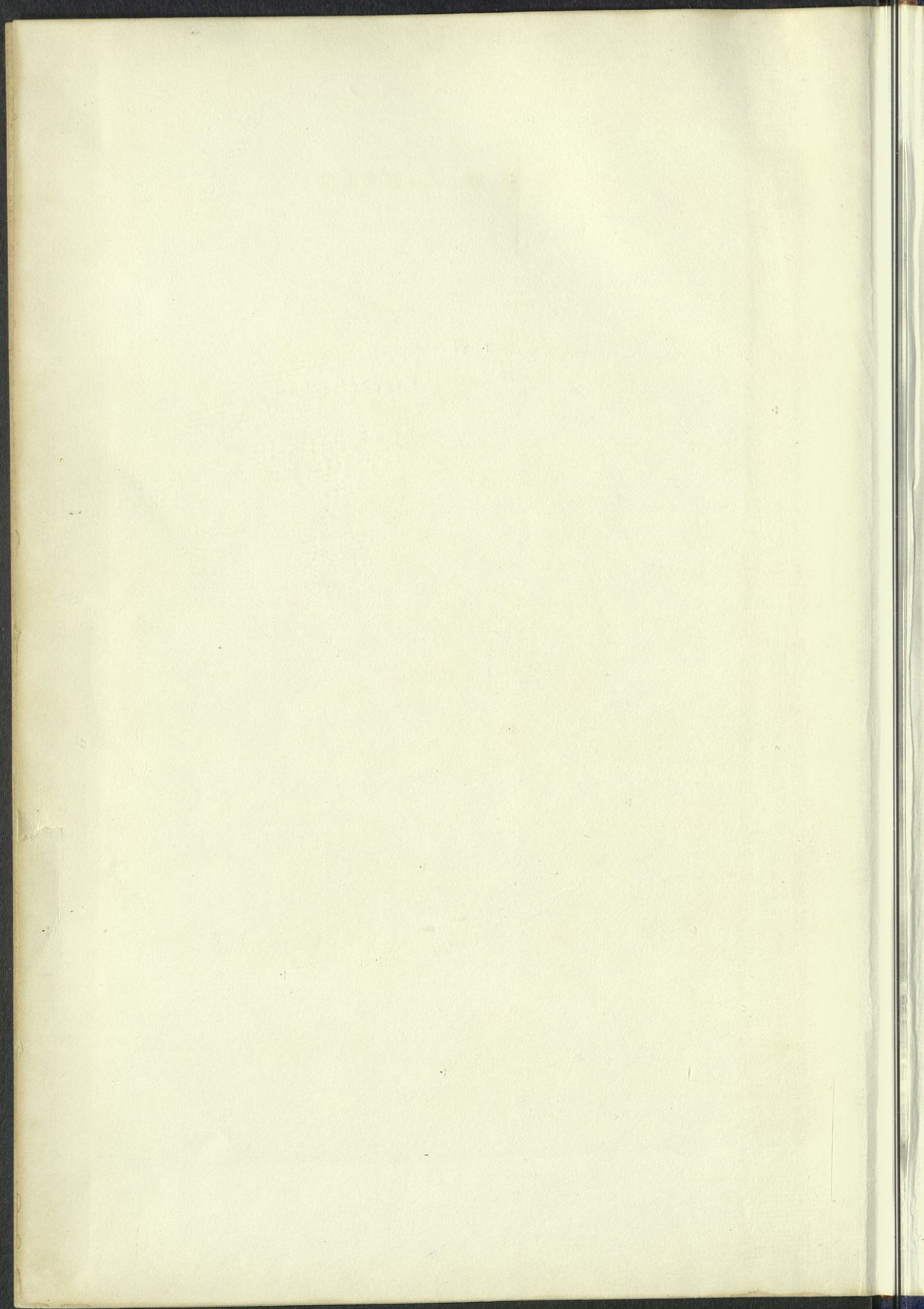
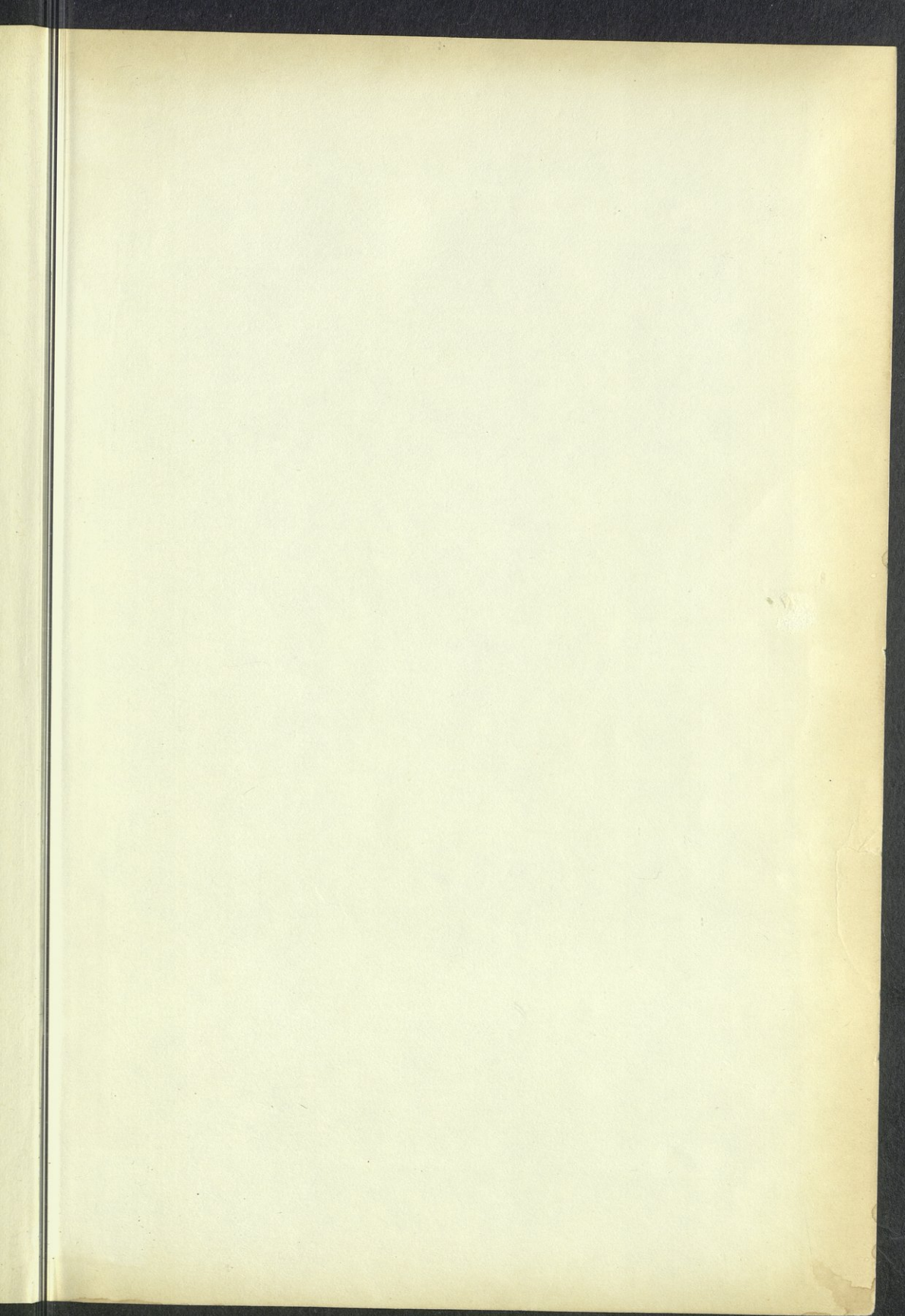
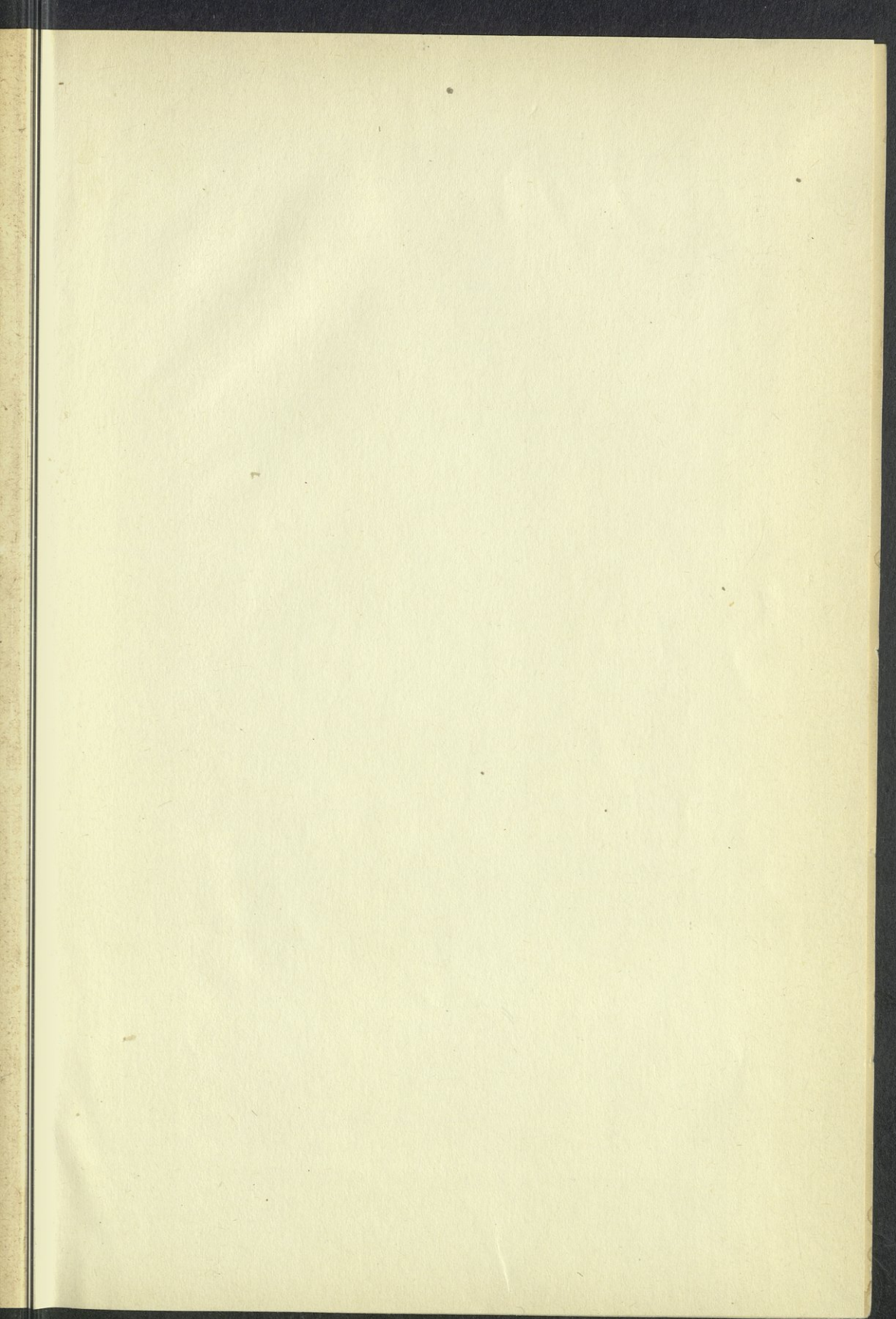


A. U. B. LIBRARY





فصل الحادي عشر



مَجْمَعُ الْغَيْثِ إِلَى

297.63

G 414 A

C. 1

فَتْحُ الْغَيْثِ

مطابع
دار الكتاب العربي بـبصر
محمد علي النياوي

الطبعة الأولى
١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هناك عطاء كثير يقرأ الناس قصص حياتهم ليلمّوا من عناصر النبوغ فيها ، وليتأبّعوا بإحجاب مسالكها في الحياة ، ومواقفها بإزاء ما يعرض لها من مشاكل وصعاب ، وقد تكون هذه القراءة المجردة هي الرباط الفذ بين أولئك العطاء ومن يتعرف عليهم ، وربما تطورت فأصبحت دراسة عميقة أو صلة إنسانية وثيقة .

وأبادر إلى القول بأنّي لم أكتب عن صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفي نفسى هذا المعنى المحدود .

فأنا رجل مسلم عن علم ، أعرف لماذا آمنت بالله رب العالمين ؟ ولماذا صدقت بنبوة محمد ؟ ولماذا تبعت الكتاب الذى جاء به ؟ بل لماذا أدعو الآخرين إلى الإيمان بما سكنت إليه نفسى من هذا كله ؟ .

وقد سبق لى أن نشرت في السيرة فصولاً منوّعة . وهل ابتعدت عنها في شيء مما كتبتّه ؟ إن الرسائل التى عاجلت فيها بحوث العقيدة والخلق والمعاملة والحكم اعتمدت على سيرة النبي الكريم في كيانها وسياقها . ولذلك يصح أن أقول : إن هذا الكتاب ليس صلة محدّثة برسول الإسلام ، ولا جملة من الدلائل على صدقه ، ولا لمحات تكشفت للمؤلف عن عبقريته وسناء دعوته . .

فإن ذلك قد استفاض به الكلام في مواضع أخرى ! ولكنى توفرت على إخراج هذا الكتاب وأمامى غاية معينة أرجو أن أكون بكتبتّها .

إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشوراً خفيفة ، لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم . وهم يعظمون النبي وصحابه عن تقليد موروث ومعرفة قليلة ، ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان ، أو بما قلت مؤنته من عمل .

ومعرفة السيرة على هذا النحو التافه تساوى الجهل بها . إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة . ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أكفان الموتى . إن حياة محمد ليست — بالنسبة للمسلم — مسلاة شخص فارغٍ أو دراسة ناقد محايد ، كلا كلا إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها ، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها . فأى حيف في عرض هذه السيرة ، وأى خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه .

وقد بذلت وسعى في إعطاء القارىء صورة صادقة عن سيرة رسول الله واجتهدت في إبراز الحكم والتفسير لما يقع من حوادث . ثم تركت للحقائق المجلوة أن تدع آثارها في النفوس دون افتعال أو احتيال .

وقد استفدت من السير التي كتبها القدامى والمحدثون استفادة حسنة .

إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك . وذلك أحسن ما في طريقتهم . . .

والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار ، وتمحيص الأسانيد ، وتسجيل مادي وجل من الوقائع والشئون . وفي هذه المحفوظات الكثيرة نفائس ذات خطر لو أحسن الاستشهاد بها وإيرادها في مواضعها . . .

ولعل هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد ، يجمع بين ما في كليهما من خير فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشد أجزاءه روح واحد . ثم وزعت النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع وتعين على إتقان صورته وإكمال حقيقته .

وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئاً ينمى الإيمان ويزكى الخلق ويلهب الكفاح ويغري باعتناق الحق والوفاء له ويضم ثروة طائلة من الأمثلة الرائعة لهذا كله . إنني أكتب في السيرة كما يكتب جنديٌّ عن قائده ، أو تابع عن سيده ، أو تلميذ عن أستاذه . ولست — كما قلت — مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن يكتب عنه ؟

ثم إنني أكتب وأمام عيني مناظر قائمة من تأخر المسلمين العاطفي والفكري .

فلا عجب إذا قصصنا وقائع السيرة بأسلوب يوحى من قرب أو من بعد إلى حاضرنا المؤسف ،
كلما وردت قصة تحمل في طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة الفكر وجلال العمل .

ومحمد ليس قصة تتلى في يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن . ولا التنويه به يكون
في الصلوات المخرجة التي تضم إلى ألفاظ الأذان . ولا إكثان حبه يكون بتأليف
مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون ، ويتأوهون أو لا يتأوهون ،
فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين
وما فجع المسلمون إلى هذه التعابير — في الإبانة عن تعلقهم بنبيهم — إلا يوم تركوا
اللباب المليء وأعيانهم حمله ، فاكثفوا بالمظاهر والأشكال ، ولما كانت هذه المظاهر
والأشكال محدودة في الإسلام ، فقد افتشوا في اختلاق صور أخرى ! ولا عليهم !
فهى لن تكلفهم جهداً ينكصون عنه ؛ إن الجهد الذي يتطلب العزمات هو
في الاستمسك باللباب المهجور ، والعودة إلى جوهر الدين ذاته . فبدلاً من الاستماع
إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم ، ينهض المرء إلى تقويم نفسه وإصلاح شأنه
حتى يكون قريباً من سنن محمد في معاشه ومعاده وحربه وسلمه وعلمه وعمله
وعاداته وعباداته ...

إن المسلم الذي لا يعيش الرسول في ضميره ، ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره
لا يعني عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم والليلة .

وأريد هنا أن أنبه إلى ضرورة الفصل بين الجد والهزل في حياتنا . ولا بأس
أن نجعل للهو واللعب وقتاً لا يعمده وللجد والإنتاج وقتاً لا يقصر عنه .

فإذا أراد أحد أن يغني أو يستمع إلى غناء فليفعل . أما تحويل الإسلام نفسه
إلى غناء فيصبح القرآن ألحاناً عذبة وتصبح السيرة قصائد وتواشيح فهذا مالا مساغ له .
وما لا يقبله إلا الصغار الغافلون . وقد تم هذا التحول على حساب الإسلام ، فانسحب
الدين من ميدان السلوك والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب . وحقّ فيمن فعلوا ذلك
قول الله عز وجل : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... »
وتحول القرآن إلى تلاوة منغومة فحسب ، يستمع إليها عشاق الطرب ، هو الذي
جعل اليهود والنصارى يذيعونه في الآفاق ، وهم واثقون أنه لن يُحْيِيَ مَوَانَا ،

وتحول السيرة إلى قصص وقصائد وغزل (!) وصلوات مبهمة جعل الاستماع إليها كذلك ضرباً من الخلل النفسى أو الشذوذ الناشئ — فى نظرى — من اضطراب الغرائز وفساد المجتمع .

وخير من هذا كله أن يستمع طلاب الغناء إلى اللهو المجرد والألحان الطروب . فإذا ابتغوا العمل الجاد المهيّب طلبوه من مصادر المصقّاة ، قرأنا يأمر وينهى ليفعل أمره ويترك نهيه ، وسنة تفضّل وتوضح ليسار فى هديها وينتفع من حكمتها ، وسيرة تنفخ روادها بالأدب الزكىّ ، والقواعد الحصيفة ، والسياسة الرشيدة .
وذلك هو الإسلام ...

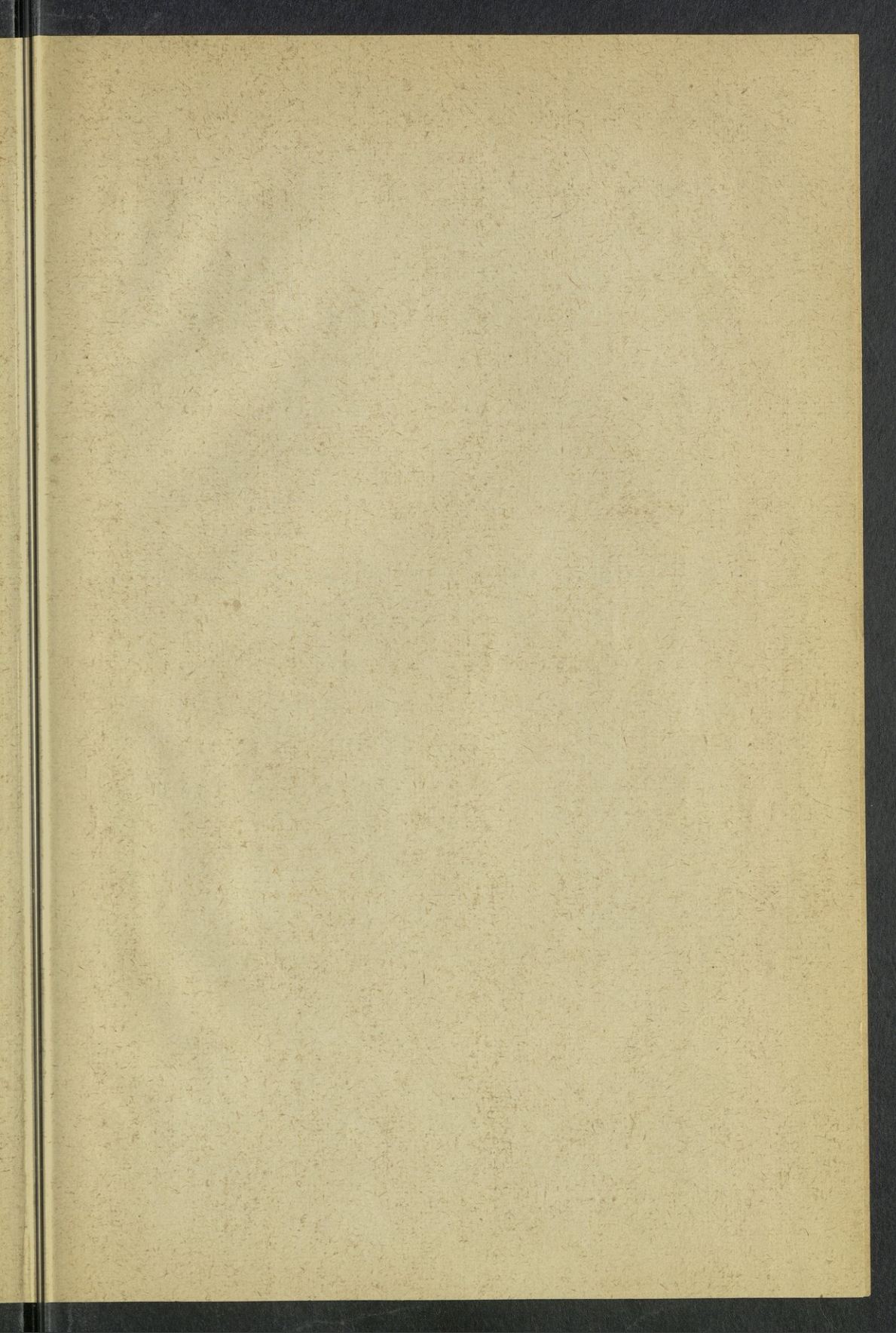
بدأت أكتب هذه الصفائف وأنا فى المدينة المنورة ، فى الجوار الطيب الذى سعدت به حيناً وأعانى على إتمام دراسات جيدة فى السنة المطهرة ، والسيرة العطرة .
ولله المنة على ما أولى من نعمة . ولعله — جل شأنه — يجعلنى ممن يحبونه ويحبون رسوله . ولما كنت لا أحسن القول والعمل إلا فى نطاق الصراحة ، فلا بد أن أشير إلى أن البون بعيد بين المسلمين ورسولهم . مهما أكتؤا له من حب وأدمنوا من صلوات . لقد رأيتهم يزورون الروضة مشوقين متلهفين ، ويعودون إلى مواطنهم ليجدوا من يغبطهم على حظهم ، ويود لو ظفر بما نالوا ...
أما أن محبة رسول الله واجبة فهذا ما لا يمارى فيه مؤمن . وما يغيب حبه إلا فى قلب منافق جحود ...

ولكن أن تكون هذه العاطفة مظهر الولاء له ، فهذا ما يحتاج إلى تهذيب وبيان إن يثرب من ناحية العمران العام أقل منها يوم كانت موطناً للأوس والخزرج فى الجاهلية الأولى . وما يزرع اليوم من أرضها عشر ما كان يزرعه العرب قديماً . وجمهور السكان من رواسب المواسم المزدهمة بالحجيج والزوار . وهم يؤثرون الجوار العاطل على العودة للعمل فى بلادهم ! ويسمون ذلك هجرة ... فهل ذلك إسلام أو حب لرسول الله ؟؟.. أذكر أنه قابلنى نفر من أهل المغرب يزعمون أنهم قدموا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن ، فأفهمتهم أنهم فارون من الزحف ، لأن إخوانهم يقاتلون الفرنسيين الغزاة . وهم مجرمون بتركهم المجاهدين يحملون وحدهم عبء هذا الكفاح ..

إن هذا الحب لرسول الله غير مفهوم ، وهذه الهجرة لمدينته غير متقبلة ، وصلة
نبي الله بعباد الله أسد وأحكم من أن تأخذ هذه السبيل الشاردة الملتوية .
إن أعداء الإسلام تمكنوا — في غفلة أهله — أن يصدعوا بناءه ويجعلوه
أنقاضاً ، فكيف يُترك تراث محمد نهياً للعوادي ؟ وكيف يعمد للجاهلية الأولى أن
تعود ؟ وكيف يقع هذا التبدل الخطير في سكون ؟ بل في مظهر من الحب لرسول الله ؟
فليفقه المسلمون سيرة رسولهم ، وهيئات أن يتم ذلك إلا بالفقه في الرسالة نفسها
والإدراك الحق لحياة صاحبها . والالتزام الدقيق لما جاء به . . .
ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، وأغلاه عندما يكون قدوة وذمماً !!

إنني أعتذر عن تقصيري في إيفاء هذا الموضوع حقه . فشأن رسول الله كبير ،
والإبانة عن سيرته تحتاج نفساً أرقّ وذكاءً أنفذ .
وحسبي أن ذاك جهدى .
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .
وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .
في العالمين . إنك حميد مجيد .

محمد الفزالي



(١)

رِسَالَةُ وَإِمَام

الوثنية تسود الحضارات القديمة

إن تاريخ الحياة مؤسف

منذ هبط آدم وبنوه إلى الأرض ، ثم بعد أن شبّ بهم الزمن واطّرد العمران وتسعبت الحضارات وأدبرت أجيال وأقبلت على أنقاضها أخرى ، منذ ذلك الحين السحيق والناس أخلاط متنافرون . لا تستقيم بهم السبل يوماً إلا شردت أيّاماً . ولا يشيّمون بوارق الحق حيناً إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحياناً . . !
ولو تقصّينا تاريخ البشر — على ضوء الإيمان بالله والاستعداد للقائه — لوجدنا العالم أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه ، أو بمحموم غاب عنه — في سورة الألم — رشده ، فهو يهذى ولا يدرى . . .

ولقد كان في تجارب الناس مع أنفسهم ودنياهم مُردّج زرع عن الشر ويردّ إلى الخير ، بيد أن الهوى الغالب لا تجدى معه معرفة .

كم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يظهر فيها محمد ؟ لقد مرت عليها قرون طوال أفادت فيها علماً كثيراً ووعت تجارب خطيرة . ونمت آداب وفنون وشاعت فلسفات وأفكار .

ومع ذلك فقد غلب الطيش واستحكم الزيغ وسقطت أمم شتى دون المسكنة المنشودة لها . فإذا كان مصير الحضارات في مصر ويونان ، وفي الهند والصين ، وفي فارس ورومة ، لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم ، بل من ناحية العاطفة والعقل ؟

إن الوثنية الوضيعة اغتالتها ، وفرضت عليها طقوسها الزرّية فأمسى الإنسان الذي استخلفه الله عنه ليكون ملكاً في السموات والأرض — أمسى عبداً مسخراً للأدنى شيء في السموات والأرض

وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار وتعبد الأخشاب والأحجار وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة ؟

إن الوثنية هوان يأتي من داخل النفس لا من خارج الحياة . فكما يفرض المحزون كتابته على ماحوله . وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحاً جائمة .

كذلك يفرض المرء المسوخ صغار نفسه وغباء عقله على البيئة التي يحيا فيها ، فيؤله من جمادها وحيوانها ما يشاء .

ويوم ينفسح القلب الضيق ويشرق الفكر الخامد وتثوب إلى الإنسان معانيه الرفيعة فإن هذه الانعكاسات الوثنية تنزاح من تلقاء نفسها .

ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الإنسان نفسه . فلو ذبحت العجول المقدسة ونكست الأصنام المرموقة ، وبقيت النفس على ظلالها القديم ، ما أجدى ذلك شيئاً في حرب الوثنية . سيبحث العبّاد المفجوعون عن آلهة أخرى غير ما فقدوا ، يوفضون إليها من جديد ! وما أكثر الوثنيين في الدنيا وإن لم يلتفتوا حول نصب ! وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق وربّه الأعلى ، والجري وراء وهم بعيد !!

والخرافة لا تأخذ مجراها في الحياة وهي تعلن عن باطلها أو تكشف عن هرائها ، كلا ، إنها تدارى مجونها بثوب الجد . وتستعير من الحق لبوسه المقبول . وقد تأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجه . ثم تتزين بعد ذلك للمخدوعين .

وكذلك فعلت الوثنية ! لقد أغارت على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة ، لا كما يغير النحل على أزهار الربيع ، بل كما تغير الديدان وأسراب الجراد على الحقائق الغناء فتحيلها قاعاً بلقماً . . .

وهي إذ أفسدت ما تركت لم تصلح ما أخذت . ولئن كان ما أخذته خيراً قبل أن تتصل به لقد أصبح شراً بعدما تحول في جوفها إلى سموم . وهذا هو السر في أن الوثنية التي لا تعرف الله ترعم أنها بأصنامها تتقرب إليه وتبغى مرضاته . . .

جزء من الحق ، في أجزاء من الباطل ، في سياق يصرف الناس آخر الأمر عن الله ، ويبعدهم عن ساحته . . . !

وأعظم نكبة أصابت الأديان إثر عدوان الوثنيات عليها ما أصاب شريعة عيسى ابن مريم من تبدل مروّع . ردّ نهارها ليلاً وسلامها ويلاً ، وجعل الوحدة شركة ، وانتكس بالإنسان فعلق همته بالقرايين ، وفكره بالألغاز المعمّاة .

إن خرافة الثالوث والفداء تجددت حياتها بعد ما أفلحت الوثنية الأولى في إقحامها

إقحاماً على النصرانية الجديدة . وبذلك انتصرت الوثنية مرتين ، الأولى في تدعيم نفسها والأخرى في تضليل غيرها .

فلما جاء القرن السادس لميلاد عيسى كانت منارات الهدى قد انطفأت في مشارق الأرض ومغاربها . وكان الشيطان يذرع الأقطار الفيح فيرى ما غرس من أشواك قد نما وامتد . .

فالمجوسية في فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشي في الهند والصين وبلاد العرب وسائر المجاهيل . . .

والنصرانية التي تناوىء هذه الجبهة قبست أبرز مآثرها من خرافات الهند والمصريين القدامى . فهي تجعل لله صاحبة وولداً . وتغري أتباعها في رومة ومصر والقسطنطينية بلون من الإشراك أرقى مما ألفت عباد النيران وعباد الأوثان . .
شرك مشوب بتوحيد يحارب شركاً محضاً !!!

ولكن ما قيمة هذه التناقض التي جمعت النصرانية بين شتاتها ؟

« قالوا : اتخذ الله ولداً . سبحانه هو الغنى . له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا . أتقولون على الله مالا تعلمون . قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم . ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

ويظهر أن آصرة الشرك بين المجوسية والديانات السماوية المشوهة هي التي جعلت هذه الأحزاب إلها على المسلمين يوم بدءوا يقيمون جماعتهم على عبادة الواحد الحق . وقد نبأ الله هذه الأمة بأن الأذى سوف ينصب عليها من عبدة الأصنام ، ومن أهل الكتاب في آن . ووصاها أن تتدفع بالصبر أمام هذا التحامل :

« تَبْلُغُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ . وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً . وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

والظلام الذي ران على الأفئدة والعقول في غيبة أنوار التوحيد طوى في سواده

أيضاً تقاليد الجماعة وأنظمة الحكم . فكانت الأرض مذابة يسودها الفتك والاعتقال . ويفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة .

وأى خير يرجى في أحضان وثنية كفرت بالعقل ونسيت الله ولانت في أيدي الدجالين ؟ .

لا غرابة إذا رفع الله عنها يده كما جاء في الحديث « ... إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » . هذه البقايا هي التي ظلت مستعصية على الشرك رغم طوفان الكفر الذي طمّ البقاع والتلاع .

لقد عمت الدنيا قبل بعثة محمد حيرة وبؤس ناءت بهما الكواهل .

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم
فعاهل الروم يطغى في رعيته وعاهل الفرس من كبر أصم عمى
حتى تأذن الله ليحسمن هذه الآثام ، وليسوقن هدايته الكبرى إلى الأنام
فأرسل إلى الناس محمداً عليه الصلاة والسلام .

طبيعة الرسالة الخاتمة

✱ وتمتاز بعثة محمد بأنها عامة ودائمة .

والله عز وجل كان يستطيع أن يبعث في كل قرية نذيراً ، ولكل عصر مرشداً . وإذا كانت القرى لا تستغنى عن النذر ، والأعصار لا تستغنى عن المرشدين ، فلم استعصى عن ذلك كله برجل فذ ؟ .

الحق أن هذا الاكتفاء أشبه بالإيجاز الذي يحصل المعنى الكثير في اللفظ اليسير وبعثة محمد كانت عوضاً كاملاً عن إرسال جيش من النبيين يتوزع على الأعصار والأمصار . بل إنها سدت مسدّ إرسال ملك كريم إلى كل إنسان تدب على الأرض

قدماء ، ما بقيت على الأرض حياة ، وتطلعت عين إلى الهدى والنجاة . . . !
ولكن كيف ذلك ؟ . . .

في المزالق المتلفة قد يقول لك ناصح أمين : أغض عينك واتبعنى ، أو لا تسلىنى عن شيء يستثيرك ! وربما تكون السلامة في طاعته . فأنت تمشى وراءه حتى تبلغ مأمنك . إنه في هذه الحال رائدك المعين ، الذى يفكر لك ، وينظر لك ، ويأخذ بيدك . فلو هلك هلكت معه

أما لو جاءك من أول الأمر رجل رشيد فرسم لك خط السير ، وحذرك مواطن الخطر ، وشرح لك في إفاضة ما يطوى لك المراحل ويهون المتاعب . وسار معك قليلا ليدربك على العمل بما علمت . فأنت في هذه الحال رائد نفسك تستطيع الاستغناء بتفكيرك وبصرك عن غيرك .

إن الوضع الأول أليق بالأطفال والسذج . أما الوضع الأخير فهو المفروض عند معاملة الرجال وأولى الرأى من الناس .

والله عز وجل عندما بعث محمداً لهداية العالم ضمن رسائله الأصول التي تفتق للأبواب منافذ المعرفة بما كان ويكون . والقرآن الذي أنزله على قلبه هو كتاب من رب العالمين إلى كل حيٍّ ليوجهه إلى الخير ويلهمه الرشد .

لم يكن محمد إماما لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه فلما انتهى ذهبوا معه في خبر كان ، بل كان قوة من قوى الخير لها في عالم المعاني ما لاكتشاف البخار والكهرباء في عالم المادة . وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور في الوجود الإنساني ، كان البشر قبلها في وصاية رعاتهم أشبه بطفل محجور عليه . ثم شبَّ الطفل عن الطوق ورشح لاحتمال الأعباء وحده . وجاء الخطاب الإلهي إليه — عن طريق محمد — يشرح له كيف يعيش في الأرض ، وكيف يعود إلى السماء . فإذا بقي محمد أو ذهب فلن ينقص ذلك من جوهر رسالته . إن رسالته تفتيح الأعين والأذان ، وتجلية البصائر والأذهان . وذلك مودع في تراثه الضخم من كتاب وسنة .

إنه لم يبعث ليجمع حول اسمه أناساً قلوا أو كثروا . إنما بعث صلة بين الخلق والحق الذي يصح به وجودهم ، والنور الذي يبصرون به غايتهم فمن عرف في حياته الحق ، وكان له نور يمشي به في الناس فقد عرف محمداً واستظل بلوائه — وإن لم يرشبعه ويعش معه — .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً » .

فإذا رأيت بعض الناس يتناسى دروس الأستاذ ، ويتشبث بثيابه وهو حي ،

أو يتعلق برفاته وهو ميت ، فاعلم أنه طفل غرير . ليس أهلاً أن يخاطب بتعاليم الرسالة بله أن يستقيم على نهجها .

في مسجد النبي بالمدينة رأيت حشداً من الناس يتلمس جوار الروضة الشريفة ويودُّ أن يقضى العمر بجانبها .

ولو خرج النبي حياً على هؤلاء لأنكر مرآهم وكره جوارهم ، إن رثائهم هيئتهم وقلة فقههم ، وفراغ أيديهم ، وضياح أوقاتهم ، وطول غفلتهم ، تجعل علاقتهم بنبي الإسلام أوهى من خيط العنكبوت .

قلت لهم : ما تفيدون من جوار النبي ؟ وما يفيد هو نفسه منكم ؟
إن الذين يفقهون رسالته ويحيون منها من وراء الرمال والبحار أعرف بحقيقة محمد منكم . إن القربة الروحية والعقلية هي الرباط الوحيد بين محمد ومن يمتون إليه .
فأنتي للأرواح المريضة والعقول الكليّة أن تتصل بمن جاء ليودع في الأرواح والعقول عافية الدين والدنيا ؟ .

أهذا الجوار آية حب ووسيلة مغفرة ؟ .

إنك لن تحب لله إلا إذا عرفت أولاً الله الذي تحب من أجله !! فالترتيب الطبيعي أن تعرف قبل كل شيء : مَنْ ربُّك ؟ وما دينك ؟ فإذا عرفت ذلك — بعقل نظيف — وزنت — بقلب شاكر — جميل من بلغك عن الله وتحمل العنت من أجلك . وذاك معنى الأثر « أَحِبُّوا الله لا يَفْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمِهِ وَأَحِبُّوا الله بِحَبِّهِ ... » ومعنى الآية « قل : إن كنتم تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِ يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ثم إن نبي الإسلام لم ينصب نفسه « باباً » يهب المغفرة للبشر ويمنح البركات ، إنه لم يفعل ذلك يوماً ما لأنه لم يشغل بالدجل قط ... !!

إنه يقول لك : تعال معي ، أو اذهب مع غيرك من الناس لتقف جميعاً في ساحة رب العالمين نناجيه «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» . فإذا رضى عنك — هذا النبي — دعا الله لك ... وإذا رضيت أنت عنه ووقر في نفسك جلال عمله وكبير فضله فادع الله كذلك له ! فإنك تشارك

النبوة

بذلك الملائكة الذين يعرفون قدره ويستزيدون أجره « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً » .

ليس عمل محمد أن يجرّك بجبل إلى الجنة ، وإنما عمله أن يقذف في ضميرك البصر الذي ترى به الحق ، ووسيلته إلى ذلك كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ميسر للذكر ، محفوظ من الزيف . وذاك سر الخلود في رسالته .

فلننظر : كيف عالج النبي البيئة التي ظهر فيها على ضوء هذه الطبيعة المفروضة في رسالته ، ولننظر قبل ذلك إلى أحوال هذه البيئة نفسها .

العرب حين البعثة

* كان أهل مكة ضعاف التفكير أقوياء الشهوات .

إذ لاصلة بين نضج الفكر ونضج الغريزة ، ولا بين تخلف الجماعات من الناحية العقلية وتخلفها من ناحية الأهواء والمطامع .

إن عرام الشهوات الذي نسمع عنه في « باريس » و « هوليود » لا يزيد كثيراً عما وعته القرون الحالية من مفاسد الإنسان على ظهر الأرض .

وتقدم الحضارة لا أثر له من هذه الناحية إلا في زيادة وسائل الإغراء فحسب .

أما الشهوات نفسها فهي هي من قبل الطوفان ومن بعده . الأثرة والجشع والرياء والتهارش والحقْد وغير ذلك من دميم الحصال ملأت الدنيا من قديم ، وإن تغيرت الأزياء التي تظهر بها على مر العصور .

وإن الإنسان يرى في القرية النافهة ، وفي القبيلة الساذجة من التنافس على المال والظهور ما يراه في أرق البيئات . وكثير من الناس تفوتهم أنصبة رائعة من العلم والفضل ولكن لا تفوتهم أنصبة كبيرة جداً من الاحتيال والتطلع والدس .

وقد تستغرب إذ ترى الشخص لا يحسن فهم مسألة قريبة من أنفه . ومع ذلك فهو يفهم جيداً ألا يكون فلان أفضل منه !! .

من عهد نوح والحياة تجمع أمثلة شتى لهذا الغباء وهذا العناد . فعندما دُعِيَ قوم

نوح إلى الإيمان بالله وحده . كانت إجابتهم لنوح لا تهتم بموضوع الدعوة قدر اهتمامها بشخص الداعي وما سيحرزه من فضل بهذه الرسالة !!

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضلَ عليكم . ولو شاء الله لَأَنزَلَ ملائكة . . . »

مأ أكثر منافذ الهوى إلى الأعمال والأحكام ، وما أعقد مخلفات الهوى في الأخلاق والأفكار ، والسَّيَر والسياسات .

وقد كانت « مكة » على عهد البعثة تتوج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم . وكان الرجال الذين يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء وشلل الأفكار ، أو نماذجها في ظل الهوى الجامح ولخدمته وحده . . .

كفر بالله واليوم الآخر ، إقبال على نعيم الدنيا وإغراق في التشجيع منه ، رغبة عميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة . عصبية طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك . تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادى والأدبى داخل هذا النطاق المحدود . من الخطأ أن تحسب « مكة » يومئذ قرية منقطعة عن العمران في صحراء موحشة ، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التى تمسك عليها الرمق . كلا . إنها شبت حتى بطرت . وتنازعت الكبرياء حتى تطاحت عليها . وكثر فيها من تغفل الإلحاد في أغوار نفسه حتى عز إخراجه منه . فهم بين عم عن الصواب أو جاحد له . وفى هذا المجتمع الذى لم ينل حظاً يذكر من الحضارة العقلية بلغ غرور الفرد مداه ، ووجد من يسابق فرعون في عتوه وطفواه .

قال عمرو بن هشام معللاً بكفره برسالة محمد : زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرنسى رهان ، قالوا : منّا نبيٌّ يوحى إليه ؟ والله لا نؤمن به ، ولا تتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه !!

وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ! لأننى أكبر منك سنّاً وأكثر منك مالاً !

وهذه السفاهات العاتية لم تنفرد مكة بها . فما كان كفر عبد الله بن أبي في المدينة إلا لمثل هذه الأسباب .

ذهب رسول الله - بعد الهجرة - يعود سعد بن عباد في مرض أصابه قبل وقعة بدر . فركب حمراً وأردف وراءه أسامة بن زيد . وسارا حتى مرّا بمجلس فيه عبد الله بن أبي . وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشرّكين عبدة الأوثان واليهود . وفي المسلمين عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاوبة الدابة خرّ عبد الله أنفه بردائه ، ثم قال : لا تعبّروا علينا . فسلم رسول الله ، ثم وقف ونزل . فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن . . فقال له عبد الله : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ! وارجع إلى رحلك . فمن جاءك فاقصص عليه . . فقال ابن رواحة : بلى يا رسول الله فاعشنا به في مجالسنا . فإننا نحب ذلك . فاستبّ المسلمون والمشرّكون واليهود حتى كادوا يتثأرون . فلم يزل النبي يُخفّضهم حتى سكتوا . ثم ركب وسار حتى دخل على سعد بن عباد ، فقال النبي : ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب - يعني ابن أبي - ؟ قال سعد : وما قال ؟ قال رسول الله : قال كذا وكذا ... فقال سعد : اعف عنه يا رسول الله ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك ، ولقد اجتمع أهل هذه البحيرة - يعني المدينة - على أن يتوجّوه . ويعصبوه بالعصا . فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك ، شرّق بذلك . فذلك الذي فعل به ما رأيت » . .

إن ابن أبي غصّ بالإسلام لأنه رآه خطراً على زعامته ، وكذلك فعل أبو جهل من قبل . ولئن كان هؤلاء قد ازورّوا عن الحق بعد ما تبينوه ، إن هناك ألّوفاً غيرهم لا يدرّكون قِيلاً ولا يهتدون سبيلاً ، كرهوا الإسلام وحاربوه .

ووسط هذه الجهالات البسيطة أو المركبة ، والعداوات المقصودة أو المضلّة ، وسط نماذج لا حصر لها من الضلال والغفلة ، أخذ الإسلام رويداً رويداً ينشر أشعته . فأخرج أمة من الظلام إلى النور ، بل جعلها مصباحاً وهاجاً يضيء ويهدي . والدروس التي أحدثت هذا التحول الخطير والتي رفعت شعوباً وقبائل من السفوح إلى القمم ليست دواءً موقوتاً أو مخصوصاً بل هي علاج أصيل لطبيعة الإنسان إذا التاثت ، وستظل ما بقي الإنسان وبقيت الحياة تكرم الإنسان وتجدد الحياة

رسول معلم

كانت الإشاعات قد فاضت بين أهل الكتاب الأولين أن نبياً قد اقترب ظهوره .
ولهذه الإشاعات ما يبررها ، فإن عهد الناس بالرسول أن يتابعوا فلا تطول فترة الانقطاع
بين أحدهم والآخر . وكثيراً ما تعاصر المرسلون فجمعتهم أقطار واحدة أو متجاورة .
لكن الأمر تغير بعد عيسى ، فكادت المائة السادسة تتم بعد بعثته ،
ولما يأت نبى جديد ..

فلما اكتظت الأرض بالمفاسد والضلالات زاد التطلع إلى مقدم هذا المصلح
المرتب ، وكان هناك رجال ممن ينكرون الجهالة السائدة يستشفون للمنصب الجليل
ويتمنون لو اختيروا له ! منهم « أمية بن الصلت » الذى حفل شعره بالتحدث عن الله
وما يجب له من محامد . حتى قال الرسول فيه : « كاد أمية أن يسلم » وعن عمرو
ابن الشريد عن أبيه : ردفت رسول الله يوماً فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت ؟
قلت : نعم . قال : هيه . فأنشدته بيتاً . فقال : هيه ، حتى أنشدته مائة بيت .
غير أن القدر الأعلى تجاوز أولئك المتطلعين من شعراء وناثرين . وألقى بالأمانة
الكبرى إلى رجل لم يتطلع إليها ولم يفكر فيها « وما كنت ترجو أن يلقى إليك
الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين » .

إن الاصطفاء للرسالات العظيمة ليس بالأمل فيها ولكن بالطاقة عليها . وكم
فى الحياة من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل . وكم من راسخين يطويهم
الصمت . حتى إذا كدُّوا أتوا بالعجب العجيب .

ولا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها . والذى يريد هداية العالم أجمع يختار للغاية
العظيمة نفساً عظيمة . وقد كان العرب فى جاهليتهم يرمقون محمداً بالإجلال ،
ويحترمون فى سيرته شارات الرجولة الكاملة . إلا أنهم لم يتخيّلوا قط أن مستقبل
الحياة قد ارتبط بمستقبله ، وأن الحكمة ستنفجر من ذلك الغم الطهور ، فتطوى
السهوب والجدوب وتنب الوهاد والنجاد . . .

إنهم لا يرون منه إلا ما يراه الطفل من سطح البحر ، تشغله الصفحة الهادئة
عن الغور البعيد .

كان اصطفاء الله لمحمد مفاجأة لم تلبث روعتها أن تكشفت عنه ، ثم ثبت الكاهل الجلد لما ألقى عليه ، ومضى على النهج مسدداً مؤيداً . . .

ومكث الوحي ينزل ثلاثاً وعشرين سنة . كانت الآيات تنزل خلالها حسب الحوادث والأحوال . وهذه الفترة الطويلة الحافلة هي فترة تعلم وتعليم . الله عز وجل يعلم رسوله ، والرسول يتلقى هذه المعارف الحية ، فيديرها في نفسه حتى يحيلها جزءاً من كيانه ، ثم يعاها الناس ويأخذهم بها أخذاً . . .

ونزول القرآن على هذه الوتيرة مقصود للشارع الحكيم . فإن الزمن جزء من علاج النفوس وسياسة الأمم وتقرير الأحكام . واتساق القرآن في أغراضه ومعانيه على طول المدة التي استغرقها في تجمعه يعتبر من وجوه إعجازه فإن خواتيمه — بعد ربع قرن — جاءت مطابقة مساوقة لفواتحه ، يصدق بعضها بعضاً ويكمله ، كأنما أرسلت في نفس واحد . . .

وقد تساءل العرب : لم نزل القرآن كذلك « وقالوا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لَنُثِبَتْ به فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً » .

إن القرآن يشرح حقيقة الدين عند الله ، وتاريخ هذه الحقيقة . وهو في دعوة العامة يبسط الشبهات العارضة ويفندها . ويسوق أدلته وهو على بينة من آراء خصومه . ويتتبع أقصى ما يثار ضده ثم يكر عليه بالحجة فيمحقه . وقد بدأ القرآن بين قوم تشعب الكفر في نفوسهم ومرت على الجدل ألسنتهم . وكان القدر تحيّر هذه البيئة لتكون مجعاً يمثل آخر ما يحيك في القلوب من ريبة وآخر ما يبدله الباطل من التحدى ، فإذا أفلح الإسلام في تبديد هذه الرّيب وتذليل هذه العوائق فهو على مادونها أقدر !! .

والأسئلة التي توجه للنبيّ أو التي ينتظر أن توجه إليه في مختلف العقائد والأحكام وجدت إجابتها الشافية في القرآن . باعتبار أن السؤال لا يمثل حاجة صاحبه وحدها بل حاجات الناس على مر الأيام .

وفي هذا الجو الملىء بالتساؤل استفهاماً أو استنكاراً كان الإلهام يلاحق الرسول :

قل كذا . قل كذا . وما أكثر الآيات التي صُدّرت بهذا الأمر إجابة لسؤال ورد أو مُقترَض ..

وأنت تحس — إذ تقرّأ هذه الأجوبة المستفيضة — فيضاً من اليقين ينساب إلى قلبك ، كأنها حسمت وساوس عرضت لك أوفى الإمكان أن تعرض ...

والرسالة الخالدة هي التي تصلها بضائر الناس هذه الأواصر المتينة . إن القرآن رسيل حتى تسأله فيجوابك ، وتستمع إليه فيقنعك .

انظر : كيف يؤسس عقيدة البعث والجزاء ، وينوه بشمول الإرادة والقدرة في ثنانيا إجابة على سؤال موجّه . وكيف صيغت المعاني في أخذ ورد ، واعتراض ودفع . كأنها حوار سيال ، يتعدى أصحابه حتى يجمع الناس إلى آخر الدهر : « أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا . فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى . وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

إن هذا مثلٌ للاستدلال القائم على النظر الصائب ، لا يختص به زمان دون زمان ولا مكان دون مكان . فهو خطاب للعقل العام في البشر أجمعين . وهو بيان لحكمة نزول القرآن منجماً إذ جاءت الآيات للرسول : قل كذا ، ردّاً على ما عرض له من أسئلة في أثناء تطوافه هنا وهناك يدعو إلى الله . ثم ثبت السؤال والجواب ليكون منهما علم ينفع الناس آخر الدهر .

وقد استوقف الأمر « بقل » نظر العلماء . إنه تعليم من الله لرسوله ، وتعليم من الرسول للناس ، وقد سيقّت بعد هذا الأمر الأقوال التي تضمنت ما شاء الله من النصائح والعظات والأحكام ...

فعند ما أحب المشركون — على عادتهم — أن ينقلوا ميدان الجدل من حقيقة الدين ، إلى شخص الرسول وأتباعه نزلت الآيات « قل : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ

وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا . فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ قل : هو الرحمنُ آمَنَّا بِهِ ، وعليه توكلُّنا ، فستعلمون من هو في ضلالٍ مبين . »

فانظر : كيف يُستخلص اللباب وسط غبار الجدل ؟ ما يجديكم تَفَقُّصُ الرسول ومن معه ؟ فكروا في أنفسكم كيف أهلكتها الخرافات وشردت بها عن الجادة ! إنه ليس للرسول ومن معه تفكير في أنفسهم وحظوظها ، إنهم دعاة للرحمن ، آمنوا به ، وتوكلُّوا عليه . فإن شئتم فالطريق إلى الرحمن ميسرة ! !

وليس من الضروري أن يقع سؤال ما لتأتى الإجابة عليه من لدن الله « قل » ! !
 فربما يجيء السياق على هذا النحو ابتداء عند عرض أصول الدعوة وآدابها ، وتكون الغاية منه التعريف بالإسلام ونبيه تعريفاً مشبعاً مقنعاً يستأصل الرِّيبَ قبل أن تولد :
 « قل : إني هدى ربِّي إلى صراطٍ مستقيم ديناً قيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وما كان من المشركين . قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربَّ العالمين لا شريك له . وبذلك أمرتُ وأنا أولُ المسلمين . قُلْ : أَغِيرَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ؟ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى . . . »

فالخطاب للرسول هنا يتضمن أمراً إلى كل حيٍّ وجد في عهده ، أو يوجد من بعده أن يتدبر — بعقله — ما يلقى إليه ، وأن يحكم — بضميره — على مدى صحته وإخلاصه .
 فإذا تعلق بقلبه إيمان فهو إيمان ربِّ كل شيء ! وعمل الرسول ينتهى عند هذا الحد ، عند وصل العمول والقلوب بيارئها وإيضاح الصراط المستقيم لها وعلى كل إنسان أن يحمل تبعته في فعل الخير أو الشر بعد ذلك ، فليس الرسول وسيطاً يحمل لك خيراً قدمته ، ولا قرباناً يحمل عنك عقاباً استحققته ، لأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى . . . وهنا يبدو بعد الشقة بين المسيحية والإسلام

الإسلام يغالى بقدر الإنسان ويعطيه جزاءه الحق على الرفعة والضعفة . أما النصرانية فالمرء عندها أنزل قدراً من أن يتصل برب العالمين من تلقاء نفسه ، لا بد من — آخر — يحمل قُربته ويقبل توبته . ومن ذلك الآخر ؟ شخص دعى !! فإذا اقترف ذنباً فليس هو الذى يلقى قصاصه ، إن القربان ذبح قديماً من أجل خطيئته تلك ، وعليه أن يصدق بذلك لينجو إن أراد النجاة . . . ! !

هذا الخبط يحتاج إلى جرّارات ثقيلة ! ليسير في الحياة مراغماً المنطق والعدالة .
أما الإسلام فإن الله يقول لنبيه قولاً تنفتح له الأعين والأفهام :
« قل : من ربُّ السموات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفَتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ
أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم :
هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟
قل : الله خالق كلِّ شيء وهو الواحدُ القهارُ » .

إن هذه الاستفهامات المترادفة سياط تلذع الباطل ، وتجعل العقل النائم يصحو
من سباته . وتحفز الإنسان إلى اعتناق الحقيقة ، والتسامي بها . وذلك ما يُعلمه ويعمل
له رسول الإسلام .

وقد لقي الإسلام مقاومة عنيفة أشد العنف من الوثنية السائدة ، فهي لم تلفظ
أنفاسها في معركة أو معركتين . بل قاتلت بأس شديد على كل شبر من الأرض ،
وكان الظن أن قواها خارت وانماعت عندما أدى الرسول أمانته وذهب إلى الرفيق
الأعلى . بيد أن الجزيرة انتقضت بأسرها في عهد أبي بكر ، وانحصر المسلمون وسط
طوفان من الردّة العمياء شرعوا يكافونه مرة أخرى فما استطاعوا كسر شوكته إلا بعد
ما تكبدوا من الخسائر أكثر مما فقدوا على عهد النبي نفسه في مقاتلة أولئك المشركين .
إن الرجال الذين ثبتوا على الحق بعد رحيل نبيهم عنهم هم المسلمون حقاً . فإن
الإسلام رباط بمبادئ لا بأشخاص . وقد علم الله نبيه ، وعلم المسلمين في شخصه أن
يلتزموا الحق الذي عرفوا . وأن يتشبثوا به مهما غولبوا وحوربوا ...

والدنيا طائفة بأسباب الزيغ ، وهي تحاول أولاً ألا تبقى للإيمان مكاناً بها ، فإذا
ظفر بكسب بعد طول عناء حاولت أن تلاينه حتى ينزل عن شيء ويكتفي بشيء . ولو
أفلحت في استدراجه إلى هذه المنزلة لأمكنها الإجهاز عليه ، ولذلك جاءت أوامر الله
في كتابه حاسمة تقضي بأن الإيمان كل لا يتجزأ ، وأن مناجزة الكافرين على هذه
الحقيقة لا يجوز أن تبدأ فلا بد من الاستمسك بهذه التعاليم المترابطة ، والحب والبغض
عليها ، والمسالمة أو المحاربة دونها . فإن نصيب العاطفة في خدمة العقيدة لا يقل عن
نصيب العقل .

والآيات الواردة في ذلك هي أوامر للمسلمين تنزلت في شكل خطاب للرسول :
 « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ، وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ كَانَ عَلَيَا حَكِيمًا . وَاتَّبِعْ
 مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ
 بِاللَّهِ وَكِيلًا » .

فليس الرسول مظنة أن يطيع الكافرين والمنافقين حتى ينبه إلى التحرز منهم !
 ولكننا نحن المعنيون بهذا الإرشاد . ومن ذلك « ادع إلى ربِّك ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . . » لقد كان الرسول من بدء دعوته حرباً على
الشرك وعلى الآلهة الأخرى . ومنه تعلم الناس هذه الخصومة . ويستحيل أن يتوقع
 منه غيرها .

ومن ذلك : « لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
 وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » .
 « لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . وَقُلْ :
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » .

« فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ .
 لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قال المفسرون : خطبت الأمة في شخص رسولها كما تصدر الأوامر إلى القائد
 مع أن الجند هم المنفذون .

وقيل : بل الخطاب للرسول على طريق الإهاجة واستثارة الهممة . يقال للقوى
 البادى العزم : لَا تَهِنْ . وللعاقل الصحيح الذهن : لَا تَغْفَل . وليس يخاف عليهما
 وهن ولا غفلة ، ولكن الأمر تحريض على استدامة القوة والذكاء . والشجاع يزداد
 على الموت إقبالاً إذا قيل له : لَا تَجِبَنَّ ...

وسواء كان هذا أم ذاك فإن الرسول مناط الأسوة الحسنة ، ومن سلوكه يأخذ
 الناس مثلهم الأعلى . وقد أمر وأمرنا معه بالتوجس من الضالين ، والتناهي عن خلقهم
 وعملهم ، وازدراء متاعهم وغرورهم ...

وذلك لأن هناك أحياناً شتى يضعف فيها الحق ويعز التمسك به . ويقوى فيها الباطل وتكثر المغريات على مصادقته ، أو مهادنته .

ومن حق العقائد على أصحابها أن يتشددوا في تدعيم جانبها وأن يتنكروا لما يمسها من بعيد . والأوامر التي تنظم هذه المشاعر لن تنقصها الصرامة ، وماذا بعد أن يقول الله لنبيه : « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكوننَّ من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » .

إن هذا الخطاب يقرع آذاننا وله مغزاه . كما قيل : « إياك أعنى واسمى يا جارة » وقد كان لهذا الأسلوب أثره في تأليب المسلمين على الفساد وترهيبهم من الركون إليه بله الوقوع فيه .

وأقوال المفسرين التي سردناها تنطبق أيضاً على الآية « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك .. » .

الخطاب للقارئ أو السامع ، أو للرسول نفسه على جهة التهييج والتحريض كما علمت . إذ أن الرسول لن يقع منه شك في أمر نبوته ، والكلام هنا فرض للمستحيل . لكن مامعنى سؤال أهل الكتاب ؟

قالوا : المراد الثقات المنصفون منهم . فهم لن يكتسبوا شهادة الحق إذا طلبت إليهم . وعندى أن العدول الصادقين من أهل الكتاب قلة لا يعول على حكمها وما أظن الآية تعنى ذلك .

ولكن المرء يزداد بصراً بنفاسة ما عنده من خير إذا رأى ما عند غيره من خلط . ولو ارتبت لحظة في أن القرآن من عند الله ، ثم تصفحت كتب العهد القديم والجديد ، لعدت على عجل إلى كتابك تتشبه به وتحمد الله ألف مرة أن هديت إليه !! وأحسب أن هذا ما تشير إليه الآية . فإن تبين ما في الإسلام من حق يزداد قوة عند اكتشاف ما طرأ على الأديان الأولى من تشويه . وهذا يتفق مع قوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » ويركز فهمنا هذا في الآية الكريمة ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « يامعشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ؟ وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الكتب بالله ، تقرأونه محضاً لم يشب . وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا

كتاب الله وغيره . وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به
ثمنًا قليلًا . ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ ولا ، والله ما رأينا منهم
رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم !!

إن الإسلام من الناحية العقلية معرفة للحقيقة ، ومن الناحية العاطفية حبُّ لها
وإعزاز . وكراهية للباطل وعداء صريح .
إن هناك أناساً في مشاعرهم برودة يلقون بها الرأي وضده ! وقد يُتصور هذا
في بعض المسائل النافهة . أما أن يتعلق الأمر بالإيمان والإلحاد . والفجور
والعفاف ، فلا ...

إن الله علم رسوله الكتاب والإيمان ، فكان من عرفان الرسول بهذا الفضل
الإلهي أن غالى بإيمانه واعتز بقرآنه ، فعاش بهما وعاش لهما ، وخاصم وسالم فيهما
وطالب ما تمى عداته أن يركن إليهم شيئاً قليلاً ولكن هيهات ! « ودُّوا لو تُدْهِنُ
فَيْدُ هَنُونَ » . والأمة الجديرة بالانتماء إليه هي الأمة التي تفاضل على الحق فلا تسمح
بانتقاص له ولا حيف عليه ، ومن خصائصها الأولى أنها أمة فكرة ومنهاج ، يقوم
كيانها المادى والأدبى على ما تبذل في ذلك من جهد وتثمر من نتاج .

منزلة السنة من الكتاب الكريم

من حق المسلم أن يرتب المصادر التي يأخذ عنها دينه . وأن يدرك الوضع الصحيح
لمحفوظ من قول النبي وفعله إلى جوار السجل الثابت للوحى الإلهي الذى خصت
به الرسالة الخاتمة .

✓ إن القرآن روح الإسلام ومادته ، وفي آياته المحكمة شرع دستوره وبسطت دعوته .
وقد تكفل الله بحفظه فصينت به حقيقة الدين وكتب لها الخلود أبد الأبد .
والرجل الذى اصطفاه الله لإبلاغ آياته وحمل رسالاته ، كان « قرآنًا » حياً يسعى
بين الناس ، كان مثلاً لما صوره القرآن من إيمان وإخبات ، وسعى وجهاد ، وحق
وقوة ، وفقه وبيان ، فلا جرم أن قوله وفعله وتقريره وأخلاقه وأحكامه ونواحي حياته
كلها تعد ركناً في الدين وشرعية للمؤمنين .

إن الله اختاره ليتحدث باسمه ويبلغ عنه . فمن أولى منه بفهم مراد الله فيما قال ؟
ومن أولى منه بتحديد المسلك الذي يتواءم مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة ؟
إن تطبيق القانون لا يقل خطراً عن صياغته ، وللقانون نص وروح ، وعند
علاج الأحداث المختلفة لتسير وفق القانون العتيد ، نجد فتاوى وتدوّن نصائح
وتُحفظ تجارب وعبر ، وتثبت أحكام بعضها أقرب إلى حرفية النص وبعضها أدنى
إلى روحه . . . وهكذا .

والقرآن هو قانون الإسلام ، والسنة هي تطبيقه . والمسلم مكلف باحترام هذا
التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه . وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به
وينهى عنه ، لأنه في ذلك لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه ، فطاعته هي طاعة لله ،
وليست خضوعاً أعمى لواحد من الناس .

قال الله عز وجل : « من يُطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك
عليهم حفيظاً . » وقال « وأنزّلنا إليك الذّكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم
يُفكّرون » وقال « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

على أن الإلهام الأعلى لا يعطل مواهب الإنسان الراق . فمن الخطأ أن تتصور
المرسلين أناساً مسخرين تنطقهم الملائكة أو تسكتهم . إنهم لو لم يكونوا أنبياء
لكانوا رجالاً يُرمقون باحترام ويُقدّمون عن جدارة .

إن الوحي لا يصيب الناس اتفاقاً . بل يُرشّح له أكمل الناس رشدًا وأسبغهم
فضلاً وأنبأهم خلقاً وأنصحبهم رأياً . وسيرة هؤلاء في الحياة ليست مما ينبذ ،
وكلمتهم ليس مما يهمل . فكيف إذا تأيدت هذه العراقة بالعصمة وهذا
الذكاء بالتسديد ؟

إن السير في ركاب المرسلين هو الخير كله ومن ثم كانت سنة محمد مصدراً لشريعته
مع الكتاب الذي شرفه الله به . وجهود المسلمين على هذا الفهم .

إلا أن السنن المأثورة عرض لها ما يوجب اليقظة في تلقيها ، فليس كل ما ينسب
إلى الرسول سنة تقبل . ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه ، أو وضع موضعه !
والمسلمون لم يؤدّوا من الأحاديث الموضوعية قدر ما أودوا من الأحاديث التي

أسمى فهمهما واضطربت أوضاعها . حتى جاء أخيراً من ينظر إلى السنن جمعاء نظرة ربية واتهام . ويتمنى لو تخلص المسلمون منها . . .

وهذا خطأ من ناحيتين : إهمال الحقيقة التاريخية أولاً . فإن الدنيا لم تعرف بشراً أحصيت آثاره ، ونقدت بحذر ، ومحصت بدقة ، كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله ، فكيف ترمى بعد ذلك في مطارح الإهمال ؟ والناحية الأخرى أن في السنة كنوزاً من الحكمة العالية لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عطاء المصلحين ، فلماذا تضيع على صاحبها ويحرم الناس خيرها ؟

عند ما درسنا تراث محمد في « الأخلاق » وذاكرنا أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل خيل إلينا : لو أن جيشاً من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب لعجز . والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد الضخمة إلا أن الاشتغال بالسنة مع هذا يجب أن يحظر على من لم يستجمع الشروط التي تجعل مثل هذا الاشتغال مفيداً للإسلام والمسلمين .

١ — فلا يجوز أن يشتغل بالسنة من لم يدرس علوم القرآن ويضرب فيها بسهم وافر . فإن القرآن هو الدستور الأصل للإسلام . وهو الذي يحدد للمسلم بدقة تامة واجباته وحقوقه ، ويرتب التكليف المنوطة به ، ويوزع العبادات على حياته ، فلا تطفئ عبادة على أخرى . ولا تطفئ كلها على عمله للحياة ومكانه فيها .

والمرء الذي يعجز عن تحصيل هذه الحقائق من القرآن لن يعوضه عن فقدانها شيء آخر ، والصورة التي تستقر في نفسه للإسلام — من غير القرآن — تضطرب فيها النسب والألوان ، وربما لحقها اختلاف كبير .

ولذلك حرص أئمة الصحابة على أن يخلو الطريق للقرآن الكريم ليحتل مكانته الأولى في القلوب ، وحرصوا على ألا يزاحمه في موضع الصدارة شيء .

روى ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) بأسانيد التي ذكرها . قال : عن جابر بن عبد الله بن يسار قال : سمعت علياً يقول : أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فجهاء ، وإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم . وعن الزهري عن عروة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها

فطفق عمر ليستخير الله فيها شهراً . ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وإني والله لا أشوب — وفي رواية — لا أنسى كتاب الله بشئ أبداً .

وعن ابن سيرين قال : إنما ضل بنو إسرائيل بكتب ورثوها عن آبائهم . ودخل علقمة والأسود على عبد الله بن مسعود ومعهما صحيفة فيها حديث حسن فقال عبد الله ابن مسعود يا جارية هاتي بطشت واسكبي فيه ماء فجعل يحوها بيده ويقول : نحن نقص عليك أحسن القصص . فقالا له انظر فيها حديثاً عجيباً ، فجعل يحوها ويقول إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره — كانت الصحيفة تضم طرفاً من علوم أهل الكتاب — .

وعن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى (صرار) ثم قال أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله ، مشيت معنا تريد أن تشيعنا وتكرمنا فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم . جودوا القرآن وأقروا الرواية عن رسول الله . امضوا وأنا شريككم . فلما قدم قرظة قالوا : حدثنا . قال : نهانا عمر بن الخطاب . .

وعمر وعليٌّ وغيرهما من الأئمة لا يتحدثون السنة . ولكنهم يريدون إعطاء القرآن حظه الأوفر من الخفاوة والإقبال . وذلك هو الترتيب الطبيعي . فلا بد من معرفة القانون كله معرفة سليمة قبل الخوض في شروح وتفاصيل لبعض أجزائه إذ أن هذه التفاصيل والشروح لا يحتاج إليها كل أحد ، وربما شجنت الأذهان فلم تترك بها فراغاً للأصول اللازمة والقواعد الهامة .

وخصوصاً لأن الطريقة التي تروى بها الأحاديث تجمع في صعيد واحد ما صدر عن الرسول متناثرأ في أمكنة شتى وأزمنة شتى وملابسات شتى .

عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : ألا يعجبك أبو هريرة ؟ جاء يجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله ، يسمعي . وكنت أسبح . فقام قبل أن أقضي

سبحتى — أنهى صلاتى — ولو أدركته لرددت عليه ، أن رسول الله لم يكن يسرد الحديث كسر دمكم . . . !!!

٢ — ويجىء بعد رسوخ القدم فى فهم القرآن ، فهم ما يروى من السنن على وجهه الحق ، نغير لمن يقصر عن فهم السنن أن يحبس لسانه فى فمه فلا يقول : قال رسول الله . ثم يسوق حديثاً لا يعرف ما المقصود منه ؟ وإن كان يفهم عبارته الظاهرة وحدها .

وقد بليت السنة من قديم بمن يحفظ منها الكثير ولا يعى إلا اليسير . وتعجب السيدة عائشة من أبى هريرة حين جلس يروى ليس لأنها تهمه بكذب ، بل لأن أسلوب تحدثه يهدر الملابس التى قيلت فيها هذه الأحاديث بعدما طويت طياً فى سرده الموصول . وقد روى مسلم فى صحيحه أن عمر ضرب أباه هريرة لما سمعه يحدث عن رسول الله « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ولعل عمر فعل ذلك لأنه وجد أباه هريرة ، يذكر الحديث لمن لا يعى منه إلا أن الإسلام كلمة تقال باللسان ولا عمل وراءها . ومنع الحديث — ولو صح — إذا أوحى بهذه الجهالة أفضل من إباحة روايته . . .

وروى ابن عبد البر عن أبى هريرة نفسه قال : لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربنى عمر بالدرة !!
وقفه عمر فى هذا المنع أنه يريد — كما علمت — بناء المجتمع على تعاليم القرآن وشغل الأفكار بتدبرها والاستنباط منها . فإذا رويت السنن بعدئذ تلقفها أذهان نيرة فلم تعد بها معناها الصحيح . . .

يستطيع أبو هريرة — لجودة حفظه — أن يسرد مائة حديث فى الصلاة مثلاً وعمر ربما لا يرى حرجاً من سرده هذه السنن فى مدرسة خاصة ، ولكنه يكره أن يشغل جمهور المسلمين بأمر يكفهم منه القليل ، ثم ينصرفون بعده إلى أعمال أجدى على الإسلام وأهله . . .

وذلك سر مطاردته للرواة الكثيرين !

لقد روى ابن حزم قرابة ألف صفحة من الأحاديث فى الوضوء . ولن شاء أن يتوفر على هذا اللون من العلم ، لكن شغل عامة المسلمين به حق ! فهاذا يبقى بعدئذ

للقرآن نفسه ؟ بل إن شغل المسلمين بالقرآن على هذا النحو ليس من الدين . قال رسول الله « اقرأوا القرآن ، ولا تغفلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به » . . . !! وإن يكن لهؤلاء الحفاظ فضل ، فلا أنهم حملوا العلم إلى من يحسن الاستفادة منه . على نحو ما قال الرسول : « رب حامل فقه ليس بفقيه ، رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » عن أبي يوسف قال : سألت الأعمش عن مسألة ، وأنا وهو لا غير . فأجبت ، فقال لي : من أين قلت هذا يا يعقوب ؟ فقلت بالحديث الذي حدثتني أنت ! ثم حدثته ! فقال لي : يا يعقوب ، إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك ، ما عرفت تأويله إلى الآن . . . !!

وقد يبصر أبو يوسف الفقيه ما يغيب عن الأعمش الحافظ ، ولكن المحذور ليس في الحفاظ بلا فهم . بل بفهم الأمر على غير وجهه . . . والترتيب الفني للسنن — كما دونت وتلقيناها — يحمل ما ورد في الإيمان بابا ، وما ورد في القضاء بابا . . . وهكذا . . .

ولما كان الإسلام جملة هذه الحقائق . فإن السنة أصبحت كمتجر كبير للملابس وزعت فيه أنواعها على مختلف الجوانب ؛ هنا أغطية الرأس ، وهنا سراويل وهنا قصان . وهنا حلل سابعة . . . الخ

والطبعي أن من يريد كسوة كاملة يمر بهذه الجوانب كلها ليأخذ ما يغطيه من رأسه إلى قدمه . ولكن يحدث كثيرا أن ترى من يشتري قلنسوتين ويخرج حافيا ، أو من يشتري منديلا ويخرج عاريا . . . !!

إن هذا مثل طوائف اشتغلت بالسنة ، ثم بعد طول تطواف خرجت على الناس وفي يديها من السنن سواك ، وعمامة مقطوعة الذنب اعتبروها شعار الإسلام ، وسر ذلك أنهم دخلوا المعرض الحافل ثم خرجوا منه بعد أن ظنوا الدين كله في حديث فذ أو سنة محدودة فأساءوا بذلك إلى القرآن والسنة جميعاً . . .

٣ — إن قصر الباع في السنة على كثرة الاشتغال بها أضر بتوجيه المسلمين ، وأشاع بينهم طائفة من الأحكام المبتسرة والتقاليد الضيقة ، تنبو عنها روح القرآن والسنة ، وإن اعتمدت على حديث لم يفهم ، أو أثر لم يفقه . . .

وذلك أن الإسلام في الشؤون الهامة جاء بطائفة من الأحكام ، ذكرت في الكتاب

العزیز أو وردت على لسان النبی . وهی جمیعاً متكاملة بصل بعضها بعضاً ویوثقه ، فإذا ظهر فی دلیل منها ما یعارض سائر الأدلة بحث فی تأویله حتی یتم الجمع بینها كلها ، أو قبل الأرجح سنداً ورد الآخر .

ولذلك یرى المحققون أن سنن الأحاد ترفض إذا خالفت ظواهر الآی وعموم النص أو خالفت قياساً یعتمد على أحكام القرآن نفسه . وهم یفرقون بین الأحادیث التي یرویها رجال فقهاء ، والتي یرویها رجال حفاظ فحسب . . . ولنضرب لك مثلاً یکشف عما یصیب الأمم من عقم وضیاع نتیجة فهمها الخاطی لأثر واردة .

كثیر من المسلمین یحكمون على المرأة ألا ترى أحداً ولا یراها أحد . وفي المدينة تسبح النسوة فی الطرق یرتدين خیاماً مغلقة طامسة . بها خرقة من أعلى لإمكان الرؤیة . وقد تخفی هذه الخروق وراء قطع من الزجاج أو الباعة . . .

وهذا التقليد السائد یعتمد على حدیث سمعت إمام الحرم النبوی یردده من فوق المنبر فی خطبة الجمعة ، أن رسول الله كره للنسوة أن یرین عبد الله بن أم مكتوم فلما احتججن بأنه أعمى لا یراها ! قال لهما : « أفعمیاوان أنما ؟ »

وقد استنكرت على الخطیب إیراده لهذا الحدیث . فإن علماء السنة تكلموا فی معناه ومن الجهل بالسنة تقريره عند بیان وظيفة المرأة ، وأسلوب حیاتها ، وقواعد اتصالها بالمجتمع العام . ولم لا تذكر السنن التي رواها البخاری فی ذلك وهی أدق وأصح ؟

أثبت البخاری تحت عنوان « باب غزو النساء وقتلهن مع الرجال » . . . عن أنس رضی الله عنه قال : لما كان یوم « أحد » انهزم الناس عن النبی قال : ولقد رأیت عائشة بنت أبی بكر . وأم سلیم . وإینهما لمُشمرتان أرى خدَم سوقهما . تنقلان القرب على متونهما — ظهورهما — ثم تفرغانه — الماء — فی أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملأنهما ، ثم یحییان فتفرغانها فی أفواه القوم .

وذكر تحت « باب غزو المرأة فی البحر » . . . سمعت أنسا رضی الله عنه یقول : دخل رسول الله على « ابنة ملحان » فاتسكأ عندها ثم ضحك . فقالت : لم تضحك یارسول الله ؟ فقال : ناسٌ من أمتی یركبون البحر الأخضر فی سبیل الله . مثلهم مثل الملوك على الأسرة . فقالت : یارسول الله ، ادع الله أن یجعلنی منهم . قال : اللهم اجعلها

منهم . ثم عاد فضحك . فقالت له : مِمَّ ذلك ؟ فقال لها مثل ذلك ! فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ! قال : أنت من الأولين ، ولست من الآخرين . قال أنس : فزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع بنت قرظة . فلما قفلت ركبت دابتها ، فوقع بها فسقطت عنها . فماتت . .

وذكر تحت عنوان « باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو » . . . أن عمر ابن الخطاب قسم مروطاً بين نساء من نساء المدينة . فبقى مرط جيد فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله التي عندك — يريدون أم كلثوم بنت علي — فقال عمر : أم سُلَيْطٍ أَحَقُّ — وأم سُلَيْطٍ من نساء الأنصار مِمَّنْ بايع رسول الله — قال عمر : فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد أي تحيطها .

وذكر تحت عنوان « باب مداواة النساء الجرحى في الغزو » عن الربيع بنت معوذ . قالت كنا مع النبي نسقى ، ونداوى الجرحى ، وزد القتلى إلى المدينة . . الخ ولنفرض أن البخاري لم يرو هذه الأحاديث الصحاح . أفكان حديث العمياوين يسلط على المجتمع ويُحجّر به على النساء في دورهن فلا يخرجن من هذا السجن أبداً ؟ إن حكماً مثل هذا لا يعرف من القرآن . بل إن القرآن يجعل هذا الحكم عقوبة للنسوة اللاتي يرتكبن الفواحش « وَاللّٰتِي يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً » .

لكن المسلمين لما استوعروا سبل التربية المهدبة للذكور والإناث — بسبب انحرافهم عن القرآن — لجأوا إلى السجن والقصر فكان ما كان . . .

١) هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث . . .

٢) ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة . . .

٣) ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين . . .

٤) ثم هجروا المقلدين وتزمنهم إلى الجهال وتخبطهم . . .

وكان تطور الفكر الإسلامي على هذا النحو وبالا على الإسلام وأهله . روى ابن عبد البر عن الصحاك بن مزاحم « يأتى على الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى

يعشش عليه العنكبوت . لا ينتفع بما فيه . ويكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث»
وسبيل الرشد في هذه العماية أن نعود إلى القرآن ، فنجعل دعامة حياتنا العقلية
والروحية . فإذا وصلنا إلى درجة التشبُّع منه . نظرنا في السنة فانتفعنا بحكمة رسول
الله وسيرته وعبادته وخلقه وحكمه . . . ولا يجوز أن يتكلم في السنة رجل قليل
الخبرة بالقرآن . أو قليل الخبرة بالروايات أو ضعيف البصر بمواقعها ومناسباتها

النبي وخوارق العادات

جرت حياة الرسول الخاصة والعامة على قوانين الكون المعتادة ، فلم تخرج
— في مجملها — عن هذه السنن القائمة الدائمة .

هو — من حيث إنه بشر — يَجُوعُ وَيَشْبَعُ ، وَيَصْحُ وَيَعْرِضُ ، وَيَتْعَبُ وَيَسْتَرِيحُ
وَيَحْزَنُ وَيَسُرُّ . ولكن الناس أنفسهم في هذه النواحي صنوف لا تجمعها قاعدة عامة ،
منهم المتهاك على ضروراته ، فلو نقص حظه منها قليلا طاش ليه وخارت قواه .
ومنهم الجلد الصَّبار يحزُّه النزر اليسير ويمضي لغايته رافع الرأس موطد العزم . . .
إن الآلات التي تدار بالزيوت تتفاوت : منها الرديء الذي يستهلك أثقال الوقود
ولا يجدي فتिला . ومنها الجيد الذي يروع إنتاجه على قلة إمداده .

والبشر كذلك مع أبدانهم وضرورتها ومرفهاتها . . .

والمطالع لسيرة محمد بن عبد الله يرى من طبيعة حياته الخاصة صلاة المعدن الذي
صيغ منه بدنه صياغة عجزت العالقة . وأمكنه صاحبه من أن يحمل أعباء الحياة
ومشاق الجهاد ولأواء العيش وهو منتصب مقدام .

نعم . هناك من العباقره عمى وضمَّ ومعمودون ومصدورون . غير أن العبقريّة^(١)
شأن دون النبوة . ومن تمام نعمة الله على امرئ ما أن يرزق العافية من هذه الأدوات
كلها . لتتم بهذه العافية العناصر التي تصحح نظرتة إلى الحياة ومسلكه فيها . . .
وقد كان محمد من هذه الناحية بشراً كاملاً . وكانت حياته متسقة مع سنن الله
الكونية في البطولات الممتازة .

أما حياته العامة رسولا يبلغ عن الله ، ويربى المؤمنين ويقاوم الكافرين ويدأب على نشر دعوته حتى تؤتي ثمارها في الآفاق . فلا شك أن القرآن العزيز هو مهادها وبنائها .

ومع أن القرآن كتاب معجز إلا أنه يقوم على إيقاظ المواهب العليا في الإنسان فهو أشبه بالأحداث الجليلة التي تعرض لك فتحملك على التفكير بأصالة وبصر ومن ثم فهو كتاب إنساني يعين الوعي العام على النضوج والسداد ؟
« إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » « كتابٌ فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً » .

والفارق بين توجيه العرب بالقرآن . وتوجيه اليهود بنتى الجبل ، كالفارق بين صوت الإرشاد يهdy العاقل إلى الطريق ، وسوط العذاب يلسع الدابة البليدة لتمدني إلى الأمام ، فلا تسير خطوة إلا رمت بمعجزها إلى وراء خطوات . . .
وكان عبد الله بن رواحة ينشد :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق مكنون من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
بيت يحافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

ومن المحققين من يرى أن القرآن هو المعجزة الفريدة لرسول الله . وهم يلحظون في هذا الحكم التعريف اللفظي للمعجزة من أنها خارق للعادة مقرون بالتحدي ولم يعرف هذا التحدي إلا بالقرآن .

وقد ملنا إلى قريب من هذا الرأي^(١) ، لا بالنظر إلى التعريف اللفظي للمعجزة بل بالنظر إلى القيمة الذاتية للخوارق الأخرى بالنسبة إلى الأهداف الرفيعة التي جاء بها الإسلام .

على أنه لا صلة للعقيدة ولا للعمل بهذه البحوث ، فالرجل الفاسد لا يغفر له فساده

(١) راجع كتابنا عقيدة المسلم مبحث النبوات .

إيمانه بأن الرسول أظلمته غمامة ، أو كله جماد . والرجل الصالح لا يغمز مكانته إنكاره
لهذه الخوارق . . .

فإن هذه البحوث ترجع إلى التقدير العلمى لأدلة الإثبات ، والتقويم المحض لما فى الوقائع
نفسها من معان ، وليس للخطأ والصواب فيها مساس بإيمان .

وقد سرت فى المسلمين لوثة شنعاء فى نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم . حتى
كادت جهمرتهم تقرن بين علو المنزلة فى الدين وخرق قوانين الأسباب والمسببات ،
وحتى جاء من المؤلفين فى علم التوحيد من يقول :

وأثبتن لالأوليا الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه !!

وصلة هذا الإثبات بعلم التوحيد كصلته بعلم النحو أو علم الفلك !! أى أن حقيقة
الدين بعيدة عن هذه البحوث سواء انتهت بالسلب أو بالإيجاب .

والخوارق التى يتهمس بها المفتونون لأوليائهم هى تعبير سيئ عن رذائل الكسل
والحق التى تكمن فى طواياهم . كما أن الأحلام الطائشة التى تعترى النائم تعبير عن
الاضطراب الذى يملأ نفسه ويرهق أعصابه .

هذا فتح الباب الموصد من غير مفتاح ، وهذا طار فى الهواء بغير جناح ، وهذا
بال على حجر فانقلب ذهباً . وهذا اطلع الغيب واتخذ عند الرحمن عهداً . . . !!
وأمثال هذه السخافات كثير . . . وهى تدل على جهل بحقيقة الدين وحقيقة
الدنيا . وتدل على أن مروجيها أضل عقولاً وقلوباً من أن يعرفوا سيرة رسول الله
وسير أصحابه .

ما كان محمد رجل خيال يتيه فى مذاهبه ثم يبنى حياته ودعوته على الخرافة .
بل كان رجل حقائق يبصر بعيدها كما يبصر قريبها . فإذا أراد شيئاً هياً له أسبابه .
وبذل فى تهيتها — على ضوء الواقع المر — أقصى ما فى طاقته من حذر وجهد .
وما فكر قط ولا فكر أحد من صحابته أن السماء تسمى له حيث يقعد ، أو تنشط له
حيث يكسل . أو تحتاط له حيث يفرط : ولم تكن خوارق العادات ، ونواقض
الأسباب والمسببات أساساً ولا طلاء فى بناء رجل عظيم أو أمة عظيمة .

إن محمداً وصحبه تعلموا وعلموا ، وخصموا وسالموا ، وانتصروا وانهمزوا ، ومدّوا شعاع دعوتهم إلى الآفاق ، وهم على كل شبر من الأرض يكافحون ، لم ينخرم لهم قانون من قوانين الأرض ، ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة ، بل إنهم تعبوا أكثر مما تعب أعداؤهم ، وحملوا المغارم الباهظة في سبيل ربهم . فكانوا في ميدان تنازع البقاء أولى بالرسوخ والتمكين .

ولقد لقنهم الله عز وجل هذه الدروس الحازمة حتى لا يتوقعوا محاباة من القدر في أي صدام . وإن كانوا أحصف رأياً من أن يتوقعوا هذا .

قال الله لرسوله : « وإذا كنتَ فيهم فأقت لهم الصلاة فلتقم طائفةً منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم . ولتأت طائفةٌ أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ودَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمّعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدةً . ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم . وخذوا حذركم » .

فانظر : كيف يكفون — وهم في الصلاة وبين يدي الله — بأشد الحذر والانتباه ؟ إن الله لم يدع أملاً يخامر أنفسهم بأن الملائكة سوف تنزل لعونهم ! إن لم يخدموا أنفسهم فلن يخدمهم أحد ! ذلكم هو خطاب الله للحمد وصحبه ...

وعندما ذهل المسلمون عن هذا الدرس في غزوة أحد لطموا لطمه موجعة جندلت من أبطالهم سبعين ، وأمضتهم خزي الهزيمة ، فوقف زعيم الكفر يومئذ — أبو سفيان — يقول : اعلُ هبل ...

وأبلى النبيُّ بلاء شديداً لينقذ الموقف ، وقاتل وقتل ، وأصيب في نفسه .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله يوم أحد : « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبیه هكذا — ويشير إلى رباعيته — اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله » .

وعن أنس أن رسول الله كسرت رباعيته يوم أحد وشجَّ رأسه . فجعل يسלט الدم عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم

إلى الله ؟ . فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل قوله : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ » .

أَرَأَيْتَ التَّفْرِيطَ فِي أَسْبَابِ النِّصْرِ جَلْبَ شَيْئًا غَيْرِ الْهَزِيمَةِ ؟ أَوَّلَوْكَانَ الَّذِينَ أَهْزَمُوا هُمْ مِمثِلِي التَّوْحِيدِ الْحَقِّ ؟ أَوَّلَوْكَانَ الَّذِينَ انْتَصَرُوا هُمْ سَدَنَةُ الْوَثْنِيَةِ الْمُحْضَةِ !!

وكان النبي إذا أراد غزوة ورى بغيرها ويقول : الحرب خدعة . ومع قيامه بالأسباب على ما أوجب الله . (واحترامه للقوانين الطبيعية التي تنظم حياة البشر) . مع ذلك فقد استطاعت بعض قبائل العرب أن تخدعه ، وأن تستدرج طائفة من القراء من أفضل أصحابه ليقتلوهم عن آخرهم في بئر معونة ، فما دلت على مصارعهم إلا الطيور تحلق في الجو مرفرفة على أشلاء الشهداء ...

إن هؤلاء الرجال الذين ذهبوا ضحية الغدر من أحب خلق الله إلى الله . ومع ذلك فما أذن لأحد منهم أن يطير بغير جناح ، أو يتحول عن هذا القدر المتاح كما يفكر متأخرة المسلمين اليوم ...

ولئن كان الحذر والحيلة من سنن النبوة إن الإعداد واستنفاد الجهد فيه من آكد هذه السنن . وبماذا تحسب محمدًا انتصر على الناس ؟ . لقد أنضج رجاله بالإيمان كما ينضج الصيف بلهبه البطيء أطايب ثماره . فلما أرسلهم إلى أنحاء الدنيا طوفوا بها ، ولهم زئير كزئير العاصفة المكتسحة المحتاجة .

بل إن الإسلام من يوم بدئه كان معركة يقودها الوحي ، ولذلك شبه الله بواده الهامية ، بعاصفة ذات صواعق ورعود :

« أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ . وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » .

أترى للتراخي والتواكل ثغرة في هذه الصفوف المتراخفة ؟ . يا ويل مسلمي اليوم من انتظارهم لخوارق العادات في دنيا كشرت عن أنيابها لاستئصال شأفتهم ...

نحن لا ننكر أن هناك عجائب خارقة تقع للناس . بيد أنها تقع للمؤمن والكافر والبر والفاجر . فلو أن رجلا سار على الماء دون أن تبطل قدماءه ، ما دل ذلك على صلاحه . لأن مناط الصلاح بما شرع الله من عمل وإيمان فحسب ، وإثبات هذه الخوارق

لأصحابها مسألة تاريخية بحجة لمن شاء تقصى العجائب ، ولا ارتباط لها بأصل الإيمان والتكليف ، وذلك بداهة غير المعجزات الشاهدة للمرسلين بصحة التبليغ عن الله ، على أن النبوات بما قارنها من خوارق قد انتهت مع الماضي البعيد . فليس للتحكك بها من جدوى — وقد علمت أن معجزة محمد بن عبد الله لم تكن على غرار ما سبقها ، بل كانت معجزة إنسانية عقلية دائمة . ثم نظم الله له حياته ودعوته وفق قوانين الأسباب والمسببات كما رأيت ...

ولم يكن محمد يعرف الغيب . كان كأي بشر آخر لا يدري ماذا يكسب غدا ؟ . ولا ينبغي أن ينتظر منه شيء من ذلك بعد أن انتهى إليه أمر الله : « قل : لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » . وربما اقترب منه من يضره الشر ويظهر الود — وهو لا يعلم به — حتى تفضحه التجارب « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » . وسيفاجأ يوم القيامة برجال تركهم وهو يعدهم مؤمنين ثابتين . ثم تكشف الفتن عن سواد باطنهم وسوء عقباهم . فيقول ما قال عيسى من قبل : « وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » . وقد يطلعه الله على بعض الغيوب لحكم خاصة . كما جاء في التنزيل الإنباء بهزيمة الفرس أمام الروم بعد النصر الكبير الذي سبق لهم أن أحرزوه ، وسارت بحديثه الركبان ، وشمّت له الوثنيون وحزن له المسلمون ، مظاهره منهم لأهل الكتاب . وقد وردت أحاديث صحاح تحسب على ظاهرها كأن الرسول يعرف ما يكون ! مثل ما ورد عن عدى بن حاتم قال : بينما أنا عند رسول الله . إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل . فقال : يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها . وقد أنبت عنها . فقال : إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله . قلت في نفسي : فأين دعار طيء الذين سَعَرُوا في البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى . قلت : كسرى ابن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز !! ...

قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله .
و كنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ...
والحق أن هذه الأحاديث وأشباهاها لم تكن إخباراً بغيب ، إنما كانت تصديقاً
لوعده الله بأن المستقبل للإسلام . وبأن هذا الدين سيسود المشارق والمغارب . فكانت
تفسيراً من رسول الله لقول الله في كتابه « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين كله » « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولينكبن لهم دينهم الذى
ارتضى لهم وليمدلنهم من بعد خوفهم أمناً » .
وقريب من ذلك الأحاديث المنبئة عن الفتن .

إن الرجل الخبير بالسواق لا يلبث — من استعراض يسير لأحوالها — حتى
يصدر حكماً صائباً عليها . والخبير بطوايا النفوس يستطيع من نظرة خاطفة أن يستشف
ما وراءها ويستكشف خباياها . ومن ذلك قول الشاعر :

والألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع !

وقد كان محمد خبيراً بالنفوس ومعادنها ، والدنيا وأطوارها ، والزمان وتقلبه ،
والأديان الأولى وما عانت وعانى رجالها وهم يشقون طريقهم فى الحياة . وعقول الأنبياء
من ورأيها فطر مجلوة وإلهام لمّاح . فكيف بشيخ الأنبياء الذى تعده القدر من
نشأته ليحمل رسالة معجزتها فى أسلوبها . وأسلوبها يقوم على ترقية الفطر وتفتيق
الألباب ؟ ؟ ...

إن هذا يجعله أشد الناس تقديراً للواقع ، وانتظاراً لما يفد به ! هل يستطيع
السائر فى مناطق الشمال أن يقدر خلوّ الجو من الضباب الداكن . أو هل يستطيع
السائر فى مناطق خط الاستواء ألا يتوقع عواصف القيظ ؟ فكيف يليق بصاحب دين
خطير أن يتناسى الفتن العارضة لتعاليم دينه ولرجالها ، ما قرب منها وما بعد ، ما ظهر
منها وما بطن ...

لذلك كثر كلام الرسول عن الفتن ، وليس القصد الإخبار عنها بل التحذير منها .
وتحدث عن الفتن التى تلحق الأشخاص من اختلاف أفكارهم وتنافر أمزجتهم ...
وتحدث عن الفتن التى تصيب القلوب من إقبال الدنيا والتحاسد عليها ... وتحدث

عن الفتن التي تصيب الأمة بعد أن يشوب الكفر من هول الهزائم التي مُني بها .
ويتماسك مرة أخرى بعد ما انحلت عراه . . . فكان أن خوَّف أصحابه من ذلك كله
في أحاديث يطول سردها .

وأخطر هذه الفتن ما يصيب تعاليم الإسلام نفسها من ذبول واضمحلال .

فالصلاة تفقد روحها وهو الخشوع ، ثم يتآكل جسمها فتتحول نقرأ سخيلاً .
والجهاد يفقد روحه وهو الإخلاص ، ثم يتحول انتهاياً للغنائم واستعباداً
للأحرار ، ثم تفتر حدة ، ثم يبطل . . .

والصيام ينتهي من صبر على الحرمان وتأديب للفرأز المتطلعة إلى استعداد للولائم ،
ومضاعفة للنفقة . . .

والحكم يتطور من خدمة للجمهور برضاه ، إلى تأله عليه ، عن بغى واستكراه ،
ثم يسقط ، ويضيع الحاكم والمحكوم معا . . .

وحق حجة المسلمين لرسولهم تتحول بعد موته إلى سوق حول قبره تضج بالصياح
المنكر والمهمة الحائرة . . .

عندما زرت المدينة توجهت إلى قبر الرسول الجليل ، وكانت المشاعر التي تنبعث
من قلبي تطن في أذني . فلما تبينت لي معالم الضريح يمت شطره وأنا أتضائل
في نفسي . وكأنني كرة تندرج تحت أقدام عملاق . . .

وسلمتُ بالعبارة التي شرع الله . لم أزد عليها إلا بيتاً من الشعر لم أدر ما وراءه
لما عراني من اضطراب غمغت به شفتاي ولم تسمعه أذناي :

ياخير من دُفنت في الثرب أعظمه فطاب من طيهن القاع والأكم . . .
ثم انصرفت . . .

بيد أنني لاحظت أمواجاً نقد فتصرخ بكلام طويل ، هذا يقرأ في كتاب وهذا
يسمع من حافظ ، وهذا يشوش على ذاك والكل يشوش على المصلين . وتتواكب
هذه الوفود في هرج ومرج لا ينقطعان . . .

ألم يكن الرسول يعنى تلك الحال عندما قال : اللهم لا تجعل قبرى بعدى
وثناً يعبد ...

وما أن تعرفت أحوال العاكفين فى المسجد والبادين ، حتى كدت أدع الصلاة
فيه . فإني أكره أشد الكراهية البدع والفوضى والوساخة والجهل .

وتذكرت قصة عروة بن الزبير لما بنى له قصراً بوادى العقيق وابتعد عن المدينة .
فقال له الناس : قد جفوت عن مسجد رسول الله !! فقال : إني رأيت مساجدكم
لاهية ، وأسواقكم لاغية ، والفاحشة فى فجاجكم عالية . وكان فيما هنالك عمّا أنتم فيه
عافية . وقيل : إنه لما عوتب فى ذلك قال : وما بقى ؟ إنما بقى شامت بنكبة أو حاسد
على نعمة !! ..

نسأل الله العفو والعافية .

(٢)

من الميلاد إلى البعث

ولد محمد من أسرة زاكية المعدن نبيلة النسب ، جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل ، وترفت عما يشينهم من أوصار . قال رسول الله عن نفسه : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

وعِراقة الأصل لا تمنح الرجل الفاشل فضلاً . كالصلب إذا ترك للصدأ يمسى لا غناء فيه . أما إذا تعبدته اليد الصنّاع فإنها تبدع منه الكثير ولذلك لنا سئل النبي : أيّ الناس أكرم ؟ قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم . قال : « نختيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » .

وكان مذبت محمد في أسرة لها شأنها ، بعض ما أعدّ الله لرسالته من نجاح . فالملتجّع العربيّ الأول كان يقوم على العصبية القبلية الحادة . العصبية التي تقني القبيلة كلها دفاعاً عن كرامتها الخاصة ، وكرامة من يموت إليها . وقد ظلّ الإسلام حيناً من الدهر يعيش في حمى هذه التقاليد المرعية حتى استغنى بنفسه كما تستغني الشجرة عما يحملها بعد ما تغلظ وتستوى .

وكان « لوط » يتمنى شيئاً من هذه التقاليد . عند ما أحس الخطر على الأضياف النازلين به . ولم يجد عشيرة تدفع أو أهلاً تهيجهم الحمية . فقال لقومه : « اتقوا الله ولا تخزؤن في ضيفي أليس منكم رجل رشيد » ثم قال : « لو أن لي بكم قوة . أو آوى إلى ركن شديد » !!

لكن محمداً على كرم محتده لم يرزق حظاً وافراً من الثراء . فكانت قلة ماله مع شرف نسبه سبباً في أن يجمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات إن أبناء البيوتات الكبيرة تغريهم الثروة بالسطوة . فإذا فقدوا هذا السلاح ، وكانت لهم تقاليد كريمة ، بذلوا جهوداً مضنية ليحتفظوا بمكانتهم وشمعهم . ولذلك يقول قائلهم :

وإنا - على عض الزمان الذي بنا - نعالج من كره المخازي الدواهي
وربما لا يرى بعض الناس حرجاً من أن يعلن فاقتة ويكشف صفحته . غير أن

هناك بعضاً آخر يطوون همومهم في همتهم ثم يبرزون للدنيا مشمرين ، ومن هؤلاء عبد الله بن عبد المطلب . . .

كان عبد المطلب سيد مكة ، بيد أن هذه السيادة التي انتهت إليه انتهت به ولم تستقر في عقبه إذ اشتد ساعد منافسيهم في زعامة أم القرى . وبدا كأن الأمر سيؤول إليهم . بل إن هي إلا أعوام حتى تصدرت أسرة عبد شمس ، ثم عمر أعوام أخرى فإذا بأبي سفيان يتزعم مكة ، وبذلك تنتقل السيادة عن بني هاشم .

وعبد الله أصغر أبناء عبد المطلب وله في قلبه منزلة جلية ، وقد زوجه بأمنة بنت وهب . ثم تركه يسعى في الحياة وحده . فخرج وهو عروس ، بعد أشهر من بنائه بأمنة ، خرج يضرب في مناكب الأرض ابتغاء الرزق وذهب في رحلة الصيف إلى الشام ، فذهب ولم يعد عادت القافلة تحمل أنباء مرضه ثم جاء بعد قليل نعيه .

وكانت أمنة تنتظر رحلها الشاب الجلد لتهناً بمحياتها معه ، ولتشعره بأن في أحشائها جنيناً يوشك أن تقر به عينهما . غير أن القدر — الحكمة عليا — حسم هذه الأمانى الحلوة ، فأمست الزوج المحسودة أيما .

تعد الليالى لتودع الحياة الوحشة « يتيمها » الفريد

قال الزهرى : أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمرأ فأت بها . وقيل بل كان بالشام ، فأقبل في غير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى بها . ودفن في دار النابتة الجعدى وله خمس وعشرون سنة . وتوفى قبل أن يولد رسول الله .

ولد محمد بمكة ولادة معتادة ، لم يقع فيها ما يستدعى العجب أو يستلفت النظر ، ولم يمكن المؤرخين تحديد اليوم والشهر والعام الذى ولد فيه على وجه الدقة . وأغلب الروايات تتجه إلى أن ذلك كان عام هجوم الأحباش على مكة سنة ٥٧٠ م في الثانى عشر من ربيع الأول ٥٣ ق . هـ .

وتحديد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شيء ذو بال . فلا أحفال التي تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوى لا صلة له بالشرعية .

وقد روى البعض أن إرهابات بالبعثة وقعت عند الميلاد . فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى . وخذت النار التي يعبدها المجوس . وانهدمت الكنائس حول بحيرة « ساوة » بعد أن غاضت . قال البوصيرى :

أبان مولده عن طيب عنصره يا طيب مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الغرس أنهم قد أئذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصع كشم أحوال كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف عليه . والنهر ساهى العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها وردَّ واردها بالغيط حين ظمى

وهذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة . فإن ميلاد محمد كان حقاً إيذاناً بزوال الظلم واندثار عهده واندكاك معالمة . وكذلك كان ميلاد موسى . ألا ترى أن الله لما وصف جبروت فرعون واستكائة الناس إلى بغيه ثم أعلن عن إرادته فى تحرير العبيد واستنقاذ المستضعفين قص علينا قصة البطل الذى سيقوم بهذه الأعمال فقال : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ... »

وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم لتحرر العقلى والمادى وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ وأحصى فعالهم فى تدويخ المستبدين وكسر شوكتهم طاغية إثر طاغية .

فلما أحب الناس بعد انطلاقتهم من قيود العسف تصوير هذه الحقيقة تخيلوا هذه الإرهابات وأحدثوا لها الروايات الواهية . ومحمد غنى عن هذا كله . فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يهدهنا فى هذه الروايات وأشباهها .

استقبل « عبد المطلب » ميلاد حفيده باستبشار وجدل ، ولعله رأى فى مقدمه عوضاً عن ابنه الذى هصرت المنون شبابه ، خوّل مشاعره عن الراحل الناهب إلى الوافد الجديد يكلؤه ويغالى به .

ومن الموافقات الجميلة أن يُلهم « عبد المطلب » تسمية^(١) حفيده « محمداً » ! إنها تسمية أعانه عليها ملك كريم ! ولم يكن العرب يألّفون هذه الأعلام ، لذلك سألوه : لم

(١) سماه كذلك بعد ما خنته فى يومه السابع .

رغب عن أسماء آبائه ؟ فأجاب : أردت أن يحمده الله في السماء وأن يحمده الخلق في الأرض . لكن هذه الإرادة كانت استشفافاً للغيب فإن أحداً من خلق الله لا يستحق إزاء عواطف الشكر والثناء على ما أدّى وأسدى كما يستحق ذلك النبي العربي المحمّد .

عن أبي هريرة قال رسول الله : ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم ؟ يشتمون مذمماً ، ويلعنون مذمماً . وأنا محمد ! » .

لكن الحقيقة القاسية — برغم حفاوة الجد الحنون — باقية . فإن « محمدًا » يتيم برز إلى الدنيا بعد ما غادر أبوه الدنيا . ليكن !! ولنفرض عبدالله بقى حياً !! فإذا عسى كان يفعل لأبنه ؟ أكان يربّيه ليهبه النبوة . ما كان له ذلك . إن الأب عنصر واحد من عناصر شتى تتحكم في مستقبل الطفل وتحفر له في الحياة مجراه . ولو كانت النبوة بالاكتساب ما قربتها حياة الوالد شبرا . فكيف وهي اصطفاء ؟ .

كان « يعقوب » حياً يرزق ، له شيخوخته وتجربته وحكمته ، بل له نبوته . وقد نظر يوماً ما فلم يجد يوسف قريباً منه . إنه فقد في أخطر فترات العمر ، فترة الصبا اللدن واليفاعة الغضة . ومع فساد البيئات التي احتوت يوسف فقد كان باطنه ينضج بالتقى والعفاف كما يتقد المصباح في أعماء الليل المدلهم فلما التقى الابن بوالده بعد لأى ، رأى يعقوب ابنه نبياً صديقاً ...

لقد ولى عبد الله وترك ابنه يتيماً بيد أن هذا اليتيم كان يُعدّ من اللحظة الأولى لأمر جليل ، أمر يصبح به إمام المصطفين الأخيار . وما الأب والجد ، ما الأقربون والأبعدون ، ما الأرض والسماء إلا وسائل مسخرة لإتمام قدر الله ، وإبلاغ نعمة الله من اصطنعه الله .

أقبلت « آمنة » على ابنها تحنو عليه في انتظار المراضع المقبلات من البادية ، يتلمسن تربية أولاد الأشراف . والأعرابيات اللاتي يقصدن مكة لهذه الغاية هن طالبات رزق ويسار . ولم يكن لمحمد أب ترقب عطاياه أو غنى تغرى جدواه . فلا عجب إذا زهدت فيه المراضع وتطلعن إلى غيره .

وكانت حليلة ابنة أبي ذؤيب من قبيلة بني سعد إحدى القادمات إلى مكة ابتغاء

العودة برضيع تستمين على العيش بحضانتها ، ولم يُرض طموحها أول الأمر طفلٌ يقيم إلا أنها لم تجد طلبتها واستحييت أن تعود صفر اليدين فرجعت إلى « آمنة » تأخذ منها « محمداً »

وكانت البركة في مقدمه معها ، كانت سنواتها عجافاً من قبله . فامتنَّ الله عليها بخير مضاعف . درت الضروع بعد جفاف . ولان العيش وأخصب . وشعرت حليلة وزوجها وولدها بأن أوتبهم من مكة كانت باليمن والغنم لا بالفقر واليتم مما زاد تعلقهم بالطفل وإعزازهم له

وتنشئة الأولاد في البادية ، ليرحوا في كنف الطبيعة ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل . أدنى إلى تزكية الفطرة وإنماء الأعضاء والمشاعر . وإطلاق الأفكار والعواطف .

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها عكبٌ أغلقت على من فيها . وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود — فيما يعود إليه — إلى البعد عن الطبيعة والإغراق في التصنع . ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصات الفساح مدارج طفولتهم . وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه . ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق

شق الصدر

مكث « محمد » في مضارب « بنى سعد » خمس سفوات صح فيها بدنه واطرد نأؤه . وهذه السنوات الخمس هي عمر الطفل . فلا ينتظر أن يقع فيها شيء يذكر . غير أن السنن الصحاح سجلت في هذه الفترة ما عرف بعد بحادث شق الصدر عن أنس أن رسول الله أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه ، فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرجه ، فاستخرج منه علقه ، فقال : هذا حظ الشيطان منك . ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم . ثم لأمه . ثم أعاده إلى مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني مرضعته أن محمداً قد قتل . فاستقبلوه . وهو منتقع اللون »

وهذه القصة التي روعت حليمة وزوجها . ومحمد مسترضع فيهم . نجدها قد تكررت مرة أخرى ومحمد رسول جاوز الخمسين من عمره . فعن مالك بن صعصعة أن رسول الله حدثهم عن ليلة أُسريَ به قال : بينا أنا في الحطيم — وربما قال في الحجر مضطجع بين النائم واليقظان . أتاني آت . فشق ما بين هذه إلى هذه . — يعني ثغرة نحرة إلى شعرته — قال : فاستخرج قلبي . ثم أُتيتُ بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ، ثم حُشِيَ ، ثم أعيد »

ولو كان الشرّ إفراز غدة في الجسم يتحسم بانحسامها ، أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب كما تزود الطائرة بالوقود فتستطيع السموّ والتحليق لقلنا : إن ظواهر هذه الآثار مقصود . ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك بل من البديهي أنه بالناحية الروحية في الإنسان ألصق . وإذا اتصل الأمر بالحدود التي يعمل الروح في نطاقها ، أو بتعبير آخر عندما ينتهي البحث إلى ضرورة استكشاف الوسائل التي يُسير بها الروح هذا الغلاف المنسوج من اللحم والدم يصبح البحث لا جدوى منه لأنه فوق الطاقة .

وشيء واحد هو الذي نستطيع استنتاجه من هذه الآثار ، أن بشراً ممتازاً كـ محمد لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس . فإذا كانت للشر (موجات) تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين — بتوّل الله لها — لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها . وبذلك يكون جهد المرسلين في متابعة الترقى لا في مقاومة التدلّي ، وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهّر منه ، فقد عاهاهم الله من لوثاته .

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله . قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » .

وفي حديث عائشة ، قال لها رسول الله : أغرّرت ؟ قالت : وما لمثل لا ينفار على مثلك ! فقال لها رسول الله : لقد جاءك شيطانك ! قالت : أو معي شيطان ؟ قال : ليس أحد إلا ومعه شيطان . قالت : ومعك ؟ قل : نعم ولكن أعانني الله عليه فأسلم « أي انتقاد وأذعن فلا يستطيع أن يهيجس بشر .

ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التي أضفاها الله على محمد فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنساني ومفاتيح الحياة الأرضية وقد أورد الخازن في تفسيره القصة الأولى — أيام الرضاعة — عند تفسيره لقول الله عز وجل : « ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك . . . »

وشرح الصدر الذي عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب . ويحسن أن تعرف شيئاً عن أساليب الحقيقة والمجاز التي تقع في السنة . عن عائشة أن بعض أزواج النبي قلن : يا رسول الله ، أينما أسرع بك لحوقاً ؟ قال : أطولكن يدا . فأخذن قصبة يذرعهما (!) فكانت سودة أطولهن يدا . فعلمنا بعد أنما كان طول يدها الصدقة . وكانت تحب الصدقة وكانت أسرعنا لحوقاً به . . .

آب « محمد » إلى مكة بعد أعوام طيبة قضاها في البادية ، آب ليجد أما كريمة حبست نفسها عليه ، وشيخاً مهيباً يلتبس في مرآة العزاء عن ابنه الذي خلى مكانه في شرح الشباب . وكان الأيام أبت له قراراً بين هذه الصدور الرقيقة فأخذت نحرمه منها واحداً بعد الآخر .

رأت « آمنة » وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره « يثرب » فخرجت من « مكة » قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو متر في الذهاب غير مثيلتها في الإياب . ومعها في هذه السفرة الشاقة ابنها « محمد » وخادمتها « أم أيمن » وعبد الله لم يمت في أرض غريبة ، لقد مات بين أخواله من بني النجار . قال ابن الأثير إن هاشما شخص في تجارة إلى الشام . فلما قدم المدينة نزل على عمرو بن لبيد الخزرجي ، فرأى ابنته « سلمى » فأعجبته ، فتزوجها ، وشرط أبوها ألا تلد ولداً إلا في أهلها . ثم مضى هاشم لوجهه . وعاد من الشام فبنى بها في أهلها ثم حملها إلى مكة فحملت . فلما أثقلت ردها إلى أهلها ومضى إلى الشام . مات « بغزة » . وولدت له « سلمى » عبد المطلب فسكن في المدينة سبع سنين . . .

وقد ظل محمد لدى أخواله قريبا من قبر أبيه نحو شهر . ثم قفل عائداً إلى مكة . وإذا بالمرض يلاحق أمه ويلج عليها في أوائل الطريق فماتت « بالأبواء » وتركته

وحيدا مع الخادم المشدوهة لحال طفل يفقد أباه وهو جنين ويفقد أمه وهو ابن
خمسة سنين .

إن المصاب الجديد نكأ الجروح القديمة مما جعل مشاعر الحنو في فؤاد
« عبد المطلب » تربو نحو الصبي الناشئ ، فكان لا يدعه لوحده المفروضة ، بل
يؤثر أن يصطحبه في مجالسه العامة . كان إذا جلس على فراشه يجوار الكعبة أدناه
منه في حين يجلس الأشياخ حوله .

وقد تأخرت سن عبد المطلب حتى قيل : توفي وله مائة وعشرون سنة إلا أنه
فارق الحياة وعمر « محمد » يناهز الثمانية . فرأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى
عمه أبي طالب .

ونهب أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه ، ضمه إلى ولده وقدمه عليهم ،
واختصه بفضل احترام وتقدير . وظل فوق أربعين سنة يُعز جانبه ويسط عليه حمايته
ويصادق ويخاصم من أجله .

ودرج محمد في بيت أبي طالب والسن تمضي به قدما إلى بواكير الإدراك والبصر
العميق بما حوله . فأصر على أن يشارك عمه هموم العيش — إذ كان أبو طالب على
كثرة أولاده قليل المال — فلما قرر أن يمضي على سنن آبائه في متابعة الرحيل إلى
الشام ابتغاء الاتجار والربح قرر أن يكون معه . وكان عمره نحو الثلاث عشرة سنة .

بجيرا الراهب

ولا نجد في السنن الصحاح أنباء تصف هذه الرحلة . إن الأسفار من أخصب
أبواب المعرفة ، وأعظمها أثرا . ومثل محمد في صفاء ذهنه وبقاء قلبه ، لا يعزب عنه وجه
العبرة فيما يرى . في حله أو ترحاله ، على أن من المقطوع به أنه لم يخرج لدراسة دين
أو فلسفة ، ولم يلق من يتحدث معه في ذلك . وقد روت كتب الأخبار بعض
خوارق ، ذكرت أنها وقعت له ، من ذلك التقاؤه بالراهب « بجيرا » الذي تفرس
فيه ورأى معالم النبوة في وجهه وبين كتفيه : فلما سأل أبا طالب : ما هذا الغلام
منك ؟ قال : ابني . قال : ما ينبغي أن يكون أبوه حيا ! قال : فإنه ابن أخي مات أبوه
وأمه حبلى به . قال : صدقت ، ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود .

وقد تكون هذه القصة صحيحة . فإن البشارة بنبيّ يجيء بعد عيسى موجودة في الكتاب المقدس عند النصارى . وهم منذ تكذيبهم برسالة محمد يرقبون هذا النبيّ المنتظر . ولن يجيء أبداً . . . لأنه جاء فعلاً . . . !!

وسواء صحت قصة « بحيرا » هذا أم بطلت فمن المقطوع به أنها لم تخلف بعدها أثراً ، فلا محمد تشوّف للنبوة أو استعد لها — لكلام الراهب — ولا أصحاب القافلة تذاكروا هذا الحديث أو أشاعوه . لقد طويت كأن لم تحدث مما يرجح استبعادها .

وقيل أيضاً : إن كوكبة من فرسان الروم أقبلت على « بحيرا » كأنها تبحث عن شيء فلما سألتها : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا لأن نبيا يخرج هذا الشهر . فلم يبق طريق إلا بُعث إليها ناس — القبض عليه (!) فجادلهم « بحيرا » حتى أقنعهم ببعث ما يطلبون . والمحققون على أن هذه الرواية موضوعة مضاهاة لما يذكره الإنجيليون من أن ناساً طلبوا المسيح عقب ولادته لقتله ، وهي عند المسيحيين مضاهاة لما عند الوثنيين من أن بوذا لما وضعته أمه العذراء (!) طلبه الأعداء ليقتلوه . . .

إن علماء السنة يهتمون بالأخبار الواردة — من ناحيتي المتن والسند — فإذا لم تجد علماً ثابتاً أو ظناً راجحاً لم يكثرثوا بها . وقد انضمت أساطير كثيرة إلى سير المرسلين . وعندما تعرض على القواعد المقررة في فن التحديث يظهر عوارها ويساغ اطراحها .

حياة الكدح

عاد محمد من هذه الرحلة ليستأنف مع عمه حياة الكدح ، فليس من شأن الرجال أن يقعدوا . ومن قبله كان المرسلون يأكلون من عمل أيديهم ، ويحترفون مهناً شتى ليعيشوا على كسبها . وقد صحّ أن محمد اشتغل صدر حياته برعى الغنم . وقال : كنت أراها على قرايط لأهل مكة . كما ثبت أن عدداً من الأنبياء اشتغل برعايتها ، أترى ذلك تعويداً لهم على سياسة العامة والرفق بالضعفاء والسهر على حمايتهم ؟

وقد تسأل : أنتقدح المعارف المتصلة بالكون وما وراءه ، والناس وما يفيضون فيه — أنتقدح حقائقها في نفوس المرسلين فجأة ، دون إعداد سابق أو هيئة حكيمة والجواب كلا . فالأنبياء — وإن لم يتعلموا بالطرق التي يتعلم بها أمثالنا — لهم

من سلامة فكرهم واستقامة نظرهم ما يجعلهم في طليعة العلماء وإن لم يتعلموا بما نعهد من أساليب .

ما العلم الذى ترقى به النفس ؟ أهو حفظ الدروس واستيعاب القواعد والقوانين ؟ إن هناك بيجاوات كثيرة تردد ما تسمع دون وعى . وقد نرى أطفالا صغارا يُلقون بإتقان وتمثيل خطباً دقيقة لأشهر الساسة والقادة .

فلا الأطفال — بما استُحفظوا من كلام الأئمة — أصبحوا رجالا ، ولا البيجاوات تحولت بشراً .

وقد تجد من يحفظ ، ويقفه ، ويجادل ويغلب ، ولكن العلم فى نفسه كعروق الذهب فى الصخور المهملة . لا يبعث على خير ولا يزجر عن شر . وقد شبه القرآن أحبار اليهود الذين يحملون التوراة ولا يتأدبون بها بالحجير « مثل الذين مُحمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

وهذه الطبائع التى تحمل العلم ولا تصلح به إنما تسيء إليه ولذلك يحسن الضن به عليها . وفى الأثر « واضع العلم عند غير أهله ككفلة الخنازير الجواهر واللؤلؤ والذهب » .

ثم هناك الخرافيون الذين يغالطون فى الحقائق أنفسهم كأن عقولهم ميزان ثقلت إحدى كفتيه — لغير سبب — فهو لا يضبط وزناً أبداً ، ينسبون للمستحيلات ويقبلونها . ويتجهمون للوقائع ويرفضونها .

وقد بلونا أناساً ظلوا يتعلمون قرابة عشرين سنة تعرض عليهم القضية فيخبطون فيها خبط عشواء . فإذا عرضت القضية نفسها على أى سليم الفطرة نقى العقل صدع فيها بالحق لأول وهلة . ومعنى ذلك أن هناك من تبذل فى إقامة عوجه العقل عشرين سنة حافلة بالبحث والدرس فتعجز عن الوصول به إلى مرتبة رجل أوقى رشده بأصل الحلقة .

ونحن موقنون من مطالعة سيرة محمد بأنه طراز رفيع من الفكر الصائب والنظر السديد . وأنه — قبل رعى الغنم وبعده ، وقبل احتراف التجارة وبعدها — كان يعيش يقظ القلب فى أعماء الصحراء ، صاحباً بين السكارى والغافلين .

وجو الجزيرة العربية يزيد خمول الخامل وحدة اليقظان ، كالشمع الذى ينمى الأشواك

والورود معا ، وقد كان محمد يستعين بصمته الطويل صمته الموصول بالليل والنهار صمته المطبق على الرمال الممتدة والعمران القليل كان يستعين بهذا الصمت على طول التأمل وإدمان الفكر واستكناه الحق . ودرجة الارتقاء النفسى التى بلغها من هذا النظر الدائم أرجح يقينا من حفظ لا فهم معه ، أو فهم لا أدب معه . ومثله فى احترام حقائق الكون والحياة أولى بالتقديم من أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها .

ولا شك أن القدر حاطه بما يحفظ عليه هذا الاتجاه الفذ . فعندما تتحرك نوازع النفس لاستغلال بعض متع الدنيا — وذلك من قبيل الصغائر التافهة — تتدخل العناية للحيلولة بينه وبين هذه الأمور .

روى ابن الأثير قال رسول الله : ما هممت بشئ مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك ، يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته . قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسر بها كما يسمر الشباب ! فقال : أفعل . فخرجت ، حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا ، فقلت : ما هذا ؟ . فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى ، فنمت . فما أيقظنى إلا حرّ الشمس . فعدت إلى صاحبي ، فسألنى ، فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ... ثم ما هممت بعده بسوء ...

إن مراتب التعليم المختلفة هى مراحل جهاد متصل تهذيب العقل وتقوية ملكاته ، وتصويب نظراته إلى الكون والحياة والأحياء ، فكل تعليم يقصر بأصحابه عن هذا الشأ ولا يؤبه له ، مهما وسم بالشهادات والإجازات ! وأحق منه بالحفاوة ، وأسبق منه إلى الغاية المشودة ، أن ينال المرء حظا وافرا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف . وقد أشار القرآن الكريم إلى نصيب « إبراهيم » من هذه الخصال عندما قال : « ولقد آتينا إبراهيم رُسده من قبلُ وكنّا به عالين . إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ »

ومحمد فى هذا المنهج كجده إبراهيم . إنه لم يتلق علما على راهب أو كاهن أو فيلسوف

من ظهوروا على عهده ولكنه بعقله الخصب وفطرته الصافية طالع صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات . فعاف ما سادها من خرافة ونآى عنها . ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم ، فما وجده حسنا شارك فيه بقدر ، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة ، يتابع النظر الدائم في ملكوت السموات والأرض . وذلك أجدى عليه من علوم هي بالجهل المركب أشبهه ، ومن مجتمع فقد الهداة من قرون فهو يضم ضللا لا جديدا إلى الضلال القديم كلما مرت ليلة وطلع صباح . . .

وقد رأى أن يشهد بعض الأعمال العامة التي اهتم بها قومه ، لأنه لم يجد أى حرج إذ يشارك فيها . ومن ذلك خوضه مع عمومته وقبيلته « حرب الفجار » ثم شهوده من بعد « حلف الفضول »

حرب الفجار

كانت حرب الفجار بالنسبة إلى قريش دفاعا عن قداسة الأشهر الحرم ، ومكانة أرض الحرم . وهذه الشعائر بقية مما احترمه العرب من دين إبراهيم . وكان احترامها مصدر نفع كبير لهم ، وضمانا لانتظام مصالحهم وهدوء عداواتهم . كان الرجل يلقي قاتل أبيه خلالها فيحجزه عن إدراك ثأره شعوره بهذه الحرمات .. وقد جاء الإسلام بعد فأقر هذه المكانة المتوارثة عن ديانة إبراهيم : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيهن أنفسكم » ...

ولكن أهل الجاهلية ما لبثوا أن ابتلوا بمن استباحها ، فظلموا أنفسهم بالقتال فيها ، وكانت حرب الفجار من آثار هذه الاستباحة الجائرة . وليس هنا تفصيل خبرها وقد ظلت أربعة أعوام ، كان عمر محمد في أثنائها بين الخمسة عشر والتسعة عشر ، قيل : قاتل فيها بنفسه . وقيل : بل أعان المقاتلين ...

حلف الفضول

أما حلف الفضول فهو دلالة على أن الحياة مهما اسودت صحائفها ، وكبحت ضرورها ، فلن تخلو من نفوس تهزها معاني النبيل ، وتستجيشها إلى النجدة والبر ...

في الجاهلية الغافلة نهض بعض رجال من أولى الخير ، وتواثقوا بينهم على إقرار العدالة وحرب المظالم ، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل في أرض الحرم ! .

قال ابن الأثير : ... ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف ، فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه . وكانوا بنى هاشم وبنى المطلب وبنى أسد ابن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة .. فتحالفوا وتعاقدوا ألا يجحدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ، حتى تردّ مظلمته . فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول فشاهده رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال حين أرسله الله تعالى : « لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت » .

إن بريق الفرح — بهذا الحلف — يظهر في ثنايا الكلمات التي عبر بها رسول الله عنه . فإن هذه الحمية للحق ضدّ أي ظالم مهما عزّ ، ومع أي مظلوم مهما هان . هي روح الإسلام الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر الواقف عند حدود الله . ووظيفة الإسلام أن يحارب البغى في سياسات الأمم وفي صلات الأفراد على سواء ...

وقيل في سبب الحلف : إن رجلاً من « زيد » أتى بتجارة إلى مكة ، فاشتراها العاصي بن وائل السهمي . ثم حبس حقها وأبى أن يدفعه ! فاستعدى عليه قبائل قريش والأحلاف فلم يكتروا له . فوقف الغريب المظلوم عند الكعبة وأنشد :

يا آل فهرٍ لمظلومٍ بضاعته بيطن مكة . نأى الدار والنفر !
ومُحْرَمٍ أشعثٍ لم يقصَّ عُمرته يالكرّجال - وبين الحجر والحجر - ؟
إن الحرامَ لَمَنْ تَمَّتْ كرامته ولا حرام بثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك . فاجتمع الذين ذكرهم ابن الأثير آنفاً . وذهبوا إلى العاصي بن وائل . واستخلصوا منه حق الزبيدي . بعد ما أبرموا حلف الفضول .

ويظهر أن العاصي هذا رجل مماطل سميج . فهو صاحب القصة كذلك مع خباب بن الارت . وكان خباب قينا ، فصنع سيفاً للعاصي وأتاه به لينقذه ثمنه . فقال له العاصي : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد . فقال له خباب : لا أكفر حتى يميّتك الله ثم تبعث . قال العاصي : وإني لميت ثم مبعوث ؟ قال : بلى . قال :

دعنى حتى أموت وأبعث . فسأونى مالا وولداً ، فأقضيك — حق السيف —
فزلت الآيات :

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ : لَأُوتِينَ مَالاً وَوَلَدًا ؟ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ
عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ؟ . كلا . سنكتبُ ما يقولُ ونمدُّ له من العذابِ مداً ونُرِثُهُ
ما يقولُ ويأتينا فرداً » .

وأمثال العاصى هذا فى ميدان التجارة والسياسة كثير . ومحمد أولى الناس
بخصومتهم . وأولى الناس بمحمد من أعان عليهم ووافق على حربهم .

قوة ونشاط

عند ما انتهت حرب الفجار وأبرم حلف الفضول كان محمد يستقبل المرحلة الثالثة
من عمره . وهذه الفترة وما قبلها هى عهد الشباب الحار ، والغرائز الفائرة ، والطامح
البعيد . ومحمد رجل قوى البدن على الهمة رفيع المكانة . وقد لوحظت طاقته الواسعة
حتى بعد هذه السن بنحو أربعين سنة . قال أبو هريرة : ما رأيت أحسن من رسول
الله ! كأن الشمس تجري فى وجهه ! وما رأيت أحدا أسرع فى مشيته من رسول الله !
لكأنما الأرض تطوى له ! كنا إذا مشينا معه نجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث ...
ومثل هذا الرجل يُقبل عليه الحياة لولم يُقبل هو عليها . وعلى من يُقبل الحياة
بعده ؟ على الواهنين والملكشين والمتشائمين ؟

لكن محمداً على ما يملك من وسائل المتاع ما أثرت عنه قط شهوة عارضة أو نزوة
خادشة . أو حكيت عنه مغامرة لنيل جاه أو اصطيد ثروة . بل على العكس بدأت
سيرته تومض فى أنحاء مكة بما امتاز به على أقرانه — إن صحت الإضافة — من خلال
عذبة ، وشمائل كريمة ، وفكر راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين ...

وليس شرف النفس أن تنتفى شهوة الإنسان إلى الحياة . أو توجد الشهوة
وتنتفى وسائل بلوغها . بل الشرف أن تكون قوة العفاف أربى من نوازع الهوى .
فإذا ظلت النفس فى حال سكون فلتعادل القوى السالبة والموجبة فيها . وقد تجد رجلاً
تافها هزيباً لا يخفى له طمع ولا تنحبس له شهوة لو قست غرائزه المنفلتة بغرائز غيره

المضبوطة ما بلغت عشر قوتها لكن هذه وجدت زماما من الرشد فكظم عليها .
وتلك لم تجد عقلا يردع ولا خلقا يعصم فثارت وتمردت . . .

وقد كانت رجولة محمد في القمة بيد أن قواه الروحية وصفاء النفس جعلت هذه
الرجولة تزدان بمحامد الأدب والاستقامة والقنوع . ثم إنه كان مُعافى من العقد
الكريهة التي تُزين للشباب تعشُّق العظمة عن طريق التظاهر والرياء . أو تطلب
الرياسة عن طريق المداينة واشتراء العواطف . فإذا انضم لهذا كرهه الشديد للإصنام
التي عكف عليها قومه ، وازدراؤه للأوهام والأهواء التي تسود الجزيرة وماوراءها .
وإدراكه أن الحق شيء آخر وراء هذه الخرافات الغالبة . . تبينا السر في استثنائه
للجبال والفضاء ، واستراحته إلى رعى الغنم في هذه الأنحاء القصية مكتفيا بالقليل
الذي يعود عليه من كسبها

أهذا زهد في المال ، أو إعراض عن الحياة الدنيا ؟ لا . إنما هو انشغال بالحقائق
العليا التي تصلح بها الحياة ويُسخَّر فيها المال . والرجال الكبار لاتشبعهم كنوز الذهب
والفضة إذا ظمئوا إلى الحق . ولا يريحهم أن يكونوا ملوك قومهم أو ملوك الحياة .
إذا رأوا المساهر الشائنة تسير بالحياة كلها إلى منحدر تسقط فيه أقدار الناس ،
وتتعري فيه الدنيا جمعاء من كل خير وير

كذلك استقبل محمد المرحلة الثالثة من عمره ، وهي المرحلة التي تعرف فيها
إلى زوجه الأولى « خديجة بنت خويلد » .

خديجة

و « خديجة » مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم . إن أصحاب
الرسالات يحملون قلوبا شديدة الحساسية . ويلقون غنبا بالغا من الواقع الذي يريدون
تغييره ، ويقاسون جهادا كبيرا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه . وهم أحوج
ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيتناس والترفيه ، بله الإدراك والمعونة !
وقد كانت خديجة سباقة إلى هذه الخصال وكان لها في حياة محمد أثر كريم .

قال ابن الأثير : « كانت — خديجة — امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر
الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه . فلما بلغها عن رسول الله صدق

الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره . ومعه غلامها ميسرة » .

وقد قبل محمد هذا العرض ورحل إلى الشام عاملاً في مال السيدة التي اختارته ، ويظهر أن التوفيق حالفه في هذه الرحلة ، أكثر من سابقها مع عمه أبي طالب فكان ربحها أجزل ، وسرّت خديجة بهذا الخير الذي أحرزته . ولكن إعجابها بالرجل الذي اختبرته كان أعمق .

إنها امرأة عريقة النسب ممدودة الثروة . وقد عرفت بالحزم والعقل . ومثلها مطمح لسادة قريش لولا أن السيدة كانت تحقر في كثير من الرجال أنهم طلاب مال لا طلاب نفوس . وأن أبصارهم تنو إليها بغية الإفادة من ثرائها وإن كان الزواج عنوان هذا الطمع ! لكنها عندما عرفت محمدا وجدت ضرباً آخر من الرجال . وجدت رجلاً لا تستهويه ولا تدنيه حاجة . ولعلها عندما حاسبت غيره في تجارتها وجدت الشح والاحتيايل . أما مع محمد فقد رأت رجلاً تقفه كرامته الفارعة موقف النبيل والتجاوز ، فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها ! لقد أدى ما عليه ثم انصرف راضياً مرضياً .

ووجدت خديجة ضالتها المنشودة . فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منمة . وهذه ذهبت إلى محمد فتفاحه أن يتزوج من خديجة ، فلم يبطئ في إعلان قبوله . ثم كلم أعمامه في ذلك فذهب أبو طالب وحمزة وغيره إلى عم خديجة عمرو بن أسد — إذ أن أباهما مات في حرب الفجار — وخطبوا إليه ابنة أخيه ، وساقوا إليها الصداق عشرين بكرة . ووقف أبو طالب يخطب في حفل الزواج قائلاً : إن محمدا لا يوزن به فتى من قريش إلا رجع به شرفاً ونبلاً ، فضلاً وعقلاً . وإن كان في المال قليلاً فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله في خديجة بنت خويلد رغبة . ولها فيه مثل ذلك . فكان جواب ولي خديجة — عمها عمرو — هو الفحل الذي لا يقدر أنفه ! وأنكحها منه ...

وقيل : إن العبارة الأخيرة جرت على لسان أبي سفيان عندما تزوج محمد رسول الله ابنته أم حبيبة . وكانت الحرب بينهما على أشدها . فاعتذر أبو سفيان عن ذلك بأن محمداً الرجل من الكفاءة بحيث يعتبر الإصهار إليه منقبة ! والخصومة القائمة

بينهما لا تنزل بقدر محمد أبداً ، ونكاحه لبنت أبي سفيان لا يشين أباً سفيان أبداً ،
وإن كان يومئذ اللدّ عدو له ...

كان محمد في الخامسة والعشرين عندما تزوج خديجة . وكانت هي قد ناهزت
الأربعين . وظل هذا الزواج قائماً حتى ماتت خديجة عن خمسة وستين عاماً . كانت
طوالها محلّ الكرامة والإعزاز . وقد أنجب رسول الله أولاده جميعاً منها —
ما عدا إبراهيم .

ولدت له أولاً القاسم ، وبه كان يكنى بعد النبوة . ثم زينب ورقية وأم كلثوم
وفاطمة وعبد الله . وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر . ومات القاسم بعد أن بلغ
سنّاً تمكنه من ركوب الدابة والسير على النجبية . ومات عبد الله وهو طفل . ومات
سائر بناته في حياته . إلا فاطمة فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به ...

كان قرآن محمد بخديجة خيراً له ولها . ولا شك أن هذا البيت الجديد قد اصطبغ
بروح رب البيت ، روح التطهر من أدران الجاهلية والترفع عن تقديس الأوثان .
وقد استأنف محمد ما ألفه قبل زواجه من حياة التأمل والعزلة . وهجر ما كان عليه العرب
في أحفالمهم الصاخبة من إدمان ولغو وقمار ونفار . وإن لم يقطع ذلك عن إدارة تجارته
وتدبير معاشه والضرب في الأرض والمشى في الأسواق . إن حياة الرجل العاقل
وسط جماعة طائشة تقتضى ضرباً من الحذر والروية ، وخصوصاً إذا كان الرجل
على خلق عظيم يتقاضاه لين الجانب وبسط الوجه .

ولم يكن ثمة ما يقلق في هذه الزيجة الموفقة إلا ألم خديجة لهلاك الذكور من بنينا .
مع ما للذكران من منزلة خاصة في أمة كانت تتد البنات وتسود وجوه آبائهنّ عندما
يُبشرون بهنّ !!

والغريب أن العرب بعد البعثة كانوا يُعيرون محمداً بهذا ، ويعلمون ارتقابهم
لانقطاع أثره وانتهاء ذكره . فعن ابن عباس ، أن قريشاً تواصلت بينها بالتمادى
في الغي والكفر . وقالت : انذى نحن عليه أحق مما عليه هذا الصنبور المنبتر ؟ —
والصنبور النخلة التي اندق أصلها — يعنون أن محمداً إذا مات لم يرثه عقب ، ولم يحمل

رسالته أحد « أم يقولون : شاعرٌ ترتبصُّ به رَبِّبَ المنونِ ؟ قل : تَرَبَّصُوا . فإنى معكم من التَّربُّصين » !!

ومحمد ورسالته فوق هذه الأمانى الصغيرة . إلا أن الأسى كان يغزو قلب الوالد الجليل وهو يودع أبنائه الثرى ، فيجدُّ الشكل مارسب في أعماقه من آلام اليتيم . إن غصنه تشبث بالحياة ، فاستطاع البقاء والنماء برغم فقدانه أبويه . وها هو ذا يرى أغصانه المنبسقة عنه تَدَوَّى مع رغبته العميقة ورغبة شريكته حياته في أن يراها مزهرة مثمرة . وكأن الله أراد أن يجعل الرقة الحزينة جزءاً من كيانه ! فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا ينجحون إلى الجبروت إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة والآثرة ، وعاشت في أفراح لا يخامرها كدر . أما الرجل الذى خبر الآلام فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين ومداواة المجروحين

الكعبة

ومن بقايا ملة إبراهيم التى أجمع العرب فى جاهليتهم على احترامها « الكعبة » وهى أشبه بغرفة كبيرة مشيدة من أحجار قوية ، يعتمد سقفها من الداخل على أعمدة من الخشب الثمين . وأول من قام فى بنائها أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل والغرض من بنائها أن تكون معبداً لله ، ومسجداً يذكر فيه اسمه وحده . فإن إبراهيم لقى العناء الأليم فى حرب الأصنام وهدم المعابد التى تنصب فيها . ثم ألهمه الله أن يبنى هذا البيت ليكون أساساً للتوحيد وركناً ، ومثابة للناس وأمناً . ومن البديهي أنه لا يسع القصاد جميعاً فألحق ماحوله به وصار حرماً مقدساً

ومعنى ذلك أن الكعبة نفسها حجارة لا تضر ولا تنفع ، وأن الحرمة التى اكتسبتها هى من الذكريات والمعانى التى حفت بها . ولذلك أكد رسول الله أن تأمين الأعراس والأموال والدماء أقدس عند الله من هذه الكعبة ، وأعظم حرمة وأكبر حقاً ومن الوثنية التى يعادىها الإسلام إلى آخر الدهر الظنَّ بأن الكعبة أو شيئاً منها له أثر من نفع أو ضرر .

وأنت خبير بأن الرؤساء والقادة والجنود عندما يحيون أعلام بلادهم ويتفانون دونها فليس هذا عبادة لقطع معينة من القماش إنما هو تقديس لمعان معينة ارتبطت بها

ومن الأمور التي يسهل فهمها أن تكون لأول مسجد في الأرض مكانة تاريخية خاصة . وأن يكون قبلة لما يستجدُّ بعده من مساجد .

أما الوجهة في كل صلاة والمقصود في كل خشوع فهو الله وحده .

عن أبي ذر سألت رسول الله عن أول مسجد وضع في الأرض ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاماً . ثم الأرض لك مسجد . فحيثما أدركتك الصلاة فصل ، فإن الفضل فيه .

وقد تعرضت الكعبة — باعتبارها أثراً قديماً — للعواذي التي أوهت بنيانها وصدعت جدرانها . وقبل البعثة بسنوات قلائل جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام فأوشكت الكعبة منه على الانهيار فلم تر قريش بدّاً من أن تجدد بناء الكعبة حرصاً على مكانتها . وقد اشترك سادة قريش ورجالها الكبار في أعمال التجديد ونقل الأحجار بعدما هدموا الأتقاض الواهية وشرعوا يعيدونها كما كانت

وبناء رفع إبراهيم وإسماعيل من قواعده قبل قرون سحيقة لايوكل أمره لصغار الفعلة ، فلا غرو إذا أقبل عليه الشيوخ وأهل النهى والصدارة ، ومن بينهم محمد وأعمامه ...

عن عمرو بن دينار سمعت جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله والعباس ينقلان الحجارة . فقال العباس للنبي : اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة . ففعل ، — كان ذلك قبل أن يبعث — فخرّ إلى الأرض ، فطمحت عيناه إلى السماء . فقال : إزارى إزارى ، فشدّ عليه . فما روى بعد عرياناً ...

وتنافست القبائل في هذا المضمار . كلٌّ يبغى الصدارة فيه والذهاب بفخره ، حتى كاد هذا السباق يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم . واستفحل الشر بين المشتغلين بالبناء عندما بدأوا يستعدون لوضع الحجر الأسود في مكانه من أركان الكعبة . لولا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي اقترح على المتطاحنين أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل من باب الصفا . وشاء الله أن يكون ذلك محمداً .. فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكماً ...

وطلب محمد ثوباً ، فوضع الحجر وسطه ، ثم نادى رؤساء القبائل المتنازعين ،

فأمسكوا جميعاً بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة ، فحمله محمد بيديه ثم وضعه مكانه العتيق .

وهذا حل خفيف رضى به القوم . ومن قبل كانت رؤيتهم لمحمد مثار تيمنهم واطمئنانهم . وهذا يدل على سناء المنزلة التي بلغها فيهم .

ومع جهد قریش في بناء الكعبة ، فقد عجزت عن إبلاغها قواعد إبراهيم . ولكن رسول الله بعد أن استقر له الأمر في الجزيرة لم يجد ضرورة لتجديد زيادة بها . وأثر تركها على ما انتهت إليه . عن عائشة قالت : قال لى النبي : ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ قلت : يارسول الله ، ألا تردّها إلى قواعد إبراهيم ؟ فقال : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت ! قال ابن عمر : لأن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ، ما أرى أن رسول الله ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم . قال العلماء : والمراد بقول الرسول الآنف قرب العهد بالجاهلية . وضعف استمکان الإيمان . مما يجعل العرب ينفرون من هدم الكعبة وتغيير هيئتها .

ولو كانت إعادة الكعبة كما بناها إبراهيم فريضة ما تركها رسول الله . ولكن الأمر أخف من أن تثار لأجله مشا كل عويصة .

باحثون عن الحق

قلنا : إن الوثنية ترين باطلها بطلاء من الحق ليسهل على النفوس ازدراد ما فيها من مرارة . فهي ترغم الإيمان بإله خلق السموات والأرض . وفي الوقت نفسه تشرك معه آلهة أخرى هي مزدلف إليه ووسيلة . ولما كان خالق السموات والأرض بعيداً عن مرآى الأعين فقد أنس العباد المشركون بالآلهة القريبة من أيديهم والتي يترددون عليها صباحاً ومساءً . حتى صارت صلّتهم بها أحكم من الصلة بالإله الأصيل . وأصبح ذكر هذا الإله — المتوسّل إليه بغيره — لا يرد إلا في معرض الجدال والاعتذار : « ولئن سألتهم : من خلقهم ؟ ليقولنّ : الله . فأنّى يؤفكون ؟ وقيل : ياربّ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، فاصفح عنهم . وقل : سلامٌ . فسوف يعلمون » .

غير أن التعصب لهذا السخف جاوز الحدود . فأما العامة فهم بهم ، أحلاس

ما توارثوا ، فقدوا نعمة العقل الحرّ ، بل العقل المدرك . وعاشوا يهرفون بما لا يعرفون .
وأما الذين أوتوا حظاً من التفكير ، فإن تفكيرهم يرتطم بمحدود شهواتهم ، وربما
كتموا ما عرفوا ، بل ربما حاربوا ما عرفوا . وقليل من الناس من يتجرأ على التقاليد
المستحكمة ، ويجهز بالحق . وأقل من ذلك من يعيش له ويضحى في سبيله .

وقد وجد قبل البعثة من نظر إلى وثنية العرب نظرة استهزاء . ومن عرف أن
قومه يلتقون على أباطيل مقتراة . واسكنه لم يجد الطريق أو الطاقة على كفهم .

أخرج البخاري أن ابن عمر حدث عن رسول الله أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل
بأسفل « بلدح » — وذلك قبل أن ينزل الوحي على النبي — فقدم إليه رسول الله
سُفْرَةً فيها لحم . فأبى أن يأكل منها . ثم قال زيد : إني لا آكل مما تدبجون^(١)
على أنصابكم ، ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه . وكان يعيب على قريش ذبائحهم .
ويقول : الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء الماء ، وأنبت لها من الأرض الكلاء .
وأتم تدبجونها على غير اسم الله — إنكاراً لذلك —

وفي رواية أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه .
فلقي عالماً من اليهود . فسأله عن دينهم . وقال : لعل أن أدين دينكم ! فقال : لا تكون
على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله !! قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ،
ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيعه !!.. فهل تدلني على غيره ؟ . فقال :
ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم . لم يكن
يهودياً ولا نصرانياً . ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد ، فلقي عالماً من علماء النصارى .
فذكر له مثل ذلك ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله !
قال : ما أفر إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله شيئاً أبداً . وأنا أستطيع !!..
فهل تدلني على غيره . فقال : لا أعلمه إلا أن تكون حنيفاً . قال : وما الحنيف ؟ قال :
دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله . فلما رأى زيد قوله
في إبراهيم خرج . فلما برز رفع يديه . فقال : اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم ..

(١) توهم زيد أن اللحم المقدم إليه من جنس ما حرم الله . ومن اللقطة به أن بيت محمد
لا يطعم ذبائح الأصنام ، واسكن زيدا أراد الاستيثاق لنفسه والإعلان عن مذهبه . وقد حفظ
محمد له ذلك وسرته به .

وهذا الحديث يبين مقدار الحيرة التي سادت الدنيا . وغطت بضبابها الكثيف على الأديان الظاهرة . اليهود يشعرون بأنهم مطاردون في الأرض منبذون من أقطارها . فعلى الداخل في دينهم أن يحمل وزراً من المقت المكتوب عليهم .

والنصارى وقع بينهم شقاق رهيب في طبيعة المسيح ، ووضع أمه ، من الإله الكبير ، وقد أثار هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة ، وقسمهم فرقا يلعن بعضها بعضاً .

وكان نصارى الشام الذين سألهم زيد يعاقبة يخالفون المذهب الرسمى لكنيسة الرومان . فلا غرابة إذا أشعروا زيدا بما يقع عليه من عذاب لو دخل في دينهم أو لعل هذه اللعنة المرهوبة هي تبعات الخطيئة التي اقترفها آدم واستحقها من بعده بنوه كما يدعى ذلك النصارى وهم يبررون صلب المسيح . ومن حق زيد أن يدع هؤلاء وأولئك ، ويرجع إلى دين إبراهيم يبحث عن أصوله وفروعه .

وأخرج البخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ، والله ، ما منكم على دين إبراهيم غيرى . وكان يحيى الموءودة . يقول للرجل — إذا أراد أن يقتل ابنته : أنا أ كفيك مؤنتها ، فيأخذها . فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيك مؤنتها .

إن زيدا واحداً من المفكرين القلائل الذين سخطوا ما عليه الجاهلية من نكر . وإنه ليشكر على تحريره الحق . ولا يُغمط هو ولا غيره أقدارهم بين قومهم . لكن القدر كان يتخير رجلاً يصير الحق ويملك من الطاقة ما يدفعه به إلى آفاق العالمين . في وجه مقاومة تسترخص النفس والنفيس للإبقاء على الضلال والإمساك ببليله البارد الثقيل . .

كان القدر يعد لهذه الرسالة الضخمة رجلها الضخم . والعظام كفؤها العطاء !

في غار حراء

أخذت سن محمد تصمد نحو الأربعين . وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه فأمست نظره إليهم نظرة عالم الفلك — في عصرنا — إلى

جماعة يؤمنون بأن الأرض محمولة على قرن ثور ، أو نظرة عالم الذرة إلى جماعة يتراشقون بالحجارة إذا تحاربوا ، ويتنقلون بالطايا إذا سافروا . .

ذاك من الناحية الفكرية . أما من الناحية النفسية فإن الإلحاد الذى شاع فى الجاهلية . وجعل أهلها يُقسمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . هذا الإلحاد المعرق الطامس غزا نفوس الأخيار بالقلق البالغ . إلى أين تصير هذه القافلة الحائرة ؟ لأن كان الوجود أولاً وآخرأ هذه الأعمار المستنفدة على ظهر الأرض إن الفناء خير وأجدى !!
أما من بصيص نور خلال هذا الظلام الخيم ؟

وكان محمد يهجر مكة كل عام ليقضى شهر رمضان فى غار حراء . وهو غار على مسافة بضعة أميال من القرية الصحابة ، فى رأس جبل من هذه الجبال المشرفة على مكة والتي ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل ، وليبدأ السكون الشامل المستغرق . فى هذه القمة السامقة المنزوية كان محمد يأخذ زاد الليالى الطوال ثم ينقطع عن العالمين متجهاً بفؤاده المشوق إلى رب العالمين !

فى هذا الغار المهيب المحجَّب كانت نفس كبيرة تُطلُّ من عليائها على ما توج به الدنيا من فتن ومغارم واعتداء وانكسار ، ثم تتلوى حسرة وحيرة لأنها لا تدرى من ذلك مخرجاً ، ولا تعرف له علاجاً !!

فى هذا الغار النائي كانت عين نفاذة محصية تستعرض تراث الهداة الأولين من رسل الله ، فتجده كلنجم المعتم لا يُستخلص منه المعدن النفيس إلا بعد جهد جهيد ، وقد يختاط، الترب بالتبر فما يستطيع بشر فصله عنه . . .

فى غار حراء كان محمد يتعبد ، ويصُقل قلبه ، وينقى روحه ، ويقترب من الحق جهده ويلتعد عن الباطل وسعه . حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية ، انعكست فيها أشعة الغيوب على صفحته الملوَّنة ، فأمسى لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح .
فى هذا الغار اتصل محمد بالملأ الأعلى .

ومن قبله شهد بطن الصحراء أخا لـ محمد يخرج من مصر فاراً مستوحشاً . ويحتاز القفار متمسكاً بالأمن والسكينة والهدى ، لنفسه وقومه . فبرقت له من شاطئ الوادى الأيمن نار مؤنسة . فلما تيممها إذا بالدعاء الأقدس يغمر مسامعه ويتخلل مشاعره :
« يا موسى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى . وأقم الصلاة لذكري » .

إن شعلة من هذه النار اجتازت القرون لتتقد مرة أخرى في جوانب الغار الذى حوى رجلاً يتحنن ويتطهر نائياً بجسمه وروحه عن أرجاس الجاهلية ومساوئها . لكن الشعلة لم تكن ناراً تستدرج الناظر بل كانت نوراً ينبسط بين يدي وحى مبارك يسطع على القلب العانى ، بالإلهام والهداية ، والتثبيت والعناية ، وإذا بمحمد يصغى فى دهشة وانبهار إلى صوت الملك يقول له :

اقرأ . فيجيب مستفسراً . ما أنا بقارىء ويتكرر الطلب والرد لتنساب بعده الآيات الأولى من القرآن العزيز : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

ورقة بن نوفل

إن محمداً بشر مثلنا . لكن الوجود لا يعرف تفاوتاً بين أفراد جنس واحد كما يعرف ذلك فى جنس الإنسان . إن بعضهم أرقى من الأفلاك الزاهرة ! وبعضهم الآخر لا يساوى بعرة . . . وإن كان الكل بشراً !!

وذاك التفاوت واقع بين من لم يؤيدوا بوحي . فكيف إذا اصططفى إنسان ما . وزيدت أطوار كماله المعتاد طوراً آخر تومض فيه أشعة التسديد والتوفيق والإرشاد والإمداد ؟؟

إن الوحي روح يفد على المختارين بحياة جديدة ، وهمة جديدة ورسالة جديدة . « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . أَنْ أَنْذِرُوا : أَنَّ لَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » . . .

إن الجنين بعد نفخ الروح فيه ينشئه الله خلقاً آخر ، يغير الأطوار الستة الأولى التى مرّ بها ، سلالة الطين ، فالنطقة ، فالعلقة ، فالضغة ، فالعظام ، فالجسم المكسو باللحم . . . !!

والأنبياء بعد اتصال الوحي بهم وسريان روحه الجديدة فى أرواحهم يتحولون بشراً آخرين ، لا يداينهم غيرهم أبداً فى مجادة وإشراق .

وهذا التغيّر الملحوظ سر تذكير الله لمحمد بالقدرة التى خلقت الإنسان من علق ، إن القدرة التى خلقت هذا الإنسان العجيب من علقه طفيلية . هى التى ستنساق

بنعمة الله إلى جعل محمد بشراً رسولاً يقرأ بعد ما كان أمياً . « وكذلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا . مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ . وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا . وَإِنَّكَ لَمَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . »

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدى به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، فكان يحلو بغار حراء يتحنث فيه — وهو التعمد — الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق الخ . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم — علم الإنسان ما لم يعلم . »

فرجع بها رسول الله ترجف بوادره ! حتى دخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوتني . زملوني . فرملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة : أي خديجة . مالي ؟ وأخبرها الخبر ! ثم قال : لقد خشيت على نفسي . . .

قالت له خديجة : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل — وهو ابن عم خديجة — وكان امرأ تنصّر في الجاهلية . وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمى . فقالت له خديجة : أي ابن عم اسمع من ابن أخيك ! فقال له ورقة : يا ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى . يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله : أو أخرجني هم ؟

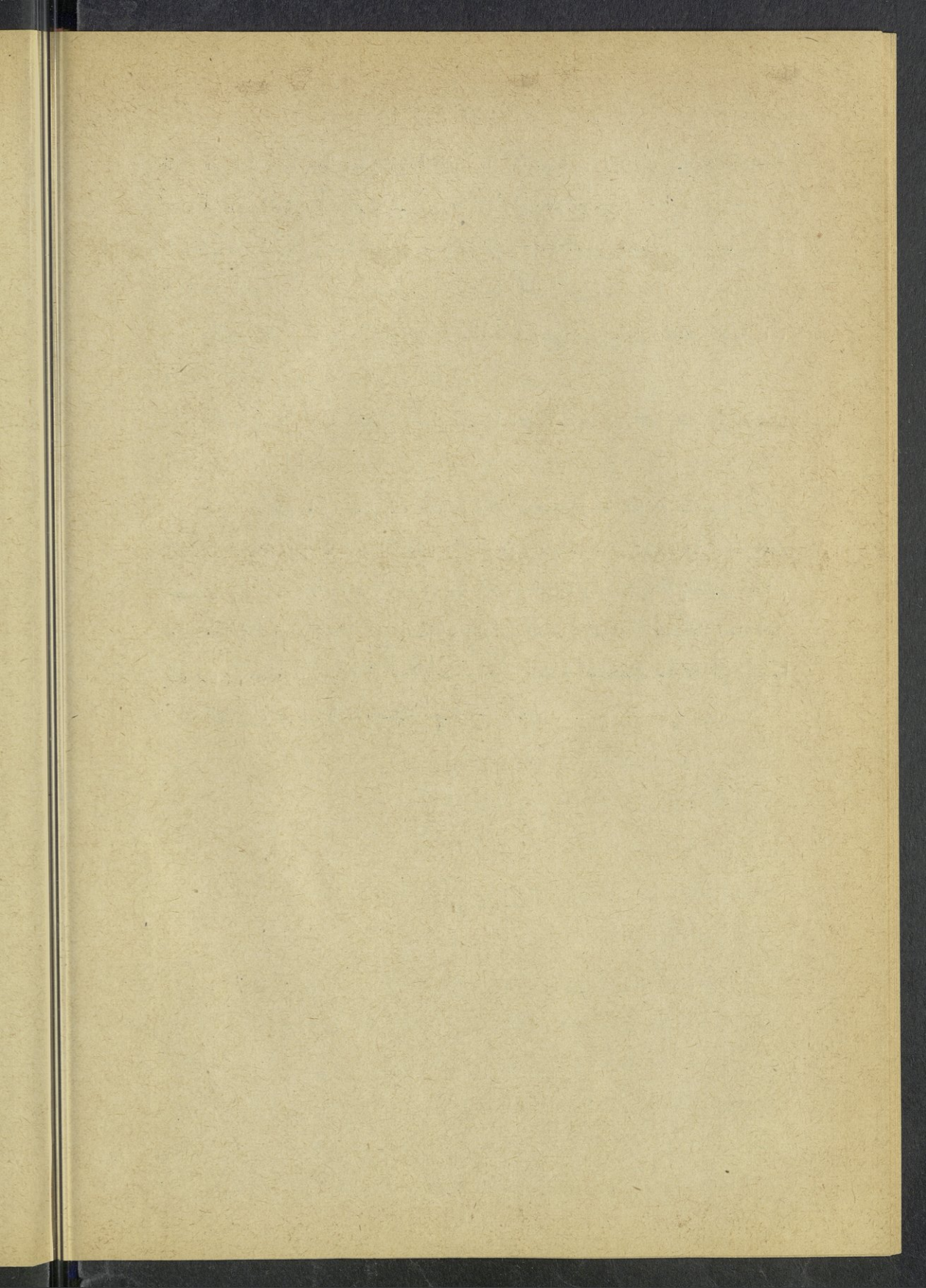
قال : نعم ! لم يأت رجل قط يمثل ما جيئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك حيّاً
أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي .

لَكُنَّ الأربعين عاماً السابقة يوم واحد ، وبدء الوحي صبيحة يوم جديد !
إن العقل الجوّاب الباحث المستفسر أخذ يشيم أنوار الحق .

والصدر المحرج الثقيل بالتشاؤم والارتباك أخذ يحس برد اليقين وفسحة الأمل ...
والثقل الطارئة بعيدة المدى . إنها النبوة .

ألا ما أجلّ هذا الفضل المقبل . وما أعظم ما يواجه محمداً فيه من شئون
وشجون ... !!

لذلك سرعان ما تراجعت إليه نفسه . وكان موقف زوجه خديجة منه من أشرف
المواقف التى تحمد لامرأة فى الأولين والآخرين . طمأنته حين قلق ، وأراحته حين
جهد . وذكرته بما فيه من فضائل مؤكدة له أن الأبرار أمثاله لا يخذلون أبداً .
وأن الله إذا طبع رجلاً على المكارم الجزلة والمناقب السمحة فلكيما يجعله أهل
إعزازه وإحسانه . وبهذا رأى الراجح والقلب الصالح استحقت خديجة أن يُحييها
رب العالمين ، فيرسل إليها بالسلام مع الروح الأمين ...



(٣)

جَهَادُ الدَّعْوَةِ.

تقلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة . وعرف محمد معرفة اليقين أنه
أضحى نبياً لله الكبير المتعال . وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء . . !
إلا أن الروعة التي انتابته من هذه الصلة بين إنسان وملك تركت في نفسه أثراً
من الجهد ، كأنما كان يعالج عملاً مرهقاً صعباً . ولا عجب فقد ظل يعاني من التنزيل
شدة أمداً طويلاً . وشاء الله أن يفتقر الوحي بعد ابتدائه على النجو الذي أسلفنا حتى
يكون تشوُّف الرسول وارتقابه لمحيطه سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود . ومع ذلك
فإن الطاقة البشرية ناءت أمام وطأته . . .

جاء جبريل للمرة الثانية ، قال جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله يحدث
عن فترة الوحي فقال لي في حديثه . فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت
رأسي . فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض .
ففزعته منه حتى هويت إلى الأرض . فجئت إلى أهلي ، فقلت : زملوني زملوني ،
فدثروني . . . فأُنزل الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ .
وَتِيبَا بِكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . . . » .

كانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة إيداناً للرسول بأن الماضي قد انتهى بمنامه ،
وهدوئه وسلامه ، وأنه أمام عمل جديد يستدعي اليقظة والتشهير والإنذار والإعذار
فليحمل الرسالة وليواجه الناس . وليأنس بالوحي وليتقو على عنائه ، فإنه مصدر
رسالته ومدد دعوته .

والوحي إلهام ينضج على القلب بمراد الله في صورة واضحة لا تحتمل الريبة .
وله مراتب شتى بعضها أيسر من بعض . فعن عمر : « كان رسول الله إذا نزل عليه
الوحي ، يسمع عند وجهه كدوى النحل » .

وكان أحيانا يأتي في مثل صلصلة الجرس — وكان أشده عليه — فيلتبس به
الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد . وحتى أن راحلته
لتبرك به على الأرض إذا كان راكبها . ولقد جاءه الوحي مرة كذلك ونغذه إلى
نخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترثها وقد يأتي أيسر من ذلك وأخف .
وربما قيل : لماذا كانت أوائل الوحي بهذه المثابة من الشدة . ولماذا لم يبدأ
نزول القرآن إلهاماً في منام . أو إلهاماً في يقظة على نحو ما قال الرسول : « إن روح

القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب . . . » . أو ليس هذا أبعد عن دواعي الفزع والإعياض ؟
والجواب أن نزول القرآن اتخذ هذه الطريقة أول الأمر . ونزل الملك به في هذا المظهر^(١) . قطعاً لكل شبهة في أنه ألفاظاً ومعاني من عند الله . وأن محمداً حمّله تحميلاً بعد أن اصطفى له واختصَّ به . فهو ليس افتعال عابد منقطع تخيلاً نخال ، ولا صناعة فيلسوف ماهر يجيد سوق الأدلة وتنميق المقال ، إنما هو كلام الأحد الحق الكبير المتعال . « إن هو إلا وَحْيٌ يُوحَى . علّمهُ شديد القوى . ذو مِرَّةٍ ، فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دَنَا فَتَدَلَّى . فكان قابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ؟ »

إلام يدعو الناس ؟

شرع محمد يكلم الناس في الإسلام ويعرض عليهم الأخذ بهذا الدين الذي أرسله الله به .

وسور القرآن الذي نزل بمكة تبين العقائد والأعمال التي كلف الله بها عباده وأوصى رسوله أن يتعهد قيامها ونمائها . وأول ذلك :

⑦ — الوحدانية المطلقة . فالإنسان ليس عبداً لكائن في الأرض أو عنصر في السماء ، لأن كل شيء في السماء والأرض عبد لله ، يعنو لجلاله ويدل في ساحته ويخضع لحكمه . وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء . ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه رأساً غير مستصحب معه خلقاً آخر كبير أو حقير . وحق على كل امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زلفى إلى الله ، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المحدود إن كانوا بشراً أو حجارة أو ماسوى ذلك ويجب أن تبني جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة . ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التي يعبدها العرب أصبحت لا تزيد عن الحجارة

(١) إن اتصال الأبدان بعالم القلب يرهق الطبيعة البشرية . واعتبر لذلك بما يعانیه الوسطاء مثلاً في حالات التنويم المغناطيسى .

التي تبنى بها البيوت أو ترصف بها الطرق . وأن البشر الذين ألّهوا في ديانات أخرى صُحِّحَتْ أوضاعهم . فعرفوا على أنهم عبيد لمن خلقهم ورزقهم يتقدمون عنده بالطاعة ويتأخرون بالعصية . ولا شأن لهم في خلق أو رزق . . .

* ٢ — الدار الآخرة . فهناك يوم لا شك في قدومه ، يلقى الناس فيه ربهم فيحاسبهم حساباً دقيقاً على حياتهم الأولى . « فمن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يره . ومن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ شراً يره » . فإما نعيم ضاحك يمرح فيه الأخيار ويستريحون وإما جحيم مشؤمة يشق فيها الأشرار ويكتئبون . . .

والنظر إلى الدار الآخرة في كل عمل يأتيه المرء أو يذره من أصول السلوك الصحيح في الإسلام . فكما أن راكب القطار موقن بأنه سينزل في محط قادم فكذلك المسلم يعلم أن الأيام الجارية به ستقف حتماً لترده إلى مولاه حيث يلقى جزاء العمر ، ويخني ما غرست يداه . . .

٣ — تزكية النفس . وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل ، وترك أمور أخرى حذر من مغبتها :

« قل : تعالوا آتِلْ ما حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ . أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إِملاق نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطنَ ولا تقتلوا النفسَ التي حَرَّمَ الله إلا بالحق . ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغَ أشدهُ وأوفوا الكيلَ والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قرْبى وبِعْهَدِ الله أوفوا . ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون وأن هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعُوهُ . ولا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بكم عن سَبِيلِهِ ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون » .

قال أكرم بن صيفي : إن ما جاء به محمد لو لم يكن ديناً لكان في خلق الناس حسناً .

٤ — حفظ كيان الجماعة المسلمة باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون . وذلك يقتضي نصره المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف . وفي سورة

« المدثر » وهي أول سورة أُمِرَ الرسول فيها بالبلاغ تقرأ قول الله تبارك وتعالى « كل نفس بما كسبت رهينة » . إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون ، عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكفنا نخوض مع الخائضين . وكُنَّا نكذبُ بيوم الدين . حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين » .

وكان أبو بكر لا يرى مستضعفا يعذب من المسلمين إلا بذل جهده وماله في سبيل فكَّ إيساره وإنقاذه مما به . وذلك حق الفرد على الجماعة .

الرعيـل الأول

أخذت الدعاية للإسلام تنتشر في مكة وتعمل عملها في أصحاب الأئمة الكبيرة ، فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولى ويخفون إلى اعتناق الدين الجديد . وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التي استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الخصبة « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .
كان أصحاب العقائد يتجمعون في تودة حول عقائدهم ، ويلتفون في حب وإعجاب حول إمامهم ويشرحون في حذر أصول فكرتهم .

والإيمان قوة ساحرة إذا استمكنك من شعاب القلب وتغلغل في أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكناً . وقد رأينا شباباً وشيوخاً يلتقون عند فكرة من الفكر ، ويحلونها من أنفسهم محل العقائد الراسخة . ومع أنها فكر مادية بحتة إلا أنهم يجعلون من حياتهم وقود حركتها ، ويتحملون أقيح الأذى في سبيل نصرتها .
وفي السجون الآن رجال تخرجوا من جامعات الغرب يقضون شطراً من أعمارهم مع القتلة وتجار المخدرات . ويرون ذلك بعض الجهد الواجب لإنجاح مبادئهم ودفعها إلى الأمام . فكيف إذا كان الإيمان الذي ظهر في صدر الإسلام إيماناً بالله رب السموات والأرض وإيماناً بالدار الآخرة حيث ينفلت الإنسان من هذه الدنيا لتستقبله في جوار الله الحدايق الغناء والقصور الزهر من تحتها الأنهار الجارية والنعيم المقيم ، إن الرعيـل الأول أخذ يتكوّن ويتزايد على مر الأيام . . .

ومن الطبيعي أن يعرض الرسول أولاً الإسلام على الصق الناس به من آل بيته

وأصدقائه . وهؤلاء لم تخالجهم ريبة قط في عظمة محمد وجلال نفسه وصدق خبره ، فلا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتباعه .

آمنت به زوجته خديجة ومولاه زيد بن ثابت ، وابن عمه علي بن أبي طالب — وكان صبيا يحيا في كفالة الرسول — وصديقه الحميم أبو بكر ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام فأدخل فيه أهل ثقته ومودته ، عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص . وآمن القس ورقة بن نوفل وقد روى أن الرسول رآه في المنام — بعد مماته — في هيئة حسنة تشهد بكرامته عند الله . وأسلم الزبير ابن العوام وأبو ذر الغفاري وعمر بن عبد المنذر وسعيد بن العاص وفشا الإسلام في مكة بين من نور الله قلوبهم . مع إن الإعلام به كان يقع في استخفاء ، ودون مظاهرة من التحمس المكشوف أو التحدي السافر . . .

وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما . ولعلها حسبت محمدا أحد أولئك الديانين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها كما صنع أمية بن الصلت وقس بن ساعدة وعمر بن نفيل وأشباههم . إلا أنها توجست خيفة من ذبوع خبره وامتداد أثره وأخذت تقرب على الأيام مصيره ودعوته .

واستمر هذا الطور السري للدعوة ثلاث سنين . ثم نزل الوحي يكلف الرسول بمعالجة قومه ومجاهدة باطلهم ومهاجمة أصنامهم جهارا . . .

إظهار الدعوة

قال ابن عباس : لما نزلت الآية « وأنذر عشيرتك الأقربين » صعد النبي على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي — لبطن قريش — حتى اجتمعوا ، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر : ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبي : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدق ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ! فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى : تبأ يدا أبي لهب وتب . . . »

وعن أبي هريرة قام رسول الله حين أنزل الله عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين »

فقال : « يا معشر قريش ، اشترؤا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا بنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا صفية عمه رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت رسول الله سلبني ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ . فقد فاصل الرسول قومه على دعوته ، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم . وأن عصية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله .

لقد كان محمد كبير المنزلة في بلده ، مرموقاً بالثقة والمحبة ، وها هو ذا يواجه مكة بما تكره . ويتعرض لخصام السفهاء والكبراء . وأول قوم يغامر بخسران مودتهم هم عشيرته الأقربون . لكن هذه الآلام تهون في سبيل الحق الذى شرح الله به صدره . فلا عليه أن يبيت بعد هذا الإنذار . ومكة تموج بالغربة والاستنكار . وتستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بقتة ويخشى أن تأتى على تقاليدها وموروثاتها . وبدأت قريش تسير في طريقها ، طريق اللدد ومجانبة الصواب . ومضى محمد كذلك في طريقه ، يدعو إلى الله . ويتلطف في عرض الإسلام ، ويكشف النقاب عن مخازى الوثنية ، ويسمع ويحجب ويهاجم ويدافع . . . غير أن حرصه على هداية آله الأقربين جعله يجدد مسعاه محاولاً عرض الإسلام عليهم مرة أخرى . فإن منزلتهم الكبيرة في العرب تجعل كسبهم عظيم النتائج . وهم قبل ذلك أهله الذين يود لهم الخير ويكره لهم الوقوع في مساخط الله .

روى ابن الأثير ، قال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم . لما أنزل الله على رسوله « وأنذر عشيرتك الأقربين » اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعا . فجلس في بيته كالمرضى ، فأتته عماته يعدنه . فقال : ما اشتكيت شيئاً . ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي . فقلن له : فادعهم ، ولا تدع أباً لهب فيهم ، فإنه غير مجيبك . فدعاهم ، فحضروا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلاً . فبادره أبو لهب : وقال : « هؤلاء هم عمومك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ! واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ! وأنا أحق من أخذك ! فحسبك بنو أبيك . وإن أقت على

ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش ، وتمدُّهم العرب . فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشرٍ مما جئتهم به .

فسكت رسول الله ولم يتكلم في ذلك المجلس . ثم دعاهم ثانية . وقال : « الحمد لله أحمده وأستعينه . وأؤمن به وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله . والله الذى لا إله إلا هو . إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة . والله لتموتنَّ كما تنامون . ولتبعثنَّ كما تستيقظون . ولتحاسبنَّ بما تعملون . وإنها الجنة أبداً . أو النار أبداً » .

فقال أبو طالب : ما أحبَّ إلينا معاونتك . وأقبلنا لنصيحتك ، وأشدَّ تصديقنا لحديثك !!

وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون . وإنما أنا أحدهم . غير أنى أسرعهم إلى ما تحب . فامض لما أمرت به .

فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك . غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة !! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ...

فقال أبو طالب : والله لئمنعنه ما بقينا .

أبو طالب

إن أبا طالب برغم بقاءه على الشرك واستمساكه بدين الآباء ظل حتى العاطفة ظاهر الحذب على ابن أخيه . وهو مدرك كل الإدراك ما سوف تجره هذه الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته ، بيد أن إعرازه لمحمد وتأذيته من مواجهته بما يكره حملاه على ضمان الحرية له ، بل على التعهد بحمايته وهو يبلغ عن ربه !!

وأبو طالب من رجال مكة المعدودين . كان معظما في أهله معظما بين الناس . فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته . وكان بقاءه مع أهل مكة محترما للأوثان من أسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه ...

أما أبو لهب فصورة لأرباب الأسر المتهالكين على مصالحهم وسمعتهم من غير

نظر إلى حق أو باطل . فأى عمل يعرض مصالحه للبوار أو يחדش ما لاسمه من منزلة
يهيج ثأرته ويدفعه لاقتراف الحماقات ...

وفي طبيعة أبي لبّ قسوة تغريه باقتراف الدنيا . كان أبناؤه متزوجين ببنات محمد
فأمّهم بفراقهن . فطلق عتبة وعتيبة رقية وأمّ كلثوم ...

ولعل أبا لبّ كان متأثراً في هذه البغضاء المتنزّية بزوجه أم جميل بنت حرب
أخت أبي سفيان . وهى امرأة سليطة ، تؤزّها على كراهية محمد ودينه علل شتى .
ولذلك بسطت فيه لسانها . وأطالت عليه الافتراء والدس !

وإذا كانت أهواء الجاهلية تدفع عم محمد إلى الإغلاظ معه على هذا النحو الوضع .
فكيف يكون مسلك الأباعد الذين يتمنون العثار للسليم والتهمة للبرى ؟؟

لكن ما أبو لبّ ؟ وما قريش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ بإزاء رجل
يحمل رسالة من الله الذى له ملك السموات والأرض يريد أن يعيد بها الرشد لعالم
فقد رشده ، وأن يعجو بها الأوهام فى حياة مرغتها الأوهام فى الرغام .
ما تجدى وقفة جهول ؟ أو غضبة مغرور ؟ فى منع هذه الرسالة الكبيرة من المضى
إلى هدفها البعيد .

إن الطحالب العامة لا تقف السفن الماخرة . ولئن نعم الجاهليون على المسلمين
مروقهم من بين قومهم بهذه الدعوة — حتى ليسمونهم الصباة — إن المسلمين
لأشدّ نقمة عليهم أن سفهوا أنفسهم وحقروا عقولهم وتشبثوا بخرافات ما أنزل الله
بها من سلطان .

إن الدعوة التى بدأ بها محمد من بطن مكة لم تكن لبناء وطن صغير بل كانت
لإنشاء جديداً لأجيال وأمم تظل تتوارث الحق وتدفع به فى رحاب الأرض إلى أن
تنتهى من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء . فإذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة
لرسالة هذا شأنها فى حاضرها ومستقبلها ؟

ومن أولئك الخصوص ؟

متمصبون تحجرت عقولهم تزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم « وإذا تتلى

عليهم آياتنا بيناتٍ تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر . يكادون يَسْطُون بالذين يتلون عليهم آياتنا . . . » !!

أم مترفون سرّتهم ثروتهم يحبون الباطل لأنه على أرائك وثيرة ويكرهون الحق لأنه عاقل عن الحلي والمتاع « وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا : أيُّ الفريقين خير مقاماً وأحسنُ ندياً » !!

أم متعنتون يحسبون هداية الرحمن عبث صبية . أو أزياء غانية فهم يقولون : دع هذا وهات هذا « وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا : اتت بقرآن غير هذا أو بدله . . . » .

أو مهرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عند ما تقرأ الآيات ، حتى لا تسمع فتفهم فتترك أثراً في عقل نقي وقلب طيب « وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

لو أن أهل مكة ردّدوا في تصديق محمد حتى يبحثوا أمره ويعحصوا رسالته ويزنوا على مهل ما لديهم وما جاء به لما عابهم على هذا عاقل . ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعد ما انكشفت جريمته . وثبتت إدانته . . . وقد حزن رسول الله لهذا الإعراض المقرون بالتكذيب والتحدى . ومن حق

كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم إذا ألقي نفسه مكذباً مهجوراً .
إلا أن الله واساه فأبان له بواطن أولئك المكذبين المتأبين « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .
إن المعتوه إذا اعترض طريقك ووقع في عرضك بلسان حاد ، سمعت من يقول لك : هذا لا يقصد العدوان عليك ولكنه يستجيب لنوازع الجنون في دمه . وكذلك أولئك المشركون ، إن فظاظهم وإنكارهم تمشّ مع دواعي الجحود في طباعهم قبل أن تكون انتقاصاً للرجل الذي يحدثهم أو طعناً في خلقه « إنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

ومن ثم فعلى محمد أن يمضي في سبيل البلاغ ، وأن يجتاز ما يلقي أمامه من صعاب وعقاب . وعلى المؤمنين برسالته أن يثبتوا . وليس ثباتهم لمصلحتهم الخاصة فقط ولا حق الإيمان عليهم وكفى . بل هو لمصلحة الأجيال المقبلة إن البنيان الشامخ

الذرى لا يرتكز على سطح الأرض إنما يرتكز على دعائم غائرة فى الثرى . هى التى تحمل ثقله وترفع عمده . وقد كان أصحاب محمد الأولون — بصلافة يقينهم وروعة استمساكهم — دعائم رسالته وأصول امتدادها من بعد فى المشارق والمغارب .

الاضطهاد . .

قرر المشركون ألا يألوا جهداً فى محاربة الإسلام وإبذاء الداخلين فيه ، والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام . ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله . وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم ، واستباححت فى الحرم الآمن دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعلت مقامهم تحملاً للضيم وتوقعاً للويل . . . وصاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير قصد بها تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية ، فرمى النبى وصحابته بهم هازلة وشتائم سفیهة . وتألفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله . على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما تشر عن الخصوم نكتاً لاذعة وصوراً مضحكة للحط من مكانتهم لدى الجماهير .

وبهذين اللونين من العداوة وقع المسلمون بين شقى الرحى . فرسولهم ينادى بالجنون « وقالوا : يأياها الذى نزل عليه الذكر ، إنك لمجنون » . ويوصم بالسحر والكذب « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب » .

ويشيع ويستقبل بنظرات ملتهمة ناقة وعواطف منفعة هائجة « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر . ويقولون : إنه لمجنون » .

وليس حظ سائر المسلمين بأفضل من هذه المعاملة ، فهم فى غدوهم ورواحهم محل التندر واللمز « إن الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين » .

وانقلبت هذه الحرب إلى تشكيل وسفك دم بالنسبة إلى المستضعفين من المؤمنين فمن ليست له عصبية تدفع عنه لا يعصمه من الهوان والقتل شىء . بل يحبس على الآلام حتى يكفر أو يموت أو يسقط إعياء .

عمار بن ياسر

من هؤلاء عمار بن ياسر ، وهو من السابقين الأولين في الإسلام ، وكان مولى لبني مخزوم . أسلم هو وأبوه وأمه فكان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذ حمت الرمضاء فيعذبونهم بحرّها . ومرّ بهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم يعدّون . فقال : صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة . فمات ياسر في العذاب . وأغلظت امرأته « سُمَيَّة » القول لأبي جهل فطعنها في قبليها بحربة في يديه ، فماتت . وهي أول شهيد في الإسلام وشدّوا العذاب على عمار بالحرّ تارة ، وبوضع الصخر أحرّ على صدره أخرى ، وبالتغريق أخرى ، وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمداً أو تقول في اللات والعزى خيراً ففعل ، فتروكوه . فأتى النبي يبيكي . فقال : ما وراءك ؟ . قال : شرّ يارسول الله ، كان الأمر كذا وكذا . قال : فكيف تجد قلبك ؟ قال : أجده مطمئناً بالإيمان . فقال : يا عمار إن عادوا فعد فأنزل الله تعالى : « إِنْ مِّنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ » . وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله .

بلال

ومن هؤلاء بلال بن رباح كان سيده أمية بن خلف إذا حمت الشمس وقت الظهيرة يقلّبه على الرمال الملتبّهة ظهراً لبطن . ويأمر بالصخرة الجسيمة فتلقى على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فما يزيد بلال عن تردّد : أحد أحد

خباب

ولما اشتدت ضراوة قريش بالمستضعفين ذهب أحدهم — خباب بن الارت — إلى رسول الله يستنجد به . قال خباب شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة في ظل الكعبة . فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها . ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين . ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه .

والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت
فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون » .

ماذا عسى يفعل محمد لأولئك البائسين ؟ إنه لا يستطيع أن يبسط حمايته على أحد
منهم لأنه لا يملك من القوة ما يدفع به عن نفسه . وقد كان في صلاته يُرمي عليه وهو
ساجد بكرش الجذور أو رحم الشاة المذبوحة . وكانت الأنجاس تلقى أمام بيته .
فلا يملك إلا الصبر

إن محمدا لم يجمع أحمابه على مغنم عاجل أو آجل . إنه أزاح الغشاوة عن الأعين
فأبصرت الحق الذي حُجبت عنه دهرًا . ومسح الران عن القلوب فعرفت اليقين الذي
فُطرت عليه وحرمتها الجاهلية منه . إنه وصل البشر بربههم فربطهم بنسبهم العريق
وسببهم الوثيق ، وكانوا قبلا حيارى محسورين . إنه وازن للناس بين الخلود والفناء
فآثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة . وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم ، فازدروا
الأوثان المنحوتة وتوجهوا للذي فطر السموات والأرض ...

حسب محمد أن قدم هذا الخير الجزيل . وحسب أحمابه أن ساقته العناية لهم .
فإذا أودوا فليحتسبوا . وإذا حاربهم عبید الرجس من الأوثان فليزموها ما عرفوا .
والحرب القائمة بين الكفران والإيمان سينجلي غبارها يوما ما . ثم تتكشف
عن شهداء وعن هلكى . وعن مؤمنين قائمين بأمر الله . ومشركين مدحورين بإذن
الله . « وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم ، إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون
والله غيب السموات والأرض . وإليه يرجع الأمر كله . فاعبدوه وتوكلوا عليه .
وما ربك بغافل عما يعملون » .

وكان رسول الله يبث عناصر الثقة في قلوب رجاله . ويفيض عليهم بعض ما أفاضه
الله على قواده من أمل رحيب في انتصار الإسلام ، وانتشار مبادئه ، وزوال سلطان
الطغاة أمام طلائع المظفرة في المشارق والمغارب . وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة
مادة لسخرتهم وضحكهم كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي

يتغامزون بهم ويقولون : قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيفعلون غدا على ملوك كسرى
وقيصر . ثم يصفرون ويصفقون . . .

وتواصى المشركون بعد مصادرة الدعوة بهذا الأسلوب أن يمنعوا الوافدين إلى مكة
من الاستماع إليها . قال الوليد بن المغيرة لرجال قريش : إن الناس يأتونكم أيام
الحج فيسألونكم عن محمد ، فتختلف فيه أقوالكم . يقول هذا : ساحر . ويقول هذا
كاهن . ويقول هذا : شاعر . ويقول هذا : مجنون . وليس يشبه واحدا مما يقولون .
ولكن أصلح ما قيل فيه : ساحر ، لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته . وقد اقتسم
هؤلاء المتآمرون مداخل مكة أيام الموسم يحذرون الناس من الداعية الخارج على قومه .
وينعتونه بما تواصوا به من سحر مفرق !

ولكن الرسول كان يذهب إلى الحجيج في مجامعهم . ويحدثهم عن الإسلام .
ويطلب منهم النصرة . عن جابر بن عبد الله كان رسول الله يعرض نفسه بالموقف
فيقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه ! فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي »

مفاوضات

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ، ونيلهم من غيرهم سوف يصرف الناس
عن الاستجابة لداعى الله . وظنوا أن وسائل السخرية والتهكم التي جنحوا إليها
ستهدق قوى المسلمين المعنوية فيتوارون خجلا من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين
آبائهم . غير أن ظنونهم سقطت جميعاً فإن أحدا من المسلمين لم يرد عن الحق الذى
شرفه الله به . بل كان المسلمون يتزايدون ! ولم تفلح طرق الاستهزاء فى الصد عن سبيل
الله أو تشويه معاملها . إنها زادت شعور المسلمين بما تخر به الوثنية من معرات ومخاز
تستحق الفضيحة والاستئصال . ما تصنع سخرية الجهول بالعالم ؟ « إن تسخروا منا
فإننا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ومحل
عليه عذاب مقيم . . . »

رأت قريش أن تجرب أسلوبا آخر . تجمع فيه بين الترغيب والترهيب . فترسل

إلى محمد تعرض عليه من الدنيا ما يشاء . ولترسل إلى عمه الذي يحميه تحذره مغبة هذا التأييد . حتى يكلم هو الآخر محمداً أن يسكت فلا يجرّ المتاعب على كافله ووليه

أرسلت قريش « عتبة بن ربيعة » — وهو رجل رزين هادئ — فذهب إلى رسول الله يقول له : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم . فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها . إن كنت إنما تريد بهذا الأمر ملاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا ملاً . وإن كنت تريد شرفاً فسودناك علينا فلا تقطع أمراً دونك . وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك ربيعاً راء لا تستطيع رده عن نفسك طلبتنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرا .

فلما فرغ من قوله . تلا رسول الله عليه صدر سورة السجدة « حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً . فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون . قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما الحكم لله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه . وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . . . »

حتى وصل إلى قوله تعالى « . . . فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود . »

تخير رسول الله هذه الآيات من الوحي المبارك . ليعرف محدّثه حقيقة الرسالة والرسول . إن محمداً يحمل كتاباً من الخلق إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من خيال . وهو قبل غيره مكلف بتصديقه والعمل به والنزول عند أحكامه . فإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا إليه ويستغفروه . فحمد ألهج الناس بالاستغفار وألزمهم للاستقامة وما يطلب ملكاً ولا ملاً ولا جاهاً ، لقد أمكنه الله من هذا كله فعف عنه وترفع أن يمد يده إليه . وبسط العطاء مما سيق إليه من خيرات . فأففق واديا من المال في ساعة من نهار . وترك الحياة غير معقب لذيقته درهما .

إن عتبة باسم قريش يريد أن يترك محمد الدعوة إلى الله وإقامة العدالة بين الناس !

ماذا تصير إليه الحياة ؟ لو أن صخرة من الأرض انخلت عنها وصعدت إلى دارات
الفلك تطلب من الشمس أو أى كوكب آخر أن يقف مسيره وإشعاعه ويحرم الوجود
من ضيائه وحرارته . !!

ألا ما أغرب هذا الطلب ! وما أجدر صاحبه أن يرتد إلى مكانته لا يعدوها
ولذلك . بعد ما استمع عتبة إلى آيات القرآن توقظ ما كان نائماً من فكره . استمع
إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هاجماً من عاطفته « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم
صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » لقد وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق
ستلاحقه . وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع محمداً وشأنه !

تمت بحسب ما في كتابي طالب

أما وفد قريش إلى أبي طالب فقد أخذ يقول : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب
آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا . فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلّى
بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه . فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً
وردّهم ردّاً رفيقاً فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله بما هو عليه ثم استشرى الأمر بينه
وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا وأكثر قريش ذكر رسول الله وتأمروا فيه
فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ، وإنا
قد استهينناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم
آلهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننزله وإياك في ذلك إلى أن يهلك
أحد الفريقين . ثم انصرفوا عنه .

عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له . ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله
وخذلانه . وبعث إلى رسول الله فأعلمه ما قالت قريش وقال له : أبق على نفسك
وعلى ، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق . فظن رسول الله أنه قد بدا لعنه رأى ،
وأنه خذله وضعف عن نصرته . فقال رسول الله : يا عماء والله لو وضعوا الشمس
في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك
فيه ما تركته .

ثم بكى رسول الله وقام . فلما ولى ناداه أبو طالب فأقبل عليه وقال : اذهب
يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً . وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد^و في التراب دفينا

وهكذا أخفق الإغراء والإرهاب في تعويق الدعوة . وأدركت قريش أن ما تصبو إليه بعيد النال . فعادت سيرتها الأولى تصب جام غضبها على المؤمنين وتبذل آخر ما في وسعها للتكيل بهم ومحاولة فتنهم عن دينهم .
وحزن الرسول الكريم للمآسى التي تقع لأصحابه وهو عاجز عن كفها . فأوعز إلى من قل نصيره ونبأه المقام في مكة أن يهجرها إلى الحبشة . وكان ذلك لخمس سنين من مبعثه . أو بعد سنتين من جهره بالبلاغ .

الهجرة إلى الحبشة

كان الرحيل إلى الحبشة تسلاً في الخفاء ، حتى لا تستيقظ قريش للأمر فتجبطه ولم يبدأ كذلك على نطاق واسع ، بل كان الفوج الأول مكوّناً من بضعة أسرفهم رقية ابنة النبي وزوجها عثمان بن عفان ، ونفر آخر من المهاجرين لم يزدوا جميعاً عن ستة عشر . وقد عمو شطر البحر حيث قيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة . فلما خرجت قريش في آثارهم إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين . ولم يمكث أولئك المهاجرون طويلاً حتى ترامت إليهم الأخبار بأن المشركين هادنوا الإسلام وتركوا أهله أحراراً ، وأن الإيذاء القديم انقطع فلا بأس عليهم إن عادوا .

وتركت هذه الإشاعة أثرها في قلوب المؤمنين فقرروا العودة إلى وطنهم . حتى إذا اقتربوا من مكة تبينت لهم الحقيقة المحزنة وعرفوا أن المشركين أشد ما يكونون خصاماً لله ورسوله والمؤمنين ، وأن عدوانهم لم ينقطع يوماً . . .
ويزعم بعض المغفلين أنه وقعت هدنة حقا بين الإسلام والوثنية أساسها أن محمداً تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها (!) وأن هذه الهدنة الواقعة هي التي أعادت المسلمين من الحبشة . . .

وماذا قال محمد في مدح الأصنام ؟ يجيب هؤلاء المغفلون بأنه قال : تلك الغرائق العلاء . وإن شفاعتهن لترجي (!) .

وأين وضع هذه الكلمات ؟ . وضعها في سورة النجم مقحمة وسط الآيات التي جاء فيها ذكر هذه الأصنام . فأصبحت هكذا « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . تلك الغرائيق العلاء . وإن شفاعتهن لترتجى . ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس . . »

ويكون معنى الكلام على هذا خبروني عن أصنامكم : أهي كذا وكذا ؟ إن شفاعتها مرجوة إنها أسماء لا حقائق لها إنها خرافات ابتدعت وأتبع . ما لكم جعلتموها إناثاً ونسبتموها لله وأنتم تكرهون نسبة الإناث لكم ؟ تلك قسمة جائرة ! !
فهل هذا كلام يصدر عن عاقل فضلا عن أن ينزل به وحى حكيم ؟ .
ولكن هذا السخف وجد من يكتبه وينقله !

إن محمداً لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عنقه بنص الكتاب الذي جاء به . قال الله جل شأنه « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين » .
بيد أن كتب التاريخ والتفسير التي تُركت للمورّقين والزنادقة يشحنونها بالمفتريات ، اتسعت صفحاتها لذكر هذا اللغو القبيح . ومع أن زيفه وفساده لم يخفيا على عالم إلا أنه ما كان يجوز أن يدون مثله . . .

إنك تفتح الخازن في تفسير القرآن (سورة هود) فتقرأ ما يلي : لما كثرت الأرواث في سفينة نوح أوحى الله إليه أن اغمر ذنب القيل ، فغمزه فوق وقع منه خنزير وخنزيرة ، ومسح على الخنزير فوق وقع منه الفأرة فأقبلوا على الروث فأكلوه . فلما أفسد الفأر في السفينة وجعل يقرضها ويقطع حبالها ، أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد ، فضرب فخرج من منخره قط وقطة فأقبلا على الفأر فأكلاه . . .

أرأيت هذا الكلام الفارغ ؟ أرأيت من قبله حديث الغرائيق ؟ إن كثيراً من هذه الخرافات الصغيرة توجد في كتب شتى عندنا . ولا ندرى متى تنظف هذه الكتب القديمة منها ، فهي لا ريب مدخولة عليها أيام غفلة المسلمين وغلبة الدسائس اليهودية على أفكارهم ومخطوطاتهم .

والذي ورد في الصحيح أن الرسول قرأ سورة النجم في محفل يضم مسلمين ومشرّكين ،

وحوائيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب . فلما أخذ صوت الرسول يهدر بها ، ويرعد بندرها حتى وصل إلى قول الله « . . . والمؤتفة أهوى . فغشّاها ما غشى . فبأى آلاء ربك تبارى . هذا نذيرٌ من النذُرِ الأولى . أَرَفَتِ الْآزِفَةَ . ليس لها من دون الله كاشفةٌ . أفن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولا تبكون ؟ وأنتم سامدون ! »

كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين ، مع غيرهم من المسلمين .

فلما نكسوا على رؤوسهم . وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم ندموا على ما كان منهم وأحبوا أن يعتذروا عنه بأنهم ما سجدوا مع محمد إلا لأن محمداً عطف على أصنامهم بكلمة تقدير (كذا) وليس يُستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون النكت للضحك من المسلمين . ولا يستحي أحدهم — وهو ابن خال النبي — أن يقول له ساخراً : أما كلمت اليوم من السماء يا محمد ؟

وليس أسمع من اعتذار المشركين عن سجودهم إلا تصديق هذا الاعتذار . وقد حاول المشركون أن ينشروا فريتهم هذه ليعكروا على الرسول ويشوشوا على الوحي وليوهمو بأن محمداً في بعض أحيانه مال إليهم . وهيهات . فإن الحرب التي شنها محمد على الوثنية لم تردها الليالي إلا ضراماً ولم ترده من عبيدها إلا خصاماً .

عاد من هاجر إلى الحبشة ليباغت بأن الاضطهاد الواقع على الإسلام أحدً وأشد فدخل بعضهم مكة مستجيراً بمن يعرف من كبرائها . وتوارى الآخرون .

لكن قريشاً أبث إلا أن تسكل بالقادمين وأن تغرى سائر القبائل بمضاغفة الأذى للمسلمين . فلم ير الرسول بداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة . وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تنقّطت لها قريش وقررت إحباطها . بيد أن المسلمين كانوا أسرع . فخرج منهم في هذا الفوج ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة . ويسر الله لهم السفر ، فأنحازوا إلى نجاشي الحبشة . ووجدوا عنده ما يبعون من أمان وطيب جوار وكرم وفادة .

والظاهر أن هذا النجاشي كان رجلاً راشداً نظيف العقل ، حسن المعرفة لله ،

سليم الاعتقاد في عيسى عبد الله ورسوله . وكانت مروه فسكره سر المعاملة الجميلة التي وفرها لأولئك اللاجئين إلى مملكته ، فارين بدينهم من الفتن .

عزّ على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم . وأغرّتهم كراهيّتهم للإسلام أن يبعثوا إلى النجاشي وفداً منهم محملاً بالهدايا والتحف كي يحرم المسلمين وده ويطوى عنهم بشره .

وكان الوفد من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة — قبل أن يسلموا — واستعان الوفد على النجاشي برجال حاشيته بعد أن ساقوا إليهم الهدايا وزودوهم بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون ! قالوا : إن ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك . وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . . . »
واتفقوا معهم أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم .

فلما فوَّخ النجاشي في الأمر وأشير عليه بإبعاد القوم رأى أن لا بد من تمحيص القضية وسماع أطرافها جميعاً .

ثم أرسل إلى أصحاب النبي فدعاهم . فحضروا وقد أجمعوا على صدقه فيما ساءه وسرّه . وكان التكلم عنهم جعفر بن أبي طالب . فقال لهم النجاشي :

ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من الناس ؟

فقال جعفر : أيها الملك كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأثي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضيف . حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا لتوحيد الله وأن لا نشرك به شيئاً ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والصيام . . . وعدد عليه أمور الإسلام . قال جعفر : فأماناً به ، وصدقناه ، وحرّمنا ما حرم علينا وحلّلنا ما أحل لنا . فتعدى علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة

الأوثان . فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ورجونا أن لا نظلم عندك . . .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء قال نعم . فقرأ عليه سطوراً من كهيعص . فبكى النجاشي وأساقفته وقال النجاشي إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة . انطلقا والله لا أسلمهم إليكما أبداً — يخاطب عمرو ابن العاص وصاحبه — فخرجا وقال عمرو لعبد الله بن أبي ربيعة : والله لا يتنه غداً بما يبئد خضراء هم .

فلما كان الغد قال للنجاشي : إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً . فأرسل النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح . فقال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه — وكلته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال : ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا العود^(١) . فنخرت بطارقه ! فقال : وإن نخرتم ! وقال للمسلمين : اذهبوا فأنتم آمنون ، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنتي آذيت رجلاً منكم ! ورد هدية قريش . وقال : ما أخذ الله الرشوة مني حتى آخذها منكم . ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه . وأقام المسلمون عنده بخير دار . . .

أخفقت حيلة عمرو . وعاد الوفد إلى مكة يجرر أذيال الخيبة . وعرفت قريش أنها لن تشبع ضعفتها على الإسلام وأهله إلا في حدود سلطانها فعزمت أن تشقى غيظها ممن يقع تحت أيديها .

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب

إن الأفق الملبد بالسحب قد يتولد منه برق يضيء . لقد غبرت على المسلمين في مكة أيام غلاظ اضطرت بيوتا عديدة أن تقر بدينها . وبقي من بقي منهم يكابد

(١) اختلف النصارى قديماً في طبيعة المسيح على مذاهب شتى . وكان هناك مذهب يقوم على اعتباره بشراً مرسلاً ، وليس لها ولا ندا لله . ولا يزال في الغرب المسيحي أناس يعتقدون هذا المذهب الموحد . ونعتقد أن نجاشي الحبشة على هذا الرأي . وإن كان بطارقة الكنييسة يستنكرونه أشد الاستنكار .

العت من شطط المشركين وكيدهم إلا أن عناصر جديدة دخلت في الإسلام جعلت قريشا تتروى في أمرها قبل أن تقدم على إساءاتها المبيّنة .

أسلم حمزة بن عبد المطلب . عم النبي وأخوه من الرضاع . وهو رجل أيّد جلد قوى الشكيمة . وسبب إسلامه الغضب لما بلغه من تهجم أبي جهل على رسول الله تهجها بذيثا . قالت له أمة لعبد الله بن جدعان : يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام ؟ فإنه سبّه وآذاه ثم انصرف عنه . ولم يكلمه محمد — وكانت المرأة قد شهدت هذا الحادث في مسكن قريب — فأسرع حمزة محققا لا يلبى على شيء . وصمد إلى أبي جهل وهو في مجلسه من قومه ، ثم ضرب رأسه بالقبوس فشجّه شجة منكّرة . وقال : أتشتّمه وأنا على دينه ؟

وكما يقول البعض : طلبنا العلم للدنيا فأبى الله إلا أن يكون للدين ! كان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبيّ أن يهان مولاه . ثم شرح الله صدره فاستمسك بالعروة الوثقى . واعتز به المسلمون أيما اعتزاز . . .

أما عمر بن الخطاب فكان من أول الفتانين المستهزئين بالإسلام ؛ وكان معروفا بمحبة الطبع وقوة الشكيمة وطالما لقي المسلمون منه ألوان الأذى .

روت زوجة عامر بن ربيعة قالت : إننا لنرحل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر لبعض حاجته ، إذ أقبل عمر — وهو على شركه — حتى وقف علىّ ، وكنا نلقى منه البلاء . فقال : أتطلقون يا أم عبد الله ؟ قالت : نعم والله لنخرجنّ في أرض الله فقد أذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا فرجا . قالت : فقال عمر : صحبكم الله ، ورأيت له رقّة وحزنا . . . ! قالت : فلما عاد عامر أخبرته وقلت له : لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا . . .

قال : أطمعت في إسلامه ؟ قلت : نعم . فقال : لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب !!! — لما كان يراه الرجل من شدته وغلظته على المسلمين —

لكن قلب المرأة كان أصدق من رأى الرجل . فإن غلظة عمر كانت قشرة خفيفة تكمن وراءها ينابيع من الرقة والعطف والساحة .

والظاهر أن عمر كانت تصطرع في نفسه مشاعر متناقضة . احترامه للتقاليد التي سنّها الآباء والأجداد ، واسترساله مع شهوات السكر واللهو التي ألفها . . .

ثم إعجابه بصلابة المسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم ، ثم الشكوك التي تساوره — كأي عاقل — في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره . ولهذا ما إن ثور حتى يخور . ذهب ليقتل محمداً ثم ثنته عن عزمه كلمة ! ولما علم بإسلام أخته وزوجها اقتحم عليهما البيت صاحبا متوعدا . وضرب أخته فشجّها وأعادته منظر الدم المراق إلى صوابه فرجحت نواحي البر والخير في نفسه ، وتناول ورقة كتبت فيها بعض الآيات . وتلاها . ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! . واستكان عمر للحق فشى إلى رسول الله يعلن إسلامه . .

فلما خلصت نفسه من شوائبها وتمحضت للإسلام كان مددا عظيما لجند الله فازداد المسلمون به منعة . ووقعت في نفوس الكافرين منه حسرة . ورأت قريش أن أمر الإسلام ينمو ويعلو . وأن وسائلها الأولى في محاربته لم تمنع انتشاره أو تنفر أنصاره . فأعادت النظر في موقفها كله لترسم خطة جديدة أقسى وأحكم ، وأدق وأشمل . XXX

المقاطعة العامة

وتخص حقد المشركين عن عقد معاهدة تعتبر المسلمين ومن يرضى بدينهم أو يعطف عليهم أو يحمي أحدا منهم حزبا واحدا دون سائر الناس . ثم اتفقوا ألا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئا ، وألا يزوجهم أو يتزوجوا منهم . وكتبوا ذلك في صحيفة ، وعلقوها في جوف الكعبة توكيدا لنصوصها .

ولاشك أن المتطرفين من ذوى النزق والحدة نجحوا في فرض رأيهم وإشباع ضغفهم . فاضطر الرسول ومن معه إلى الاحتباس في شعب بني هاشم . وانحاز إليهم بنو المطلب . كافرهم ومؤمنهم على سواء . ما عدا أبا لهب فقد آزر قريشا في خصومتها لقومه .

وضيق الحصار على المسلمين ، وانقطع عنهم العون ، وقل الغذاء حتى بلغ بهم الجهد أقصاه . وسمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب ، وعصيتهم الأزمات العصبية حتى رثى لحالهم الخصوم . ومع اكفهرار الجو في وجوههم فقد تحملوا في ذات الله الويلات . ولم تفت حدة الوثنيين في الحملة على الإسلام ورجاله وفي تأليب العرب عليهم من كل فج .

قال السهيلي : كانت الصحابة إذا قدمت غير إلى مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام قوتاً لعياله فيقوم أبولوب فيقول : يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدرکوا معكم شيئاً . وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن أن لا خسار عليكم فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع . وليس في يده شيء يطعمهم به . ويفعدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس . حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وعرياً . وروى يونس عن سعد بن أبي وقاص قال : خرجت ذات ليلة لأبول فسكنت قعقة تحت البول فإذا قطعة من جلد بعير يابسة فأخذتها وغسلتها ثم أحرقتها ورضضتها وسففتها بالماء فتقويت بها ثلاثاً . فانظر كيف انتهى الحصار بالمسلمين . وكيف أضناهم الحرمان وأجأهم أن يطعموا مالا مساغ له . وقد أحرزت تلك الآلام بعض ذوى الرحمة من قریش . فساكن أحدهم يوقر البعير زاداً ثم يضربه في اتجاه الشعب ويترك زماله ليصل إلى المحصورين ، فيخفف شيئاً مما بهم من إعياء وفاقة . . .

كم بقيت هذه الضائقة ؟ ثلاث سنين كالحلة . كان رباط الإيمان وحده هو الذي يمسك القلوب ويصبر على اللاأواء .

ومن الطبيعي أن يستعجل المسلمون الخروج من هذه المآزق ، لطالما وعدوا بالنصر والتمكين . فما وجدوا إلا الرّوع والسَّغب ! وهاهم أولاء محرجون في أرض تفكرت لهم واقشعرت تحت أقدامهم . ولا ريب أن قلوبهم امتلأت غيظاً على أولئك المشركين الذين سخروا من جميع القيم الفاضلة ، وكفروا بانتصارها في الدنيا كفرهم بمجيء اليوم الآخر . ولو لم يطلب أولئك المعذبون النصر لينتقم منهم بأسائهم لطلبوه كي يحزوا به المكذبين ويؤدبوا المتوقفين ! بيد أن الوحي كان ينزل فيطالب المسلمين باليقين والثبات دون ارتقاب لهذه النتائج المتوقعة ؛ يجب أن يجمدوا على حقائق الإيمان التي عرفوها وأن يستمدوا من سموها وصدقها ما يرغمون به الأيام والأحداث « وإما زينك بعض الذي نعدهم أو نتوَقَّينَك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون . ولكل أمة رسولٌ فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

وكان المشركون أيضاً يتعجلون خاتمة الصراع بينهم وبين أولئك المسلمين ،

يتعجلونها لأنهم يضحكون منها فما يثقون ببعث أو جزاء ، ولا يظنون أبداً أن يوماً قريباً أو بعيداً سينشق فجره ، فإذا مكة خالية من الأصنام ، وإذا أذان التوحيد يرنُّ في أرجائها ، وإذا المحصورون في الشعب هم أصحاب الأمر والنهي ، والسادة الحاكمون بأمرهم اليوم أسرى يرجون العفو !!! وكان يقينهم من أن اليوم والغد لهم يزين لهم الاستهزاء بهذا الوعد والتعريض به « ويقولون : متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين قل : لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله . لكل أمة أجلٌ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل : أرايتم إن أتاكم عذابه بيئاتاً أو نهاراً . ماذا يستعجلُ منه المجرمون . أتمَّ إذا ما وقع آمنتم به ؟ الآن وقد كنتم به تستعجلون ؟ » وكان الدخول في الإسلام والبقاء عليه أبعد ما يكون عن التهمة . ربما اعتنق فريق من الناس مبدأ ما — عن صدق واقتناع — وليس يمنعهم ذلك من التماس النفع به والتقدم من ورائه . أما أولئك السابقون الأولون فقد علموا أن فقدان المنافع وهلاك المصالح الخاصة أول ما يلقون من تضحية في سبيل عقيدتهم .

ولا أحسب شيئاً يربِّي النفوس على التجرد كهذا التفاني في الحق ، للحق ذاته . ثم إن القرآن كان صارماً في قمع المتاجرة بالعقائد والإثراء على حسابها والعلو في الأرض باسمها « مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

وقد أفاد الصحابة من ذلك عفة ونماء وإخلاص لا يعرف لها في التاريخ نظير فلما تعثرت تيجان الملوك بأقدامهم ، واستسلمت الأقطار المكتظة بالخير لجيوشهم كانت دوافع العقيدة وأهدافها هي التي تشغل بالهم قبل الفتح وبعده . فلم يكثرثوا لذهب أو فضة . . . إنما عناهم أولاً وآخرها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفي أيام الشعب كان المسامون يلقون غيرهم في موسم الحج . ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وافد . فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات بل يزيد جذورها عمقا وفروعها امتدادا . وقد كسب الإسلام أنصارا كثيراً في هذه المرحلة ،

وكسب إلى جانب ذلك أن المشركين قد بدءوا ينقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا . وشرع فريق منهم يعمل على إبطال هذه المقاطعة ونقض الصحيفة التي تضمنتها .

وأول من أيلي في ذلك بلاء حسنا هشام بن عمرو . فقد ساءته حال المسلمين ورأى ما هم فيه من عناء ، فمشى إلى زهير بن أبي أمية وكان شديد الغيرة على النبي والمسلمين وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب . فقال : يا زهير أَرْضِيتَ أَنْ تَأْكُلَ الطعامَ وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت ؟

أما إني أحلف بالله : لو كانوا أخوال أبي الحكم يعني — أبا جهل — ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبدا ! فقال : فماذا أصنع وإنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها ! فقال قد وجدت رجلا . قال : ومن هو ؟ . قال : أنا قال زهير : أبغنا ثالثا . فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له : أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد ذلك موافق فيه ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم أسرع ! . قال ما أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدت ثانيا . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال أبغنا ثالثا . قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية . قال أبغنا رابعا . فذهب إلى أبي البختري بن هشام وقال له نحواً مما قال للمطعم . قال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو قال : أنا وزهير والمطعم . قال : أبغنا خامسا . فذهب إلى زمعة بن الأسود ، فكلّمه وذكر له قرابته ، قال : وهل على هذا الأمر معين ؟ قال : نعم وسمي له القوم . . . فأتعدوا « خطم الحجون » الذي بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك وتعهدوا على القيام في نقض الصحيفة . فقال زهير : أنا أبدؤكم . فلما أصبحوا غدوا إلى أنديةهم ، وغدا زهير فطاف بالبيت . ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنا أكل الطعام وتلبس الثياب وبنو هاشم هلكت لا يتتاعون ولا يتتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة !! قال أبو جهل : كذبت والله لا تشق . قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضىنا بها حين كتبت !! قال أبو البختري : صدق زمعة لا رضى ما كتب فيها . قال المطعم بن عدى : صدقنا وكذب من قال غير ذلك !! وقال هشام ابن عمرو نحواً من هذا . فقال أبو جهل : هذا أمر قضي لبيل ! فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا كلمة باسمك اللهم . وكانت العرب تفتتح بها كتبها . . .

عام الحزن

انطلق المسلمون من الشعب يستأنفون نشاطهم القديم بعد ما قطع الإسلام في مكة قرابة عشرة أعوام مليئة بالأحداث الضخمة . وما إن تنفس المسلمون من الشدة التي لا قوها حتى أصيب الرسول بوفاة زوجته خديجة ^(ع) . ثم بوفاة عمه أبي طالب ^(ع) .
أى أنه نكب في حياته الخاصة والعامة معاً . .

إن خديجة من نعم الله الجليلة على محمد . فقد آزرته في أخرج الأوقات . وأعانتة على إبلاغ رسالته . وشاركتة مغارم الجهاد المر . وواسته بنفسها ومالها . وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من خُنَّ الرسالة وكفرن برجالهن وكن مع المشركين من قومهن وآلهن حرباً على الله ورسوله « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً . وقيل : ادخلا النار مع الداخلين » .

أما خديجة فهي صديقة النساء . حنت على رجلها ساعة قلق ، وكانت نسمة سلام وبرٍ رطبت جبينه المتصبب من آثار الوحى . وبقيت ربع قرن معه ، تحترم قبل الرسالة تأمله وعزلته وشمائله ، وتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة ، وماتت والرسول في الخمسين من عمره ، وهى تجاوز الخامسة والستين ، وقد أخلص لذكرها طول حياته .

أما أبو طالب فإن المرء يحار في أمره ! وبقدر ما ينحني إعجاباً لنبهه في كفالة محمد ، ثم لبطلته في الدفاع عنه حين نُبئ وحين صدع بأمر ربّه وأنذر عشيرته الأقربين . إنه بقدر ذلك يستغرب المصير الذى ختم حياته . وجعله يصرح قبل موته أنه على ملة الأشياخ من أجداده . .

وقد حزن رسول الله لموت أبى طالب حزناً شديداً . ألم يكن الحصن الذى تحتمى به الدعوة من هجمات الكبراء والسفهاء ؟ وها قد ولى الرجل الذى سخر جاهه وسلطانه فى الذود عن ابن أخيه وكف العواذى أن تناله . إن قريشا أصبحت لا تهاب فى محمد أحداً بعده ...

روى أن رسول الله قال : ما نالت منى قریش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب وذلك أنهم تجردوا عليه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه .

وعن ابن مسعود قال : « بينا رسول الله يصلّي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس . فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد . فانبعث أشقى القوم فأخذه . فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه . فاستضحكوا . وجعل بعضهم يعيل على بعض . وأنا قائم أنظر ، لو كانت لي مَنعة طرحته عن ظهره . والنبي ساجد ما يرفع رأسه . حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة . فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه . ثم أقبلت عليهم تشتمهم .

فلما قضى رسول الله صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم . وكان إذا دعا ثلاث مرات وإذا سأل سأل ثلاثا . ثم قال : « اللهم عليك بقریش » ثلاثا فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته . ثم قال : اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمّية بن خلف وعقبة بن أبي معيط . وذكر السابغ ولم أحفظه .

فو الذي بعث محمداً بالحق . لقد رأيت الذين سَمِيَ صرعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القلب قلب بدر » .

لقد مضت مكة في طريق الكفر حتى أوغلت فيه وبلغت نهايته فهي الآن تستمرى تلويث الساجدين بالأقذار . وتمايل ضحكا من مظهر الأنجاس وهي تسيل على كتفي المصلّي . لم يبق في هذه القلوب مكان لذرة من الخير .

والبنت في المجتمع العربي تعيش في كنف أبيها وتفخر بقوته وتأنس بحمايته . فما يحز في قلب الرجل أن يرى نفسه في وضع تدفع عنه ابنته . وتشعر بالعجز وقلة الناصر وقد كظم محمد على أله وتحمل في ذات الله مالتى . إلا أنه أخذ يفكر في التوجه برسالته إلى قرية أخرى علّها تكون أحسن قبولا وأقرب استجابة ، فاستصحب معه زيد بن حارثة وولّى وجهه شطر ثقيف يلتمس نصرتها ...

في الطائف

ذهب رسول الله إلى الطائف حيث تقطن ثقيف . وهي تبعد عن مكة نحو الخمسين ميلاً سارها محمد على قدمه جيئةً وذهوياً . فلما انتهى إليها قصد إلى نفر من رجالها الذين ينتهي إليهم أمرها ثم كلمهم في الإسلام ودعاهم إلى الله . فردّوه جميعاً ردّاً منكراً وأغلظوا له الجواب . ومكث عشرة أيام يتردد على منازلهم دون جدوى ...

فلما يئس الرسول من خيرهم قال لهم : إذا أبيتم فاكتموا على ذلك — كراهية أن يبلغ أهل مكة فترداد عداوتهم وشماتهم — لكنّ القوم كانوا أخس مما ينتظر . قالوا له : اخرج من بلدنا وحرشوا عليه الصبيان والرعاة فوقفوا له صفين يرمونه بالحجارة . وزيد بن حارثة يحاول عبثاً الدفاع عنه حتى شجّ في ذلك رأسه . وأصيب الرسول في أقدامه فسات منها الدماء واضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة حيث جلس في ظل كرمة يلتمس الراحة والأمن . وكان أصحاب البستان فيه فصرفوا الأوباش عنه . واستوحش الرسول لهذا الحاضر المرير ، وثابت إلى نفسه ذكريات الأيام التي عاهاها مع أهل مكة ، إنه يجرر وراءه سلسلة ثقيلة من المآسى المتلاحقة فهتف يقول :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ...
أنت أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ...
إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى ؟؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي !!...
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليّ غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ...

وتحرّكت عاطفة القرابة في قلوب ابني ربيعة فدعّوا غلاماً لهما نصرانياً يدعى «عداساً» وقالوا له : خذ قطعاً من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل . فلما وضعه بين يدي رسول الله مد يده إليه قائلاً : باسم الله . ثم أكل .

فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال له النبيّ : من أي

البلاد أنت ؟ قال : أنا نصرانيٌّ من « نينوى » . فقال رسول الله : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له : وما يدريك ما يونس ؟ قال رسول الله : ذلك أخي ، كان نبياً وأنا نبيٌّ . فأُكب عداس على يدي رسول الله ورجليه يقبلهما .

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاء عداس قال له : ويحك ما هذا ؟ قال : مافي الأرض خير من هذا الرجل .

فحاول الرجلان توهين أمر محمد وتمسيك الرجل بدينه القديم . كأنما عزّ عليهما أن يخرج محمد من الطائف بأي كسب !!

وقفل الرسول عائداً إلى مكة ، إلى البلد الذي لفظ خيرة أهله فهاجر بعضهم إلى الحبشة . وأكره الباقي على معاناة العذاب الواصب أو الفرار إلى شَعَف الجبال . وقال زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ فقال الرسول : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ...

ولا بد أن أخبار ثقيف قد سبقته إلى قريش . ومن ثم رأى رسول الله ألا يدخل مكة حتى يستوثق لنفسه ودعوته . فبعث إلى المطعم بن عدىّ يعرض عليه أن يُجيره حتى يُبَدِّغ رسالة ربّه ! فقبل المطعم . واستنهض أبناءه فحملوا أسلحتهم ووقفوا عند أركان البيت الحرام . وتسمّم المطعم ناقته ثم نادى : يا معشر قريش قد أجرت محمداً . فلا يهجه أحدٌ منكم ! فلما انتهى رسول الله إلى الكعبة صلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته . ومطعم وأهله يحرسونه بأسلحتهم

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أم مُتابع — مُسَلِّم — ؟ قال : بل مُجِير ! قال : قد أجرنا من أجرت . . . !

وحفظ رسول الله للمطعم هذا الصنيع . فقال يوم أسرى بدر : لو كان المطعم حياً لترك له هؤلاء النتنى . . .

كان المطعم — كأبي طالب — على دين أجداده ، وكان كذلك مثله في المروءة والنجدة وقد أراد أبو جهل أن يتهكم بنبيٍّ يحتاج إلى جوار ! وكأنه يتساءل : لم لم تنزل كوكبة من الملائكة لحفظه ؟ ولذلك قال لما رآه : هذا نبيكم يا عبد مناف ؟

فرد عليه عتبة بن ربيعة : وما يُنكرُ أن يكون منا نبيٌّ وملك ؟ فلما أخبر رسولُ الله بسؤال أبي جهل وردَّ عتبة قال :

أما أنت يا عتبة فما حميتَ الله ، وإنما حميتَ نفسك — وذلك أنه قالها عصبية لا إيماناً —

وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتيك عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً ! .

وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون . . .

وفي هذا التعليق ما يدل على ثقة الرسول من المستقبل مهما اكتنفته في الحاضر الآلام .

عاد الرسول إلى مكة ليستأنف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله . وبينما هو ماضٍ في جهاده إذ وقعت له قصة الإسراء والمعراج . . .

الإسراء والمعراج

يقصد بالإسراء الرحلة العجيبة التي بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس . ويقصد بالمعراج ما أعقب هذه الرحلة من ارتفاع في طباق السموات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ولا يعرف كنهه أحد ، ثم الأوبة بعد ذلك إلى المسجد الحرام بمكة . وقد أشار القرآن الكريم إلى كلتا الرحلتين في سورتين مختلفتين . ذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله :

« سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .
وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله :

« وَلَقَدْ رَآهُ — يعني جبريل — نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَخْشَى السُّدْرَةَ مَا يَخْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » .

فتعليل الإسراء كما نصت الآية أن الله يريد أن يُرى عبده بعض آياته . ثم أوضحت آيات المعراج أن الرسول شهد بالفعل بعض هذه الآيات الكبرى . وقد اختلف العلماء من قديم : أكان هذا السرى الخارق بالروح وحده . أم بالروح والجسد جميعاً ؟ والجمهور على القول الأخير .

وللدكتور هيكل رأى غريب . فقد اعتبره استجماعاً ذهنياً ونفسياً لوحدة الوجود من الأزل إلى الأبد ، في فترة من فترات التألق النفساني الفذ ، الذي اختص به بشر نقيّ جليل مثل محمد . وفي إبان هذا التألق الذي استعلى به على كل شيء — استعرض حقائق الدين والدنيا ، وشاهد صور الثواب والعقاب . . . الخ .

فالإسراء حق . . وهو عنده روحى لا مادى . ولكنه في اليقظة لا في المنام . فليس رؤيا صادقة كما يرى البعض . بل هو حقيقة واقعة على النحو الذي صورّه ، ثم قال فيه بعدئذ « وليس يستطيع هذا السموّ إلا قوة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانية » .

والحق أن الحدود بين القوى الروحية والقوى المادية أخذت تضيع وتزول ، وأن ما يراه الناس ميسوراً في عالم الروح ليس بمستوعب في عالم المادة . وأحسب أنه بعد ما مزق العلم من أستار عن أسرار الوجود فإن أمر المادة أضحت كأمّ الروح لا يعرف مداه إلا قيوم السموات والأرض .

وإن الإنسان ليقف مشدوهاً عندما يعلم أن الذرة تمثل في داخلها نظام المجموعة الشمسية الدوّارة في الفلك . وأنها — وهي هباءة تافهة — تكمن فيها حرارة هائلة ، عندما أطلقت أحرقت الأخضر واليابس . . .

إن الرسول أُسرّى به وعُرج . كيف ؟ هل ركب آلة تسير بأقصى من سرعة الصوت كما اخترع الناس أخيراً ؟

لقد امتطى البراق — وهو كائن يضع خطوه عند أقصى طرفه — كأنه يمشى بسرعة الضوء . وكلمة براق تشير بأصل اشتقاقها إلى البرق ، أى أن قوة الكهرباء سخرت في هذه الرحلة .

لكن الجسم في حالته المعتادة يتعذر عليه التنقل في الآفاق بسرعة البرق الخاطف ، لا بد من إعداد خاص يحضن أجهزته ومسامه لهذا السفر البعيد . وأحسب

أن ما روى عن شق الصدر ، وغسل القلب وحشوه ، إنما هو رمز هذا الإعداد المحتوم . . . وقصة الإسراء والمعراج مشحونة بهذه الرموز ذات الدلالة التي تدقّ على السذج .

إن الإسراء والمعراج وقعا للرسول بشخصه . في طور بلغ الروح فيه قمة الإشراق وخفت فيه كثافة الجسد حتى تفصّى من أغلب القوانين التي تحكمه .

واستكناه حقيقة هذه الرحلة ، وتتبع مراحلها بالوصف الدقيق ، مرتبط بإدراك العقل الإنسانى لحقيقة المادة والروح ، وما أودع الله فيهما من قوى وخصائص ! ولذلك سنتجاوز هذا البحث إلى ما هو أيسر وأجدى . أى إلى تسجيل المعالم المتصلة بالإسلام باعتباره رسالة عامة وتشاريع محدّدة . وقصة الإسراء والمعراج تهما من هذه الناحية .

ألم تر أن علم النفس لم يستبحر وينطلق إلا يوم تحرر من البحث في الروح والخيال في مدلولها ؟؟ .

لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدرّة المنتهى مباشرة ؟

إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم . فقد ظلت النبوات دهورا طويلا وهى وقف على بنى إسرائيل . وظلت بيت المقدس مهبط الوحي ، ومشرق أنواره على الأرض ، وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار . فلما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام السماء حلت بهم لعنة الله وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد ! ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد انتقالا بالقيادة الروحية في العالم من أمة إلى أمة ومن بلد إلى بلد ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل .

وقد كان غضب اليهود مشتتلا لهذا التحول مما دعاهم إلى المسارعة بإنكاره « بسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . فباءوا بقصْبٍ على غضبٍ » .

لكن إرادة الله مضت . وحملت الأمة الجديدة رسالتها . وورث النبيّ العربىّ تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . وقام يكافح لنشرها وجمع الناس عليها .

فكان من وصل الحاضر بالماضي وإدماج الكل في حقيقة واحدة ، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام ، وأن ينتقل إليه الرسول في إسرائه . فيكون هذا الانتقال احتراما للإيمان الذي درج قديما في رحابه . . .

ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة . إن النبوات يصدق بعضها بعضا ، ويمهد السابق منها للآحق وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بني إسرائيل بذلك .

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ : أَلَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا : أَقْرَرْنَا . قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .

وفي السنة الصحيحة أن الرسول صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين في المسجد الأقصى . فكانت هذه الإمامة إقرارا مبينا بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه أخذت تمامها على يد محمد بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين . والكشف عن منزلة محمد ودينه ليس مدحا يساق في حفل تكريم . بل هو بيان حقيقة مقررة في عالم الهداية منذ تولت السماء إرشاد الأرض ، ولكنه جاء في إبانته المناسب .

فإن جهاد الدعوة الذي حمله محمد على كواهره عرّضة لعواصف عاتية من البغضاء والافتراء . ومزق شمل أتباعه فما ذاقوا مذاقوا به راحة الركون إلى الأهل والمال . وكان آخر العهد بمشاق الدعوة طرد ثقيف له ثم دخوله البلد الحرام في جوار مشرك . إن هوانه على الناس منذ دعاهم إلى الله جعله يجأ إلى رب الناس شاكيا راجيا . . . فمن تظمين الله له ، ومن نعمائه عليه أن يهيء له هذه الرحلة السماوية لتمسّ فؤاده المعنى ببرد الراحة . وليشعر أنه بعين الله مذاق ما يوحده ويعبده ويعلم البشر توحيد وعبادته . . .

كان يقول : « إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي » فالليلة علم أن حظه من رضوان الله جزيل وأن مكانته بين المصطفين الأخيار موطدة مقدّمة . إن الإسراء والمعراج يقعان قريبا من منتصف فترة الرسالة التي مكثت ثلاثة وعشرين عاما ، وبذلك كانا علاجا مسح متاعب الماضي ووضع بذور النجاح للمستقبل .

إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملكوت السموات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين وتصغير جموعهم ومعرفة عقابهم . وقد عرف محمد في هذه الرحلة أن رسالته ستساح في الأرض وتتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات وتنتزع هذه البقاع من محوسية الفرس وتثليث الروم .

بل إن أهل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلا في أعقاب جيل . وهذا معنى رؤية النيل والفرات في الجنة وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذج والبلهاء .

لقد روى الترمذی مثلاً أن رسول الله قال : « إذا أُعْطِيَ أَحَدُكُمْ الرِّيحَانِ فَلَا يَرِدَّهُ فَإِنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ » . فهل ذلك يدل على أن الریحان من الجنة ونحن نقطف أزهاره من الحقول والحدائق ؟

حكمة الإسراء

ذلك . والله عز وجل يتيح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستنادا إليه إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة ويهاجمون سلطانهم القائم .

فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يُريَه عجائب قدرته فأمره أن يُلقَى عصاه قال : « أَلْقِهَا يَا مُوسَى ، فَأَلْقَاهَا ، فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ، قَالَ : خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى . وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى . لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى » .

فلما ملأ قلبه إعجابا بمشاهد هذه الآيات الكبرى قال له بعد : « اذهب إلى فرعون إنه طغى . . . » .

وقد علمت أن ثمره الإسراء والمعراج إطلاع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى . وربما نقول : إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثني عشر عاما على عكس ما وقع لموسى . وهذا حق . وسرّه ما أسلفنا بيانه من أن الخوارق في سير المرسلين الأولين قُصِدَ بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة فهي تدعيم لجانهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء . وسيرة محمد فوق هذا المستوى فقد تكفل القرآن الكريم

بإقناع أولى النهى من أول يوم ، وجاءت الخوارق في طريق الرسول ضربا من التكريم لشخصه والإيناس له غير معكرة ولا معطلة للمنهج العقلي العادى الذى اشتعره القرآن^(١) .

وقد اقترح المشتركون على النبي أن يرقى في السماء فجاء الجواب من عند الله «قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا» ؟ فلما رقى في السماء بعد لم يذ كر قط أن ذلك ردٌّ على التحدى أو إجابة على الاقتراح السابق . بل كان الأمر كما قلنا محض تكريم ومزيد إعلام ، من الله لعبده . .

إكمال البناء

وفي قصة الإسراء والمعراج تلمح أواصر القربى بين الأنبياء كافة . وهذا المعنى من أصول الإسلام .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » .

والتحيات المتبادلة بين النبي وإخوته السابقين توثق هذه الآصرة . ففي كل سماء أحل الله فيها أحد رسله كان النبي يستقبل فيها بهذه الكلمة : مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ! .

والخلاف بين الأنبياء وهم صنعتهم الأمم الجائرة عن السبيل السوى . أو بالأحرى صنعه الكهان والمتاجرون بالأديان .

أما محمد فقد أظهر أنه مرسل لتكملة البناء الذى تعهده من سبقوه ، ومنع الزلازل من تصديعه . قال رسول الله « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ! ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

والأديان المعتمدة على الوحي السماوى معروفة . وليس منها بداهة ما اصطنعه الناس لأنفسهم من أوثان وطقوس . كالبرهمية والبوذية وغيرها وليس منها كذلك

(١) عقيدة المسلم

ما ابتدع أخيرا من نحل احتضنها الاستعمار الغربى وكثر الأنصار حولها ليشدد الحناق على مقاتل الشرق ويعوق المسلمين الأحرار عن حطم قيوده وإنقاذ عبيده ، وذلك كالبهاية والقاديانية . . .

ومن الممكن لو خلصت النيات ونُشد الحق أن توضع أسس عادلة لوحدة دينية تقوم على احترام المبادئ المشتركة . وإبعاد الهوى عن استغلال الفروق الأخرى إلى أن تزول على الزمن أو تنكسر حدتها .

والإسلام الذى يعدُّ تعاليمه امتداد النبوات الأولى ولبنة مضافة إلى بنائها العتيده أول من يرحب بهذا الاتجاه ويزكيه .

سلامة الفطرة

وفى ليلة الإسراء والمعراج تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين . وهى أنه دين الفطرة فى الحديث « ... ثم أتيتُ بإناء من خمر وإناء من لبن . فأخذتُ اللبن فقال : هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك . . » .

إن سلامة الفطرة لبُّ الإسلام . ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد السريرة عليل القلب . إن الفطرة الفاسدة كالعين الجمثة لا تسيل إلا قدرا وسوادا . وربما أخفى هذا السواد الكريه وراء ألوان زاهية ومظاهر مزوّقة : بيد أن ما ينطلى على الناس لا يُخدع به رب الناس . . . !!

ويوم تكون العبادات نفسها ستارا لفطرة فاسدة فإن هذه العبادات الخبيثة تعتبر أنزل رتبة من المعاصى الفاجرة . . . !!

والناس كلما تقدمت بهم الحضارات أمعنوا فى التكلف والمصانعة ، وقيدوا أنفسهم بعبادات وتقاليد قاسية . وأكثرت هذه التكلفات حجب تطمس وهج الفطرة^(١) وتعكر نقاوتها وطلاقتها . وليس أبغض إلى الله من أن تُفترى هذه القيود باسم الدين ، وأن تُترك النفوس فى سجونها مغلوطة كثيفة . . .

(١) خلق المسلم ؛ والإسلام والمناهج الاشتراكية المؤاف .

فرض الصلاة

وفي المعراج شرعت الصلوات الخمس . شرعت في السماء لتكون معراجا يرقى بالناس كلما تدلّت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا .

والصلوات التي شرع الله غير الصلوات التي يؤديها الآن كثير من الناس . وعلامة صدق الصلاة أن تعصم صاحبها من الدنيا ، وأن تخرجّه من البقاء عليها إن ألم بشيء منها . فإذا كانت الصلاة مع تكرارها لا ترفع صاحبها إلى هذه الدرجة فهي صلاة كاذبة . . .

الصلاة طهور ، كما جاء في السنة ، إلا أنها طهور للإنسان الحي لا للجثة العفنة إن التطهير يزيل ما يعلق بالقلب الحي من غبار عارض . والأعراض التي تلحق المرء في الحياة فتصدى قلبه كثيرة . ومطهراتها أكثر ! .

وفي الحديث « فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه وجاره ، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

أما أصحاب القلوب الميتة فالصلاة لا تجديهم شيئا . . . ولن يزالوا كذلك حتى تحيا قلوبهم أو يوارىها الثرى . . .

وقد رويت سُنَنُ أن رسول الله رأى في هذه الرحلة صوراً شتى لأجزية الصالحين والطالحين . وتناقلت كتب السيرة رواية هذه الصور الجليلة على أنها وقعت ليلة الإسراء والمعراج .

والحق أن ذلك كان رؤيا منام في ليلة أخرى من الليالي المعتادة كما ثبت ذلك في الصحاح .

قريش والإسراء

فلما كانت صبيحة هذه الليلة المشهودة حدث رسول الله الناس بما تم له وما شهد من آيات ربه الكبرى . والذين كذبوا أن يقع وحى على الأرض أترامهم يصدقون به في السماء ؟ لقد طاروا يجمع بعضهم بعضاً ليسمع هذه الأعجوبة فيزداد إنكاراً لرسالة

محمد وريية من أمره . وتحدهاء بعضهم أن يصف بيت المقدس إن كان رآه هذه الليلة حقا ؟ .

عن جابر قال رسول الله : لما كذبتني قريش قت في الحجر ، فجلّى الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه !!

ويقول الدكتور هيكل : « أحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح في هذا لما رأوا فيه عجا . بعد الذى عرف العلم في وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسى للتحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية . . . فما بالك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية في الكون كله ؟ ويستطيع بما وهبه الله من قوة أن يتصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده » ! .

ونحن لا نعلق كبير اهتمام لمعرفة الطريقة التى تم بها الإسراء والمعراج . كلا الأمرين حق ، ترك ثماره في نفس الرسول . فاستراح إلى حمد الخالق وقل أكثراته لنم الحمل من الجاحدين والجاهلين . ثم نشط إلى متابعة الدعوة موقنا أن كل يوم يمر بها هو خطوة إلى النصر القريب . . .

وزعم بعض الكتاب أن فريقاً من المسلمين ارتد عقب الإسراء والمعراج إنكاراً لها . بل يزيد الدكتور هيكل أن المسلمين تضعضعوا على أثر انتشار القصة على الأفواه واستبعاد المشركين لوقوعها . وهذا كله خطأ . فلا الآثار التاريخية تدل عليه ولا الاستنتاج الحصيف ينتهى به . ولا ندرى كيف يقال هذا ؟

مضى رسول الله على نهجه القديم ، يندز بالوحى كل من يلقى ، ويخوض بدعوته الجامع ويفشى المواسم ، ويتبع الحجيج في منازلهم ، ويفبر قدميه إلى أسواق عكاظ ومجنة وذى الحجاز داعياً الناس إلى نبذ الأوثان والاستماع إلى هدى القرآن وكان يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة . ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ويتابعوه ويمنعوه . . .

وكان عمه أبو لهب يمشى وراءه ويقول : لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب ! فيكون جواب القبائل : أسرتك وعشيرتك أعلم بك ! ثم يردونه أقبح الرد .

ومن القبائل التي أتتها الرسول ودعاها إلى الله فأبى الاستجابة له فزاره وغسان
ومرة وحنيفة وسليم وعبس وبنو النضر وكنده وكلب وعذرة والحضارمة وبنو عامر
ابن صعصعة ومحارب بن حفصة . . الخ

ما وجد في هؤلاء قلباً مفتوحاً ولا صدرًا مشروحاً بل كان الراحلون والمقيمون
يقواصون بالبعد عنه ويشيرون إليه بالأصابع . وكان الرجل يجيء من الآفاق البعيدة
فيزوده قومه بهذه الوصاة : احذر غلام قريش لا يفتنك !!!

ومع ذلك فإن الرسول في هذا الجو المقبض لم يخامر اليأس قلبه واستمر مثابراً
في جهاد الدعوة حتى تأذن الحق أخيراً بالفرج .

(٤)

الهجرة العامة مقدماتها ونشأتهما

ف.

حُرِّمَ مشركو مكة الخير كله منذ جحدوا الرسالة وقعدوا بكل صراط يوعدون
ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبنونها عوجاً .

ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الإسلام إن الحق
لا بد أن يعلو ، وأن يثوب إليه المصلِّون والمخدوعون ، على شرط أن يظل أهله أوفياء
له حراساً عليه صابرين محتسبين .

وقد قيض الله للإسلام من استنقذه من البيئة التي صادرتة فأنس بعد وحشة
واستوطن بعد غربة . وشق طريقه في الحياة بعد أن زالت الجلامد الصلدة الملقاة
في مجراه .

وبدأ هذا التحول على أيدي الوفود القادمة من يثرب إلى مكة في مواسم الحج . .

كان أهل يثرب يمتازون عن سائر العرب بجوارهم لليهود . وأفهم عقيدة التوحيد .
وربما حاورهم اليهود في شئون الأديان ونعوا عليهم عبادة الأوثان فإذا اشتد الجدل
وظالت اللجاجة قال لهم اليهود : يوشك أن يبعث الله نبياً فتبذروه وقتلكم معه قتل
عاد وإرم . . . !!

والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبي يوم ظهر فيهم واقرب منهم ،
ولذلك ندد القرآن بمسلكهم المتناقض « ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مُصَدِّقٌ
لما معهم — وكانوا من قبلُ يستفتِحون على الذين كفروا — فلما جاءهم ما عرفوا
كفروا به . . . »

أما العرب الأميون الذين هُدُّوا ببعثته فقد فتحو مسامعهم له ! فعند ما وافى
الموسم وقدمت قبائل يثرب ورأوا الرسول يدعو الناس إلى الله قال بعضهم لبعض :
تعلمون والله يا قوم أن هذا الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه . . . !!
وأخذ ذكر الإسلام يشيع في المدينة رويداً رويداً . فإن لم يُستقبل بترحيب
لم يستقبل بالسباب والحراب .

إن عناصر النفور والمقاومة التي عهدتها في مكة تحولت هنا إلى عناصر احترام
وإقبال . ولم تمض ثلاثة أعوام على تسامع الأنصار الجدد بالإسلام حتى أصبحوا
كهفه الحصين وموئله القريب . . .

فروق بين البلدين مكة ويثرب .

عاشت مكة في مجبوحة من الحياة أمداً طويلاً ، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . وترجع هذه السعة إلى عاملين ، مهارة أهلها التجارية ، ومكانة الحرم الدينية . كلا الأمرين درّ عليها أخلاف الخير فأثرت حتى بطرت ، وشبعت حتى أنحمت . ثم عراها مايعرو كل جماعة تواتيها الحظوظ ويصبغها الترف . من تكبر وقسوة وجود . فلما ظهر فيها الإسلام ، ودعا محمد إلى الحق ، ردت يده في فمه ، وأحدقت به ومن معه ، وملكها العناد من أول يوم ، وأعلنت أن مركزها عاصمة للوثنية ومجماً للأصنام ومثابةً للحجيج ، سيزول إن هي استمعت إلى هذا الدين وأمكنته من البقاء . وحاول الرسول جاهداً أن يقنع أهل مكة بأن قبولهم للحق لن يجرهم ذرة من الخير الذي مُتّعوا به فأبى الظالمون إلا كفورا .

« وقالوا : إن تَبَّعْ الهدى معك نَتَخَطَّفُ من أرضنا . أو لم نمكّنْ لهم حَرَمًا آمنًا يُجِبِّي إليه ثمرات كل شيء ؟ رزقاً من لدنَّا ولكن أكثرهم لا يعلمون » . ومن هنا اشتبك سادة مكة في حرب مع الإسلام اعتبروها دفاعاً عن كياناتهم المادى ووضعهم الاقتصادى إلى جانب ما هنالك من عوامل أخرى . وهذه الحروب معروفة النتائج « وكم أهلكنّا من قريةٍ بَطِرتْ معيشتها . فتلك مساكنهم لم تُسكَن من بعدهم إلا قليلاً . وكنا نحن الوارثين » .

أما الأمر في يثرب فكان على النقيض ، إن الشحنة المتأصلة بين أهلها استنزفت دمائهم وقطعت شملهم وشغلت بعضهم بالبعض حتى أوصلتهم الحروب الدائمة إلى درك أسف له العقلاء وتمنّوا الإيقاد منه . كان الأوس والخزرج — وهم في الأصل قرابة واحدة — يعانون في يثرب آصار هذا الخصام العنيف . ويورثونه أبناءهم حتى يشبوا وهم في مهادم أعداء ! والذى وضع جرثومة هذا الشقاق هم اليهود . .

صنع اليهود

واليهود الذين استقروا في المدينة وأرباضها همبطوا صحراء الجزيرة فارين بدينهم من الاضطهاد الصليبي الذى عمل من قديم على تنصيرهم أو إفنائهم ، ذلك لأن رأى

اليهود في عيسى وأمه شنيع . والنصارى يعتقدون أن اليهود هم قتلة عيسى والموعزون بصلبه !!...

ولاشك أن اليهود شعب نشيط . وأثمهم حيث حلوا يبدلون جهوداً مذكورة للسيطرة على زمام التوجيه المالى ، ولا يزالون بأساليب الختل والمكر لبلوغ أهدافهم ، وقد ألقوا أنفسهم قلة بين العرب أصحاب البلاد . وخشوا أن يفنوا إذا اشتبكوا معهم فى صراع سافر . فاحتالوا حتى زرعوا الضغائن بين الأقرباء . وما زالوا بها حتى آتت ثمرها المر . فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً فى سلسلة متصلة من المعارك التى لا مبرر لها . على حين قوى اليهود وتكاثروا ونمت ثروتهم ، واستحكمت حصونهم وخيف سطوهم .

وقبل الهجرة بيضع سنين وقعت بين الأوس والخزرج معركة بعثت كان النصر قبلها للخزرج ثم عاد للأوس . وبلغ من حدّة الخصام بين الفريقين أن كليهما فكر فى استئصال الآخر وإبادة خضرائه لولا أن تدخل أولو النهى بالنصح أن يُبقوا على أنفسهم وإخوانهم ، فجوارهم أفضل من جوار الثعالب — يعنى اليهود — !
هذه الفتن المتلاحقة جعلت أهل المدينة — عندما ترامت إليهم أنباء الإسلام — يؤملون من ورائه الخير . من يدرى ؟ لعله يحدد حياتهم فيعيد السلام إلى صفوفهم ويهبهم حياة روحية ترجح بكفتهم عن اليهود . .

قال ابن اسحاق : فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز مواعده له خرج رسول الله فى الموسم الذى لقيه فيه نفر من الأنصار . فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم . فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلكم ؟ قالوا : بلى ! فجلسوا معه . فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ...

قال : فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ! فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبتك

إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك !! ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدّقوا ..

كان أولئك النفر طليعة الدعاية الموفقة للإسلام في يثرب . وقد أثمرت جهودهم على عجل ، فلم تبق دار إلا دخلها الإسلام .

حتى إذا استدار العام وأقبل موسم الحج خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلموا — فيهم الستة الذين كلّمهم الرسول في الموسم السابق — وعزموا على الاجتماع برسول الله ليوثقوا معه إسلامهم .

بيعة العقبة الأولى

وقد لقيهم النبيُّ بالعقبة وعقد معهم بيعة على الإيمان بالله وحده والاستمساك بفضائل الأعمال والبعد عن منكرها .

عن عبادة بن الصامت بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى « أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى بهتاناً نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف .

قال : فإن وفيتكم فلکم الجنة . وإن غشيتكم من ذلك شيئاً فأخذتكم بحدّه في الدنيا فهو كفارة له . وإن سترتكم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله . إن شاء عذب وإن شاء غفر » .

هذا ما كان محمد يدعو إليه ، وكانت الجاهلية تنكره عليه . أيكره هذه العهود إلا مجرم يحب للناس الرية ويود للأرض الفساد ؟؟

أثم وفد الأنصار هذه البيعة ثم قفل عائداً إلى يثرب . فرأى النبيُّ أن يبعث معهم أحد الثقات من رجاله ليتعهد نماء الإسلام في المدينة ويقرأ على أهلها القرآن ، ويفقههم في الدين ، ووقع اختياره على مصعب بن عمير ليكون هذا المعلم الأمين .

ونجح مصعب أيما نجاح في نشر الإسلام وجمع الناس عليه ، واستطاع أن يتخطى الصعاب التي توجد دائماً في طريق كل نازح غريب يحاول أن يفقل الناس من

موروثات ألفوها إلى نظام جديد يشمل الحاضر والمستقبل ، ويعم الإيمان والعمل والخلق والسلوك . . .

ولا تحسبنّ مصعباً كأولئك المرتزة من المبشرين الذين دسّهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على الشرق . فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له : هذه القارورة تقدمها لك العذراء ! وهذا الرغيف يهديك إياه المسيح ! وربما فتح مدرسة ظاهرها الثقافة المجردة ، أو ملجأ ظاهره البر الخالص ، ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون ومال بهم حيث يريد . . . !

هذا ضرب من التلصص الروحي يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين . والذين يمثلون هذه المساخر يحدون الجراءة على عملهم من الدول التي تبعث بهم . فإذا رأيت إصرارهم ومغامراتهم فلا تنس القوى التي تساند ظهورهم في البر والبحر والجو . .

أما مصعب فكان من ورائه نبيٌّ مضطهد ورسالة معتبرة ضد القانون السائد وما كان يملك من وسائل الإغراء ما يطمع طلاب الدنيا ونهازي الفرص ، كل ما لديه ثروة من الكياسة والفطنة قبسها من محمد ، وإخلاص لله - جعله يضحى بمال أسرته وجاهها في سبيل عقيدته . . . ثم هذا القرآن الذي يتألق في تلاوته ويتخير من من روائعه ما يغزوه الألباب ، فإذا بالأفئدة ترق له وتتفتح للدين الجديد .

وعاد مصعب إلى رسول الله بمكة قبيل الموسم الحافل يخبره بما لقي الإسلام من قبول حسن في ثرب ويبشره بأن جموعاً غفيرة دخلت فيه عن اقتناع مس شغافهم ، وبصر أنار أفكارهم ، وسوف يرى من وفودهم بهذا الموسم ما تقربه العين . .

بيعة العقبة الكبرى

إن الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا دون شك تاريخه القريب والصعاب الهائلة التي لقيها . وحز في نفوسهم أن يستضعف إخوانهم في مكة وأن يخرج نبيهم وهو يدعو إلى الله فلا ينجيه إلا آثم أو كفور . !!

ولذلك تساءلوا — وهم خارجون من المدينة قاصدون البيت العتيق — حتى متى تترك رسول الله يطوف ويطرّد في جبال مكة ويخاف ؟

لقد بلغ الإيمان أوجه في هذه القلوب القتية . وأن لها أن تنفس عن حماسها ، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية ...

قال جابر بن عبد الله : فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة . فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين . حتى توافينا . فقلنا : يا رسول الله . علام نبأيك ؟ قال : تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر . وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم . وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ، ولكم الجنة ...

فقمنا إليه . وأخذ بيده أسعد بن زرارة — وهو أصغر السبعين بعدى — فقال : رويداً يا أهل يثرب ، فإننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجهم اليوم مناواة للعرب كافة . وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف . فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك نخذه وأجركم على الله ! وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ! فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله ! فقالوا : يا أسعد أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها . فقمنا إليه رجلاً رجلاً فبايعناه ...

وعن كعب بن مالك : نمنا تلك الليلة — ليلة العقبة — مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله تتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا ، نسيية بنت كعب . وأسماء بنت عمرو بن عدى .

فلما اجتمعنا في الشعب تنتظر رسول الله جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب . وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له . فلما جلس كان أول متكلم قال : يا معشر الخزرج ^(١) إن محمدًا منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه . فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده . وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللاحق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه وما منعوه ممن خالفه فأتهم وما تحملتم من ذلك . !!

(١) يقصد أهل يثرب جميعاً من أوس وخزرج .

وإن كنتم ترون أنكم مسالموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده ...

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت . فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك وربك ما أحببت . فتكلم رسول الله . فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام . ثم قال : أبايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . قال كعب ، فأخذ البراء بن معرور بيده وقال : نعم . فوالذي بعثك بالحق لمنعك مما تمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر . فاعترض هذا القول — والبراء يكلم رسول الله — أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال — يعني اليهود — حبالا . وإننا قاطعوها . فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله ! ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم مني . أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم ..

وأمرهم رسول الله أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم النقباء تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فقال لهم الرسول : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم . وأنا كفيل على قومي .

تلكم بيعة العقبة ، وما أبرم فيها من موائيق ، وما دار فيها من محاورات .. إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة قيلت ، وبدأ أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملي العهود كلا . فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم والمغارم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة .

مغانم ؟ أين موضع المغانم في هذه البيعة ؟ ؟ لقد قام الأمر كله على التجرد المحض والبذل الخالص .

هؤلاء السبعون مثلاً لا انتشار الإسلام عن طريق الفسك الحر والافتقار الخاص فقد جاءوا من يثرب مؤمنين أشد الإيمان وملبئين داعي التضحية مع أن معرفتهم بالنبي كانت لحظة عابرة غبرت عليها الأيام وكان الظن بها أن تزول .

لكمنا لا يجوز أى ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة ،
إنه القرآن !! لأن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لما
إن الوحي المشع من السماء أضاء لهم الطريق وأوضح الغاية ...

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن ، سال على السنة الحفظ وتداولته صحائف
السفرة الكرام البررة . والقرآن النازل بمكة صور جزاء الآخرة رأى العين ، فتوشك
أن تم يدك تقطف من أثمار الجنة ، ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل
في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أمهار النعيم والرحيق المختوم !

وحكى القرآن أخبار الأولين وكيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع رسلهم ،
وكيف طغى الكفار ، وأسكروهم الإمهال فتعننوا وتجبروا ثم حل العدل الإلهي ،
فذهب الظالمون بددا وتركوا وراءهم دنيا مدبرة ودورا خربة .

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم...!!

ثم إن الرسول جعل من هذا الإيمان بالحق رباطا يعقد من تلقاء نفسه صلة الحب
والتناصر بين أشتات المؤمنين في المشرق والمغرب . فالمسلم في المدينة — وإن لم ير
أخاه المستضعف في مكة يحنو عليه ويتعصب له ويفض من ظلمه ويقا تل دونه — وذلك
ما استقدم الأنصار من يثرب يجيش في حناياهم مشاعر الولاء لمن أحبهم بالغيب
في ذات الله ...

عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله قال : يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا .
واعلموا أن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم
وقربهم من الله . فجتأ رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء
يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله !! انعمهم لنا . حلهم لنا
— يعنى صفهم لنا — فسُرَّ وجه النبي بسؤال الأعرابي وقال : هم ناس من أفناء
الناس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله وتضافوا ، يضع الله
لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها . فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا
يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

الإيمان بالله والحب فيه والأخوة على دينه والتناصر باسمه . ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها ، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم . وسوف يمنعونهم بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء .

إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه . وأرهقوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم . فناموا نومة المجرم الذي اقترف الإثم وأمن القصاص . حسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تحف سوء ما يأتي به القدر وسالمتك الليالي فافترتت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر أجل . ففي هذه الليلة تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية ، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء .

واستمع شيطان من المشركين كان يحول في مضارب الخيام ومنازل الحجيج إلى الضجة المنبعثة قريبا من العقبة واستطاع أن يقف على جلية الخبر . فصرخ ينذر أهل مكة : « إن محمدا والصبا معه قد اجتمعوا على حربكم . . » !!

وكان صوته جهيرا يوقظ النيام .

وشعر المبائعون كأنهم بالمشركين قد انكشف . فلم يكثرثوا للنتائج . وقال العباس بن عباد : يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لتميلن على أهل منى غدا بأسيا فإنا . فقال رسول الله : لم تؤمر بذلك . ولكن ارجعوا إلى رجالكم . قال كعب : فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا . وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . قال : فانبعث من هناك من مشركي قومنا يلحفون ما كان من هذا شيء وما علمناه . وصدقوا . لم يعلموا . قال كعب : وبعضنا ينظر إلى بعض . بيد أن القرائن تجمعت على أن ما قيل حق . فخرجت قريش تطلب الأنصار ، ففاتوهم . ولم يدركوا غير سعد بن عباد . فعادوا به مغولة يده إلى عنقه وأخذوا

يجذبونه من شعره ويلكزونه ، فأنتقذه منهم جبير بن مطعم والحارث بن حرب إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة .

طلائع الهجرة

إن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له . وقد تنادى المسلمون من كل مكان : هلموا إلى يثرب !! فلم تكن الهجرة تخلصا فقط من الفتنة والاستهزاء ، بل كانت تعاوناً عاماً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن . وأصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد وأن يبذل جهده في تحصينه ورفعته شأنه . وأصبح ترك المدينة بعد الهجرة إليها نكوصاً عن تكاليف الحق وعن نصره الله ورسوله . فالحياة بها دين . لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها .

وفي عصرنا هذا أعجب اليهود بأنفسهم ، وعانق بعضهم بعضاً مهتئاً لأنهم استطاعوا تأسيس وطن قومي لهم بعد أن عاشوا مشردين قروناً طوالاً . ونحن لاننكر جهد اليهود في إقامة هذا الوطن ولا حماس المهاجرين من كل فج للعيش به ومحاولة إحيائه وإعلائه .

ولكن ما أبعد البون بين ماصنع اليهود اليوم — أو بتعبير أدق ماصنع لليهود اليوم — وبين ماصنع الإسلام وبنوه لأنفسهم يوم هاجروا إلى يثرب نجاة بدعوتهم ، وإقامة لدولتهم .

إن اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف ، وحاكوا مؤامراتهم في ميدان السياسة الغربية الناقمة على الإسلام وأهله . فإذا بالعالم كله يهجم على فلسطين بالمال والسلاح والنساء والدهاء ، فلم يستطع مليون عربي حصرتهم الخيانات في مآزق ضيقة أن يصنعوا شيئاً ، فهاموا على وجوههم في الأرض نتيجة اتفاق أمريكا وروسيا وإنجلترا وفرنسا و... ملوك العرب على خذلان أولئك العرب المتعساء ، وبذلك قام الوطن القومي لليهود ، وبثت الدعاية لتشجيع الهجرة إليه ، وإسداء العون له من دهاقين السياسة والمال في أنحاء الدنيا !!..

أين هذا الحضيض من رجال أخلصوا لله طواياهم وترفعت عن المآرب همهم

وذهلوا عن المتاع البذول والأمان المتاح . واستهوتهم المثل العليا وحدها في عالم يعج بالصم البكم ، وربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة البراءة التي اعتنقوها وتبعوها صاحبها المتجرد المكافح وهو لا يني يقول : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ؟؟ » .

إن المدينة الفاضلة التي تعشقها الفلاسفة وتخيّلوا فيها الكمال ، جاءت في سطور الكتب دون ماصنع المهاجرون الأولون وأثبتوا به أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة .

إن المسلمين — بإذن رسول الله — هرعوا من مكة وغيرها إلى يثرب يحدوهم اليقين وترفع رؤوسهم الثقة .

ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة . إنها إكراه رجل آمن في سريره ممتدّ الجذور في مكانه على إهدار مصالحه وتضحية أمواله والنجاة بشخصه فحسب . وإشعاره — وهو يصفى مركزه — بأنه مستباح منهوب قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها . وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم لا يدري ما يتمخض عنه من قلق وأحزان . ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه ل قيل : مغامر طياش ، فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها يحمل أمله وولده ؟ وكيف وهو بذلك رضى الضمير وضاء الوجه ..!!

إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش ! وإيمان بمن ؟ بالله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . وله الحمد في الأولى والآخرة . وهو الحكيم الخبير .

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن ! أما الهيباء الخوار القلق فما يستطيع شيئاً من ذلك . أولئك الذين قال الله فيهم : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ منهم .. » .

أما الرجال الذين التفوا بحمد في مكة ، وقبسوا منه أنوار الهدى ، وتواصوا بالحق والصبر ، فإنهم نفروا خفافاً ساعة قيل لهم : هاجروا إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمنون مستقبله .

ونظر المشركون فإذا ديار بمكة كانت عامرة بأهلها قد أقفرت ، ومحالٌ أحملت .

مرّ عتبة والعباس وأبو جهل على دار عامر بن ربيعة بعد ما غُلِّت . فقد هاجر ربّ الدار وزوجه وأخوه أحمد - وكان رجلاً ضريراً البصر - ونظر عتبة إلى الدار تحفّق أبوابها يباباً ، ليس بها ساكن ! فلما رآها تصفر الريح في جنباتها قال : وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ، ستدرّكها النكباء والحووب ثم قال : أصبحت الدار خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل للعباس : هذا من عمل ابن أخيك ، فرق جماعتنا ، وشئت أمرنا ، وقطع بيننا ..

وأبو جهل بهذا الكلام تبرز فيه طبائع الطغاة كاملة ، فهم يجرمون ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم ، ويقهرون المستضعفين فإذا أبوا الاستكانة فأبأوهم علة المشاكل ومصدر القلاقل .. !!

ومن أول المهاجرين أبو سلمة وزوجه وابنه ، فلما أجمع الخروج قال له أصهاره هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نترك تسير بها في البلاد ؟ وأخذوا منه زوجته ، فغضب آل أبي سلمة لرجلهم ، وقالوا لا تترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجادبوا الغلام بينهم فخلعوا يده وذهبوا به ، وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة ، فكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تسمى نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها وقال : ألا تخرجون من هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها وولدها ، فقالوا لها : الحق بزوجك إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبتها وهاجرت إلى المدينة .

ولما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثرت مالك عندنا وبلغت الذي بلغت . ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك . والله لا يكون ذلك فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتأخّلون سبيلى ؟ . قالوا : نعم ! قال : فإننى قد جعلت لكم مالى . فبلغ ذلك رسول الله فقال : ربح صهيب ربح صهيب ! وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحدانا . حتى كادت مكة تخلو من المسلمين . وشعرت قريش بأن الإسلام ضحت له دار يارز إليها وحصن يحتوى به . وتوجست خيفة من عواقب هذه المرحلة الخطيرة في دعوة محمد . وهاجت في دماغها غرائز السبع المفترس حين يخاف على حياته .

إن محمداً لا يزال في مكة وهو لا بد مدرك أصحابه اليوم أو غداً . فلتعجل به قبل أن يستدير إليها ...

في دار الندوة

واجتمع طواغيت مكة في دار الندوة ليتخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر . فرأى بعضهم أن توضع القيود في يد محمد ، ويشد وثاقه ، ويرمى به في السجن لا يصله منه إلا الطعام ، ويترك على ذلك حتى يموت ...

ورأى آخر أن يُنفى من مكة فلا يدخلها . وتنفض قريش يدها من أمره ... وقد استبعد هذان الاقتراحان لعدم جدواهما ، واستقر الرأي على الاقتراح الذي أبداه أبو جهل . قال أبو جهل : أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسياً وسطاً فتياً ، ثم تعطى كل فتى سيفاً صارماً ، ثم يضربونه جميعاً ضربة رجل واحد . فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها . ولا أظن بني هاشم يقوون على حرب قريش كافة فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها ...

ورضى المؤمنون بهذا الحل للمشكلة التي حيرتهم . وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ . وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ . وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » . إن هذا الحكم لم يتخذ في مجلس سرّ بل في اجتماع عام . ومن الطبيعي أن يعلم به رسول الله . وأن يعرف حقيقة وضعه في مكة . إنهم لا ينتظرون به إلا موعد التنفيذ . ثم يقدمه الطعام قرباناً للأصنام !!..

على أن رسول الله لم يكن ليوعز إلى أصحابه بالهجرة ويتخلف عنهم ، لقد رسم الخطة التي يذهب بها إلى يثرب حين ندب المسلمين للهجرة إليها . روى الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله — وهو يومئذ بمكة — للمسلمين « قد أريت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لابين » فهاجر من هاجر . قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله . ورجع^(١) إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين .

هجرة الرسول

حين عزّم رسول الله على ترك مكة إلى المدينة ألقى الوحي الكريم في قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل « وقل : ربّ أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق . واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » .

ولا نعرف بشراً أحقّ بنصر الله وأجدر بتأييده مثل هذا الرسول الذي لاقى في جنب الله مالاقي . ومع ذلك فإن استحقاق التأييد الأعلى لايعني التفريط قيد أئمة في استجماع أسبابه وتوفير وسائله . ومن ثمّ فإن الرسول أحكم خطة هجرته وأعدّ لكل فرض عدته ولم يدع في حسبانهِ مكاناً للحظوظ العمياء . وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة أن يقوم بها كلّ شيء في النجاح . ثم يتوكل بعد ذلك على الله لأن كل شيء لا قيام له إلا بالله .

فإذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك ، فإن الله لا يلومه على هزيمة تُبل بها . وقلها يحدث ذلك إلا عن قدر قاهر يعذر المرء فيه !! وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً . ثم يحىء عون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمار . كالسفينة التي يشق عباب الماء بها ربان ماهر . فإذا بالتيار يساعدها والريح تهبُّ إلى وجهتها . فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهي إلى غايتها في أقصر من وقتها المقرر .

وهجرة رسول الله مكة إلى المدينة جرت على هذا الغرار . فقد استبق رسول الله معه علياً وأبا بكر وأذن لسائر المؤمنين بتقدمه إلى المدينة .

فأما أبو بكر فإن الرسول قال له حين استأذنه ليهاجر : لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً . وأحسن أبو بكر كأن الرسول يعنى نفسه بهذا الرد ! فابتاع راحلتين فخبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك .

وأما على فإن الرسول هيأه لدور خاص يؤديه في هذه المغامرة المحفوفة بالآخطار ! قال ابن إسحاق : فحدثني من لا أتهم عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت كان لا يخطئ رسول الله أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار ، إما بكرة وإما عشياً ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه رسوله في الهجرة والخروج من مكة

هذا هو الرسول
فما هو

من بين ظهري قومه أتانا رسول الله بالهجرة في ساعة كان لا يأتي فيها . قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله في هذه الساعة إلا لأمر حدث . فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله وليس عند رسول أحد إلا أنا وأختي أسماء . فقال رسول الله : أخرج عني من عندك ! قال : يا رسول الله إنماها ابتأي . وماذاك ؟ — فذاك أبي وأمي —

قال : إن الله أذن لي في الخروج والهجرة . فقال أبو بكر : الصعبة يا رسول الله ؟ قال : الصعبة . . . !

قالت عائشة : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي . . . !!

ثم قال : يا نبي الله إن هاتين الراحتين كنت أعدتهما لهذا . فاستأجرا عبد الله ابن أريقط — وهو مشرك — (!) يدلهما على الطريق . ودفعنا إليه راحتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادها . . .

قال ابن إسحاق : ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله أحد حين خرج — يقصد نوى الخروج — إلا عليٌّ وأبو بكر وآله . أما عليٌّ فإن رسول الله أمره أن يتخلف حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته . . .

درس في سياسة الأمور

ويلاحظ أن النبي ﷺ كتم أسرار مسيره . فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسة بها . ولم يتوسع في إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم . وقد استأجر دليلاً خبيراً بطريق الصحراء . ليستعين بخبرته على مغالبة المطاردين . ونظر في هذا الاختيار إلى الكفاية وحدها . فإذا اكتملت في أحد ولو مشركاً استخدمه وانتفع بموهبته .

ومع هذه المرونة في وضع الخطة فإن النبي ﷺ أصر أن يدفع ثمن راحلته . وأبى أن يتطوع أبو بكر به لأن البذل في هذه الهجرة ضرب من العبادة ينبغى الحرص عليه وتستبعد النيابة فيه .

واتفق الرسول مع أبي بكر على تفاصيل الخروج ، وتخيروا الغار الذى يأوون إليه ، تخيروه جنوباً فى اتجاه اليمن لتضليل المطاردين . وحددوا الأشخاص الذين يتصلون بهم فى أثناء اللجأ إليه ، ومهمة كل شخص . .

ثم عاد الرسول إلى بيته فوجد قريشاً بدأت تضرب الحصار حوله ، وبعثت بالفتيان الذين وكل إليهم اغتيال محمد وتفريق دمه بين القبائل !!

وأوعز الرسول إلى علي بن أبي طالب فى هذه الليلة الرهيبة . أن يرتدى برده الذى ينام فيه وأن يتسجى به على سريره . وفى هجمة من الليل وغفلة من الحرس نسل الرسول من بيته إلى دار أبي بكر . ثم خرج الرجال من خوخة فى ظهرها ... إلى غار ثور . . إلى الغار الذى استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة ومستقبل حضارة كاملة وتركتها فى حراسة الصمت والوحشة والانقطاع ... !!

فى الغار

وسارت الأمور على ماقدراً ، وكان أبو بكر أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما مايقول الناس فيهما ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من أخبار . وأمر عامر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه نهاره ثم يُريحها عليهما إذا أمسى فى الغار . فكان عبد الله بن أبي بكر فى قريش يسمع مايترون به وما يقولون فى شأن رسول الله وأبى بكر . ثم يأتيهما إذا أمسى فيقصّ عليهما ما علم ، وكان عامر فى رُعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا . فإذا غدا عبد الله من عندها إلى مكة أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يُعفى عليه . .

وتلك هى الحيلة البالغة . كما تفرضها الضرورات المعتادة على أى إنسان ...

وانطلق مشركو مكة فى آثار المهاجرين يرصدون الطرق ويفتشون كل مهرب وراحوا ينقبون فى جبال مكة وكهوفها حتى وصلوا فى دأبهم قريباً من غار ثور ، وأنصت الرسول وصاحبه إلى أقدام المطاردين تحفّق إلى جوارهم . فأخذ الروع أبابكر وهمس يحدث رسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا . فقال الرسول : يا أبابكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟ .

ويظهر أن المطاردين داخلهم القنوط من العثور عليهما في هذا الفج فترا كضوا
عائدين وروى أحمد : « أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا الجبل - جبل ثور -
اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت . فقالوا :
لو دخل ها هنا أحد . لم يكن نسج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليل .
ورواية أحمد حسنة ، وإن لم ترد بها السنن الصحاح ، ولم يرد كذلك ذكر
لحمائم باضت على فم الغار أو غير ذلك .

قال الله تعالى في ذكر الهجرة : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا . وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى .
وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

والجنود التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين
من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق . أنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية ،
وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل في ضخامتها ، فقد تفتك جرثومة لا تراها
العين بجيش ذى لب « وما يعلم جنود ربك إلا هو » .

ومن صنع الله لئيبه أن تعمى عنه عيون عداته وهو منهم على مد الطرف ولم يكن
ذلك محاباة من القدر لقوم فرطوا في استكمال أسباب النجاة ، بل هو مكافأة
من القدر لقوم لم يدعوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها ، وكمن خطة يضعها
أصحابها فيبلغون بها نهاية الإتيان تمر بها فترات عصيبة لأمر فوق الإرادة أو وراء
الحسبان . ثم تستقر أخيرا وفق مقتضيات الحكمة العليا وفي حدود قوله تعالى :
والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

في الطريق إلى المدينة

مرت ثلاث ليل على مبيت الرسول في الغار وخمد حماس المشركين في الطلب .
وتأهب المهاجران لاستئناف رحلتهما الصعبة وجاء عبد الله بن أريقط في مواعده
ومعه رواحله قد أعلفها لاستقبال سفر بعيد ، وتروّد الركب ثم سار على اسم الله .

غير أن قريشا ساءها أن تحقق في استرجاع محمد وصاحبه ، فجعلت دية كل واحد منهما جائزة لمن يحيى بهما أحياء أو أمواتا ، ومثتان أو مئة من الأبل في الصحراء ثروة تغرى بركوب المخاطر وتحمل المشاق . وقد قدر رسول الله أن المشركين لن يألوا جهدا في الإساءة إليه ، فالتزم في سيره جانب المحاذرة وأعانتهم مهارة الدليل على سلوك دروب لم تمتد لها القوافل ، ثم أطلق الزمام للرواحل فمضت تصل النهار بالليل .

رى بصدور العيس منخرق الصبا فلم يدّر خلق بعدها أين يمّا ؟
فلما مروا بحى مدجّ مصعدين ، بصّر بهم رجل من الحى فقال : لقد رأيت آنفا أسودة بالساحل ، ما أظنها إلا محمداً وأصحابه ، ففطن إلى الأمر سراقة بن مالك ، ورغب أن تكون الجائزة له خاصة فقال : بل هم فلان وفلان قد خرجوا لحاجة لهم ... ومكث قليلا ثم قام فدخل خبائه وقال لخادمه : اخرج بالفرس من وراء الخباء وموعذك خلف الأكمة .

قال سراقة : فأخذت رمحي وخرجت من ظهر البيت وأنا أخطّ بزجه الأرض ، حتى أتيت فرسى فركبتها ، فدفعتها ففرت بي حتى دنوت منهم . فعترت بي فرسى فحررت عنها ! فقامت ...

وامتطى سراقة فرسه مرة أخرى وزجرها فانطلقت حتى قرب من الرسول وصاحبه . وكان أبو بكر يكثر الالتفات يتبين هذا العدو الجسور ، فلما دنا عرفه . فقال لرسول الله — وكان ماضيا إلى غابته — : هذا سراقة بن مالك قد رهقنا ! وما أتمّ كلامه حتى هوت الفرس مرة أخرى ملقية سراقة من على ظهرها ، فقام معفرا ينادى بالأمان ! !

ووقع في نفس سراقة أن الرسول حق فاعتذر إليه وسأله أن يدعو الله له . وعرض عليهما الزاد والمتاع . فقالا : لا حاجة لنا ولكن عمّ عنا الطلب ، فقال : قد كُفيتم ، ثم رجع فوجد الناس جادين في البحث عن محمد وصاحبه ! فجعل لا يلقى أحداً من الطلب إلا ردّه وهو يقول : قد كُفيتم هذا الوجه !

أصبح أول النهار جاهدا عليهما ، وآمسى آخره حارسا لهما ... !!

دعاء

إن أسفار الصحراء توهى العالقة الآمنين . فكيف بركب مهدر الدم
مستباح الحق ؟ .

ما يحسّ هذه المتاعب إلا من صلى نازها . لقد برزنا لوهج الظهيرة يوما فكادت
الأشعة البيضاء المنعكسة على الرمال تخطف أبصارنا . فعدنا مغمضين نستبق
من عيوننا ما خفنا ضياعه .

وعندما تصبح وتمسى وسط وهاد ونجاد لا تنتهى حتى تبدأ ، تخال العالم كله
مهامه مغبرة الأرجاء داكنة الأرض والسماء .

وجرت عادة المسافرين أن يأووا فى القيولة إلى أى ظل ، فى بطاح يتعل
كل شئ فيها ظلة . حتى إذا جنحت الشمس للغيب ، تحركت المطايا اللاغبة
تغالب الجفاف والكرى .

وللعرب طاقة على احتمال هذا الشظف . مع قلة الزاد والرى . وقد مر بك
أن الرسول وهو طفل قطع هذه الطريق . ذهب مع أمه لزيارة قبر أبيه ثم عاد وحده !
وإنه الآن ليقطعها وقد بلغ الثالثة والخمسين لزيارة أبويه اللذين ماتا بالمدينة ،
بل لرعاية رسالته التى تشبث بأرض يثرب جذورها بعدما تبرمت مكة بها
وبصاحبها وبمن حوله ...

إنه أرسخ أهل الأرض يقينا بأن الله ناصره ومظهر دينه ، بيد أنه أسيف
للفظاظلة التى قوبل بها وللجحود الذى لاحته من بدء رسالته حتى اضطره إلى الهجرة
على هذا النحو العنيف . ها هو ذا يخرج من مكة وقد أعلن سادتها عن الجواز
المغرية لمن يغتاله ...

روى أبو نعيم أن رسول الله لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله قال :
« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً . اللهم أعننى على هول الدنيا وبوائق الدهر ،
ومصائب الليالى والأيام . اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى
فىما رزقتنى ، ولك فذللتنى ، وعلى صالح خلقى فقوّمنى . وإليك ربّ فخبّئى .
وإلى الناس فلا تكلى . ربّ المستضعفين وأنت ربّى . أعوذ بوجهك الكريم

الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات وصلاح عليه أمر الأولين
والآخرين أن تُحِلَّ عَلَى غضبك ، وتُنْزِلَ بِي سَخَطِكَ . وأعوذ بك من زوال نعمتك
وفجأة تقمّتك وتحوّل عافيتك وجميع سخطك . لك العتبى عندى خير ما استطعت .
لولا حول ولا قوة إلا بك » .

ومما يلفت النظر أن انطلاق الرسول من مكة شاع في جوانب الصحراء وكأن
أسلاك البرق طيّرته إلى أقصى البقاع . فعلم به البدو والحضر على طول الطريق
حتى يثرب . بل إن المحالّ التى عرّج بها وصل نبؤها إلى أهل مكة بعد أن
انصرف عنها ! .

والناس يعجبون بقصص البطولة ، وتستثيرهم ألوان التحدى . وهم يتناقلون
الأخبار السيالة على الألسن ، فيضفون عليها ثياب الأساطير . وقد سرّت قلوب
كثيرة بغلب محمد على من تبعوه ، وترجمت عواطفها هذه شعراً يُتَغَنَّى به
ولا يعرف قائله ...!!

من ذلك ما روى عن أسماء بنت أبي بكر قالت : مكثنا ثلاث ليال ماندرى :
أين وجه رسول الله حتى أقبل رجل من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر :
جزى الله ربّ الناس خير جزائه رفيقين حلاً خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم ترّوّا .. فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهنّ بنى كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد ! .
قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ، وأن وجهه إلى المدينة !
من القائل ؟ تذكر الرواية أنه من الجنّ ! وتلك عادة العرب فى نسبة شعرها ،
فلكل شاعر عندهم شيطان ...!!

والراجح أن الأبيات المذكورة من إنشاد مؤمن يكتم إيمانه بمكة . ويتسمع
أخبار المهاجرين فيبدى فرحته بما يلقون من توفيق ، ويمجد متنفساً لمشاعره المتوارية
فى هذا الغناء المرسل ..

والأبيات تشير إلى واقعة عرضت للرسول فى أثناء رحلته . فقد مر على منازل
خزاعة ، ودخل خيمة أم معبد ، فاستراح بها قليلاً ، وشرب من لبن شاتها .

الوصول إلى المدينة

وكذلك ترامت أخبار المهاجر العظيم وصاحبه إلى المدينة ، فكان أهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد ، ويتشوفون إلى مقدمه بلهفة . فإذا اشتد عليهم الحرّ عادوا إلى بيوتهم يتواعدون الغد وملء جوارحهم الترقّب والقلق والرجاء .

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول ثلاث عشر سنة من البعثة برز الأنصار على عبادتهم منذ سمعوا بمخرج الرسول إليهم ، ووقفوا بظاهر المدينة ينتظرون طلعه ويودون رؤيته . فلما حمت الظهيرة وكادوا ييأسون من مجيئه وينقلبون إلى بيوتهم صعد رجل من اليهود على أطم من آطامها ، لبعض شأنه ، فرأى الرسول وصحبه يتقاذفهم السراب ، وتدنو بهم الرواحل رويداً رويداً إلى المدينة ، إلى وطن الإسلام الجديد ، فصرخ اليهود بأعلى صوته : يا بني قبيلة ، هذا صاحبكم قد جاء هذا جدكم الذي تنتظرون ...

فأسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم . وسمع التكبير رُجّ أنحاء المدينة . ولبست يثرب حلة العيد ومباهجه .

قال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلوا يقرئان الناس القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد . ثم جاء عمر ابن الخطاب في عشرين راكباً . . . ثم جاء رسول الله . فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به ، حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء .

يا عجبا لتقائض الحياة واختلاف الناس ! إن الذي شهرت مكة سلاحها لتقتله ، ولم ترحع عنه إلا مقهورة استقبلته المدينة وهي جذلانة طروب ، وتنافس رجالها يعرضون عليه المنعة والمعدة والعدد . . . ومن الطريف أن كثيراً من أهل المدينة لم يكن رأى رسول الله ، فلما قدم الركب لم يعرفوه من أبي بكر لأول وهلة حتى أن العواتق كن يتراءينه فوق البيوت يقلن : أيهم هو ؟

ونزل النبي في بني عمرو بن عوف فأقام فيهم أربع عشرة ليلة أسس خلالها مسجد

قباء . وهو أول مسجد أسس في الإسلام ، وفيه نزل قوله تعالى : « مسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يُحِبُّون أن يتطهروا . . »

الاستقرار بالمدينة

رجل العقيدة يسير طوعاً لها ، ويجد طمأنينته حيث تقرر عقيدته وتلقى الرحب والسعة . .

والناس ينشدون سعادتهم فيما تعلقت به همهم وجاشت به أمانيتهم وهم ينظرون إلى الدنيا وحظوظهم منها على ضوء مارسب في نفوسهم من عواطف وأفكار . . فطالب الرعامة يرضى أو ينقم ، وينشط أو يكسل ، بمقدار قربه أو بعده من أملة الحبيب .

انظر إلى المتنبى كم مدح وبها ؟ وكيف انتقل من الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى غيرها وانظر إلى ذكره أحاديث الناس عنه وعن بغيته . يقولون لى : ما أنت ؟ فى كل بلدة وما تبغى ؟ ما تبغى جل أن يُسمى والذى جل أن يسمى صرَّح به فى مكان آخر فطلب أن تُناط به ضيعة أو ولاية !! أى بعض ما وضعته الحظوظ فى أيدي الملوك والملاك . وإنه ليتعجل هذا الأمل من كافور فيقول :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أنا له ؟ فإنى أغنى منذ حين وتشرب ! والمتنبى فى نظرى أهل - بكفايته - للمناصب الرفيعة . ولكن التطلع إلى الدنيا بهذا النزق والإلحاح ، محكوم بالمشيئة التى ذكرتها الآية الكريمة « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد . . »

ومن الناس من يتعشق الجمال ويجرى وراء النساء ويجد فى المتعة بهن نهيمته التى يسكن بعدها ويستكين ، ويقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور الميون ومنهم من يبحث عن المال ويقضى سحابة نهاره وشطر ليله يتتبع الأرقام فى دفاتره ، يحصى ما وقع فى يده ويتربص بما لم يقع . وربما ذهل عن طعامه ولباسه فى غريزة الاقتناء التى سدَّت عليه المنافذ .

إلى جانب هذه الأصناف تجد فريقاً آخر من البشر لا يطيق الكفّ عن إسداء
الجميل وبذل النصيحة ورعاية الصالح العام وإفناء ذاته في سبيل الفضائل التي ملكت
لـه وعمرت قلبه ...

إنه يبیت مُسَهِّداً لو فرط في واجب ... راحته الكبرى في نشدان الكمال .
وسعادته القصوى يوم يدرك منه سهمها ...

وأصحاب الرسالات رهناء ما تحملوا من أمانات ضخمة ، فغانهم ومغارهم
وحلهم وترحالهم وصدقاتهم وخصومتهم ترجع كلها إلى المعاني التي ارتبطوا بها .
وحيوا لأجلها ...

وصاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله ضرب من نفسه المثل الفذ للمكافئين
فخذ أخذ على عاتقه تمزيق الأسداف التي ألقّت على العالم ليلاً كثيفاً من الشرك
والخرافة . لم يفلح أحد في ثنيه عن عزمه أو تعويق مسيره أو ترضيته برغبة أو رده
برهبة ، وفنيت أمام عينيه فوارق الزمان والمكان ، فالغريب عنه إذا عرف الحق قريب
ووطنه إذا تنكر للهدى فهو منه برىء . والمؤمنون به آخر الدهر هم إخوته وإن لم
يشاهدوه ...

ولقد عاش في مكة ثلاثة وخمسين عاماً حتى ألفتها وألفته لكنه اليوم يخرج منها
إلى وطن جديد يرى فيه امتداد قلبه وثمار غرسه .

والرجال الذين تتبع سعادتهم من قلوبهم ويرتبطون أمام ضمائرهم بمبادئهم
لا يكرمون بيئة بعينها إلا أن تكون صدق لما يريدون ...

فلا غرو إذا دخل محمد المدينة دخول الوامق المعتزّ . واستبشر بما آتاه الله فيها
من فتح . وتوسم من وراء هذه الهجرة بشار الخير والنصر .

ثوى في قريش بضع عشرة حِجَّة	يذكر لو يلقى حبيباً موالياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه	فلم يرَ من يؤوى ولم يرَ واعيا
فلما أتانا واستقرت به النوى	وأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وأصبح لا يخشى ظلامه ظالم	بعيد ولا يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من جل مالنا	وأنفسنا عند الوغى والتأسيا

نعاذى الذى عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا رب غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا

إن تنظيم الهجرة واستقبال اللاجئين الفارين بدينهم من شتى البقاع ليس بالعمل
الهيّن . وفى عصرنا الحاضر تعتبر هذه الحال مشكلة تحتاج إلى الحل السريع !

ومتى خلت حياة الرجل العظيم من المشاكل ؟

وصادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة بحمى الملاريا . . فلم تمض أيام حتى
مرض بها أبو بكر ، وبلال . واستوخم الصحابة جوّ المهجر الذى آواهم . ثم أخذت
تستيقظ غراز الحنين إلى الوطن المفقود . . فكان النبىُّ يُصبرُ الصحابة على احتمال
الشدائد . ويطلبهم بالمزيد من الجهد والتضحية لنصرة الإسلام وقال : « لا يصبر على
لأواء المدينة وشدها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعاً وشهيدا يوم القيامة ، ولا يدعها
أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه »

وهذا ضرب من جمع القلوب على المهجر الحديد حتى تطيب به وتنفر من مغادرته .
وعن عائشة قالت : لما قدم النبىُّ المدينة وعك أبو بكر وبلال ، فدخلت عليهما
فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ وكان أبو بكر إذا أخذه
الحمى يقول :

كل امرئ مصبِّح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله
وكان بلال إذا أفلع عنه رفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعرى هل آيتنّ ليلة بوادٍ ، وحولى إذخر وجيل ؟
وهل أردنّ يوماً مياه مجنة وهل يبدؤنّ لى شامة وطفيل ؟^(١)

قالت : فأخبرت رسول الله بذلك فقال : « اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة
أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا فى مُدّها وصاعها ، وانقل حمّاها واجعلها بالجحفة »
وعن أنس قال رسول الله : « اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَى ما جعلت بمكة
من البركة »

وعن أبي هريرة قال : « كان رسول الله إذا أتى بأول الثمر قال : اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارنا وفي مدنا وفي صاعنا ، بركة مع بركة ، اللهم إن إبراهيم عبدك ونيبك وخليك وإني عبدك ونيبك وإنه دعاك لمكة ، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » ثم يعطيه أصغر من يحضر من الولدان ...

بهذا التشويق والإقبال ارتفع الروح المعنوى بين المسلمين ، واتجهت القوى الفتية إلى البناء ، متناسية الماضى وما يضم من ذكريات ، إن الهجرة الخالصة لا تعود في هبة ولا ترجع عن تضحية ولا تبكى على فائت ، بل هي كما قال الشاعر :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكذب إليه بوجه آخر الدهر تقبل ... !!

(٥)

اسس البناء للمجتمع الجديد

ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس همها أن تعيش بأي أسلوب ، أو تخط طريقها في الحياة إلى أى وجهة . ومادامت تجد القوت واللذة فقد أراحت واستراحت . كلا كلا فالسالمون أحباب عقيدة تحدد صلتهم بالله وتوضح نظرهم إلى الحياة وتنظم شئونهم في الداخل على أنحاء خاصة وتسوق صلاتهم بالخارج إلى غايات معينة ... وفرق بين امرئ يقول لك : همى في الدنيا أن أحيا فحسب ! وآخر يقول لك : إذا لم أحرس الشرف وأصن الحقوق وأرض الله وأعضب من أجله فلا سعت بي قدم ولا طرفت لى عين ... !!

* والمهاجرون إلى المدينة لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء ثراء أو استعلاء .
والأنصار الذين استقبلوهم وناصبوا قومهم العدا وأهدفوا أعناقهم للقاصي والداني
لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق ...

إنهم جميعا يريدون أن يستضيئوا بالوحي ، وأن يحصلوا على رضوان الله ، وأن يحققوا الحكمة العليا التي من أجلها خلق الناس وقامت الحياة . وهل الإنسان إذا جحد ربّه وتبع هواه إلا حيوان ذميم أو شيطان رجيم ؟
من هنا شغل رسول الله أول مستقره بالمدينة بوضع الدعائم التي لا بد منها لقيام رسالته . وتبين معالمها في الشئون الآتية :

- ١ — صلة الأمة بالله .
- ٢ — صلة الأمة بعضها ببعض الآخر .
- ٣ — صلة الأمة بالأجانب عنها . ممن لا يدينون دينها .

المسجد

ففي الأمر الأول بادر الرسول إلى بناء المسجد لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت . ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين ، وتنقى القلب من أدران الأرض ودسائس الحياة الدنيا .

والمروى أن الرسول بنى مسجده الجامع حيث بركت ناقته ، في مربد لغلّامين يكفلهما أسعد بن زرارة . وكان الغلامان يريدان النزول عنه لله فأبى الرسول إلا ابتياعه

بشمه ! وكان المرید يُتخذ مصلى كهذه المصلیات التي تنتشر في ربفنا . كانت تنبت فيه نخيل وشجر غرقد . وتحتفى في ترابه بعض قبور للمشرکین .

فأمر الرسول بالنخل فقطع ، وبالقبور^(١) فنبتت !؟ وبالحرب فسويت . وصفوا النخل قبله للمسجد — والقبلة يومئذ بیت المقدس — وجعل طوله مما يلي القبلة إلى المؤخرة مائة ذراع والجانبان مثل ذلك تقريبا . وجعلت عضاداته من الحجارة ، وحفر الأساس ثلاثة أذرع ، ثم بنى باللبن . واشترك الرسول وأصحابه في حمل اللبنة والأحجار على كواهلهم .

وكانوا يروحون عن أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء ... بهذا الغناء .

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاعفر للأنصار والمهاجرة !!
وقد ضاعف حماس الصحابة في العمل رؤيتهم النبيَّ يجهّد كأحدهم . ويكره أن يتميز عليهم . فارتجز بعضهم هذا البيت .

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل !!
وتم المسجد في حدود البساطة ، فراشه الرمال والحصاء وسقفه الجريد وأعمدته الجذوع . وربما أمطرت السماء فأولحت أرضه . وقد تغلت الكلاب إليه فتغدو وتروح ...
هذا البناء المتواضع الساذج هو الذي ربى ملائكة البشر ومؤدبي الجبارة وملوك الدار الآخرة . في هذا المسجد أذن الرحمن لنبيِّ يوم بالقرآن خيرة من آمن به ، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل .

إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي . فهو ساحة للعبادة ومدرسة للعلم وندوة للأدب . وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هي لباب الإسلام لكن الناس لما أعياهم بناء النفوس على الخلائق الجليلة ، استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة تضم مصليين أقراما !!
أما الأسلاف الكبار فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشبيدها إلى تركية أنفسهم وتقويمها فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام ...

والمسجد الذي وجه الرسول همته إلى بنائه قبل أي عمل آخر بالمدينة ليس أرضاً تحتكر العبادة فوقها . فالأرض كلها مسجد . والمسلم لا يتقيد في عبادته بمكان .

(١) هي أجداث أتى عليها البلى حتى هجرت فلا يدفن بها أحد .

إنما هو رمز لما يكثر له الإسلام أعظم اكتراث ويتشبه به أشد تشبث وهو وصل العباد بربهم وصلاً يتجدد مع الزمن ويتكرر مع آناء الليل والنهار . فلا قيمة للحضارة تذهل عن الإله الواحد ، وتجهل اليوم الآخر ، وتخطط المعروف بالنكر !
والحضارة التي جاء بها الإسلام . تذكر أبدأ بالله وبلقائه وتمسك بالمعروف وتبغض في النكر وتقف على حدود الله ...

ولقد شاهد يهود المدينة ومشركوها هذا الرسول الجديد يحتشد مع حبه في إقامة المسجد يمهده للصلاة فهل رأوا سيرة تريب أو مسلكا يغمز ؟ ؟

روى البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف قال : كانت أول خطبة خطبها رسول الله بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم . تعلمن والله ليضعن أحدكم . ثم ليدعن غنمه ليس لها راع . ثم ليقولن له ربّه — ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه — : ألم يأتك رسولي قبلك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا . ثم ينظر قدماه فلا يرى غير جهنم . فمن استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة . فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم وعلى رسول الله ... !!!

الأخوة

أما عن الأمر الثاني * — وهو صلة الأمة بعضها ببعض الآخر — فقد أقامه الرسول على الإخاء الكامل . الإخاء الذي تمحى فيه كلمة أنا . ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها . فلا يرى لنفسه كيانا دونها ، ولا امتدادا إلا فيها ... ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبية الجاهلية فلا حمية إلا للإسلام . وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن . فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءة وتقواه .. وقد جعل الرسول هذه الأخوة عقدا نافذا لا لفظا فارغا ، وعملا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر ... !

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تترجخ في هذه الأخوة وتلأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال ...

حَرَصَ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَفَاوَةِ بِإِخْوَانِهِمُ الْمُهَاجِرِينَ . فَمَا نَزَلَ مُهَاجِرٌ عَلَى أَنْصَارِيٍّ إِلَّا بِقِرْعَةٍ ! ! وَقَدَّرَ الْمُهَاجِرُونَ هَذَا الْبَذْلَ الْخَالِصَ فَمَا اسْتَفْلَوْهُ ، وَلَا نَالُوا مِنْهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى الْعَمَلِ الْحَرِّ الشَّرِيفِ . .

رَوَى الْبُخَارِيُّ أَنَّهُمْ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ أَخَى رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ الرَّيْعِ : فَقَالَ سَعْدٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ : إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا ، فَأَقْسِمُ مَالِي نَصْفَيْنِ ، وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجِبَهُمَا إِلَيْكَ ! فَسَمَّيَاهُمَا لِي أَطْلَقَهَا ، فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ، أَيْنَ سَوْقُكُمْ ؟ ؟ فَدَلُّوهُ عَلَى سَوْقِ بَنِي قَيْنِقَاعَ ، فَمَا انْقَلَبَ إِلَّا وَمَعَهُ فَضْلٌ مِنْ أَقْطٍ وَسَمْنٍ ! ! ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ ... ثُمَّ جَاءَ يَوْمًا ، وَبِهِ أَثَرُ صَفْرَةٍ ^(١) ، فَقَالَ النَّبِيُّ : مَهْمٌ ^(٢) ؟ قَالَ : تَزَوَّجْتُ ! قَالَ : كَمْ سَقَتْ إِلَيْهَا ، قَالَ : نَوَافَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ! ! ...

وإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِسَمَاحَةِ سَعْدٍ لَا يَعْدِلُهُ إِلَّا إِعْجَابُهُ بِبَذْلِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، هَذَا الَّذِي زَاحَمَ الْيَهُودَ فِي سَوْقِهِمْ وَبَزَّاهُمْ فِي مِيْدَانِهِمْ . وَاسْتَطَاعَ بَعْدَ أَيَّامٍ أَنْ يَكْسِبَ مَا يُعْفَى بِهِ نَفْسَهُ وَيُحَصِّنَ بِهِ فَرْجَهُ . إِنْ عَلُوُ الْهَمَّةِ مِنْ خِلَاقِ الْإِيمَانِ . وَقَبْحُ اللَّهِ وَجْوهَ أَقْوَامٍ انْتَسَبُوا لِلْإِسْلَامِ فَأَكَلُوهُ . وَأَكَلُوا بِهِ . حَتَّى أَضَاعُوا كِرَامَةَ الْحَقِّ فِي هَذَا الْعَالَمِ ... وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ الْأَخُ الْأَكْبَرُ لِهَذِهِ الْجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنَةِ . لَمْ يَتَمَيَّزْ عَنْهُمْ بِلِقَبٍ إِعْظَامٍ خَاصٍّ وَفِي الْحَدِيثِ « لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُهُ - يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ - خَلِيلًا وَلَكِنْ إِخْوَةَ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ » .

وَالْإِخَاءُ الْحَقِّي لَا يَنْبَغُ فِي الْبَيْئَاتِ الْخَسِيسَةِ فَحَيْثُ يَشِيعُ الْجَهْلُ وَالنَّقْصُ وَالْجَبْنُ وَالبُخْلُ وَالْجَشْعُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْحَ إِخَاءٌ أَوْ تَتَرَعَّرَ حُبَّةٌ . وَلَوْلَا أَنْ أَحْبَبَ رَسُولُ اللَّهِ جَبِلُوا عَلَى شِمَائِلِ نَقِيَّةٍ ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى مَبَادِي رِضْيَةٍ مَاسَجَلَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا هَذَا التَّأَخِّيَ الْوَثِيقَ فِي ذَاتِ اللَّهِ . فَسَمَوْا الْغَايَةَ الَّتِي اتَّقَوْا عَلَيْهَا . وَجَلَّالَ الْأَسْوَةِ الَّتِي قَادَتْهُمْ إِلَيْهَا نِيْمًا فِيهِمْ جَلَالُ الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ وَلَمْ يَدْعَا مَكَانًا لِنَجْوَمِ خَلَّةٍ رَدِيئَةٍ ! ! !

ذَلِكَ . ثُمَّ إِنْ مُحَمَّدًا كَانَ إِنْسَانًا تَجْمَعُ فِيهِ مَا تَفْرُقُ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ كُلِّهِ مِنْ أَعْجَادٍ وَمَوَاهِبٍ وَخَيْرَاتٍ . وَصُورَةً لِأَعْلَى قِمَّةٍ مِنَ السَّكَمَالِ يُمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَهَا بَشَرٌ . فَلَا غَرْوَ إِذَا

(١) زينة .

(٢) - سؤال عن حاله .

كان الذين قبسوا منه ، وداروا في فلسكه ، رجالا يحيون بالنجدة والوفاء والسخاء . .
إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده ، ولا يتكلف استخراجة بالآلات والأنتقال
والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم وإنما هي أثر تخلص الناس من نوازع الأثرة
والشح والضعة . وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين لأنهم ارتقوا بالإسلام
في نواحي حياتهم كلها فكانوا عباد الله إخواناً . ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم
على بعض !!

على أن تنوينا بقيمة التسامى النفساني في تأسيس الإخاء لا يمنع إلّاكم من
فرضه على الناس نظاماً يؤخذون بحقوقه أخذاً ، فإذا لم يؤدوها طوعاً أدوها كرهاً .
وذلك كما يجبرون على العلم ، والجندية ، وأداء الضرائب ، وغير ذلك .

وقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقعة
بدر . حتى نزل قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله . إن
الله بكل شيء عليم » . فألغى التوارث بعقد الأخوة ورجع إلى ذوى الرحم .
وروى البخارى عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : « ولكل جعلنا موالى »
مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ... »

قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرون الأنصارى دون ذوى رحمه
للأخوة التى آخى النبي بينهم . فلما نزلت « لكل جعلنا موالى ... » نسخت ذلك
ثم قال « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ... » من النصر والرفادة والنصيحة
وقد ذهب الميراث ويوصى له ...

وروى في تفصيل هذا الإخاء ، أن النبي تأخى مع علي . وتأخى حمزة مع زيد ،
وأبو بكر مع خارجة ، وعمر مع عتيبان بن مالك ... إلخ
ومن العلماء من يشك في أخوة الرسول مع علي . ولكن ما صح أن رسول الله
جعل علياً منه بمنزلة هرون من موسى يؤيد هذه الرواية . وليس يחדش هذا من منزلة
أبي بكر ولا استحقاقه الصدارة ...

غير المسلمين

أما الأمر الثالث . وهو صلة الأمة بالأجانب عنها الذين لا يدينون بدينها ، فإن الرسول قد سنّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي ، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر ، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط ، هو رجل مخطيء بل متحامل جرىء ... !!

عندما جاء النبي ﷺ إلى المدينة وجد بها يهود توطنوا ، ومشركين مستقرين : فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام ، بل قبل عن طيب خاطر وجود اليهودية والوثنية وعرض على الفريقين أن يعاھدھم معاھدة الند للند على أن لهم دينهم وله دينه ، ونحن نقتطف فقرات من نصوص المعاھدة التي أبرمها مع اليهود دليلا على اتجاه الإسلام في هذا الشأن .

جاء في هذه المعاھدة أن المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاھد معهم أمة واحدة ...

وأن المؤمنين المتقين على من بنى منهم أو ابتغى دسيسة^(١) ظلم أو أثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم !!

وأنه لا يجير مشركاً مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن ...
وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر ^{مُخَدَّثاً}^(٢) ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين .

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .

وأن لليهود بني النجار والحارث وساعدة وبني جشم وبني الأوس الخ .

مثل ما لليهود بني عوف ...

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبر دون الأثم .

وأنّه لم يَأْثَمْ امرؤٌ بحليفه ، وأنّ النصر للمظلوم ، وأنّ الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

وأنّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه ... !

وأنّ بينهم النصر على من دهم يثرب .

وأنّ من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن ألاّ من ظلم وأثم ...

وأنّ الله جارٌ لمن بر واتقى ...

وهذه الوثيقة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة لنشر السكينة في ربوعها ، والضرب على أيدي العابدين ومدمري الفتن أيا كان دينهم . وقد نصت بوضوح على أن حرية الدين مكفولة . فليس هناك أدنى تفكير في محاربة طائفة أو إكراه مستضعف . بل تكاثفت العبارات في هذه المعاهدة على نصرة المظلوم وحماية الجار ورعاية الحقوق الخاصة والعامة . واستنزل تأييد الله على أبرّ مافيهما وأتقاه كما استنزل غضبه على من يخون ويفش ...

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدوّ . وقررت حرية الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها ، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها .

وبلاحظ أنّ الرسول في هذه المعاهدة أشار إلى العداوة القائمة بين المسلمين ومشركي مكة . وأعلن رفضه الحاسم لموالاتهم وحرّم إساءة أى عون لهم . وهل ينتظر إلا هذا الموقف من قوم لا تزال جروحهم تقطر دما لبغى لقريش وأحلافها عليهم ؟

أكان اليهود صادقين في موافقتهم على هذا العهد ؟

أغلب الظن أنّهم لم يكونوا جادين حين ارتضوه وقبلوا إنفاذه . وآفة العهود أن يرتبط الوفاء بها بمدى المنفعة المرجوة منها . فإذا بدا أنّ المعاهدة المبرمة لا تحقق المطامع المتبتة قل التمسك بها ، والتمست الفرص للتحلل منها ...

وقد كان اليهود يبنون عظمته المادية والسياسية على تفرق العرب قبائل متناحرة .

فلما دخل العرب في الإسلام وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى . وتتابعت الأيام
تؤكد أن الإسلام سوف يصنع من العرب أمة واحدة .. استشعر اليهود القلق
وساورتهم الهموم ، وشرعوا يفكرون في السكيد لهذا الدين والتربص بأتباعه ...

ثم إن اليهود في المدينة يكوّنون البيئة التي تتوافر فيها سوءات التدين المصنوع .
والاحتراف السمج بمبادئ السماء . وأبرز خلال هذه البيئات الحقد والنفاق والتمسك
بالتشور والولع بالجدل . ومن وراء ذلك قلوب خربة ونفوس معوجة .
وربما اقتبسوا من جوارهم للعرب بعض فضائل الصحراء كالكرم والشجاعة .
بيد أن انطواءهم العنصرى غلب على سيرتهم . فالتصقت هذه الفضائل بنفوسهم كما
تلتصق أوراق الزينة بالجدران المشوّهة ...

وكان المتوقع أن يرحب اليهود بالإسلام ، فإذا لم يرحبوا به فليكونوا أبطاً من
الوثنيين في خاصته . فإن محمداً يدعو إلى توحيد الله وإصلاح العمل والاستعداد لحياة
أرقى في الدار الآخرة . والدين الذي جاء به وقرّ موسى وأعلى شأنه ونوّه بكتابه .
وطلب من اليهود أن ينفذوا أحكامه ويلزموا حدوده . لكن اليهود صمتوا أولاً صمت
المستريب . ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالجحود !!

وهذا الترحيب المتوقع تلمح دلائله في كثير من الآيات . فإن عبدة الأصنام إذا
أنكروا النبوة فأهل الكتاب يجب أن يشهدوا بها « ويقول الذين كفروا : لست
مرسلاً . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

وعبدة الأصنام إذا رفضوا التذكير بالله . فأهل الكتاب أحق بأن يخشعوا إذا
وجدوا من يذكرهم به « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون . الذين آتيناهم
الكتاب من قبله هم به يؤمنون .. »

غير أنك تدهش إذ تجد الجرأة على الله والنفور من أحكامه ووصفه بما لا يليق
شائعة بين اليهود شيوعها بين المشركين !!

فإذا غضب الإسلام على من ينسب إلى الله ولدا ، بشراً أو حجباً . فماذا ترى
فيمن يصف رب السموات والأرض بالفقر والبخل ؟

« وقالت اليهود : يدُ الله مغلولَةٌ . غُلَّتْ أيديهم ! ولُعِنُوا بما قالوا ... »

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء . سنكتبُ ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حقٍ . ونقولُ : ذوقوا عذابَ الحريقِ » .

على أن الإسلام يدع أولئك الجحدة في ضلالهم فلا يستأصل كفرهم بالسيف ، ويكتفي بأن يعلن دعوته ويكشف حقيقته ويملاً الجوَّ بآياته ومعالمه . فمن استراح إليها فدخل فيها . فيها ونعمت . وإلا فهو وشأنه . ولا يطلبه الإسلام بشيء إلا الأدب والمسالمة وترك الحق يسير من غير عائق أو نكير ...

ولقد جاء رسول الله إلى المدينة فمد يده إلى اليهود مصافحاً ، وتحمل الأذى مسامحاً حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به ومحو دينه ، استدار إليهم ، وجرت بينه وبينهم من الوقائع ما سنقص أخباره في موضعه ...

بتقوى الله والإخلاص له دُعِمَت الناحية الروحية في هذا المجتمع الجديد ، وبالإخاء الحق تماسك بنيانه وتوثقت أركانه .. وبالعَدل والمساواة والتعاون رسمت سياسة الأجانب وعومل أتباع الأديان الأخرى ومن ثم استقرت الأوضاع . ووجد المسلمون متسعاً لتجديد قواهم وترتيب شئونهم

المصطفون الأخيار

إن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أتيح لهم ما لم يتيح لغيرهم من منابع الصفاء ووسائل الارتقاء .

إن مشاعرك ترق عندما تسمع النغم العذب ، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الرائعة ، بل إن الذين يحضرون تمثيل بعض الروايات المثيرة يصبغهم جو القصة المفتعلة فيضحكون ويبكون ويهدأون ويضجون ... فما ظنك بقوم يتبعون رجلاً تسكلمه السماء ويتفجر من جوانبه الكمال ويسكب على من حوله آيات الطهر ؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير دفع بها إلى الأمام ، وإذا علقت بمسالكهم شهوة تقاها فردٌ عليها سناءها ؟ إن للعظماء إشعاعاً يغمر البيئة التي يظهرون فيها

وكما يقترب الصباح الخامد من الصباح المشتعل فيضيء منه ، تقترب النفوس المعتادة من الفرد الممتاز فتنتطوى في مجاله وتمشي في آثاره !!

وقد التفّ بمحمد فريق من الربانيين الأتقياء ، كانوا له تلاميذ مخلصين فزكت بصحبته نفوسهم وشفت طباعهم حتى أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب .

ولا تحسبنّ العقل الجبار — مهما أوتي من نفاذ — يستطيع إدراك الكمال بقوته الخاصة . فإذا لم تسدّدْه عناية عليا فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر غاية أو يهتدى طريقا ، كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتكاثر أمام عينه الضباب ، إنه يُحكّم القيادة ويضبط الآلات ويرسل أنوار مصابيحها في أحشاء الغيوم المترامية . فإذا لم يتلق إرشادا يحدّد له مكانه وبُعده وكيف يهبط ... فإنه سيظل يحلق عبثا . ثم تهوى به الريح في مكان سحيق ... !

وكم من فلاسفة عاجوا شئون الكون والحياة . ففهم من ضل عن الحق على طول بحثه عنه ، فلم يصل إليه قط ! ومنهم من استغرق في الوصول إليه أعواما طوالا . ولو مشى وراء الرسل لانهى إليه في أيام قصار ، وهو في مأمن من الشرود والعتار ! ثم إن الإنسان ليس عقلا فحسب إنه قبل ذلك قلب ينبغى أن يسلم من الأهواء والآثام ، وأن ينجو من الشقاوة والظلام وأن يكون في حنايا صاحبه قوة تسوق إلى الخير والحب ، وحاديا يهفو إلى الجمال والرحمة ...

والمرسلون الكرام يتعهدون ضمائر البشر بالتعليم والتربية ، وأشبه الناس بهم من اقتنى آثارهم وأخذ في طريقهم . وأول أولئك قاطبة من محبوبهم في حياتهم ، وقاسموهم أعباء دعوتهم ومغارم جهادهم ...

قال عبد الله بن مسعود : من كان مستنّا فليستنّ بمن مات . فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد . كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا . اختارهم الله لصحبه نبيه وإقامة دينه . فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ...

ولاشك أن أصحاب محمد يرجحون أصحاب موسى وعيسى . فإن تاريخهم في الإيمان والجهاد وإبلاغ الدعوة إلى الأخلاف كاملة مضبوطة ، غير منقوصة ولا محرفة لا يشبه أى تاريخ آخر ...

ونحن نسوق هذه المقدمة بين يدي الكلام عن الأذان ، وكيف شرع ؟ فإن ميلاد هذه الشعيرة العظيمة يحمل معه آيات بينة عن عظمة النفوس إذا صفت فنضحت بالحق ، وسكن إليها الإلهام ...

قال ابن إسحاق : وقد كان رسول الله حين قدم المدينة إنما يجتمع الناس إليه للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة . فهم رسول الله أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذي يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه . ثم أمر بالناقوس . فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة . فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بني الحارث النداء . فأتى رسول الله فقال : يا رسول الله ، إنه طاف بي هذه الليلة طائف ، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده ، فقلت : يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال : ومات صنع به ؟ قال : قلت ندعو به إلى الصلاة ... قال : ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله . حتى على الصلاة حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح حتى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله . فلما أخبر بها رسول الله قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ! فقم مع بلال فآلقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك . فلما أذن بها بلال سمعه عمر وهو في بيته ، فخرج إلى رسول الله وهو يجرداء يقول : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى !! فقال رسول الله : فله الحمد . وفي رواية : فأمر رسول بلالاً فأذن به . قال الزهري : وزاد بلال في نداء صلاة الغداة : الصلاة خير من النوم مرتين . فأقرها رسول الله .

وفي رواية أخرى رأى عمر في المنام : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة . فذهب عمر إلى النبي ليخبره بما رأى . وقد جاء النبي الوحي بذلك فما راع عمر

إلا بلال يؤذن . فقال رسول الله حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحي . وهذا يدل على أن الوحي قد جاء بتقرير مارآه عبد الله بن زيد ...

هذه الكلمات الطيبة التي ترتفع بين الحين والحين تقرر الآذان وتوقظ القلوب وتصيح بالناس : هلموا إلى الله ... وعأها في رؤيا صالحة ذهن نير ، فأسرع بها إلى رسول الله ، يرويها كما ألقيت في روعه ، لتكون نداء المسلمين إلى الصلاة ما أقيمت على ظهر الأرض صلاة ...

وتجاوب النفوس مع الوحي هو غاية التآلق وقة الحق ، وهو أمانة على أن الهدى أصبح غريزة فيها ، فهي تستقيم عليه في اليقظة والنوم وتتجه إليه على البديهة وبعد التروى ، وكان رسول الله يربط أصحابه بالوحي النازل عليه من السماء ربطاً موثقاً ، يقرؤه عليهم ، ويقرأونه عليه ، لتكون هذه المدرسة إشعاعاً بما على الصحاب من حقوق الدعوة وتبعات الرسالة فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر !!

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله : اقرأ على القرآن !! فقلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمع من غيري ! قال : فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » قال حسبك الآن ، فالتفت إليه ، فإذا عيناه تذرفان ...

زاد في رواية « شهيداً ما كنت فيهم ... » .

وإذا كان الاهتداء إلى ألفاظ الأذان قد ترشحت له سريرة مصفاة ، مشغوفة بالعبادة مشغولة بالحق ، فإن من أصحاب محمد كذلك من اندمجوا في معاني الإيمان وخلصوا لمعين الرسالة ، حتى إن الله أمر رسوله أن يقرأ عليهم بعض سور القرآن ، تنوئها بمكانهم عند الله ورسوخهم في آياته .

عن أنس بن مالك قال رسول الله لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ... » ، قال أبي : وسماني ؟ قال : نعم . وفي رواية « الله سماني لك ؟ قال : نعم . قال : وقد ذكرت عند رب العالمين ؟ قال : نعم . قال : فذرفت عيناه ... »

معنى العبادة

وسر الارتقاء الروحي والجماعي الذي أدركه صحابة محمد أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح . فلم يشعروا في العمل له بما يشعر به الكثير من عنت وتكلف ، ولا بما يعانون من شروء وحيرة . . !

هناك طبيعتان في الإنسان غير منكورتين . الإعجاب بالعظمة والعرفان للجميل . فعندما ترى آلة دقيقة أو جهازاً عجيباً أو صورة رائعة أو مقالاً بليغاً فإنك لا تنتهي من تبين حسنه حتى تنطوي جوارحك على الإعجاب بصاحبه ، فإن الذكاء العميق والاعتدال البارز يجعلانك تنحني من تلقاء نفسك احتراماً للرجل الذكي القدير . . ! وكذلك عندما يُسدَى إليك معروف أو تمتد إليك يدٌ بنعمة إنك تذكر هذا الصنيع لمن تطوَّع به وعلى قدر ضخامة ما نلت من خير ، يلهج لسانك بالشأن ويمتلي فؤادك بالحمد كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ، ولساني ، والضمير المحجَّب !!
ورسول الإسلام جاء يثير هاتين الطبيعتين نحو أحق شيء بهما . أأنت تُعجب بالعظمة وتحتفي بصاحبها ؟ أأنت تقدر النعمة وتشكر مُسديها ؟
إنك ترمق بإجلال مخترع الطائرة ، وكلما رأيته تشق الفضاء زدت إشادة بعبقريته ! فما رأيك فيمن يدفع الألوف المؤلفة من الكواكب تطير في جو السماء من غير توقف ولا عوج ؟ ما رأيك فيمن خلق عقل هذا المخترع ، وأودع في تلافيف مخه الذكاء الذي وصل به إلى ما راعك واستثار إعجابك ؟
أليس ربُّك وربُّ كل شيء أحقُّ بأن تعرف عظمتَه وتفتح عيونك على آثار قدرته ؟
فإذا عرفت عظمتَه من عظمة الوجود الذي يحيط بك خجلت من التهجم عليه ونسبة مالا يليق إليه !!! وقلت مع العارفين « ربَّنَا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانه » فقنا عذاب النار .

إنك لو استضافك شخص كريم ورأيت البشاشة في وجهه والسماحة في قراه حفظت له ما حييت هذه المنة . وسعيت جهدك كي تكافئه عليها . وحدثت من تعرف بسجايها هذا المضيف الكريم . فما رأيك فيمن تولى أمرك بنعمائه من المهد إلى

اللحد؟ فأنت لا تطعم إلا من رزقه ، ولا تكسى إلا من ستره ، ولا تأوى إلا إلى كنفه ، ولا تنجو من شدة إلا بإنقاذه ... !!

أن محمداً وصل الناس برّبهم على ومضات لطافٍ من تقدير العظمة ورعاية النعمة . فهم إذا انبعثوا لطاعته كانوا مدفوعين إلى أداء هذه الطاعات بأشواق من نفوسهم ورغبات كامنة تحيى بتوقير العظيم وحمد المنعم ...

والعبادة ليست طاعة القهر والسخط ، ولكنها طاعة الرضا والحب .

وليس طاعة الجهل والغفلة ، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة !!

قد تصدر الحكومة أمراً بتسعير البضائع فيقبل التجار كارهين . أو أمراً بخفض الرواتب فيقبل الموظفون ساخطين ...

وقد تشير إلى البيمة العجاء فتنقاد إليك لا تدري إلى مرتعا أم إلى مصرعها . تلك أنواع من الطاعات بعيدة عن معنى العبادة التي شرع الله للناس . فالعبادة التي أجراها الله على الألسنة في الآية الكريمة « إياك نعبد وإياك نستعين » والتي جعلها حكمة الوجود وغاية الأحياء في قوله : « وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون » تعنى الخضوع المقرون بالمعرفة والمحبة . أى الناشئ عن الإعجاب بالعظمة والعرفان للجميل ...

وقد اطردت آيات القرآن تبني سلوك المؤمنين على هذه العمدة الراسية فهي إذ تعرف الناس بالله ، تربهم صحائف مشرقة من خلقه البديع ، وفضله الجزيل ، تمزق ما نسجته الغفلة على الأعين من جهالة وجحود .

« الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجروا فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ » .

إن الرجل لا يقوم بالعمل العظيم وهو منساق إليه بالسياط الكاوية ، إنما تولد الإجابة ويبلغ الشئ درجة الإحسان بما يقارنه من رغبة ورضا فإذا أقبل المرء بفكره وقلبه على معتقد ، وهبه نفسه وحسه . وعاش يحلم به فى منامه وينشط له فى يقظته وذلك يرقى به صعوداً فى فهم مبدئه وإجادة خدمته .

ومن ثمّ فإنّ الإسلام لا يحفل بالإيمان النظري البحت . ولا يقبله إلا ليكون
سُلماً إلى ما بعده وهو الإيمان بالعقل والعاطفة معاً .

لا بد من تلوين الوجدان في قضايا الإيمان . ليس بمسلم من يعرف الله ويكرهه .
ولا قيمة لمسلم يعرف الله ووجدانه خال باهت فلا إعجاب فيه ولا شكران ، كما أنه
لا غمط فيه ولا جحود ...

والمسلم كل المسلم هو الذي يعرف الله معرفة اليقين ويضم إلى هذه المعرفة إحساساً
يعترف بمجادة المجيد ونعماء النعم ، تباركت أسماؤه !!

والإيمان بهذه المثابة هو الإيمان المنتج . وهو صانع العجائب وباني الدول ومقيم
الحضارات السنيّة . هو الذي يجعل الفرد يستحلي التكاليف المتوطة بعنقه ، فيقبل
على أدائها وكأنّها رغبات نفس لا واجبات دين ...

أظن أن رسول الله عندما قام يصلي حتى تورمت أقدامه . كان يغالب الألم الناجم
في بدنه كما يغالبه التلميذ المذنب عندما يوقف الساعات الطوال معذباً مهاناً ؟
كلا كلا . إن استعذابه للمناجاة واستغراقه في الخشوع أذهلاه عما به ، وغلبا
على بوارد الألم الناشئ من طول الوقوف ...

والرجل الموفور الحماس الفائر العاطفة قد يظل يعمل ويدأب حتى يصل في عمله
ودأبه إلى درجة يصعب منالها على القاعدين الباردین ...

ووزن الأمور عند أصحاب الإيمان والهمم غير وزنها عند أصحاب الريبة والعجز !
أترى حذيفة بن اليمان عندما انطلق يتعرف أحوال المشركين في غزوة الخندق ،
في ليلة باردة قارصة الجوالحة السّبرات :

لا ينبسح الكلب فيها غير واحدة حتى يُلَفَّ على خيشومه الذّنب !
لقد انطلق وهو يقول عن نفسه : كأنما أسير في حمّام . !! هذه حرارة الإيمان
غمرت بدقها الرجل ، وجعلته ينفذ في كبد الليل البارد وكأنه سهم مُسدّد ، هذا
الإيمان المرتكز على العواطف المتقدة هو الذي أشعل المارك الطاحنة وقاد إلى النصر
المظفر ، وهو الذي هدم ما تركز قرونا طويلة من سلطان الظلم والبغى ، بعد ما ظن
أنه لن يطيح أبداً ...

وأساسه ما علمت من تغلغل الإيمان في العقل والعاطفة معاً ، يفتدو شجرته
الباسقة مزيد من معرفة الله والشعور بعظمته ونعمته ...

ذلكم أسلوب القرآن في تعريف الناس بالله . إنه أسلوب يقيمهم على عبودية
الحب والتفاني لا على عبودية التحقير والهوان ، عبودية الإعجاب بالعظمة والإقرار
بالإحسان لا العبودية المبهمة التي تصدر الإرادة وتزرى بالإنسان .

« قل : الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى آله خيرٌ أمّا يُشركون ؟
أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبثنا به حدائق ذات بهجة
ما كان لكم أن تُنبثوا شجرها أإله مع الله ؟ بل هم قومٌ يَعْدِلُونَ !

أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل
بين البحر حاجزاً ، أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون !

أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع
الله ؟ قليلاً ما تذكرون !

أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته ،
أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون !

أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ؟
قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » !

إن هذا التساؤل المتواصل السريع يفتح على النفس آفاقاً بعيدة من الإيمان الذكي
ويجعلها تهرع إلى الله متجردة تنفر من شوائب الشرك نفور الرجال الكبار من
عبث الصبية ...

وآيات النظر والتفكير يدور أغلبها على هذا المحور الثابت ، وربما احتاجت النفس
- في ساعات غرورها - إلى لون من أدب التمتع والتوعد يكبح جماحها ، وهذا
لا يتنافى البتة مع الأصل الذي قرناه آنفاً فإن قسوة الأب مع ولده حيناً لا تغير من
طبيعة الحنان فيه

والقرآن إذ يحرك المواهب السامية في الإنسان بعرض آثار القدرة العليا عليه
قد يردف ذلك بوخزات توقظ الإحساس المخدّر ، ليلتفت ويعقل لالينكش ويحين .
قال الله تبارك وتعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع

في الأرض ، ثم يُخرجُ به زرعاً مُخْتَلِفاً ألوانه ، ثم يهيجُ فترأه مُصْفَرّاً ، ثم يجعلُهُ حُطَاماً إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب »

ويقول بعد ذلك : أفن شرحَ اللهُ صدرَهُ للإسلام فهو على نورٍ من ربه ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ من ذكرِ اللهِ ، أولئك في ضلالٍ مبين »

وقد سلك رسول الله المنهج نفسه في غرس الإيمان ورعاية ثماره . وكانت سيرته في الإقبال على الله درساً حياً يفعم الأفتدة بإجلال الله وإعظامه والمسارة إلى طاعته والنفور من عصيانه .

وكانت القلوب تتفتح على هدى الله ورسوله فما تسع بعده شيئاً . عن جبير بن مطعم عن أبيه سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور . فلما بلغ الآية « أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون ! . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ » . كاد قلبي أن يطير !!

ومدَّ الإيمان من فكرة في الرأس إلى عاطفة في القلب تجعل الرجل ينبض باليقين والإخلاص ، هو من صميم السنة . وهو مهاد الخلال الفاضلة التي سادت المسلمين وأعلت شأنهم . وهو معنى الحديث المشهور « ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان . من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما . ومن أحبَّ عبداً لا يحبه إلا الله . ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » ...

ومن ذلك أيضاً أن يتغلغل الإيمان بالرسالة والمغالاة بصاحبها إلى حد ينسى الإنسان معه نفسه . فهو — عن حب واندفاع لا من تكليف ورهبة — يفدى الرسالة وصاحبها بالنفس والنفيس .

عن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي وهو آخذٌ بيد عمر . فقال عمر : يا رسول الله ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي ! فقال الرسول : لا — والذي نفسي بيده — حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك فقال عمر : فإنه الآن لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ! فقال رسول الله : الآن يا عمر . أي الآن فقط تمَّ إيمانك .

وهذا الحديث يحتاج إلى إيضاح . إن الفضائل لا يجوز أن تطيش بها كفة . وقد

احترم الناس خلق الوفاء في السموأل لما ترك ابنه يذبح مؤثراً أن تسلم ذمته ويرد إلى من ائتمنه وديعته .

والمرء إذا ضحى بنفسه فداء شرفه فقد أدى واجبه ...

ومحمد لم يطلب من الناس أن يقدسوا فيه صورة اللحم والدم . ولا أن يرغبوا بنفسه عن أنفسهم لميوتوا كي يحيا ، أو ليهونوا كي يعظم أو ليفقدوا أجماده الخاصة بأزواحهم وأموالهم أو ليتأله فوقهم كما تأله فرعون وأمثاله من الجبارين . كلا كلا فمحمد يريد من المؤمنين أن يقدسوا فيه معنى الرسالة . وأن يفقدوا فيه مُثُلها العالية وأن يصونوا في شخصه معالم الحق المنزل ومآثر الرحمة العامة ...

إن الأنبياء لم يحيوا لأنفسهم . والمصيبة فيهم لا تنزل بهم أو بأهلهم خاصة إنهم يحيون للعالم كله . أليسوا مناط هدايته التامة وسعادته العامة فلا غرو إذا كانت تقديتهم من أصول الإيمان ومعاقد الكمال .

وقد كان محمد أهلاً لأن يُحب . وما تعرف الدنيا رجلاً فاضت القلوب بإجلاله وتفانى الرجال في حياطته وإكباره ، مثل ما يُعرف ذلك لصاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله .

قيادة تهوى إليها الأفئدة

عن عبد الله بن سلام قال : أول ما قدم رسول الله المدينة انجفل الناس إليه . فكنت فيمن جاءه . فلما تأملت وجهه واستثبته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال : وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : « أيها الناس أفشوا السلام . وأطعموا الطعام . وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

إن أضواء الباطن تنضج على الوجه فتقرأ في أساريه آيات الطهر . وقد ذهب عبد الله يستطلع أخبار هذا الزعيم المهاجر . فنظر إليه يحاول استكشاف حقيقته . فكان أول ماطمأن إليه بعد التثبت من أحواله أن هذا ليس بكاذب ، والملاحع العقلية والخلقية لشخصه ما لا تعرف بنظرة خاطفة . ولكن الطابع المادي الذي يُضفي على الروح الكبير كثيراً ما يكون عنواناً صادقاً على ما وراءه . على أن الذين عاشروا محمداً أحبووه إلى حد الهيام وما يبالون أن تنفق أعناقهم ولا يחדش له ظفر . وما أحبووه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذي يعشق عادة لم يرزق بمثلها بشر .

كان ثوبان مولى رسول الله شديد الحب له قليل الصبر عنه . فأتاه ذات يوم ، وقد تغير لونه ، يُعرف الحزن في وجهه ، فقال له رسول الله : ما غيّر لونك ؟ فقال : يا رسول الله ، مابى مرض ولا وجع ، غير أنى إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك . ثم إنى إذا ذكرت الآخرة أخاف ألا أراك . لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين ؛ وإنى إن دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخلها لم أرك أبدا . فنزل قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ . وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » .

وفى الحديث : « المرء مع من أحب » والمقصود حب الأسوة لا حب الهوس . فإن الرجل إذا أحب من هم مثله أو أعلى منه . فأساس هذا الحب تفتح قلبه لخلال النبل التى خُصوا بها وعظمة المواهب التى مَيّرهم بها القدر . وآثار الشجاعة والكرم لا يرحب بها الجبان الشحيح ، إنما يحميها فى أصحابها من أوتى حظا منها . وهو بسبيله إلى استكمال مافاته من تمامها . فمن نعمة الله أن يلحق بالعظماء من يعشقون فيهم جمال العظمة . ولذلك قال بعد الآية السابقة : « ... ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله علما » .

والحق أن التابع المحب شخص فاضل . فى الدنيا كثير من الأخساء الذين إن علواّ حقروا من دونهم . وإن دنوا كرهوا من فوقهم ! فما تدرى متى تخلو نفوسهم من أحاسيس البغضاء والضعفة ؟

أما عشاق المبادئ المجردة فما إن يجدوا رجلها المنشود حتى يحيطون به ، وتلمع عيونهم حبّاله أى حبا للمبادئ التى حيث فيه وانتصرت به . وما كان ربك ليضيع هذا اليقين ولا أصحابه الأبرار .

عن أنس قال : لما كان اليوم الذى دخل النبي فيه المدينة أضاء منها كل شىء فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء . وما نقضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا .

فانظر إلى بشاشة العاطفة الغامرة : كيف صبغت الإفاق بألوانها الزاهية ، وانظر إلى حسرة فقد : كيف تخلف سوادها الكابى على كل شىء !!
هكذا كانت دار الهجرة . لقد أحبت الله وأحبت رسوله فكان هذا الحب

المكين سر انتصارها الرائع للإسلام ، ومبعث التضحية عن طيب نفس بكل مرتخص وغال . وقوم يربطهم بقائدهم هذا الإغزاز الهائل تندك أمام عزائمهم الأطواد الراسية ...

سأل الحسن بن علي هند بن أبي هالة عن أوصاف رسول الله . فوصف له بدنه فكان مما قال «... يمشى هونا ، ذريع المشية — واسع الخطو — إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب — يهبط بقوة — وإذا التفت التفت جميعا . خافض الطرف . نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء . جلُّ نظره الملاحظة — لا يحدِّق — يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام .

قلت : صف لي منطقه . قال : كان رسول الله متواصل الأحران ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ولا يتكلم في غير حاجة . طويل السكوت . يفتح الكلام ويختمه بأشداقه — لا بأطرافه — ويتكلم بجوامع الكلم ، فضلا لا فضول فيه ولا تقصير . دمثا ليس بالجافي ولا المهين . يعظم النعمة وإن دَقَّتْ . لا يذم شيئا ولم يكن يذم ذواقا — ما يطعم — ولا يمدحه . ولا يُقام لغضبه إذا تُعْرض للحق بشيء حتى ينتصر له . لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها — سماحة — إذا أشار أشار بكفه كلها . وإذا تعجَّب قلبها . وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه . جلُّ ضحكه التبسم . ويفتر عن مثل حب الغمام ...

وقال ابن أبي هالة يصف مخرجه — على الناس — : كان رسول الله يخزن لسانه إلا عما يعنيه . يؤلف أصحابه ولا يفرقهم . يكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم . ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره .

يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس . ويحسن الحسن ويصوبه . ويتبع القبيح ويوهنه . معتدل الأمر غير مختلف . لا يقل مخافة أن يغفلوا أو يملؤا . لكل حال عنده عتاد . لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره ... الذين يلونه من الناس خيارهم . وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة . وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة .

ثم قال يصف مجلسه : كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . ولا يوطن

الأماكن — لا يميز لنفسه مكاناً — إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك . ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جلساه أن أحداً أكرم عليه منه . من جالسه أوقافه حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . ومن سأله حاجة لم يردده إلا بها أو بميسور من القول . قد وسع الناس بسطه وخلقه . فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق متقاربين ، يتفاضلون عنده بالتقوى . مجلسه مجلس حلم وحياء ؛ وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤن فيه الحرم — لا تخشى فلتاته — يتعاطفون بالتقوى . يوقرون الكبير ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ويؤنسون الغريب .

وقال يصف سيرته : كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عتاب ، ولا مدّاح ، يتعافى عما لا يشتهي ولا يفتنّ منه ، قد ترك نفسه من ثلاث ، الرياء والإكثار ومالا يعنيه . وترك الناس من ثلاث . لا يذم أحداً ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه . إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . وإذا سكنت تسكّموا . لا يتنازعون عنده الحديث . من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ . حديثهم حديث أولهم . يضحك مما يضحكون منه . ويعجب مما يعجبون منه . ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه . ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ ...

هذه خطوط قصار لما يراه الناس من مظاهر الكمال في سيرة النبي « محمد » . أما حقيقة ما بنى عليه هذا الرسول الكريم من أمجاد وشمائل فأمر لا يدرك كنهه . ومعرفة العظماء لا يطبقها كل أحد . فكيف بعظيم خلايقه القرآن ؟
إن الأمة التي أخرجت للناس في المدينة بلغت الأوج .

كانت تعمل وتجاهد لله وحده . وتسعى إلى غايتها الموموقة في جذل وثقة .
التفت حول نبيها التفاف التلامذة بالمعلم والجند بالقائد والأبناء بالوالد الحنون .

وتساندت فيما بينها بالأخوة المتبادلة المتناصرة فهم نفس واحدة في أجسام متعددة .
ولبنات مشدودة في بناء منسق صلب .

وأدارت علاقاتها بالآخرين على العدل والبر . فليس يظلم في جوارهم برىء أو يحرم
من الطافهم عانٍ .

وبرغم ما وقع عليها من بنى قديم . فقد جعلت الإسلام يجب ما قبله فمن تطهر
من جاهليته وتاب إلى ربه فلا نظر إلى ماضيه . بل ينضم إلى الأمة المسلمة عضواً
كريمًا فيها . تغفر سيئاته ليستقبل بصالح عمله كتابه الجديد .

أما الذين بقوا يكفرون ويصدّون فلا بدّ من الإعداد لهم حتى تخلص الأرض
من كفرهم وصدّهم . « إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم
طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً . وكان ذلك على الله يسيراً » .

كانت هذه الأمة تكدح لله وتصل مساءها بصباحها في عبادته ، وقد حزمت أمرها
على واحد من اثنين ، إما أن تحيا لله وإما أن تموت فيه !

ولو ذهبت توازن بين المسلمين يومئذ وبين سائر العالم لرأيت عناصر الغلب
والامتياز تتجمع لديهم صاعدة على حين تفور في كيان الملل الأخرى زلازل حاطمة .
فلا غرو إذا صاروا بعد سنين معدودات دولة فتية تقضى لربها ولنفسها ماتشاء .

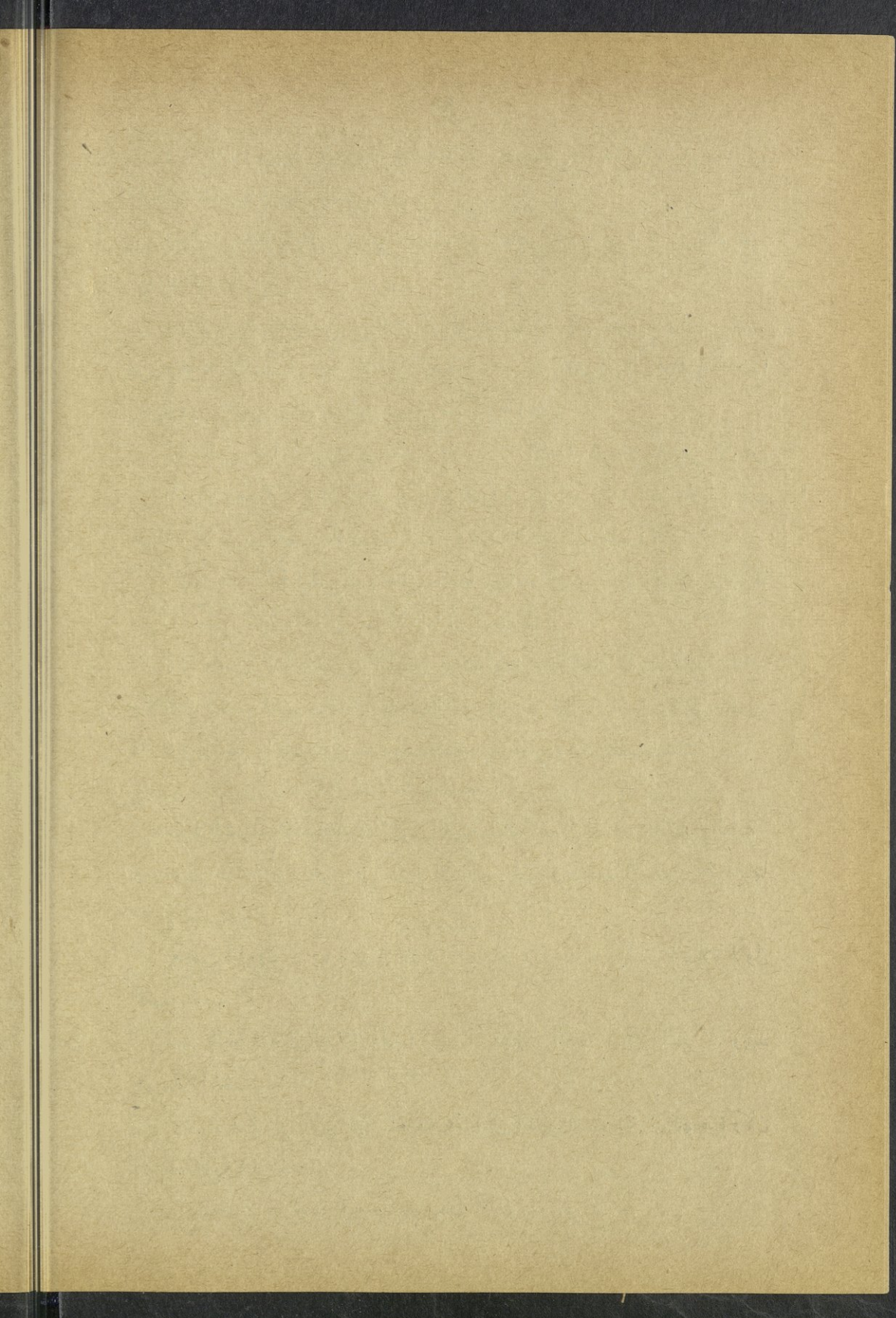
ثم إن الشرائع المفصلة أخذ تنزل في المدينة منظمة أحوال المسلمين الخاصة والعامة .
ومبينة قواعد الحلال والحرام على تدرج إلى أن وصلت إلى وضعها الأخير . كما سجلها
تاريخ التشريع .

فقامت الحدود . وفرضت الزكاة ، والصيام ، وزيدت ركعات الصلاة لأول
العهد يثرب

عن عائشة فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين فأقرت صلاة السفر . وزيد
في صلاة الحضر ...

ومما يذكر أن النبي بنى بالسيدة عائشة في غضون السنة الأولى للهجرة وكان
قد عقد عليها قبل الهجرة ...

وستحدث عن تعدد الزواج ، وزوجات الرسول في موضع آخر .



(٦)

الكفاح الدامي

دخل الإسلام المدينة وأحزاب الكفر تطارده من كل ناحية . فأوى المسلمون إلى مهجرهم كما يأوى الجندي إلى قلعة الشاخنة . وأخذوا يستمدون حتى لا تقتحم عليهم من أقطارها . وهم قد تعلموا من السنين الغبر التي مرت عليهم في مكة أن الضعف مدرجة إلى الهوان مزلفة إلى الفتنة . والمرء لا يقدر العافية حق قدرها إلا بعد الإبلال من المرض ، ولا يعرف قيمة الغنى إلا عند التخلص من ذل الحاجة . ومن أولى من المهاجرين والأنصار بالإفادة من عبر الماضي ؟

ذلك نبيهم تعقبه القتل ألف ميل ليغتالوه . وذلك سواد المهاجرين نهب ملهم وسلبت دورهم وشرّوا من البلد الحرام . إن « حالة الحرب » قائمة يقيناً بين طغاة مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد ، ومن السفه تحميل المسلمين أوزار هذا الخصاص . على أن العداوة للنبي وصحبه تجاوزت قريشاً إلى غيرهم من مشركي الجزيرة الضالة ولن تذهب الفروض بنا بعيداً . فإن عبدة الأصنام من أهل المدينة نفسها شرعوا يجاهرون بخصومتهم للإسلام . وانضم إلى هؤلاء وأولئك اليهود الذين أوجسوا خيفة من انتشار هذا الدين . واندحار الوثنية العربية أمامه ...

فما بدئ إذاً من التأهب لكل طارئ . والتربص بكل هاجم ، وتجهيز القوة التي تؤدب المجرمين يوم يتناولون !

والقتال الذي شرعه الإسلام وخاض معاركه الرسول وصحابته هو أشرف أنواع الجهاد . وقد بينا في كتبنا^(١) الأخرى بالاستدلال العلمي والاستقراء التاريخي أن الحروب التي اشتبك فيها الإسلام — على عهد الرسول وخلفائه — كانت فريضة لحماية الحق ورد المظالم وقمع العدوان وكسر الجبابرة .

أما تحرّص المستشرقين والحقدة على الإسلام من أهل الأديان الأخرى والادعاء بأن المسلمين جنحوا إلى القوة حيث لا مبرر لها فذلك كله لغو طائش وهو جزء من الحملة المدبرة لمحو الإسلام من الأرض ، واستبقاء أهله عبيداً للصليبية والصهيونية وما إليهما

(١) الإسلام والاستبداد السياسي . التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام .

وما من أيام القتال فيهن. أوجب على المسلمين من أيام يُهدد فيها الإسلام وآله
بالفناء ..

وتتألب عليه شتى القوى بل يصطلح ضدّه الخصوم الألداء . محاولين سحقه
إلى الأبد .

قد وقع ذلك في صدر الإسلام ، قبل الهجرة وبمدها . ووقع في هذه الأيام
فسقطت أوطان الإسلام في أيدي لصوص الأرض . ثم رسمت أخبث السياسات
للذهاب به رويداً رويداً ...

فكيف تستغرب الدعوة إلى التسليح والإهابة بأهل النجدة أن يوطنوا أنفسهم
على التضحية في سبيل الله ؟ وكيف تستنكر صناعة الموت في أمة يتواثب حولها
الجزارون من كل فج ؟

كلا كلا « ولا يحسنّ الذين كفروا سبقوا . إنهم لا يعجزون وأعدّوا
لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم . وآخرين
من دونهم لا تعلمونهم . الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوفّ إليكم
وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع
العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله »

وتمشياً مع توجيه الوحى وسياسة الواقع ، وحفاظاً على حق الله وحق الحياة .
درب النبيّ رجاله على فنون الحرب . واشترك معهم في التمارين والمناورات والمعارك .
وعدّ السعى في هذه الميادين خطوات إلى أجلّ القرب وأقدس العبادات ، لعله بذلك
يفلّ شوكة الكفر ويكسر عن المسلمين أذاه . « فقاتل في سبيل الله لا تكلّف
إلا نفسك وحرّض المؤمنين . عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا والله أشدّ
بأساً وأشدّ تنكيلاً »

عن عتبة بن عامر قال سمعت رسول الله وهو على المنبر يقول : وأعدوا لهم
ما استطعتم من قوة . ألا إن القوة الرمي . ألا إن القوة الرمي . ألا إن القوة الرمي .

والحديث ينوه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم في كسب المارك . والرمى أهم من أن يكون بالسهم أو بالرصاص أو بالقنابل ...

وعن نعيم النخعي قال : قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الغرضين — تتردد بينهما — وأنت شيخ كبير يشق عليك ؟ قال عقبة : لولا كلام سمعته من رسول الله لم أعانه . قال : وما ذاك ؟ قال سمعته يقول : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا ! »

فانظر كيف يبقى الشيوخ المسنون على دربتهم في إصابة الهدف ومهارة اليد ونشاط الحركة . إن الإسلام يفترض المقدرة على القتال فيوجبها على الشباب والشيوخ جميعاً ... وعن أبي نجیح السلمي قال : سمعت رسول الله يقول : « من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة » فبلغت يومئذ عشرة أسهم . وسمعته يقول : « من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة »

وعن عقبة بن عامر سمعت رسول الله يقول : « إن الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة . صانعه يحتسب في عمله الخير والرامي به ومنبله — الممدّ به — فارموا واركبوا . وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا كل لهو باطل . ليس من اللهو محموداً إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه فإنهم من الحق . ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فأنها نعمة تركها أو كفرها »

وعن ابن عمر « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنime » . وهذا ترغيب من رسول الله في تعليم الفروسية . وإبراز لون معين من ألوان القتال لا يحيط من قيمة الألوان الأخرى ، أو يؤخر منزلها . ألا ترى كيف حضّ النبي على تعلم القتال في البحر فقال : « غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر . ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها . والمائد فيه — الذي يصيبه الدوار والقيء — كالمشحط في دمه » .

والدول تحتاج إلى الكتائب في البر والأساطيل في البحر والجو . وكل سلاح عون لأخيه في إدراك النصر ، وأسبق الجند إلى رضوان الله أعظمهم نيلاً من العدو وأرعاهم لذمام أمته وشرف عقيدته سواء مشى ، أم رمى ، أم أبحر ، أم طار ...

سرايا . ١ .

١١٦٢

فلما استقر أمر المسلمين أخذوا يرسلون سراياهم المسلحة تجوس خلال الصحراء المجاورة ، وتخترق طرق القوافل المارة بين مكة والشام . وتستطلع أحوال القبائل الضاربة هنا وهناك .

١ — في رمضان من السنة الأولى التقى حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين من المسلمين بأبي جهل يقود قافلة لقريش ومعه ثلاثمائة راكب . وقد حجز بينهما مجديّ ابن عمرو الجهني فلم يقع قتال .

٢ — وفي شوال من السنة نفسها سار عبيدة بن الحارث في ستين راكبا إلى وادي رابغ . فالتقى بمائتي مشرك على رأسهم أبو سفيان . وقد ترمى الفريقان بالنبل ولم يقع قتال .

٣ — وفي ذي القعدة خرج سعد بن أبي وقاص في نحو عشرين رجلا يعترض عيرا لقريش ففاته .

٤ — وفي صفر من السنة الثانية خرج الرسول بنفسه بعد أن استخلف سعد ابن عباد على المدينة . وسار حتى بلغ ودان يريد قريشا وبني ضمرة . فلم يلق قريشا . وعقد حلفا مع بني ضمرة .

٥ — وفي ربيع الأول من السنة نفسها خرج الرسول على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط معترضا عيرا لقريش يقودها أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين ففاته .

٦ — وفي جمادى خرج إلى العشيرة من بطن ينبع . وأقام بها شهرا صالح فيه بني مدلج .

٧ — ثم أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة واستاق سرحها ففرج النبي في طلبه حتى بلغ وادي سفوان قريبا من بدر فلم يدركه . ويسمى المؤرخون هذه « غزوة بدر الأولى » .

والحكيم في توجيه هذه السرايا على ذلك النحو المتتابع تلخص في أمرين :
أولهما : إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن

المسلمين أقوياء . وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم . ذلك الضعف الذى مكن قريشا فى مكة من مصادرة عقائدهم وحراباتهم واغتصاب دورهم وأموالهم . ومن حق المسلمين أن يُعَنَّوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضآله شأنها . فإن المتربصين بالإسلام فى المدينة كثر . ولن يصدِّهم عن النيل منه إلا الخوف وحده . وهذا تفسير . قوله تعالى : « ترهبون به عدو الله وعدوكم . وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » .

والصنف الأخير هم المنافقون الذين يبطنون البغضاء للإسلام وأهله . ولا يمنهم من إعلان السخط عليه إلا الجبن وسوء المغبة . أما الأولون فهم المشركون ولصوص الصحراء وأشباهم ممن لا يبالون — لولا هذه السرايا — الهجوم على المدينة واستباحة حماها .

وقد كان من الجائز أن تتكرر حادثة كرز بن جابر السابقة . ويتجرأ البدو على تهديد المدينة حيناً بعد حين . غير أن هذه السرايا الزاحفة قتلت نيات الطمع وحفظت هيبة المسلمين .

والأمر الآخر — فى حكمة بعث السرايا — إنذار قريش عقبى طيشها . فقد حاربت الإسلام ولا تزال تحاربه ، ونكلت بالمسلمين فى مكة ثم ظلت ماضية فى غيها لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل فى دين الله . ولا تسمح لهذا الدين أن يجد قراراً فى بقعة أخرى من الأرض . فأحب الرسول أن يشعر حكام مكة بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار الفادحة ، وأنه قد مضى إلى غير عودة ذلك العصر الذى كانوا يمتدنون فيه على المؤمنين وهم بمأمن من القصاص ...

والمستشرقون الأوروبيون ينظرون إلى هذه السرايا كأنها ضرب من قطع الطريق . وهذه النظرة صورة للحقد الذى يعمى عن الحقائق ، ويتيح للهوى أن يتكلم ويحكم كيف يشاء .

وقد ذكرنى هذا الاستشراق المغرض بما حكوه عند قمع الانكليز لثورة الأهلىين فى أفريقيا الوسطى — مستعمرة كينا — وهم يطلبون الحرية لوطنهم ويحاولون إجلاء الأجانب عنه ...

قال جندي انكليزى لآخر — يصف هؤلاء الإفريقيين — : إنهم وحوش ، تصور أن أحدهم عضنى وأنا أقتله !!!

إن هذه الأضحوكة صورة من تفكير المستشرقين في إنصاف أهل مكة والنبي على الإسلام وأهله ...

سرية عبد الله بن جحش

وفي رجب من السنة الثانية بعث رسول الله عبد الله بن جحش في رهط من المهاجرين ، وكتب له كتابا . وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره . فإذا نظر فيه ووعى ما كلفه الرسول به مضى في تنفيذه غير مستكره أحداً من أصحابه فسار عبد الله ثم قرأ الكتاب بعد يومين فإذا فيه امض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم فقال عبد الله سمعاً وطاعة وأطلع أصحابه على كتاب الرسول قائلاً : أنه نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق معي ، ومن كره ذلك فليرجع ... فلم يتخلف منهم أحد ، غير أن البعير الذي كان يعتقه سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ندّ منهما فشغلا بطلبه ومضى عبد الله برفاقه حتى نزل أرض نخلة فمرت غير قريش فهاجمها عبد الله ومن معه فقتل في هذه المعركة عمرو بن الحضرمي وأسر اثنان من المشركين وعاد عبد الله ابن جحش بالقافلة والأسيرين إلى المدينة .

ويظهر أن هذا القتال وقع في آخر رجب أي في الشهر الحرام فلما قدمت السرية على رسول الله قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ووقف التصرف ، في العير والأسيرين

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهم المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله وكثر في ذلك القيل والقال حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل ومؤيداً مسلك عبد الله تجاه المشركين

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير .
وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ،
والفتنة أكبر من القتل » .

إن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين

لا مساغ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله !
فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداسها فجأة فأصبح انتهاكها معرّة وشناعة ؟

ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر قتل نبيهم وسلب أموالهم ؟
لكن بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عندما تكون في مصلحته . فإذا
رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتقضها هدم القوانين والدساتير جميعا . فالقانون المرعى
عنده في الحقيقة هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب . وقد أوضح الله عز وجل
أن المشركين لن يحجزهم شهر حرام أو بلد حرام عن المضي في خطتهم الأصلية ، وهي
سحق المسلمين حتى لا تقوم لدينهم قائمة فقال : « ولا يزالون يُقاتلونكم حتى يردّوكم
عن دينكم إن استطاعوا ... » .

ثم حذر المسلمين من الهزيمة أمام هذه القوى الباغية والتفريط في الإيمان الذي
شرّفهم الله به ، وناط سعادتهم في الدنيا والآخرة بالبقاء عليه فقال : « ومن يرتدّد
منكم عن دينه فيمّت وهو كافرٌ فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وأولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وزكى القرآن عمل عبد الله وصحبه . فقد نفذوا أوامر الرسول بأمانة وشجاعة .
وتوغلوا في أرض العدو مسافات شاسعة ، متعرضين للقتل في سبيل الله . متطوعين
لذلك من غير مكروه أو مخرج . فكيف يُجزّون على هذا بالتقريع والتخويف ؟
قال فيهم :

« إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، أولئك يرجو
رحمة الله . والله غفورٌ رحيمٌ » .

والقرآن الذي نزل في فعال هذه السرية لم يدع محالا للهوادة مع المشركين المعتدين .
مما كان له أثره البعيد لدى المسلمين وخصوصهم .

فبعد أن كان أغلب المكتتبين في السرايا السابقة من المهاجرين . أخذت البعوث
الخارجة تتألف من المهاجرين والأنصار معاً .

وزاد الشعور بأن الكفاح المرتقب قد يطول مداه وتكثر تبعاته لكنه كفاح
مستحب مقرون بالخير العاجل والآجل ...

وأدركت مكة أنها مؤاخذه بما جدّ أو يجد من سيئاتها . وأن تجارتها مع الشام أمست تحت رحمة المسلمين .

وهكذا اتسعت الهوة ، وزادت بين الفريقين الجفوة . وكان هذه الأحداث الشداد هي المقدمة لما أعده القدر بعد شهر واحد من وقوعها . عندما جمع رجالات مكة وخيرة أهل المدينة على موعد غير منظور في « بدر » ...

معركة بدر

ترامت الأنباء إلى يثرب أن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف الشام عائدة إلى مكة . تحمل لأهلها الثروة الطائلة . ألف بعير موقرة بالأموال يقودها أبو سفيان ابن حرب مع رجال لا يزيدون عن الثلاثين أو الأربعين ! .

إن الضربة التي تنزل بأهل مكة — لو فقدوا هذه الثروة — موجعة حقا . وفيها عوض كامل لما لحق بالمسلمين من خسائر في أثناء هجرتهم الأخيرة . لذلك قال الرسول : هذه غير قريش ، فيها أموالهم . فاخرجوا إليها . لعل الله ينفلكموها ...

ولم يعزم الرسول على أحد بالخروج ولم يستحث متخلفاً . بل ترك الأمر للرغبة المطلقة . ثم سار بمن أمكنه الخروج . وكان الذين صحبوا الرسول هذه المرة يحسبون أن مضيتهم في هذا الوجه لن يعدوا ما ألفوا في السرايا الماضية . ولم يدبر بخلد واحد منهم أنه مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام ! ولو علموا لاتخذوا أهبتهم كاملة ولما سمح لمسلم أن يبقى في المدينة لحظة ! لذلك فترت الهمم عندما وردت أخبار أخرى بأن القافلة المطلوبة غيرت طريقها . واستطاع قائدها أبو سفيان أن ينجو من الخطر المحدق به . بعد أن أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم لحماية أموالهم ، ويستشير حميمهم للخروج في تعبئة ترد كل هجوم ...

وغالب النبي هذا الفتور العارض ، وحذر صحابته من عقبى العود السريع إلى المدينة أن فاتهم مال مكة وخرج إليهم رجالها ! وأصر على ضرورة تعقب المشركين كيف كانوا وذلك قوله تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » . والذين كرهوا لقاء قريش ما كانوا ليهابوا الموت . ولكنهم لم يعرفوا الحكمة

في خوض معركة مباغطة دون إتقان ما ينبغي لها من عدّة وعدد . بيد أن رسول الله وزن الظروف الملائمة للأمر كله فوجد الإقدام خيراً من الإحجام . ومن ثم قرر أن يمضى . فإن الحكمة من توجيه هذه البعوث المسلحة تضييع سدى لو عاد على هذا النحو . وقد اختفت على عجل مشاعر التردد وانطلق الجميع خفافاً إلى غايتهم .

والمسير بإزاء طريق القوافل إلى بدر ليس سفراً قاصداً أو زهرة لطيفة . فالمسافة بين المدينة وبدر تربو على ١٦٠ كيلو مترا ولم يكن مع الرسول وصحبه غير سبعين بعيراً يعتقبونها .

روى أحمد عن عبد الله بن مسعود . قال : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير — أى يتعاقبون — وكان أبو لبابة وعليّ بن أبى طالب زميلي رسول الله . قال : فكانت عقبة رسول الله . فقال له : نحن نمشى عنك — ليظل راكباً — فقال : « ما أنتم بأقوى منى ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكم » ... !!

وبث المسلمون عيونهم يتعرفون أخبار قريش : أين القافلة ؟ وأين الرجال الذين قدموا لحمايتها ؟

حين أحس أبو سفيان الخطر على قافلته بعث ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة يستصرخ أهلها حتى يسارعوا إلى استنقاذ أموالهم .

واستطاع ضمضم هذا إزعاج البلد قاطبة . فقد وقف على بعيره بعد أن جدد أنفه وحوّل رحله وشق قميصه يصيح يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان عرض لها محمد وأصحابه لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث ! فتجهز الناس جميعاً فهم إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً . وانطلق سواد مكة وهو يغلى ، يمتطى الصعب والذلول فكانوا تسعة وخمسين مقاتلاً معهم مائتا فرس يقودونها . ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين ...

وولّوا وجوههم إلى الشمال ليدركوا القافلة المارة تجاه يثرب هابطة إليهم .

لكن أبى سفيان لم يستم في انتظار النجدة المقبلة ، بل بذل أقصى ما لديه من حذر ودهاء لمخاتلة المسلمين والإفلات من قبضتهم . وقد كاد يسقط بالبعير جمعاء في أيديهم . وهم يشتدّون في مسيرهم نحو بدر غير أن الحظ أسعفه !

روى أنه لقي مجديّ بن عمرو فسأله : هل أحسست أحداً فقال : ما رأيت أحداً أنكره إلا أنى رأيت راكبين أناخا إلى هذا التلّ ، ثم استقيا في شئ لهما ، ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مُناخها وتناول بمرات من فضلات الراحتين ثم فتّها فإذا فيها النوى . فقال : هذه والله علائف يثرب ! وأدرك أن الرجلين من أصحاب محمد وأن جيشه هنا قريب !

فرجع إلى العير يضرب وجهها عن الطريق . شارداً نحو الساحل ، تاركا بدرا إلى يساره ... فنجّا .

ورأى أبو سفيان أنه أحرز القافلة فأرسل إلى قريش يقول : إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم . وقد نجاها الله . فارجموا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى ترد بدرا . فقيم فيه ثلاثا نفجر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابونا أبداً ...

وهذا الذى عالن به أبو جهل هو ما كان يحاذره الرسول . فإن تدعيم مكانة قريش وامتداد سطوتها في هذه البقاع بعد أن فعلت بالمسلمين ما فعلت يعتبر كارثة للإسلام ووقفاً لنفوذه . وهل كانت السرايا تخرج من المدينة إلا لإعلاء كلمة الله وتوهين كلمة الشرك وإظهار عبدة الأصنام بمظهر الذى لا يملك نفعا ولا ضرا ؟

لذلك لم يلتفت الرسول لفرار القافلة التفاته لضرورة التجوال المسلّح في هذه الأنحاء إبرازا لهذه المعانى القوية وتمكيناً لصداها في القلوب .

ومضت قريش في مسيرها مستجيبة لرأى أبى جهل حتى نزلت بالعدوة القصوى من وادى بدر . وكان المسلمون قد انتهوا من رحيلهم المضى إلى العدوة الدنيا . وهكذا اقترب كلا الفريقين من الآخر وهو لا يدري ما وراء هذا اللقاء الرهيب .

وهبط الليل فأرسل النبيّ عليا والزبير وسعدا يتحسسون الأحوال ويلتمسون الأخبار فأصابوا غلامين لقريش كانا يمدانهم بالماء . فأتوا بهما . وسألوهما - ورسول الله قائم يصلى - فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم هذا الخبر ، ورجّوا أن يكونا لأبى سفيان - لا تزال في نفوسهم بقايا أمل في الاستيلاء على القافلة ! - فضربوهما ضرباً موجعا . حتى اضطرّ الغلامان أن يقولوا : نحن لأبى سفيان !

فتركوها . وركع رسول الله وسجد سجديته وسلم وقال : إذا صدقاكم ضربتموها وإذا كذباكم تركتموها ..

صدقا والله إنهما لقريش . ثم قال للغلامين : أخبراني عن قريش ! قالوا : هم وراء هذا السكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى . فقال لهما : كم القوم ؟ قالوا : كثير ! قال : ما عدتهم ؟ قالوا : لاندري ! قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوما تسعا ، ويوما عشرة . فقال رسول الله : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم ابن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وعمر بن هشام ، وأمية بن خلف ... الخ

فأقبل رسول الله على الناس فقال : هذه مكة قد ألت إليكم أفلاذ كبدها ... وانكشف وجه الجد في الأمر . إن اللقاء المرتقب سوف يكون مر مذاق . لقد أقبلت قريش تخب في خيلائها تريد أن تعمل العمل الذي يرويه القصيد ، وتذرع المطايا به البطاح ، وتحسم به صراع خمسة عشر عاما مع الإسلام لتنفرد بعدها الوثنية بالحكم النافذ ...

ونظر الرسول حوله فوجد أولئك المؤمنين بين مهاجر باع في سبيل الله نفسه وماله . وأنصارى ربط مصيره وحاضره بهذا الدين الذي افتداه وآوى أصحابه ؛ فأحب أن يشعر القوم بحقيقة الموقف حتى يبصروا على ضوئه ما يفعلون ..

إن المرء قد تفجؤه أحداث عابرة وهو ماض في طريقه - يحتاج في مواجهتها لأن يستجمع مواهبه وأن يستحضر تجاربه ، وأن يقف أمامها حاد الانتباه مرهف الأعصاب . وهذه الامتحانات المباغتة أدق في الحكم على الناس وأدل على قيمهم من الامتحانات التي يعرفون ميعادها ويتقدمون إليها واثقين مستعدين .

والمسلمون الذين خرجوا لأمر يسير ما لبثوا أن ألفوا أنفسهم أمام امتحان شاق تيقظت له مشاعرهم ، فشرعوا يقلبون على عجل تكاليفه ونتائجه . وثار منطق اليقين القديم فأهاج القوم إلى الخطة الفذة التي لا محيص عنها لمؤمن .

استشار رسول الله الناس . فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام القناد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله

فنجن معك ، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون — فوالذى بعثك بالحق — لو سرت بنا إلى برك الغاد لجالدنا معك مَنْ دونه حتى تبلغه . فقال له الرسول خيراً ودعا له .

ثم قال : أشيروا على أيها الناس — وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة .

فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنجن معك . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصبرٌ في الحرب صدقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله ...

وفى رواية : لعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره فانظر الذى أحدث الله إليك فامض . فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ماشئت ، وأعطنا ماشئت . وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت .

فسر رسول الله بقول سعد ونشطه ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ..

تأهب المسلمون لخوض المعركة ، وعسكروا فى أدنى ماء من بدر . فجاء الحباب ابن المنذر إلى رسول الله فقال : رأيت هذا المنزل ، أمتزلا أترلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ! قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل . امض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه ، ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماء ،

ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله : لقد أشرت بالرأى . ثم أمر بإفناذه فلم يجيء نصف الليل حتى تحوّلوا كما رأى الجباب . وامتلكوا مواقع الماء . وقضى المسلمون ليلا هادئاً الأنفاس منير الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم وأخذوا من الراحة قسطهم . وتساقط عليهم مطر خفيف رطب حولهم الجو وجعل نسائم الصباح تهب عليهم فتتغشش صدورهم وتجدد أملهم . وكان الرمل تحت أقدامهم دهساً فتلبّد وتماسك . وجعل حركتهم عليه ميسرة « إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّاسَ أَمْنَةٌ مِنْهُ . وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ . وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ » .

وكان رسول الله يتفقد الرجال وينظم الصفوف ويسدى النصائح ويذكر بالله والدار الآخرة . ثم يعود إلى عريش هيء له فيستغرق في الدعاء الخاشع ، ويستغيث بأمداد الرحمن . . .

ووقف أبو بكر إلى جوار الرسول وهو يكثر الابتهال والتضرع ويقول فيما يدعو به : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض » . وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم نصرك » ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه . وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ويسوى عليه رداءه ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهال : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .

وتراحم الجمعان ، وبدأ الهجوم من قبل المشركين ، إذ همم الأسود بن عبد الأسد على الحوض الذى بناه المسلمون قائلاً : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهد منه أو لأموتنّ دونه ! فتصدى له حمزة بن عبد المطلب ، فضربه ضربة أطارت نصف ساقه ، ومع ذلك حبا إلى الحوض يبغي اقتحامه ، وتبعه حمزة يقاتله حتى قتله فيه ! فبرز من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة . فخرج للقاءهم فنية من الأنصار ، فنادوا يا محمد أخرج إلينا كفاءنا من قومنا ، وقيل : إن الرسول نفسه هو الذى استرجع أولئك الأنصار رغبة منه أن تكون عشيرته أول من يواجه العدو فى مثل هذا الموقف . فقال : قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم

يا علي . فبارز عبدة عتبة ، وبارز حمزة شيبه ، وبارز علي الوليد . فأما حمزة فلم يعمل شيبه أن قتله ، وكذلك فعل علي مع خصمه . وأما عبدة وعتبة فقد جرح كلاهما الآخر فكرر حمزة وعلي بأسيفهما على عتبة فأجهزا عليه ، واحتملا صاحبهما ، فجاءوا به إلى رسول الله فأفرشه الرسول قدمه ، فوضع خده على قدمه الشريفة وقال : يا رسول الله لو رأي أبو طالب لعلم أنني أحق بقوله :

ونسلمه حتى نصرعّ دونه ونذهل عن أبائنا والحلائل . . .
ثم أسلم الروح . . .

واستشاط الكفار غضباً للبداية السيئة التي صادقهم ، فأمطروا المسلمين وابلا من سهامهم ثم حمى الوطيس وتهاتر السيوف . وتصايح المسلمون : أحد أحد . وأمرهم الرسول أن يكسروا هجمات المشركين . وهم مرابطون في مواقعهم . وقال : إن اكتشفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل . ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا .

فلما اتسع نطاق المعركة واقتربت من قتها كان المسلمون قد استنفدوا جهد أعدائهم وألحقوا بهم خسائر جسيمة . والنبي في عريشه يدعو الله ويرقب بطولة رجاله وجلدهم قال ابن إسحاق : « خفق النبي خفقة في العريش ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر أذاك نصر الله . هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع...!!! »
لقد انعقد الغبار فوق رؤوس المقاتلين وهم بين كرى وفرّ . جند الحق يستبسلون لنصرة الرحمن . وجند الباطل قد ملكهم الغرور فأغراهم أن يغالبوا القدر .

فلا عجب إذا نزلت ملائكة الخير تنفث في قلوب المسلمين روح اليقين وتحضهم على الثبات والإقدام . وخرج رسول الله من مكانه إلى الناس فحرضهم قائلاً : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل ، صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

إن التأمل في الآخرة هو بضاعة الأنبياء . وهل لأصحاب العقائد وفداة الحق من راحة إلا هناك ؟ . وعمل هذا التحريض عمله في القلوب المؤمنة .

روى أحمد أن المشركين لما دنوا قال رسول الله لأصحابه : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض . فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ! قال : نعم . قال : بخ بخ . قال رسول الله : وما يحملك

على قول بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ! قال :
فإنك من أهلها

فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن . ثم قال : لأن أنا حييت حتى آكل
تمراتي هذه إنها حياة طويلة . فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم وهو يقول :
ركضوا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاق
غير التقى والبر والرشاد :

فما زال حتى قتل ... !

ووهت صفوف المشركين تحت مطارق هذا الإيمان الزاهد في متاع الحياة
الدنيا . وراعههم محمد وقد نزل بنفسه إلى الميدان يقاتل أشد القتال ومعه أصحابه
يشندون نحو عدوهم لا يباليون شيئاً فانكسرت قريش وأخذها الفرع وصاح
النبي وهو يرى كبرياء الكفر تُمرغ في التراب — : « شأهت الوجوه ... » .
فانهزمت قريش ...

وذلك قول الله في كتابه : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم . فثبتوا
الذين آمنوا . سألتني في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا
منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله
شديد العقاب . ذلكم فذوقوه . وأن للمكافرين عذاب النار » .

* * *

وحاول أبو جهل أن يقف سبيل الهزيمة النازل بقومه ، فأقبل يصرخ بهم وغشاوة
الغرور لا تزال ضاربة على عينيه : « واللات والعزى لا ترجع حتى نفرقهم
في الجبال ... خذوهم أخذاً ... » .

وماذا تفعل صيحات الطيش بإزاء الحقائق المكتسحة ؟ لكن أبا جهل —
والحق يقال — كان تمثالاً للعناد إلى آخر رمق . والطمس المنسوج على بصيرته
جزء من كيانه لا ينفك عنه أبداً لذلك أقبل يقاتل في شراسة وغضب وهو يقول :
ما تنقم الحرب الشמוש مني ؟ بازل عامين حديث سني !
لمثل هذا ولدتني أمي .

وأحاطت به فلول المشركين يقولون : أبو الحكم لا يُخلص إليه . فكان بينهم
وسط غابة ملتفة . بيد أن هذه الغابة لم تلبث أن تهاوت جذعاً جذعاً أمام حماس
المؤمنين الذين اشتد بأسهم وأغرتهم بشائر الفوز . وساد هتافهم الموقعة وهم يقولون :
أحد أحد ... !!

قال عبد الرحمن بن عوف : إني لفي الصف يوم بدر . إذ التفتُ فإذا عن يميني
وعن يساري فتيتان حديثا السن ، فكأني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سراً
من صاحبه : يا عم ، أرني أبا جهل ، فقلت : يابن أخى ماتصنع به ؟ قال : عاهدت الله
إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه !! وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله . قال : فما
سرّني أننى بين رجلين مكانهما ...

فأشرت لهما إليه . فشدّاً عليه مثل الصقرين فضرباه حتى قتلاه ، وهما ابنا عفراء
ويظهر أنهما تركاه بين الحياة والموت . وقد استشهد البطلان في هذه الواقعة . ووقف
رسول الله على مصرعهما يدعو لهما ويدكر صنيعهما .

أما أبو جهل فقد سقط مكانه يلفظ أنفاسه ... وتفرق المشركون بعده بدداً ،
وتركوا سيقانهم للريح تبعثرهم في فجاج الصحراء كما تبعثر كثرثيا من الرمل النهار .

ومر عبد الله بن مسعود بالقتلى فوجد أبا جهل فيهم لا يزال به رمق فجثم على صدره
ينغى الإجهاز عليه . وتحرك أبو جهل يسأل : لمن الدائرة اليوم ؟ قال عبد الله : لله
ورسوله ، ثم استتلى عبد الله : هل أخراك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزاني ؟
هل أعمد من رجل قتله قومه ؟ وتفرس في عبد الله ثم قال له : أأنت رؤيعةينا بمكة ؟
فجعل عبد الله يهوى عليه بسيفه حتى خمد .

ولقى مثل هذا المصير الفاجع سبعون صنديداً من رؤوس الكفر بمكة ، دارت
عليهم كؤوس الردى فتجرعوها صاغرين . وسقط في الأسر سبعون كذلك . وفر
بقية التسعمائة والخمسين يروون لمن خلفهم أن الظلم مرتعه وخيم ، وأن البطر يجر
في أعقابهم الخزي والعار .

*** 1

وفتح المسامون عيونهم على بشاشة الفوز تضحك لهم خلال الأرض والسماء .

إن هذا الظفر المتاح ردّ عليهم الحياة والأمل والكرامة ، وخلصهم من أغلال تقال
« ولقد نصركم الله بيدٍ وأنتم أذلّةٌ . فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

وكانت عدة من استشهد منهم أربعة عشر رجلاً ، استأثرت بهم رحمة الله فذهبوا
إلى عليين . ثبت عن أنس بن مالك أن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر ، وكان في النظارة ،
أصابه سهم طائش فقتله ، فجاءت أمه فقالت : يا رسول الله ، أخبرني عن حارثة ؟
فإن كان في الجنة صبرت ، وإلا فليرينَّ الله ما أصنع - تعني من النياحة - وكانت
لم تحرم بعد !! فقال لها الرسول : ويحك أهملت ؟ إنها جنان ثمان وإن ابنك أصاب
الفردوس الأعلى ... »

فإن كان هذا جزاء النظارة الذين اختطفهم سهام طائشة ، فكيف بمن خاص إلى
المنايا الغمرات الصّعب ؟ ...

في هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والإخوة بالإخوة . خالفت بينهم المبادئ ،
ففصلت بينهم السيوف . وفي عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنهم ومزقوا أغلى
الأواصر الإنسانية في سبيل ما يعتنقون . فلا عجب إذا رأيت الابن المؤمن يغاضب أباه
الملحد ، ويخاصمه في ذات الله . والقتال الذي دار ببدر سجل صوراً من هذا النوع
الحاد . كان أبو بكر مع رسول الله ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاومه مع أبي جهل . وكان
عتبة بن ربيعة أول من بارز المسلمين . وكان ولده أبو حذيفة من خيار أصحاب النبي .
فلما سُحبت جثة عتبة لترى في القليب نظر الرسول إلى أبي حذيفة فإذا هو كئيب قد
تغيّر لونه ! فقال له : يا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال : لا والله
يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً
وحاملاً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام : فلما رأيت ما أصابه وذكرت
ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك !
فدعا له رسول الله بخير . وقال له خيراً

وأمر رسول الله بقتلي المشركين فطرحوا في القليب . وروى أنه قال عند مرآهم :
« بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني
الناس ، وقاآلتموني ونصرني الناس » فلما ووريت جثثهم وأهيل التراب على رفاتهم

انصرف الناس وهم يشعرون أن أمة الكفر قد استراح الدين والدنيا من شرورهم .
إلا أن النبي استعاد ماضيه الطويل في جهاد أولئك القوم . كم عالج مغاليتهم وحاول
هدايتهم وكم ناشدهم الله وخرّفهم عصيانه وتلا عليهم قرآنه . وهم على طول التذكير
يتبجحون . وبالله وآياته ورسوله يستهزئون . فخرج النبي في جوف الليل حتى بلغ
القلب المطوى على أهله . وسمعه الصحابة يقول : « يا أهل القلب يا عتبة بن ربيعة ،
يا شيبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام ، هل وجدتم ما وعد ربكم
حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً ! فقال المسلمون : يا رسول الله أتنادى قوما
جئقوا ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ! ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني ^(١) » .

كانت وقعة بدر في السابع عشر من رمضان لسنتين من الهجرة . وقد أقام رسول
الله بيدر ثلاثاً ثم قفل عائداً إلى المدينة يسوق أمامه الأسرى والغنائم ! ورأى قبل
دخولها أن يعجل البشري إلى المسلمين المقيمين فيها لا يدرون مما حدث شيئاً . فأرسل
عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة بشيرين يؤذنان الناس بالنصر العظيم .

قال أسامة بن زيد فأتانا الخبر حين سوّينا التراب على رقية بنت رسول الله ! وكان
زوجها عثمان بن عفان قد احتبس عندها يمرضها بأمره . وضرب رسول الله له بسهمه
وأجره في بدر .

محاسبة وعتاب

برغم ما سجله التاريخ من تجمل ومواعاة بين الأنصار والمهاجرين ، فإن متاعب
العيلة ومشاكل الفقر تمشّت خلال المجتمع الجديد إن سترها التعفف حيناً أبرزتها
الحاجة حيناً آخر . والأزمات التي تصاحب تكوين دولة من العدم وسط أمم
تسكدها وتتربص بها الدوائر ، يجب أن تتوقع ، وأن توطّن النفوس على احتمالها
وأن تكون حدة الشعور بها سبباً في ضعف السيرة وعجز الهمة ...
وقد أخذ الله المسلمين - قبل معركة بدر وبعدها - بأمور بدرت منهم يجب
لهم أن يتنزهوا عنها ، مهما بلغ من شدة الدوافع والمبررات لارتكابها .

(١) تنكر عائشة هذا الحديث بحجة بقول الله « وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير »
وتقول إن اللفظ الذي قاله الرسول ما أنتم بأعلم لما أقول منهم .

فهم يوم خرجوا من يثرب للملاقاة مشركي مكة تعلقت أمانيتهم بإحراز العير وما تحمل من ذخائر ونقائس...

حقاً إنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وضحووا في سبيل الله بأنفسهم وأولادهم... فلميضوا في طريق الفداء إلى المرحلة الأخيرة ، ومهما عضهم الفقر بنابه فليكن التنكيل بالكافرين أرجح في ميزانهم من الاستيلاء على الغنيمة .

« وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم . ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » .

ومن هذا القبيل تسابقهم بعد النصر إلى حيازة الغنائم ومحاولة كل فريق الاستئثار بها . عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون وأكبت طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله لا يصبب العدو منه غرة ؛ حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا نحن نحينا منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به . فأنزل الله « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » فقسمها رسول الله بين المسلمين .

هذا التنازع المؤسف أثر البأساء الشاملة التي لحقت بالمهاجرين والأنصار على السواء وقد نظر رسول الله إلى مظاهر هذا البؤس على أصحابه وهم خارجون إلى بدر فرثي لحالهم وتألم لما بهم وسأل الله أن يكشف كرباتهم فمع عبد الله بن عمرو قال : خرج رسول الله يوم بدر في ثلثائة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم خفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم » ففتح الله له يوم بدر . فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حلين واكتسوا وشبعوا » .

إن الجوع والعري عندما يطول أمدهما يتركان في النفوس ندوباً سيئة ويدفعان الأفكار في مجرى ضيق كالح . على أن هذه الأزمات إن أخرجت العامة وأهاجتها

إلى طلب الغذاء والكساء لأنفسهم وذرائعهم بحرص ومجاهرة ، فإن المؤمنين الكبار ينبغي أن يتماسكوا وأن يكتبوا أحاسيس الفاقة الملحة فلا يتنازعوا على شيء . . . !
وذلك الأدب هو ما أخذ الله به المسامين ، وافتتح به السورة التي تحدثت عن القتال في بدر . . .

ذلك أن الخاصة من الرجال هم قدوة غيرهم ، فإذا ساءت أخلاقهم للضوابط العارضة واضطرب مسلكهم فسيكون سواد الشعب إلى مزالق الفوضى أسرع . وقد رأينا « الألمان » في الحرب العالمية الأولى و « الانجليز » في الحرب العالمية الثانية شدد عليهم الحصار حتى هزلت الأجسام واصفرت الوجوه . وما صابرت الجماهير هذه المجاعات إلا وراء قادتها المصابرين المتجملين .

ومما حاسب الله عليه المسامين حساباً شديداً موقفهم بإزاء الأسرى . فإن الرغبة في استبقائهم للانتفاع من ثرواتهم غلبت الآراء الأخرى بضرورة الاقتصاد من مآثمهم السابقة حتى يكونوا نكالا لما بين أيديهم وما خلفهم وموعظة للمعتقين . استشار رسول الله أبا بكر وعمر وعلياً . فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ! وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً .

فقال رسول الله : ما ترى يا بن الخطاب ؟ قال : قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر . ولكن أرى أن تمكنى من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . . . فهو رسول الله ما قال أبو بكر . ولم يهو ما قلت . وأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبي وأبى بكر وهما يكيان ! فقلت : يا رسول الله أخبرني ماذا يكيان أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ! فقال رسول الله : . . . للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء !!
قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة —

وأزل الله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ،

تريدون عرض نيا والله يريد الآخرة . والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . »

إن الوقوع في الأسر لا يعنى صدور عفو عام عن الجرائم التي اقترفتها الأسرى أيام حربتهم ، وهؤلاء الطغمة من كبراء مكة لهم ماض شنيع في إيذاء الله ورسوله ، وقد أبطرتهم منازلهم فساقوا عامة مكة إلى حرب ما كان لها من داع فكيف يتركون بعد أن استمكنت الأيدي من خناقهم ؟ .

أذلك لأن لهم ثروة يفتدون بها ؟ ما كان يليق أن ينظر المؤمنون إلى هذه الأعراض التافهة متناسين ما فرط من أولئك الكفار في جنب الله . إنهم مجرمو حرب — بالاصطلاح الحديث — لا أسرى حرب . وقد ندد القرآن بخيانتهم لقومهم بعد كفرهم بنعمة الله عليهم فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها . »

وبش القار . »

وهناك نصوص توصي برعاية الأسرى وإطعامهم . وتشرع القوانين الرحيمة في معاملتهم . وهذه تنطبق على جماهير الأسرى من الأتباع والعامة . أما الذين تاجروا بالحروب لإشباع مطامعهم الخاصة فيجب استئصال شأقتهم . وذلك هو الإلخان في الأرض .

إن الحياة كما تتقدم بالرجال الأخيار فإنها تتأخر بالعناصر الخبيثة . وإذا كان من حق الشجرة لكي تنمو أن تقلم ، فمن حق الحياة لكي تصلح أن تنقى من السفهاء والعناة والآثمين . ولن يقوم عوض أبداً عن هذا الحق ، ولو كان القناطير المنظرة من الذهب . وقد أسمع الله نبيه وصحابته هذا الدرس . حتى إذا وعوه وتدبروه عفا عنهم ثم أباح لهم — من رحمته بهم — الانتفاع بما أخذوا من فداء فقال :

« فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم . »

في أعقاب بدر

شده العرب قاطبة للنصر الحاسم الذي ناله المسلمون في بدر ، بل إن أهل مكة استنكروا الخبر أول ماجاءهم ، وحسبوه هذيان مجنون . فلما استبان صدقه صعق

نفر منهم فهلك لتوّه . وماج بعضهم في بعض من هول المصاب لا يدرى ما يفعل . . .
وكما استبعد أهل مكة الهزيمة على أنفسهم حتى جوبهوا بعارها ، استبعد مشركو
المدينة ويهودها ما قرع آذانهم من بشرى الفوز ، وذهب بعضهم إلى حد اتهام
المسلمين بأن ما يداع عن نصرهم محض اختلاق . وظلوا يكابرون حتى رأوا الأسرى
مقرنين في الأصفاة ، فسقط في أيديهم .

وقد اختلفت مسالك الأحزاب الكافرة بإزاء المسلمين بعد هذا الغلب الذى مكن
للإسلام وأهله ، وجعل سلطانهم مهيباً في المدينة وما حولها . ومد نفوذهم على طرق
القوافل في شمال الجزيرة ، فأصبح لا يمر بها أحد إلا بإذنهم .

فأما أهل مكة فقد انطوا على أنفسهم يداوون جراحهم ويستعيدون قواهم
ويستعدون لنيل ثأرهم ويعلنون أن يوم الانتقام قريب . ولم تردهم الهزيمة إلا كرها
للإسلام ، ونقمة على محمد وحببه ، واضطهاداً لمن يدخل في دينه . فكان من يشرح
صدره للإسلام يحتفى به أو يعيش ذليلاً مستضعفاً .

ذلك في مكة حيث كانت الدولة للكفر

* أما في المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة ، فقد اتخذت العداوة للإسلام
طريق الدس والتفاق والمخاتلة . فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً ، وقلوبهم
تغلى حقداً وكفراً . وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبى .

روى أسامة بن زيد قال : كان رسول الله وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل
الكتاب . كما أمرهم الله تعالى - ويصبرن على الأذى « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
الْحَقُّ فاعْفُوا واصْفَحُوا حتى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » فكان النبي يتأول في العفو ما أمره
الله به — حتى أذن فيهم —

فلما غزا بدرًا وقتل الله فيها من قتل من صناديد قريش وقفل رسول الله وأصحابه
منصورين غانمين معهم أسراهم قال عبد الله بن أبى ومن معه من المشركين عبدة
الأوثان : هذا أمر قد توجّه (أى استمر فلا مطمع في إزالته) فبايعوا رسول الله
على الإسلام فأسلموا . . .

على أن هذا الخداع لاذ به فريق من الكفار في الوقت الذى عالن فريق آخر

من اليهود بسخطهم على محمد ، والمهم للهزيمة التي أصابت قريشاً في بدر ، بل إن كعب ابن الأشرف من رجالات يهود — أرسل القصاص في رثاء قتلاهم والمطالبة بثأرهم . !!
وقد اتسعت شقة العداوة بين المسلمين واليهود إثر هذا الموقف النابي ، ثم حاول اليهود أن يحقروا من النصر الذي حظى به الإسلام بما مهد للأحداث العنيفة التي وقعت بعد ، ودفع اليهود ثمنها من دمهم ، أفراداً وجماعات . .

أما البدو الضاربون حول المدينة ، وعلى طرق القوافل ، فهم قوم همل لا يهمهم شيء من قضايا الكفر والإيمان ، إنما يهمهم اكتساب القوت من أى وجه ، والحصول عليه ولو عن طريق السلب والنهب . وتاريخهم الحديث مع قوافل الحجاج شاهد صدق على أنهم لا يرعون حرمة ولا يخشون إلا القوة . ولولا بطش السعوديين بهم ما أمن طريق الحج قط ، وقد سبق لهم استيلاء نعم المدينة ، وما ورنوه من جاهلية طامسة جعل قلوبهم مع مشركي الجزيرة ، وقد دعروا لانتصار المسلمين في بدر ، وأخذت جموعهم تحتشد ، تبغى انتهاز فرصة للإغارة على المدينة ، ولكن الرسول نهض إلى جموعهم فشتتها ، ولم يلق في إرهابهم متاعب ذات بال .

بدء الصراع بين اليهود والمسلمين

لم تحدث المسلمين أنفسهم بنقض عهود اليهود ، ولا فكروا في طردهم من أرض الجزيرة ، بل على العكس ، توقع المسلمون منهم أن يكونوا عوناً لهم في حرب الوثنية المخرفة وتدعيم عقيدة التوحيد . ورجا المسلمون أن يصدق اليهود محمداً فيما يثبتته الله من تنزيهه ومجده ، وأن تكون صلتهم بالكتب القديمة والفهم لأحاديث المرسلين سبباً في إقناع العرب الأميين بأن الرسائل حق والإيمان بها واجب . وهذه المشاعر الحسنة تتمشى مع القرآن النازل يومئذ يؤسسها ويؤكدها .

« ويقول الذين كفروا : لست مرسل . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب » .

« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك . ومن الأحزاب من ينكروا بعضه . قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب » .
يبد أن اليهود كانوا عند أسوأ الظن . فلم تمض أيام على اختلاطهم بالمسلمين

في المدينة حتى شرعوا يخرجون صدورهم ويعينون عليهم . ولو أنهم كذبوا بمحمد كما كذبوا بعميسى من قبل ، واعتقدوا أن ما وراء توراتهم باطل باطل ، واكتفوا بأداء عباداتهم في بيعةهم ، وحبسوا في أفواههم المطاعن على أنبياء الله . . . لتركهم المسلمون وشأنهم يكفرون إلى قيام الساعة دون حرب أو ضرب .

أما أن يجتهد المسلمون في بناء دولتهم فيجتهد هؤلاء في تقضها . أما أن يصطدم الإسلام بالشرك فينضم بنو إسرائيل بعواطفهم وألسنتهم ودعايتهم ضد محمد وصحبه . فهذا مالا يستساغ .

وفي فرحة المسلمين بانتصارهم في بدر ، لم يستح أولئك اليهود أن يقولوا لرسول الله : « لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . أما والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس !!! »

وقد نزل الوحي ينذر هؤلاء بسوء المنقلب « قل للذين كفروا : سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ . وَبِئْسَ الْمَهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَمِّ ثَيْنٍ التَّقَتَا فَمَثَلٌ قَاتِلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ . إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لَأُولَى الْأَبْصَارِ » .

والآية الأخيرة تذكير بما وقع في بدر .

وأول من كشف عن ضعفه وهزأ بالإسلام وأهله يهود بني قينقاع المقيمين داخل المدينة نفسها ، وكظم المسلمون غيظهم ، وانتظروا ما تتمخض عنه الليالي من مكر اليهود .

وسعى هؤلاء إلى حتفهم بظلفهم . فقد حدث أن امرأة عربية قدمت بحليها تبيعه في سوق بني قينقاع جلست إلى صائغ هناك فاجتمع حولها نفر من اليهود يريدونها على كشف وجهها فأبى فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها وهي غافلة فغقده إلى ظهرها . فلما قامت انكشفت سوءتها وضحك اليهود منها !! وصاحت المرأة . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . فشدت اليهود على المسلم فقتلوه . وهكذا طارت الشرارة ووقعت الحرب بين المسلمين وبني قينقاع . وكان ذلك في منتصف شوال في السنة الثانية من الهجرة .

لجأ اليهود إلى حصونهم يقاتلون فيها ففرض الرسول عليهم الحصار وأحكمه خمس

عشرة ليلة حتى اضطروا إلى التسليم ورضوا بما يصنعه رسول الله في رقابهم ونساءهم وذريتهم . فلما أمكن الله منهم جاء عبد الله بن أبي قتال : يا محمد أحسن في موالى — وكانوا حلفاء الخزرج — فأبطأ عليه رسول الله فكرر ابن أبي قتالته : أحسن في موالى . فأعرض عنه الرسول . فأدخل يده في جيب درعه فتغير لون النبي وقال له : أرسلنى وغضب حتى رأوا لوجهه ظملاً . ثم أعاد أمره وهو مغضب : أرسلنى ويحك ! قال ابن أبي : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى . أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر ! فقال رسول الله : هم لك على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورونا بها . فرحلوا إلى أذرعات بالشام ولم يبقوا هناك طويلاً حتى هلك أكثرهم .

أما كان خيراً لهم أن يؤدوا حقوق الجوار ويعرفوا قيم العهود ويبقوا فى المدينة آمنين موفورين ؟ لقد تعجلوا الشر فباءوا به ... وفى حوار عبد الله بن أبي مع الرسول نزل قوله تعالى : « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فىهم يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصيبهم على ما أسرؤا فى أنفسهم نادمين » . ويحسن أن نتأمل فى سيرة هؤلاء اليهود ، وسر نعتهم الشديدة على الإسلام ونبيه ، وتحيزهم المعيب إلى الوثنية فى نضال الإسلام معها .

أصحح أن نزاع اليهودية والإسلام كان سياسياً لا دينياً ؟ وأن الانفراد بالسلطان فى الجزيرة العربية هو مبعث هذا الخصام الحاد ؟

إن التغلغل فى فهم العواطف والمشاعر الإنسانية يفسر كثيراً من المواقف الغامضة لقد رأينا المسلمين فى مكة يتحمسون للنصرانية فى صراعها مع المجوسية ، ويحزنون لانكسار الروم أمام الفرس ، مع أن الإسلام لم يكن قد اتصل بعد بالنصارى اتصالاً يبرر هذا الجماس . لكنه الشعور الطبيعى الوحيد الذى ينتظر من الرجل الخالص لدينه فالمسلمون أصحاب كتاب يدعوا إلى التوحيد ، والنصارى — وإن اضطرب فهمهم لمعنى التوحيد وشابوا الحق بالخرافة — فهم على كل حال أهل كتاب ، ويُعتبرون أعلى مرتبة من عبدة النار . فالرغبة فى انتصارهم على الوثنية الصريحة الشرك ضرب من الوفاء للإسلام نفسه ! ومن الاحترام للحقيقة التى معك أن تقترب مما يقرب منها ، وأن تبتعد عن كل ما يبعد عنها . وقد كان المشركون من

أهل مكة منطقيين مع أنفسهم حين رحبوا بانتصار الفرس وعدوه رمزاً لغلبة الوثنية في كافة صورها على أديان السماء جملة ...

فما معنى أن يغضب اليهود الموحدون — كما يزعمون — من انتصار الإسلام على الشرك ، وبم يفسر حنؤهم على القتل من عبدة الأصنام ، وسعيهم الحثيث لتغليب كفة الوثنية العربية على هذا الدين الحديد؟؟؟

إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين ، وأن سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوى ، وأنهم لا يكثرثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة لأن هذه وتلك مؤخرّة أمام شهواتهم الغالبة وأثرهم اللازمة . ومن ثم شكك القرآن الكريم في قيمة الإيمان الذى يدعيه القوم .

« وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّقاً لما معهم . قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ... »
والظاهر أن طوائف اليهود التى عاشت بين العرب كانت عصابات من المرتقة اتخذت الدين عنواناً لمطامع اقتصادية بعيدة المدى . فلما تؤهم أن هذه المطامع مهددة بالزوال ظهر الكفر الخجوة ، فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين . . .

ولم يعرف أولئك شرفاً في حرب الإسلام ولم يقفهم حدّ أو عهد في الكيد له ، فلم يكن بُدّ من إجلائهم وتنظيف الأرض منهم وقد تعقب المسلمون كل غادر بعهدده مجاهر بحرب الله ورسوله ، مؤيد لقريش ورأيها ، مظهر العطف والأسف على ما أصابها . . . تعقب المسلمون هؤلاء الطغام من زعماء يهود وسراةمهم بالقتل والإرهاب .

ومن أولئك الذين نفذ فيهم العقاب العادل كعب بن الأشرف فإن كعباً هذا سافر إلى مكة — من المدينة — يواسى مشركيها المهزومين في بدر ، ويحرضهم على إدراك ثأرهم من محمد وصحابته . وهو الذى سأله أبو سفيان : أناشدك الله ، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق ؟ إننا نطعم الجزور الكوماء ، ونسقى اللبن على الماء ، ونطعم ما هبّت الشمال ! فقال له كعب : أنتم أهدى منهم سبيلاً . فأُنزل الله على رسوله .

« ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » .

وعاد كعبٌ إلى المدينة سافر العداوة بعيد الجراءة حتى أنه صاغ قصائد الغزل في بعض النساء المسلمات ... وليس بعد ذلك صبرٌ . فأهدر المسلمون دمه . وبعث إليه النبيُّ من استنزله من حصنه ليلقى جزاءه الحق .

ذهب إليه محمد بن مسleme وأبو نائلة ، بعد ما استأذنا الرسول أن يقولوا فيه ما يطمئن اليهودي إلى تبرمهما بالإسلام . أتاه محمد بن مسleme فقال له : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عثانا ، وإني قد أنيتك أستسلفك !! . قال كعب : والله لَتَمَكَّنَنَّهُ ! قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه . وقد أردنا أن تسلفنا . قال : نعم ، أرهنوني ، قلت : أى شيء تريد ؟ قال : أرهنوني نساءكم ! قال : كيف زهنتك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال : فترهنون أبناءكم . قال : يُسَبُّ ابن أحدنا فيقال : رهن في وسق أو وسقين من تمر . ولكن زهنتك السلاح ...

وصنع أبو وائلة ماصنع محمد بن مسleme ، قال لليهودي : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ! عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت علينا السيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ! ودار الحوار على نحو مدار مع ابن مسleme ، ورضى كعب أخيراً أن يسلفهم نظير ارتهان أسلحتهم .

وإلى هذا قصدوا فإن كعباً لن ينكر السلاح معهم وهو الذي طلبه منهم ! وفي ليلة مقمرة انطلقوا إلى حصنه ليتموا ما توعدوا عليه . فقالت امرأته وقد سمعت النداء : اسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم . قال كعب : لو دعى الفتى لطعنة لأجاب . فنزل متوشحاً تنفج منه رائحة الطيب . واستدرجه القوم في الحديث والسير . ثم زعم أبو نائلة أنه يريد أن يشم الطيب من شعره . فسرح فيه يده وهو يقول : مارأيت كالليمة طيباً أعطر . وزهية كعب بما سمع ! وعاد أبو نائلة فوضع يديه في شعر اليهودي حتى إذا استمكن من فؤديه قال لصحبه : دونكم عدو الله فاختلفت عليه أسيافهم . دخلت في بدنه الأسلحة التي طلبها رهاناً بدل النساء والأبناء ...

وصاح كعب صبيحة لم يبق معها حصن إلا أوقدت عليه النار استجلاء للخبر ،
فلما طلع الصباح علمت يهود بمصرع جبارها ، فدب الرعب في القلوب العنيدة وأسرعت
الآفاعي إلى جحورها تختبئ فيها . .

لقد أجدت العصا حين أعيت النصيحة وبطل المقال . ولزم اليهود حدودهم
فلم يتجروا على المسلمين بسب ، وظهر كأنهم لن يماثلوا على الله ورسوله مشركا
بعد اليوم . . .

وهكذا تفرغ الرسول — إلى حين — لمواجهة الأعراب المشركين .

مناوشات مع قريش

لم يغتر المسلمون بالنصر الذي نالوه في بدر ولم يفتروا عن مراقبة خصومهم
والإعداد لهم . وقد علموا علم اليقين أن مكة لن تنى عن الانتقام لنفسها ولن تستكين
للكارثة التي حلت بها .

ورأى أبو سفيان حفظا لمكانة قومه وإبرازا لمالديهم من قوة أن يتعجل
عملا قليل المغارم ظاهر الأثر . فقرر أن يفاجئ المدينة بغارة خاطفة يعود عقيبها
وقد رد لقريش بعض سمعتها ، وألحق بالمسلمين ما يستطيع من خسائر . ثم إن أبا سفيان
كان نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا ، وينبغي أن يبر في قسمه .

فخرج في مائتي راكب حتى وصل إلى مساكن بني النضير في جنح الليل
— بأطراف المدينة — ، ونزل على سلام بن مشكم من سادة اليهود . فتعرف منه
أخبار المسلمين ، وتدارسا أجدى الطرق لإيذائهم والإفلات من قواهم .

واهتدى أبو سفيان إلى العمل الذي وفي به يمينه ، وحقق به غايته ، فهجم برجاله
على ناحية يقال لها : العريض . وحرقوا أصوارا من نخيل بها ووجدوا رجلا من الأنصار
وحليفاه في حرث لهما فقتلوهما . ثم لاذوا بالفرار عائدين إلى مكة . .

وشعر المسلمون بما حدث . فانطلقوا وراء أبي سفيان ورجاله يطارودهم ، ويبغون
الإيقاع بهم . وأحس المشركون بالطلب فخذلوا في الهرب . والمسلمون يقطعون الصحراء
خلفهم راغبين في اللحاق بهم ، فلما أحس أبو سفيان بالخطر أخذ يتخفف من الأرواد

التي يحملها حتى تمكن من النجاة . وعثر المسلمون في طريق المطاردة على هذه المؤن
وأكثرها من السوق فسموا هذه المناوشة الطريقة غزوة السوق !

ولم تغل قريش من هذه الغارة الفاشلة شيئاً يرفع رأسها . ففكرت أن تتجنب
الصدام بالمسلمين حتى تحين الفرصة المواتية . ولكن أتى لها ذلك ، وتجارها تمر
في الغدو والرواح بالمدينة ؟

قال صفوان بن أمية لقريش « إن محمداً وصحبه عوروا علينا متجربنا . فما ندرى
كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم
معه فما ندرى أين نسلك ؟ . وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن
لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء »
فقال له الأسود بن عبد المطلب : تنكب الطريق على الساحل . وخذ طريق العراق .
ودله على فرات بن حيان من بني بكر بن وائل ليكون رائدهم في هذه الرحلة .

وخرجت غير قريش يقودها صفوان بن أمية آخذة الطريق الجديدة إلا أن نعيم
بن سعود قدم المدينة يحمل أبناء هذه القافلة ، وخطة سيرها . واجتمع في مجلس شرب
— قبل تحريم الخمر — بسليط بن النعمان فباح له بسرّها . فأسرع سليط إلى النبي
يروى له القصة . فبعث النبي لوقت زيد بن حارثة في مائة راكب يعترضون القافلة .
فلقبها زيد عند ماء يقال له القردة فاستولى عليها كلها . وكانت تحمل مقادير كبيرة
من الفضة . وفر المشركون مذعورين . فلم يقع في الأسر غير فرات بن حيان .

فلما جيء به إلى المدينة دخل في الإسلام ...

وقد حزنّت مكة لهذه النكبة الجديدة ، وزادها ذلك إصراراً على المطالبة بشأرها ،
والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة . فكان ذلك وما سبقه من أحداث التمهيد القوى
لمعركة أحد في السنة الثالثة للهجرة .

ولا يفوتنا إذ نتابع النشاط العسكري للإسلام في سنتيه الأولى بالمدينة أن نذكر
بعض الشؤون الهامة الأخرى . فقد توفي خنيس بن حذافة السهمي زوج حفصة ابنة
عمر بن الخطاب . وهو رجل صالح ممن شهدوا بدرًا . فلما تأيمت منه أراد أبوها أن
يتخير لها زوجاً . قال عمر : فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة ، فقلت :

إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر!! فقال سأنظر في أمري! فلبث ليالي ثم لقيته فعرضت عليه. فقال: قد بدا لي ألا أتزوج...

قال عمر: فلقيت أبا بكر فقلت له: إن شئت أنكحتك حفصة ابنة عمر: فصمت ولم يرجع إلي شيئاً!! فكنت عليه أوجد مني على عثمان...

فلبثت ليالي فخطبها مني رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحها آياه. فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ فقلت: نعم فقال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أني كنت علمت أن رسول الله قد ذكرها. فلم أكن لأفشي سر رسول الله. ولو تركها لقبليها...

واتجاه الرسول إلى مصاهرة عمر بعد مصاهرة أبي بكر. ثم تزويجه ابنته فاطمة لعلي بن أبي طالب وتزويجه ابنته أم كلثوم لعثمان — بعد وفاة رقية — يشير إلى أن النبي ينبغي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة الذين عرف بلاؤهم وفداؤهم للإسلام، في الأزمات التي مرت به وشاء الله أن يجتازها بسلام.

وفي السنة الثانية للهجرة فرض صيام رمضان، وزكاة الفطر، وبيئت أنصبه الزكاة الأخرى. ومن أجل ما وقع في هذه السنة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المطهرة. وقد كان هذا الانتقال مثار تغيظ اليهود واستنكارهم الشديد. كانوا قبله يؤمنون في متابعة الرسول لهم (!) ولعل أساس موادعتهم له ظنهم الاستفادة منه واستغلال أنصاره! فلما تميز الإسلام بقبلته الجديدة، امتلأت نفوسهم بالياس ودفعهم خيبة الرجاء إلى تشديد الحملة على الإسلام وتبليت السوء له.

وقد أحبط القرآن حرب الجدل التي شنها اليهود إثر تغيير القبلة.

«سيقول السفهاء من الناس: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل: لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

«ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله...».

«ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب. ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر...».

إن الله رب الأزمنة والأمكنة جميعا. وتوجيهه أمة إلى قبلة معينة لا يعنى انحصارا في إحاطته أو قصورا في ربوبيته. لقد كانت عودة المسلمين إلى الكعبة رجوعاً

إلى الأصل الذى بناه أبو الأنبياء إبراهيم . وفى العودة إلى الأصل تنزه عن الانحرافات
التي حدثت بعد من الذرارى الضالين وخصوصاً بنى إسرائيل ..

✓ معركة أحد

لم يهدأ بال قريش مذغشها فى بدر ما غشها . وكان ما جد من الحوادث بعد
لا يزيد أحقادها إلا ضراما . فلما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها
واجتمع إليها أحلافها من المشركين ، وانضم إليهم كل ناظم على الإسلام وأهله . فخرج
الجيش الثائر فى عدد يربو على ثلاثة آلاف . ورأى أبوسفیان قائده أن يستصحب
النساء معه حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال دون أن تصاب حرماهم وأعراضهم !
وكانت الترات القديمة والغيط الكامن يشعل البغضاء فى القلوب ويشف عما سوف
يقع من قتال مرير .

وفى أوائل شوال من السنة الثالثة وصل الجيش الزاحف إلى المدينة ، فنزل قريبا

من جبل أحد . وأرسل خيله ترعى زروعها الممتدة هنالك !

واجتمع المسلمون حول رسول الله يتدبرون أمرهم : أيجرون لمقاتلة العدو فى
العراء أم يستدرجونهم إلى أزقة المدينة ، حتى إذا دخلها قاتله الرجال فى الطرق وقاتلته
النساء من فوق أسطح البيوت ؟ ؟
وكان رسول الله يميل إلى رأى الأخير ، وأيده فيه رجال من أولى النظر والروية .
وقال عبد الله بن أبى : هذا هو رأى ! . لكن الرجال الذين لم يشهدوا بدرا تحمسوا
للخروج . وقالوا : كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير !
وظاهرهم الشباب الطامح فى الاستشهاد . وبدا أن كثرة المسلمين تميل إلى البروز للملاقاة
العدو . فدخل الرسول بيته وخرج منه لابسا عدته متهيئا للقتال .

وشعر القوم أنهم استكروهوا الرسول على رأيهم ، وأظهروا الرغبة فى النزول على
رأيه ! بيد أن النبى وجد غصاصة من الاضطراب بين شتى الآراء . فقال : ما ينبغي
لنبى لبس لأتمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه . وقال : قد دعوتكم إلى
هذا الحديث فأيتتم إلا الخروج . فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس . وانظروا
ما أمركم الله به فافعلوا ..

ثم خرج في ألف رجل حتى نزل بأحد . إلا أن عبد الله بن أبي انسحب في الطريق بثلاث الناس . قائلاً : ما ندرى علام تقتل أنفسنا ؟ ومحتجاً بأن الرسول ترك رأيه وأطاع غيره ... !!

فتبعهم عبد الله بن حرام — والد جابر بن عبد الله — ينصحهم بالثبات ويؤنبهم على العودة ويذكرهم بواجب الدفاع عن المدينة ضد المغيرين إذا لم يكن لهم إيمان بالله واليوم الآخر وثقة بالإسلام ورسوله . فأبى ابن أبي الاستماع إليه . وفيه ومن انسحب معه زلت الآية .

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم : تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا . قالوا : لو نعمل قتالا لاتبعناكم . هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان . »

عسكر المسلمون بالشعب من أحد في عدوة الوادي ، جاعلين ظهرهم إلى الجبل . ورسم النبي الخطة لكسب المعركة . فجاءت محكمة رائعة . وزع الرماة على أماكنهم وأمر عليهم عبد الله بن جبير — وكانوا خمسين رجلاً . وقال : انضحوا الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ! إن كانت الدائرة لنا أو علينا فالزموا أماكنكم لا تؤتينا من قبلكم !!! وفي رواية قال لهم : احموا ظهورنا . إن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ! وإن رأيتمونا نغتم فلا تشركونا ! واطمأن رسول الله إلى أن فرقة الرماة قد أمنت بهذه الأوامر المشددة مؤخرة جيشه فأقبل يتعهد مقدمته . وأمر ألا ينشب قتال إلا بإذنه . وظاهر هو نفسه بين درعين . وأخذ يتخير الرجال أولى النجدة والبأس ليكونوا طليعة المؤمنين حين يلتحم الجمعان . إن عدد المسلمين على الربع من المشركين . ولن يعوض هذا التفاوت إلا الأشخاص الذين يوزنون بالآلوف وهم آحاد .

روى ثابت عن النبي أنه أمسك يوم أحد بسيف ثم قال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فأحجم القوم . فقال أبو دجانه : أنا أخذه بحقه فأخذه ففلق به هام المشركين قال ابن إسحاق : كان أبو دجانه رجلاً شجاعاً يخالع عند الحرب وكانت له عصاة حمراء إذا اعتصب بها علم أنه سيقا تل حتى الموت . فلما أخذ السيف من يد رسول الله نعصب وخرج يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلي ونحن بالسفح لدى الفخيل
ألا أقوم الدهر فى الكيول أضرب بسيف الله والرسول
ويعنى بعدم قيامه فى الكيول ، ألا يقاتل فى مؤخرة الصفوف . بل يظل أبداً
فى المقدمة .

ثم تدانت الفتتان ، وأذن النبىُّ لرجاله أن يجالدوا العدو . وبدأت مراحل القتال
الأولى تثير الغرابة كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم لا بضع مئات
قلائل ! وظهر المسلمون فى أعلى صور الشجاعة واليقين .

خرج حنظلة بن أبى عامر من بيته حين سمع هواتف الحرب ، وكان حديث عهد
بعرس فالتلع من أحضان زوجته وهرع إلى ساحة الوغى حتى لا يفوته الجهاد .
إن حادى التضحية كان أملك لنفسه وأملاً لحسه من داعى اللذة . فاستشهد
البطل وهو جنب !!

وسادت روح الإيمان المحض صفوف المجاهدين فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق
الفيضان تقطعت أمامه السدود .

وقف طلحة بن أبى طلحة العبدريّ حامل لواء قریش يتحدى داعياً إلى البراز .
فوثب إليه الزبير بن العوام حتى صار معه على جملة ، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه
وذبحه بسيفه !!

وأقبل أبو دجانة مُعلماً بعصابته الحمراء لا يلقى مشركاً إلا قتله ، وكان أحد المشركين
قد شغل نفسه بالإجهاز على جرحى المسلمين فى المعركة ! قال كعب بن مالك : وإذا
رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته . فضيت حتى كنت من ورائه ثم قتت أقدر
المسلم والكافر ببصرى ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة . فلم أزل أنتظرهما حتى
التقيا فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف . فبلغت وركه . وتفرق
فرقتين !! ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجانة ...
وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المتهتاجة وصمد لجملة اللواء من بنى عبد الدار
فاقتنص أرواحهم فرداً فرداً .

قال وحشى غلام جبير بن مطعم : قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت
عتيق . قال : فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أفذف بالحربة قذف الحبشة قلما

أخطىء بها شيئاً . فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته كأنه الجمل الأورق يهدئ الناس بسيفه هداً ، ما يقوم له شيء !! فوالله إني لأتهياً له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني ، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى فلما رآه حمزة قال: هلم إلي يا ابن مقطعة البطور ! قال : فضربه ضربة كأنما اختطف رأسه . فهزنت حربتي حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقعت في ثنته - أحشائه - حتى خرجت من بين رجله ، وذهب لينوء نحوى فغلب ، وتركته وأياها حتى مات ، ثم أتيتته فأخذت حربتي ورجعت إلى المعسكر فتعدت فيه . إذ لم تكن لي بغيره حاجة إنما قتلته لا عتق

ومع الخسارة الفادحة التي نالت المسلمين بقتل حمزة . فإن جيشهم القليل ظل مسيطراً على الموقف كله . وحمل لواء المسلمين في هذا القتال مصعب بن عمير الداعية العظيم فلما استشهد حمل اللواء علي بن أبي طالب . واستبق المهاجرون والأنصار في ميدان الشرف ، وأخذ اللواء الإسلامي يتقدم خطوة خطوة . وشعار المسلمين في هذا الالتحام أمت أمت .

وكانت نسوة قريش دائبات على استنهاض رجالهن يضرن بالدفوف ويحرضن على القتال ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان .

فكانت تقول حائفة بنى عبد الدار على إبقاء لواء مكة مرفوعاً .

وَيْهًا بنى عبد الدار وَيَهًا حماة الأدبار
ضرباً بكل بَتَّار !!!

وتؤزقونها على القتال منشدة :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق !!
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق !!

وقد بذلت قريش أقصى جهدها لتحطيم عنقوان المسلمين . لكنها أحست العجز وانكسرت همتها أمام ثبات المسلمين وإقدامهم .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره وصدق وعده فحشؤهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر . وكانت الهزيمة لاشك فيها : روى عبد الله بن الزبير عن أبيه

قال : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم — سوق — هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير ...

قد يجد المرء نفسه في حفل يموج بالأنوار ، وتنتشر في جوائه الأشعة المبصرة . ثم يقع خلل مفاجئ يقطع التيار ، فإذا المصابيح تغم ثم يسود المكان ظلام موحش سقيم !

إن هذا مثل للتحول المستنكر الذي قلب سير الحوادث في معركة أحد . لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنساني عرضت لفريق من الجند فأوقعت الارتباك في صفوف الجيش كله ، فضاعت في ساعة نزق كل المكاسب التي أحرزتها الشجاعة النادرة والتضحية البالغة . . !!

لقد علمت كيف شدد الرسول على الرماة أن يلزموا أما كنهم صيانة لمؤخرة المسلمين ، وأوصاهم ألا يبرحوا أبداً ولو رأوا الجيش تتخطفه الطير ! غير أن إثارة من حب الدنيا عصفت بهذه الوصاة في ساعة غفلة ! فإن رأى الرماة الهزيمة حلت بقريش والنساء يهمن في الجبل ، والرجال يولون الأدبار ، والغنائم التي خلفها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادي . . . حتى غادروا مواقعهم هابطين إلى الميدان يبعثون انتهاب أنصبتهم من الأسلاب والأموال !! وكان فرسان المشركين بقيادة خالد ابن الوليد محسورين لا يجدون ثغرة ينفذون منها إلى قلب المسلمين إلى أن حلت الهزيمة فلما رأى خالد أن مؤخرة المسلمين انكشفت فلم يبق عليها حارس اهتبل الفرصة على عجل فاستدار بالخيول وأحرق بخصومه . منحدرأ عليهم من حيث لا يحتسبون . ورأى الفارون من قریش بواذر هذا التغير الطارىء فراحوا حتى أن امرأة تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية هي التي رفعت لواء قریش من التراب بعد أن سقط وضرع حملته ! وثاب المشركون إلى رايتهم وخيالتهم . فأحيط بالصحابة من الأمام والخلف ووقعوا بين شقي الرحي . . .

على أن الرجال الأحرار لا يصادون بسهولة ، إنهم شدهوا لما حدث ، ولكنهم أخذوا يقاتلون بجرارة ، وإن كان هدفهم هذه المرة أن ينجوا فحسب !! أن ييصبوا طريقاً يخلصهم من هذا المأزق العضوض !!

واستشهد كثير وهم يحاولون شق طريقهم . واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبي . فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته . وشجّه في وجهه فأثقله وتفجّر منه الدم . وشاع أن محمداً قتل . فتفرق المسلمون ، ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل . واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون كيف يفعلون . . .

إلا أن النبي جعل يصيح بالمؤمنين : إلى عباد الله إلى عباد الله ! فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلاً . غير أن المشركين نذروا بهم فهاجموهم . ووقف طلحة بن عبد الله وسهل بن حنيف إلى جوار الرسول . فأصيب طلحة : بسهم في يده فشلها . وأقبل أبي بن خلف الجمحي على النبي . وكان قد حلف أن يقتله . وأيقن أن الفرصة سانحة فجاء يقول : يا كذاب أين تفر ؟ وحمل على الرسول بسيفه . فقال النبي : بل أنا قاتله إن شاء الله . وطعنه في جيب درعه طعنة وقع منها يخور خوار الثور فلم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم حتى مات . .

ومضى النبي يدعو المسلمين إليه . واستطاع بالرجال القلائل الذين معه أن يصعد فوق الجبل . فالتحازت إليه الطائفة التي اعتصمت بالصخرة وقت الفرار .

وفرّح النبي أن وجد بقية من رجاله يمتنع بهم . وعاد لهؤلاء صوابهم إذ وجدوا الرسول حياً . وهم يحسبونه مات ويبدو أن إشاعة قتل النبي سرت على أفواه كثيرة . فقد مرّ أنس بن النضر بقوم من المسلمين ألقوا أيديهم وانكسرت نفوسهم . فقال ما تنتظرون ؟ قالوا : قتل رسول الله ! فقال : وما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل المشركين فما زال يقاثلهم حتى قتل ...

ولم تتوان قريش من جانبها في مهاجمة الرسول ومن انحاز إليهم من صحابته بغية الإجهاز عليه وعليهم . ومرت ساعة عصيبة من أخرج الساعات في تاريخ الدنيا ، وفرسان المشركين ورماتهم يحملون بعناد وإلحاح لتحقيق أمنيّتهم : فقتل بين يدي النبي خلق كثير وهم ينافخون دونه . جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه ثم سقط بين حي وميت . وترّس عليه أبو دجانة بظهره . فكان النبل يقع فيه وهو لا يتحرك . روى مسلم أن رسول الله أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما أرهاقه المشركون قال : من يردهم عني وله الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل

حتى قتل ! ثم رهقوه فقال : من يردهم عنى وله الجنة ؟ فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله : ما أنصفنا أصحابنا — يعنى من فروا وتركوه !!
وتركت هذه الاستماتة أثرها ، ففترت حدة قريش فى محاولة قتل الرسول . وثاب إليه أصحابه من كل ناحية وأخذوا يلمون شملهم ويزيلون شعهم ، وأمر النبي صلبه أن ينزلوا قريشاً من القمة التى احتلوها فى الجبل قائلاً : ليس لهم أن يعلونا . فخصبواهم بالحجارة حتى أجلوهم عنها :

إن الإفلات من عواقب هذا الانكسار الشنيع عمل لا يقل فى خطره عن الانتصار الأول : وقد اتجه عزم الرسول إلى بذل كل جهد ممكن فى سبيل مقاومة قريش حتى لا تظفر بشيء غنيمة ياردة بل حتى تثقل بها مغارمها فلا تطمع فى مزيد من إيذاء المسلمين ! فكان ينشل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبي وقاص ويقول : ارم فداك أبى وأمى !! وكان أبو طلحة الأنصارى رامياً ماهراً فى إصابة الهدف . قاتل دون رسول الله . فكان إذا رمى رفع رسول الله شخصه ينظر أين يقع سهمه ويرفع أبو طلحة صدره قائلاً : هكذا بأبى أنت وأمى لا يصيبك سهم . نحرك دون نحرك . ويقول : إنى جلد يا رسول الله فوجهنى فى حوائجك ومرنى بما شئت !! وقد نجح الرماة حول رسول الله فى ردّ المشركين الذين حاولوا صعود الجبل . وبذلك أمكن المسلمين الشاردين أن يلحقوا بالنبي ومن معه . إلا أنهم جاءوا وكأما خرجوا من عمية حتى أن بعضهم من فرط الغيظ والذهول قاتل أمامه لا يدري من يقاتل . فقتل الليان والد الصحابى المعروف حذيفة . وصرخ حذيفة : أبى أبى !! دون جدوى ...

ولما تجمعت فلول المسلمين بعد هذا الكر والفر كان الإعياء قد نال منها أى منال لولا أن الله كذف فى قلوبهم السكينة . وأعاد إليها — بعد هذا الزلزال — الأمل والثقة . فسكنوا حول رسول الله يرقبون ما يجد . وداعب الكرى أجفان البعض من طول التعب والسهر ، فإذا أغفى وسقط من يده السيف عاودته اليقظة فتأهب للعراك من جديد !! وهذا من نعمة الله على القوم « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة ناعساً يغشى طائفةً منكم ... »

ولم تكن قريش أقل من المسلمين معاناة لأهوال ذلك اليوم العصيب . فقد تعبت جدّ التعب في الجولة الأولى . فلما أديل لها وطمعت أن تجعل المعركة حاسمة قاصمة وجدت المسلمين أصلب عوداً ، دون إفنائهم صعب لا تستطيع احتمالها . فاكثفت مما ظفرت بالإياب .

وظن المسلمون لأول وهلة أن قريشاً تنسحب لتهاجم المدينة نفسها . فقال النبيّ لعليّ بن أبي طالب : أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة . وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة . فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزهم فيها . قال عليّ : فخرجت في آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل واتجهوا إلى مكة .

قال ابن إسحاق : ثم إنّ أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أنعمت ، إنّ الحرب سجّال ، يومٌ بيوم بدر ، اعلّ هُبْل ! فقال رسول الله لعمر : قم يا عمر فأجبه قتل : الله أعلى وأجلّ . لا سواء . قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . . . فقال له أبو سفيان : هلم إلىّ يا عمر فقال رسول الله لعمر : أئنته فانظر ما شأنه فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً . فقال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن قال : أنت عندي أصدق من ابن قتيبة — وهو الذي زعم أنه قتل النبيّ —

ثم نادى أبو سفيان : أنّه قد كان في قتلاكم مُثْلَةٌ والله مريضٌ ولا سخط ، وما نهيّت ولا أمرت . ولما انصرف أبو سفيان نادى إنّ موعدكم بدر العام المقبل : فقال رسول الله لرجل من أصحابه : قل نعم هو بيننا وبينك موعد . .

عبر المحنة

موقعة أحد فياضة بالعظاات الغوالي والدروس القيمة . وقد نزلت في أدوارها وحوادثها ونتائجها آيات طوال . وكان لها في نفس الرسول أثر عميق ظل يذكره إلى قبيل وفاته . كانت امتحانا ثقیل الوطأة محص السرائر ومزق النقاب عن مخبئها . فامتاز النفاق عن الإيمان ، بل تميزت مراتب الإيمان نفسه . فعرف الذين رككوا الدنيا

بنعالمهم فلم يرجوا على مطمع من مطامعها . والذين مالوا إليها بعض الميل . فنشأ عن أطماعهم التافهة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروعة ...

بدأت المعركة بانسحاب ابن أبي . وهو عمل ينطوى على استهانة بمستقبل الإسلام وغدر به في أخرج الظروف . وتلك أبرز خسائس النفاق . والدعوات إبان امتدادها وانتصارها تغرى الكثير بالانضواء تحت لوائها . فيختلط المخلص بالمغرض ، والأصيل بالدخيل . وهذا الاختلاط مضر أكبر الضرر بسير الرسائل الكبيرة وإنتاجها . ومن مصلحتها الأولى أن تصاب برجآت عنيفة تعزل خبئها عنها . وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التحيص في أحد .

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب » .

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفنا عن طوية المنافقين ، فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس . قبل أن تعلن عن نفاقهم السماء ...

فإذا تجاوزت السفوح التي يدب عليها أولئك المنافقون وثبتت إلى ذراً شاحمة للإيمان البعيد الغور النقي العنصر ، يتمثل في مرحلة الهجوم المظفر الذي ابتداء به القتال ، ثم في مرحلة الدفاع النبيل الهائل الذي حمل المسلمون عبئه . عندما ارتدت الكرة للشركين . ورجحت كفتهم .

إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم . ويوجهون زمامه بعزماهم هم الذين صالوا هذه الحرب وحفظوا بها مصير الإسلام في الأرض

روى أن « خيثمة » قتل ابنه في معركة بدر فجاء إلى رسول الله يقول : لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت — والله — عليها حريصا . حتى ساهمت ابني في الخروج فخرج — في القرعة — سهمه . فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها . يقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة . فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً .

ثم قال : وقد أصبحت يارسول الله مشتاقا إلى مرافقته . وقد كبرت سني وورق عظمي وأحببت لقاء ربي . فادع الله يارسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة خيثمة في الجنة . فدعا الرسول له . فقتل « بأحد » شهيدا ...

وكان عمرو بن الجوح أعرج شديد العرج . وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله . فلما توجه إلى أحد أراد أن يخرج معه . فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة . فلو قعدت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد ؟ . فأتى عمرو رسول الله . فقال : إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك . ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة !! فقال له رسول الله : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد . وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ؟ فخرج مع رسول الله ، فقتل يوم أحد شهيدا ...

وقال نعيم بن مالك : يا نبي الله لا تحرمنا الجنة — وذلك قبل نشوب القتال — فوالذى نفسى بيده لأدخلها !! فقال له رسول الله : بيم ؟ قال : بأتى أحب الله ورسوله . ولا أفرّ يوم الزحف . فقال له رسول الله : صدقت . واستشهد يومئذ ...

وقال عبد الله بن جحش فى ذلك اليوم : اللهم إنى أقسم عليك أن ألقى العدوّ عداءً فيقتلونى ، ثم يبقروا بطنى ، ويجدعوا أنفى وأذنى . ثم تسألنى : فيم ذلك ؟ فأقول : فيك ... !

هذه صُورٌ للرجولة الفارعة التى اصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها . فماد أمامها واضطربت من تحت أقدامه الأرض . فما ربح شيئاً فى بداية القتال ، ولا انتفع بما ربح آخره .

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامى القائم إلى اليوم . وما يقوم للإسلام صرح ، ولا ينكشف عنه طغيان ، إلا بهذه القوى المذخورة المضغوطة فى أفئدة الصديقين والشهداء ...

مَنْ سرُّ هذا الإلهام ؟ مَنْ مشرق هذا الضياء ؟ مَنْ مبعث هذا الاقتدار ؟ إنه محمد !! إنه هو الذى ربّى ذلكم الجيل الفذ ! ومن قلبه الكبير أترعت هذه القلوب تفانياً فى الله وإيثاراً لما عنده .

وقد أصيب هذا النبيّ الجليل فى أحد ، أصيب فى بدنه إذ دخلت حلقات المغفر فى وجهه . فأكبَّ عليه أبو عبيدة يعالج انتزاعها بفمه فما خلصت من لhme حتى سقطت معها ثنيتاه . ونزف الدم بغزارة من جراحته كلما سكب عليه الماء ازداد دققاً ، فما استمسك حتى أحرقت قطعة من حصير فألصقت به . وكسرت كذلك رابعيته ،

وكسرت البيضة على رأسه . ومع ذلك ، فقد ظل متقد الذهن يوجه أصحابه إلى الخير حتى انتهت المعركة .

ثم أصيب في أهله فقتل حمزة بحربة انغرزت في أحشائه . وجاءت هند امرأة أبوسفيان ، فاستخرجت كبده من بطنه . ولا كتبها بفمها ثم لفظتها لانفجار المראה . وقد كان رسول الله يُعزُّ حمزة ويحبه أشد الحب . فلما رأى شناعة المثلة في جسمه ، تألم أشد الألم ؛ وقال : لن أصاب بمثلك أبداً ، ماوقفت قط موقفاً أغيظ إلى من هذا ، بيد أن التسليم لله لم يلبث أن مسح هذه الأحزان العارضة . وعاد رسول الله يتفقد أصحابه ويخفف منازل بهم . ويسكب من إيمانه على نفوسهم ما يملؤها عزاء ، ورضا عن الله ، واستكانة لقضائه ..

روى الإمام أحمد . لما كان يوم أحد ، وانكفاً المشركون قال رسول الله : استووا حتى أثنى على ربي عز وجل !!.

فصاروا خلفه صفوفاً . فقال : اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت . ولا مقرب لما باعدت . ولا مبعد لما قربت . اللهم : ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم : إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم : إني أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف . اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا . وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحيينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين . اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك . واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب . آله الحق ...

ترقق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد . على عكس ما نزل في بدر من آيات . ولا غرو فحساب المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر . في المرة الأولى قال :

« تريدون عَرَضَ الدنيا والله يريد الآخرة . والله عزيزٌ حكيمٌ . لولا كتاب من الله سبق لمُسْكِمٌ فيما أخذتم عذاب عظيم » .

أما في أحد فقال :

« منكم مَنْ يريد الدنيا ومنكم مَنْ يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم لِيَبْتَلِيَكُمْ . ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » .

حسب المخطئين ما لحقهم من أضرار الهزيمة . وفي القصص العاجل درس يذكر المخطيء بسوء ما وقع فيه . وقد اتجهت الآيات إلى مزج العتاب الرقيق بالدرس النافع وتطمين المؤمنين حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يغفل قواهم ، وحسرة تشل انتاجهم .

« قد خلت من قبلكم سننٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيانٌ للناس وهُدًى وموعظةٌ للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

ثم مضى الوحي يعلم المسلمين ما جهلوا من سنن الدين والحياة . أو يذكركم بما نسوا من ذلك . فيبين أن المؤمن — مهما عظمت بالله صلته — فلا ينبغي أن يغتر به أو يحسب الدنيا دانت له أو يظن قوانينها الثابتة طوع يديه .

كلا كلا . فالحذر البالغ والعمل الدائم هما عُدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة ، ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كُتِبَتْ له ، وأن شيئاً منها لن يكون عليه ، وأن أجماد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار في طريق الفشل الذريع .

« إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس » .
« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ » .
وأولو الأبواب يستحيون أن يطلبوا السلعة الغالية بالثمن التافه . وهم يريدون استعدادهم للتضحية بأنفسهم لقاء ما ينشدون . بيد أن الاستعداد أيام الأمن يجب ألا يزول أيام الروع .

إن الإنسان في عافيته قد يتصور الأمور سهلة مبسطة ، وقد يتأدى به ذلك

إلى المجازفة والخذاع . فليحذر المؤمن هذا الموقف ، وليستمع إلى تأنيب الله لمن تمّنوا الموت ثم حادوا عنه لما جاء .

« ولقد كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » ..! .
ثم عاتب الله عز وجل من أسقط في أيديهم وانكسرت همّتهم لما أشيع أن الرسول مات . ما كذلك يسلك أصحاب العقائد ! إنهم أتباع مبادئ لا أتباع أشخاص ؛ ولو افترض أن الرسول قُتل وهو ينافح عن دين الله ، فحق على أصحابه أن يثبتوا في مستنقع الموت ، وأن يردوا المصير نفسه الذي ورده قائدهم ، لا أن ينهاروا ويتخاذلوا .. إن عمل محمد ينحصر في إضاءة الجوانب المعتمدة من فكر الإنسان وضميره . فإذا أدّى رسالته ومضى ، فهل يسوغ للمستشير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منها ؟ لقد جمع محمد الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله . والذين ارتبطوا به عرفوه إماماً لهم في الحق ، وصلة لهم بالله . فإذا مات عبد الله ظلت الصلة الكبرى بالحي الذي لا يموت باقية نامية .

« وما محمد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل » ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . سيجزى الله الشاكرين » .
وقد استطرد النظم الكريم يبصر المؤمنين بمواطن العبرة فيما نالهم . ويعلمهم كيف يتقون في المستقبل هذه المآزق ، وينتبهز هذه الكبوة العارضة ليعزل عن جماعة المسلمين من خالطوهم على دخل ، وعاشروهم على نفاق . ولئن أفادت وقعة بدر في خذل الكافرين ، إن وقعة أحد أفادت مثلها في فضح المنافقين ورب ضارة نافعة ، وربما سحت الأجسام بالعلل .

ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر في هذه الواقعة درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة . فالجماعة التي لا يحكمها أمر واحد ، أو التي تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح في صدام ، بل لا تشرف نفسها في حرب أو سلام والأمر كلها ، مؤمنها وكافرها ، يعرف هذه الحقيقة . ولذلك قامت الجندية على الطاعة التامة . وعندما تشبك أمة في حرب تجعل أحزابها جبهة واحدة ، وأهواءها رغبة واحدة . وتحمد كل تمرد أو شذوذ ينجم في صفوفها .

وإحسان الجندية كإحسان القيادة ، فكما إن إصدار الأوامر يحتاج إلى حكمة

فإن إنفاذها قد يحتاج إلى كبح وكبت . ولكن عقبي الطاعة في هذه الشؤون تعود على الجماعة بالخير الجزيل .

وأسرع الناس إلى الشغب والتمرد من أقصوا عن الرئاسة وهم إليها طامحون وكان عبد الله بن أبيّ مثلاً لهذه الفئة التي تضحى بمستقبل الأمة في سبيل أطاعها الخاصة ...

أما الرماة الذين عصوا الأوامر بلزوم أما كنهم مهما كانت أطوار القتال ، فقد مرت بهم فترة ضعف وذبول تيقظت خلالها بقية في أنفسهم من حب الدنيا والإقبال على عرضها الزائل . فكان إثر ذلك ما كان .

ولذلك لما دهش المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الأمور ، بين الله لهم أنهم هم مصدرها . فما أخلفهم موعداً ولا ظلمهم حقاً :

« أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

إن الإسلام يشترط لكمال العمل وقبوله الإيمان والاحتساب والتجرد .

شهداء أحد

أخذت قريش طريقها إلى مكة وقد استخفها النصر الذي أحرزته . إنها طارت به على عجل كأنها غير واثقة مما نالت بعد الهزيمة التي حاقت بها أول القتال !! وأقبل المسلمون يتحسسون مصابهم في الرجال . ويجهزون القتلى لمضاجعهم التي يبرزون منها للقاء الله يوم ينفخ في الصور ...

روى ابن إسحاق أن رسول الله قال : مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ الرَّيْعِ ؟ أَفِي الْأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ . فقال رجل من الأنصار : أنا . فنظر ، فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق . فقال له : إِنْ رَسُولُ اللَّهِ أَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ أَفِي الْأَحْيَاءِ أَنْتَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ ؟ فقال : أنا في الأموات فأبلغ رسول الله سلامي ! وقل له : إِنْ سَعْدُ بْنُ الرَّيْعِ يَقُولُ لَكَ : جَزَاكَ اللَّهُ عَنَا خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ ! وَأَبْلَغَ قَوْمَكَ عَنِ السَّلَامِ . وقل لهم : إِنْ سَعْدُ بْنُ الرَّيْعِ يَقُولُ لَكُمْ : إِنَّهُ لَا عَذْرَ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ خُلِصَ إِلَى نَبِيِّكُمْ وَفِيكُمْ عَيْنَ طَرْفٍ ... !!

قال : ثم لم أبرح حتى مات وجئت النبيَّ فأخبرته خبره .
وأمر رسول الله بدفن الشهداء حيث قتلوا . ورفض أن ينقلوا إلى مقابر أسرهم
قال جابر بن عبد الله : لما كان يوم أحد جاءت عمتي بأبي لتدفنه في مقابرنا ، فنادى
منادى رسول الله : ردُّوا القتلى إلى مضاجعهم . وكان رسول الله يجمع بين الرجلين
من قتلى أحد في ثوب واحد . ثم يقول : أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإذا أشير إلى
أحدهما قدمه في اللحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء ! وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل
عليهم ولم يغسلهم
ولما انصرف عنهم قال : أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يخرج في سبيل الله
إلا والله يبعثه يوم القيامة يدعى جرحه . اللون لون دم والريح ريح مسك .

إن معركة أحد تركت آثاراً غائرة في نفس النبيَّ ظلت تلازمه إلى آخر عهده
بالدنيا . في هذا الجيل الداكن الجاثم حول « يثرب » أودع محمد أعز الناس عليه
وأقربهم إلى قلبه . فالصفوة النقية التي حملت أعباء الدعوة ، وعادت في سبيل الله
الأقربين والأبعدين واغتربت بمقائدها قبل الهجرة وبعدها ، وأنفقت وقاتلت ، وصبرت
وصابت ، هذه الصفوة اختط لها القدر مشواها الأخير في هذا الجيل الأشم فتوسدت
تراه راضية مرضية . وكان رسول الله يتذكر سير أولئك الأبطال ومصايرهم فيقول :
« أخذ جبل يحبنا ونحبه !! » فلما حانت وفاته جعل آخر عهده بذكريات البطولة أن
يزور قتلى أحد ، وأن يدعو الله لهم ، وأن يعظ الناس بهم !!

عن عقبة بن عامر قال : صلى رسول الله على قتلى أحد بعد ثمانين سنين كالودع
للأحياء والأموات . ثم طلع المنبر فقال : إني بين أيديكم فرط . وأنا عليكم شهيد .
وإن موعدكم الحوض . وإني لأنظر إليه من مقامى هذا . وإني لست أخشى عليكم
أن تشرکوا ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها ... !!!
قال عقبة : فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله .

على أن المسلمين دفنوا موجدتهم في أفئدتهم ، ولم يستسلموا لأحزان المصاب
الذى حل بهم ! وكان تكثر خصومهم حولهم سبباً في أن يقاوموا عوامل الخور وأن

يبدوا للناس بقية من قوة ترد عنهم كيد المتربصين . على نحو ما قال الشاعر :
وتجلى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضع
وقد كانت الهزيمة في أحد فرصة انتهزها المنافقون واليهود وكل ذى غمر على محمد
ودينه وأصحابه . ففارت المدينة كالرجل المتقد ، وكشف عن عداوته من كان قبلا
يواريها . وتحدث الكافرون بالإسلام عن خذلان السماء للنبي المرسل من عند الله ...
ف رأى الرسول أن يعيد تنظيم رجاله على عجل ، وأن يتحامل الجريح مع السليم
على تكوين جيش جديد يخرج في أعقاب قريش ليطاردها ويمنع ما قد يجد من
تكرر عدوانها !!

كانت معركة أحد في السبت لخمس عشرة من شوال وكان خروج هذا الجيش في
الأحد لستة عشر منه . . .

وسار رسول الله والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد ، واقتربوا من جيش
أبي سفيان وكان رجال قريش بعد أن ضمهم الفضاء الرحب قد عادوا إلى التفكير فيما
حدث . وأخذوا يتلاومون يقول بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئا . أصبتم شوكة القوم
ثم تركتموهم ولم تبتروهم وقد بقيت منهم رؤوس يجمعون لكم ؟

إلا أن هذا التفكير تزلزل إثر ما عرفت قريش أن المسلمين عبأوا قواهم وخرجوا
يستأنفون القتال . وحار المشركون في أمرهم أيعودون للحرب لا يأمنون مغبتها وربما
أفقدتهم ثمار النصر الذي أحرزوه ؟

أم يمشون لتوهم إلى مكة ؟ . وفي هذه الحال يتحسن مركز المسلمين وتخف مرارة
الهزيمة التي لحقتهم .

وقد رأى أبو سفيان أن يغم الأوبة الراجعة ، وأن يبعث إلى المسلمين من يقذف
بالرعب في قلوبهم ، ويخبرهم أن قريشا عادت لاستئصال شأقتهم بعد أن تبين لها
خطؤها في تركهم . . . !

وعسكر المسلمون بجمراء الأسد ، ثم جاءهم دسيس أبي سفيان يغريهم بالعودة إلى
يثرب بحجة بأنفسهم من كرة المشركين عليهم ، وهم لا يقدرّون على ملاقاتهم ! بيد أن
المسلمين قبلوا التحدي وظلوا في معسكرهم يوقدون النار طيلة ثلاث ليال في انتظار
قريش التي ترجح لديها أن النجاة بنفسها أولى فعادت إلى مكة . وعاد المسلمون إلى
المدينة ليدخلوها مرة أخرى أرفع رؤوسا وأعز جانبا . . .

وفي هذه المظاهرة الناجحة وفيمن اشتركوا فيها على ألم الجراح وإرهاق التعب ،
وفي ثباتهم على التثبيط واطمئنانهم إلى الله نزلت الآيات الكريمة .
« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم
واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم
إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فاقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم
سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

آثار أحد

انتقض على الإسلام كثير ممن هادنه أو داهنه . وبرغم مظهر البأس الذي أبداه
المسلمون في مطاردة المشركين حتى حمراء الأسد ، فإن هزيمة أحد كانت أبعد غوراً
مما يظنون ، لقد جرأت عليهم أعراب البادية وفتحت لهم ابواب الأمل في الإغارة
على المدينة وانتهاب خيرها . كما أن يهود عائلوا بسخريتهم وتركوا وساوس الغش
تلج عليهم وتكدر سيرتهم مع المسلمين . .
ومن أصعب الأمور قياد الأمم عقب الهزائم الكبيرة وقياد الدعوات بعد
الانكسارات الخطيرة . وإن كان الرجال يستسهلون الصعب ويصابرون الأيام حتى
يحتازن الأزمان .

وقد جاءت السنة الرابعة للهجرة والمسلمون لما يداوا جراحاتهم في أحد . إلا أن
الأحداث لا تنظر ، فقد أخذ البدو يتحركون نحو المدينة يحسبون أن ما فيها أصبح
غنيمة باردة وأول من تهبأ لغزو المدينة بنو أسد ، فسارع رسول الله إلى بعث أبي سلمة
على رأس مائة وخمسين رجلاً لبيغت القوم في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم .
ولم يلق أبو سلمة عناء في تشتيت أعدائه واستيقاع نعمهم أمامه حتى عاد
إلى المدينة مظفراً ، وأبو سلمة يُعدُّ من خيرة القادة الذين صحبوا رسول الله وسبقوا
إلى الإيمان به والجهاد معه . وقد عاد من هذه الغزاة مجهوداً إذ نغر عليه جرحه
الذي أصابه في أحد ، فلم يلبث حتى مات .

وحاول خالد بن سفيان الهذلي أن يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه
النبي عبد الله بن أنيس فقتله وهو يجتهد في تأليب القبائل للهجوم على المدينة .

وئارت هذيل لرجلها بأن أعانت على تسليم أسرى المسلمين إلى أهل مكة في غزوة الرجيع .

وأصل قصة الرجيع هذه أن وفداً من قبائل عضل والقارة قدم على رسول الله يذكر أن أبناء الإسلام وصلت إليهم ، وأنهم يحتاجون إلى رجال يعلمونهم الدين ويقرئونهم القرآن . فأرسل النبي معهم رهطاً من الدعاة يرأسهم عاصم بن ثابت فأنطلق الجميع حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة قريباً من مياه هذيل شعر الدعاة بأن أحبابهم غدروا بهم واستصرخوا هذيلاً عليهم ...

وفزع الدعاة إلى أسلحتهم يقاتلون الغادرين ومن أعانهم من قبيلة هذيل ، وماذا يجدى قتال نفر يعدون على الأصابع لنحو مائة من الرماة وراءهم قومهم يشدون أزرهم ؟ لذلك لم يلبث عاصم وصحبه أن قتلوا . واستسلم للأسر منهم ثلاثة نفر ، خبيب وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق . فاسترقهم الهذليون وخرجوا بهم إلى مكة لبيعوهم بها . ومعنى بيعهم بمكة تسليمهم للقتلة المتربصين . فإن أولئك النفر من الرجال الذين قاتلوا مع رسول الله في بدر وأحد : ولأهل مكة لديهم ترات يودون الاشتفاء منها . وقد حاول عبد الله الإفلات من هذا المصير فقتل . وأما خبيب وزيد فأخذهما رجال قريش ليقتلوهما أخذاً بثأرهم القديم .

فأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه ، ولما خرجوا به من الحرم اجتمع حوله رهط من قريش — فيهم أبو سفيان بن حرب — فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك بالله يا زيد . أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي . فقال أبو سفيان . ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أحباب محمد محمداً . ثم قتل زيد .

وأما خبيب فقد اشتراه عقبة بن الحارث ليقتله بأبيه فلما خرجوا بخبيب من الحرم ليصلبوه قال لهم . إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا . قالوا : دونك فاركع . فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوَّلت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة . فكان خبيب أول من سن هاتين الركعتين عند القتل ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال : اللهم (١٤)

إننا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا ثم قال : — اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً . واستقبل الموت وهو ينشد .

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنس كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

حزن المسلمون لفقدانهم عاصماً وصحبه ، ولمصرع أسيرهم على هذا النحو الفاجع ، فقد خسروا فريقاً من الدعاة الأكفاء الشجعان يحتاجهم الإسلام فى هذه الفترة من تاريخه . ثم إن اصطیاد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجساً وقلقا : إذ أن ذلك المسلك دلّ على مبلغ طماعية العرب فى أهل الإيمان واستهتارهم بأرواحهم وجراتهم على النيل منهم دون تخوف أو محاذرة قصاص !

ومع أن هذه الواقعة توجب على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أى وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة إلا أن ضرورة بث الدعوة مهما فدحت الخسائر جعلت النبىؐ ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمر لا بد منه . كالتاجر الذى يتحمل الغارم الثقيلة حيناً من الدهر لأن الانسحاب من السوق — بغية تجنبها — قضاء عليه . فهو يبقى متجملاً حتى تهب الريح من جديد ، رخاء تعوِّض ما فقد . وذاك سر استجابة الرسول لأبى براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة حين عرض عليه أن يرسل وفداً من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد . وقد أبدى النبىؐ خشيته من أن يصاب رجاله بسوء وسط قبائل ضارية لا يؤمن ذمامها . فقال أبو براء : أنا لهم جار !!

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا بئر معونة . وكانوا سبعين من خيار المسلمين يعرفون بالقراء ، يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل ، ويحيون على هذا النسق الزتيب من جهاد للحياة ورغبة فى الآخرة . فلما أمرهم الرسول بالمسير لإبلاغ رسالات الله خرجوا ، وما كانوا يعرفون أنهم جميعاً يحثون الخطأ إلى مصارعهم فى أرض اتشهر الغادرون فى فجأها ...

وحينما انتهى القراء إلى بئر معونة بعثوا أحدهم — حرام بن ملحان — إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر فى هذه البقاع فأعطاه كتاب النبىؐ الذى يدعوه فيه إلى الإسلام

فلم ينظر عامر في الكتاب وأمر رجلا من أتباعه أن يفتال حامل الرسالة ، فما شعر حرام إلا وطعنة نجلاء تحترق ظهره وتنفذ من صدره ، وكأن هذه الشهادة المفاجئة لاقت رجلا يتمناها من قديم فقد صاح حرام على أثر ذلك : فزت وربّ الكعبة ...!! ومضى عامر في غشمه ، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم ، فانضمت إليه قبائل رعل وذكوان والقارة . فهجم بهم عامر على القراء الوادعين . ورأى هؤلاء الموت مقبلا عليهم من كل صوب فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى إذ استطاع الأعراب الهمج أن يغشَوْهم في رحلهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم ...

وكان في سرح القراء اثنان لم يشهدا هذه المأساة منهم عمرو بن أمية الضمري . ولم يعرفا النبأ المحزن إلا من أفواج الطير المتوحشة تنطلق نحو المعسكر محوِّمة حول الجثث الملقاة على الرمل الأعفر طاعمة مما تستطيع اختطافه بأظافرها ومناقرها ... قالوا : والله إن لهذه الطير لشأنا . فأقبلا لينظرا . فإذا القوم مضرجون في دماءهم . وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة !! قال زميل عمرو له : ماذا ترى ؟ قال عمرو : أرى أن نلحق برسول الله نقص عليه الخبر ... لكن زميله كره هذا الرأي ، وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعى المنذر . لذلك أجاب عمرو بن أمية قائلا : ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قُتل فيه المنذر ! وما كنت لأبقى حتى أقص خبره على الرجال ! وهجم على الأعراب يقاتلهم حتى قتل ، وأخذ عمرو أسيراً فأعتقه عامر بن الطفيل كبير الغادرين ، عن رقبة زعم أنها على أمّه ... !!!

ورجع عمرو إلى النبيّ حاملا معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ، وأولئك ذهبوا في غدره شائنة .

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظاً ، وهم لم يضيّقوا بخسائرهم فحسب ، بل الذي أخرج مشاعرهم في هذه الحادثة أنها كشفت عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غلّ كامن على الإسلام وأهله ، غلّ عصّف بكل مبادئ الشرف والوفاء وأباح لكل قادر أن يلحق الأذى بالمومنين متى شاء وكيف شاء .

وفي طريق عمرو إلى المدينة لقي رجلين ظنهما من بني عامر فقتلتهما ثأراً لأصحابه ،
ثم تبين أنهما من بني كلاب ، وأنهما معاهدين للمسلمين .
ولما قدم عمرو على الرسول وأخبره الخبر . قال النبي للناس : إن أصحابكم أصيبوا ،
وأنهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا .
ثم قال النبي لعمرو : لقد قتلت قتيلين ، لأديتهما ، وانشغل بجمع دياتهما من
المسلمين وحلفائهم اليهود ... !

إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوباً كثيرة ، ولا ريب أن
تأميل المسلمين في المستقبل وارتقائهم المزيد من الفتح زاد ضعف الضاعفين ، وقد كان
الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور « وإذ يقول المناقون والذين في قلوبهم
مرض غرَّ هؤلاء دينهم . ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » غير أن هذه
الكراهية اختفت أمداً بعد انتصار بدر ، بل لعل هذا النصر أغرى جمهوراً من الضعاف
والمترددین بالانصواء تحت علم الدين الجديد . فلما تقلبت الليالي بالمسلمين ، ولحقهم
الهزائم انفجر الحقد المكبوت ، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان .
وقد قلنا : إن النبي أدرك هذه الحال بعد أحد فبذل جهده ليستعيد هيبة المسلمين
ويوطد ما اضطرب من مكانتهم . ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين .. المشركون يظنون
الفرصة سانحة لإتباع أحد بمثلها أو أشد ، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد . على أن
الخسائر تلاحقت بالمسلمين في الرجيع وبئر معونة كما مر بك ، ودخل الإيمان في محنة
بعد أخرى ، ومع هذه البأساء لم يفقد الرجال الوثائقون صلتهم بربهم واطمئنناهم إلى
غدهم ، وشرعوا يردون الضربة بمثلها ، فلما حرك اليهود في هذه الآونة العصية ليقنطروا
رسول الله لم يتوان في إزال العقوبة الرادعة بهم .

إجلاء بني النضير

ونفصيل ذلك الغدر أن النبي ذهب إلى منازل بني النضير ليستعين بهم في دية
القتيلين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية مرجعه من بئر معونة فلما فاوضهم الرسول في الأمر
أظهروا الرضا بمعونته فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا .

لكن يهود خلا بعضهم إلى بعض ثم قالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — خلوا بال واطمئنان نفس — فمن رجل يعلو ظهر هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه ؟

وحين أوشك اليهود على إنفاذ مكيدتهم ألهم رسول الله الخطر المدبر له فنهض مخيلاً من جوار البيت الذي اضطجع إلى جداره ، وقفل راجعاً إلى المدينة .

وشعر أصحاب النبي بمغيبه ، فقاموا في طلبه . فإذا برجل مقبل من المدينة يخبرهم أنه رآه يدخلها . فأسرعوا يلحقون به — فلما انتهوا إليه أخبرهم بما كادت له يهود ، وقد عُرف — بعد — أن عمرو بن جحاش هو الذي أراد قتل النبي باللقاء الرحي عليه . ولم ينج الشق من عواقب جرمه ولا نجا قومه . فإن رسول الله ما لبث أن استدعى محمد بن مسامة رقال له : اذهب إلى بني النضير فمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يساكنوني بها . وقد أجليتهم عشرا ، فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه !

ولم يجد يهود مناصاً من الخروج ، فأخذوا يتجهزون للرحيل ، بيد أن منافق المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبي أرسلوا إليهم : أن اثبتوا ونحن نصركم على محمد وصحبه ! فعادت لليهود ثقتهم ، واستقر رأيهم على النأوة . وأرسلوا للنبي يقولون له : لن نخرج ، فافعل ما بدا لك ثم احتموا بحصونهم واستعدوا للقتال ، وزادهم إصراراً على المقاومة ما تراه إليهم من أن ابن أبي أعد ألفي مقاتل لنصرتهم . ونهض النبي لمانحة القوم وتحدي من ينضم إليهم من قبائل اليهود والأخرى أو من مشركي العرب . وفرض الحصار على مساكن بني النضير وأمر بتقطيع نخيلهم . ثم جد الجد ورأى يهود الموت ووقع الرعب في قلوب أعوانهم فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً أو يدفع عنهم شراً . مع أن اشتباك المسلمين بخصومهم في هذه الفترة المخرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب . وقد رأيت كلب العرب عليهم وفتكهم الشنيع يبعوهم . ثم إن يهود بني النضير كانوا على درجة من القوة يجعل استسلامهم بعيد الاحتمال وتجعل فرض القتال معهم محفوفا بالكاره . إلا أن الحال التي جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً . وضاعفت نفقتهم على مقترفيها ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بني النضير — بعد همهم باغتيال الرسول — مهما تكن النتائج .

وقد جاءت النتيجة في مصلحتهم بأسرع مما يتصورون فاندحر اليهود وزلوا على حكم المنتصر الذي أذن لهم بالجلاء عن ديارهم ولهم ما حملت إبلهم من أموال ، ما عدا السلاح !

وفي هذه المعركة نزلت سورة الحشر بأحكامها فوصف طرد اليهود في صدرها بقول الله عز وجل :

« هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأناهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف في قلوبهم الرعب ، يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين . فاعتبروا يا أولى الأبصار . »

ثم فضح القرآن مسلك منافق المدينة الذين حاولوا إغاة يهود في غدرها وحررها وحرصوها على مقاتلة المسلمين بما وعدوها من أمداد وعتاد فقال :

« ألم تر إلى الذين نافقوا ؟ يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لن أخرجكم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً . وإن قوتكم لننصرنكم ! والله يشهد إنهم لكاذبون لن أخرجوا لا يخرجون معهم . ولئن قوتلوا لا ينصرونهم . ولئن نصروهم ليؤنن الأديار ثم لا ينصرون . »

وبهذا النصر الذي أحرزه المسلمون دون تضحيات توطد سلطانهم في المدينة ، وتحاذل المنافقون عن الجهره بكيدهم وأمكن الرسول أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد ، وتوائبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها في ندالة وكفران .

وتأديباً لأولئك الغادرين خرج النبي بجوس فيافي نجد ، ويطلب ثار أصحابه الذين قتلوا في الرجيع وبئر معونة ويلقى بذور الخوف في أفئدة أولئك البدو القساة حتى لا يعاودوا منا كرم التي ارتكبوها مع المسلمين .

وقام النبي تحقيقاً لهذا الغرض بغزوات شتى أرهبت القبائل المغيرة وخلطت بمشاعرها الرعب . فأضحي الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال بعد ما قطعوا الطريق على الدعوة ردحاً من الزمن . وفي مقدمة هؤلاء بنو لحيان وبنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان :

فلما خضد المسلمون شوكتهم وكفكفوا شرهم أخذوا يتجهزون للملاقاة عدوهم الأَكبر فقد استدار العام وحضر الموعد المضروب مع قريش . وحقَّ لمحمد وصحبه أن يخرجوا ليواجهوا أبا سفيان وقومه ، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرها بالبقاء .

بدر الآخرة

لم ينشط أبو سفيان للوفاء بالميعاد الذي ضربه عند منصرفه من أحد . بل خرج من مكة متثاقلاً يفكر في عقبي القتال مع المسلمين ، وهو بعد لما يتخذ لهذا القتال أهيبته التي يودها . إن قومه هزموا في بدر على كثرة عددهم ووفرة عدتهم واستخلصوا النصر في أحد بعد جهد فاشل ، ولولا الخطأ الذي وقع فيه جيش التوحيد ما ظفرت قريش بهذه الغرة . لذلك ما كاد أبو سفيان يقترب من الظهران حتى بدا له في الرجوع فصاح بقومه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن . وإن عامكم هذا عام جذب وإني راجع فارجعوا . . .

وهكذا انسحبت قريش من المعركة المنتظرة .

أما المسلمون فإنهم نفرُوا للملاقاة المشرّكين على استعداد وحماسة حتى وصلوا ماء بدر فعمسكروا حوله يعلنون وفاءهم بكلمتهم وتأهبهم للحرب الموعودة وظلوا ثمانية أيام يرتقبون مقدم أهل مكة . ويمسحون عن سمعهم آخر ما تركت هزيمة أحد من غبار . وكان ذلك في شعبان من السنة الرابعة للهجرة .

دومة الجندل

وانتقل زمام المفاجأة إلى أيدي المسلمين بعد أن نكصت قريش عن مواجهتهم . فالتفتوا إلى الشمال بعد أن توطدت مهابتهم في الجنوب . وشمال الجزيرة يجاور سلطان الروم القديم ، والعرب الضاربون هناك لا يخشون بأس أحد بعد القيصر . وقيصر نفسه لا يتوقع أن تنبت في الجزيرة قوة تناوئه أو تتجاهله . وجاءت الأخبار إلى المدينة أن القبائل حول دومة الجندل — قريباً من الشام —

تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وقد بلغ بها الطيش حداً فكرت معه أن
تهاجم المدينة ، وأن جمعاً كبيراً احتشد بها للاندفاع في هذه الغارة !
فخرج رسول الله في ألف من المسلمين يكمن بهم نهراً ويسير ليلاً حتى يفاجئ أعداءه
وهم غارون . والمسافة بين يثرب ودومة الجندل خمس عشرة ليلة قطعها المسلمون بمعونة
دليل ماهر . فلما بلغوا مضارب خصومهم اجتاحوها مباغتتين ففرت الجموع التائهة
للسطو ، وأصاب المسلمون سوائهم ورعاهم وكانت لبني تميم .
أما أهل الدومة ففروا في كل وجه فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً .
وأقام الرسول عدة أيام يبعث سرايا ، وييث رجاله هنا وهناك فلم يثبت للقائهم هارب .
وعاد المسلمون إلى المدينة . وكان توجههم لعرب الشمال في ربيع الأول من
السنة الخامسة .

عندما كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد كانت مخصته تتخذ طريق الجهره
والتهجم دون مبالاة . فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة سلكت
عداوته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة ، فأسمى الكيد له يقوم على الكيد
والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعالين بها الأقوياء . واثمار الضعفاء في جنح
الظلام لا يقل خطورة عن نكايه الأقوياء في ميادين الصدام . بل إن المرء قد يألم
لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطمعة مواجهة . وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع
الوسائل التي تصيب العدو وإن كان بعضها يستحي من استخدامه الرجل الشريف !
وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة
النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد ويغلب عليها الضعف ، أسلوب اللمز والتعريض
حيناً والإفك والافتراء حيناً آخر . وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم
ازداد خصومهم المنافقون ضغناً عليهم وتربصاً بهم . وقد حاولوا تأييد اليهود عندما
تآذتهم الرسول بالجلاء . فلما لم يقف مد الإسلام شيء ، ولم تهدد هزيمة . وأخذت
القبائل العادية تحتفي واحدة تلو أخرى ، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ،
ولم تنكشف نياتهم السوء إلا على فلتات الألسنة ومزلق الطباع . فكانت سيرتهم
تلك مثار فتن شداد ، تأذى منها رسول الله والمؤمنون شيئاً غير قليل .

وظهر ذلك جلياً في غزوة بني المصطلق . فإن الأنبياء أتت الرسول بأن هذه القبيلة تجمع له وتستعد لقتاله . وأن سيدها الحارث بن أبي ضرار قد استكمل عدته لهذا السير ، فسارع رسول الله بالمسلمين ليطيء الفتنة قبل اندلاعها . وخرج مع الرسول هذه المرة جمع من المنافقين لم يعتادوا الخروج قبلاً . ولعل ثقتهم بانتصار محمد أغرتهم بالذهاب معه ابتغاء الدنيا لا انتصاراً لدين .

وانتهى المسلمون إلى ماء يسمى المرَيْسيع اجتمع لديه بنو المصطلق ، فأمر رسول الله عمر بن الخطاب أن يعرض الإسلام على القوم . فنادى عمر فيهم : قولوا : لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ! فأبوا . وتراعى الفريقان بالنبل ، ثم أمر النبي صحابته فحملوا عليهم حملة رجل واحد . فلم يفلت من المشركين أحد إذ وقعوا جميعاً أسرى بعد ما قتل منهم عشرة أشخاص ولم يستشهد من المسلمين إلا رجل واحد قتل خطأ . وسقطت القبيلة بما تملك في أيدي المسلمين !

ورأى رسول الله أن يعامل المهزومين بالإحسان . فلما جاء الحارث قائد القبيلة المنكسرة يطلب ابنته التي وقعت في الأسر ردّها عليه . ثم خطبها منه ، وتزوجها فاستحي الناس أن يسترقوا أصهار رسول الله . فأطلقوا من بأيديهم من الأسرى ! فكانت جويرية بنت الحارث من أيمن الناس على أهلها . فقد أعتق في زواجها مائة أهل بيت من بني المصطلق ...

على أن هذا النصر الميسر شابه من أعمال المنافقين ما عكّر صفوه وأنسى المسلمين حلاوته ، فإن خادماً لعمر كان يستقي له من ماء المرَيْسيع ازدحم مع مولى لبني عوف ابن الخزرج وكادا يقتتلان على الورود - شأن الخدم الطائشين - فصاح الأول : يا للمهاجرين . وصاح الآخر : يا للأَنْصار ! واستمع إلى صياح الأتباع عبد الله بن أبيّ وكان في رهط من قومه رأى الفرصة سانحة لإثارة حفاظهم وإحياء ما أماته الإسلام من نمرات الجاهلية فقال : أوقد فعلوها ؟ نافرونا وكاثرونا في بلادنا . أما والله لئن رحمنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على قومه - ولم تزل له فيهم بقية وجاهة - يلوهم ويحرضهم على التنكر للرسول وحببه . فذهب زيد بن أرقم إلى النبي يقص عليه الخبر ، وأسرع ابن أبيّ إلى رسول الله يبرئ نفسه وينفي ما قاله !!

ورأى الحاضرون أن يقبلوا كلام ابن أبي رعية لمنزلته ، وقالوا : الغلام - يعنون زيد بن أرقم - أوهم ولم يحفظ ما قيل !!

على أن الحقيقة لم تقت النبي فأحزنه ما وقع ، ووجد خير علاج له شغل الناس عنه حتى يُعفى على آثاره . فأصدر أمره بالارتحال في ساعة ما كان يروح في مثلها . ومشى بالناس سائر اليوم حتى أمسوا . وطيلة الليل حتى أصبحوا ، وصَدَّ يومهم الجديد حتى آذتهم الشمس . ثم نزل بهم فما إن وجدوا مسَّ الأرض حتى وقعوا نياماً ! وتابع الرسول رواحه حتى عاد إلى المدينة .

ونزلت صورة المنافقين . وفيها تصديق ما روى زيد بن أرقم « يقولون : لن رجعنا إلى المدينة لِيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ . والله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

لم يدُرْ بخاطر أحد أن هذه الأوبة المتعجَّلة سوف تتمخض عن أ كذوبة دينية يحكيك أطرافها عبد الله بن أبي ثم يرى بها بين الناس فتسير مسير الوباء الفاتك .

إن هذا الرجل حلف كاذباً بعد أن أنكر مقالته الثابتة ، ولو أن الجبان ذهب يطلب النجاة من عقباها لكان ذلك أجدى عليه . لكنه لم يزد على السماح الذي قوبل به إلا خسة وخصاما . والبون بعيد بين أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله . لقد كان أبو جهل خصماً لدوداً لكل من دخل في هذا الدين ، وكان طاغية عنيداً لا تنتهى لجاجته ، إلا أنه كان كالضبع المفترس لا يحسن الالتواء والوقية ، حمل السيف في وضح النهار وما زال يقاتل به حتى صرع . . .

أما عبد الله بن أبي فقد اختفى كالعقرب الخائنة ثم شرع يسمع الغافلين . . . قبع هذا المنافق في جنح الظلام وبدأ ينفث الإشاعات المريبة . وتدل في غوايته إلى حضيض بعيد ، فلم يبال أن يتهجم على الأعراض المصونة وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات . . .

في عودة الرسول من غزوة بني المصطلق إلى المدينة نبت حديث الإفك وشاع ، واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شرره في كل مكان ، قاصدين من وراء هذا الأسلوب الجديد في حرب الإسلام أن يدمروا على الرسول بيته ، وأن يستقوا

مكانة أقرب الرجال لديه ، وأن يدعوا جمهور المسلمين بعد ذلك يضطرب في عمية من الأسى والغم !!

وللوصول إلى هذه الغاية استباح ابن أبي لنفسه أن يرمى بالفحشاء سييدة لما تجاوز مرحلة الطفولة البريئة ، لا تعرف الشر ، ولا تهم بمنكر ، ولا تحسن الحياة إلا في فلك النبوة العالى . وهى التى تربت في حجر صديق ، وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة . وتلقف العامة هذا الحديث الغريب ، وهم في غمرة الدهشة لا يدرون مبلغ الخطر الكامن في قبوله ونقله ، وإليك سرداً لهذا الحديث المفتعل ، على لسان السيدة التى تعرضت له وبرئت منه .

حديث الإفك

قالت عائشة : كان رسول الله إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرجت معه . فلما كانت غزوة بنى المصطلق خرج سهمى عليهن فارتحلتُ معه ! قالت : وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق ، لم يهجن اللحم فيثقلن . وكنت إذا رحل بعيرى جلست في هودجى ، ثم يأتى القوم فيحملونى ، يأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه ، ثم يضعونه على ظهر البعير ويشدون به الحبال ، وبعدئذ ينطلقون قالت : فلما فرغ رسول الله من سفره ذاك توجه قافلاً ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات فيه بعض الليل . ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل فتهيئوا لذلك . وخرجت لبعض حاجتى وفي عنقى عقدلى . فلما فرغت أنسل من عنقى ولا أدرى ... ورجعت إلى الرِّحْلِ فالتصت عقدى فلم أجده ! وقد أخذ الناس في الرحيل . فعدت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتصته حتى وجدته . وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى البعير — وقد كانوا فرغوا من رحلته — فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ، ولم يشكوا أنى به . ثم أخذوا برأس البعير وانطلقوا ... !

ورجعت إلى المعسكر وما فيه داع ولا محجب . لقد انطلق الناس ؟؟؟ قالت : فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت في مكانى . وعرفت أنى لو افتقدت لرجع الناس إلى . فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى . وكان قد تخلف لبعض

حاجته . فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على — وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب — فلما رآنى قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .
ظعينة رسول الله ؟ وأنا متلففة فى ثيابى !!

ما خلفك يرحمك الله ؟ قالت : فما كلمته ، ثم قرب إلى البعير فقال : اركبى واستأخر عنى . قالت : فركبت وأخذ برأس البعير منطلقا يطلب الناس ! فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزلوا فلما اطمئنوا طلع الرجل يقود بى البعير فقال أهل الإفك ما قالوا . وارتج العسكر . والله ما أعلم بشيء من ذلك ...

ثم قدما المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة — وليس يبلغنى من ذلك شيء — وقد انتهى الحديث إلى رسول الله وإلى أبوى وهم لا يذكرون لى منه كثيراً ولا قليلا . إلا أنى قد أنكرت من رسول الله بعض لطفه لى فى شكواى هذه ؟ فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل علىّ وعندى أى تمرضى قال : كيف تيكم ؟ لا يزيد على ذلك ؟ قالت : حتى وجدت فى نفسى — غضبت — فقلت يارسول الله — حين رأيت ما رأيت من جفائه لى : لو أذنت لى فانتقلت إلى أى ؟ قال : لا عليك ؟ قالت : فانقلبت إلى أى ولا علم لى بشيء مما كان حتى تفت من وجعى بعد بضعة وعشرين ليلة ... وكنا قوماً عرباً لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكُف التى تتخذها الأعاجم ، نعاها ونكرها ، إنما كنا نخرج فى فسخ المدينة وكانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن . فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فوالله إنها لمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت : تعس مسطح ! فقلت : بئس — لعمر والله — ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدمراً !! قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟ قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتني بالذى كان من أهل الإفك ؟ قلت : أو قد كان هذا ؟ قالت نعم والله لقد كان ... !!!

قالت عائشة : فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى . ورجعت فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى . وقلت لأمى : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟ قالت : أى بنية ، خفى عنك ، فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يُحبها ، ولها ضرائر إلا كثرت وكثر الناس عليها ..

قالت : وقد قام رسول الله فخطبهم — ولا أعلم بذلك — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق ؟ والله ما علمت عليهم إلا خيراً . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً . ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معي !! قالت : وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي في رجال من الخزرج . مع الذي قال مسطح وحمزة بنت جحش . وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني في المنزل عنده غيرها . فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً . وإما حمزة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارني بأختها . فلما قال رسول الله تلك المقالة قال أسيد بن حضير يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فرنا أمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم . فقام سعد بن عباد — وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً — فقال : كذبت لعمر و الله ما تضرب أعناقهم إنك ما قلت هذه المقالة إلا وقد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . فقال أسيد : كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ..

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين شرٌّ ونزل رسول الله فدخل على ودعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما . فأما أسامة فأثنى خيراً ثم قال : يا رسول الله أهلك وما نعلم منهم إلا خيراً . وهذا الكذب والباطل ! وأما علي فقال : يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر علي أن تستخلف . وسل الجارية فإنها تصدقك ..

فدعا رسول الله بريرة يسألها . وقام إليها على فضربها ضرباً شديداً وهو يقول : أصدق رسول الله ! فتقول والله ما أعلم إلا خيراً . وما كنت أعيب علي عائشة ألا أتي كنت أعجن عجيني ، فأمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتي الشاة وتأكله !! قالت : ثم دخل علي رسول الله وعندي أبواي ، وعندي امرأة من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي . فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقي الله . وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبني إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده . . .

قالت : فوالله إن هو إلا أن قال لي ذلك حتى قلص دمعى فما أحس منه شيئاً وانتظرت أبوى أن يجيبا عني فلم يتكلما !

قالت عائشة : وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسى وأصغر شأننا من أن ينزل الله في قرآنا . لكنى كنت أرجو أن يرى النبي في نومه شيئاً يكذب الله به عني لما يعلم من براءتى أما قرآنا ينزل في فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك . . !!

قالت : فلم أر أبوى يتكلان !! قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله فقالا : والله لا ندرى بم نجيبه قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر في تلك الأيام . ثم قالت : فلما استعجبا على استعبرت فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً . والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس — والله يعلم أنى منه بريئة لأقولن ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونى قالت : ثم التمت اسم يعقوب فما أذكره . فقلت : أقول ما قال : أبو يوسف « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسُجى بثوبه ووضعت وسادة تحت رأسه فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت وما باليت وقد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى . وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سررى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس ثم سرى عن رسول الله مجلس وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شات فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشرى يا عائشة قد أنزل الله عز وجل براءتك فقلت : الحمد لله . ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم الآيات :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .
والغريب أن الحد أقيم على من ثبتت عليهم تهمة القذف ، وهم حسان بن ثابت ومسطح وجمنة ، أما عبد الله بن أبى مدبر الحملة وجرثومها الخفية فإنه كان أحذر من أن يقع تحت طائلة العقاب . لقد أوقع غيره ثم أفلت بنفسه . . .
وكتاب السيرة على أن حديث الإفك وغزوة بنى المصطلق كانا بعد الخندق

لكننا تابعنا ابن القيم في اعتبارها من حوادث السنة الخامسة قبل هجوم الأحزاب على المدينة . والتحقيق يساند ابن القيم ومتابعيه . فستعلم أن سعد بن معاذ قتل في معركة الأحزاب . مع أن لسعد في غزوة بني المصطلق شأنًا يذكر . إذ أن الرسول اشتكى إليه عمل ابن أبي ، ولا يتفق أن يستشهد سعد بن معاذ في غزوة الخندق ثم يحضر بعد ذلك في بني المصطلق ، لو صح أنها وقعت في السنة السادسة .

غزوة الأحزاب

أيقنت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربتة كل طائفة مفردة . وأنها ربما تبلغ أملها إذا رمت الإسلام كتلة واحدة . وكان زعماء يهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضد الإسلام وحشدهم في جيش كثيف ينزل محمداً وصحبه في معركة حاسمة ...

وذهب نفر من قادة اليهود إلى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . وقريش قد أخلفت عداها عاما وهي لا بد خارجة لقتال المسلمين إنقاذاً لسمعتها وبراً بكلمتها . وهاهم أولاء رجالات يهود يحالفونهم على ما يبيغون فلا مكان لتوجس أو إخلاف ...

والغريب أن أحبار التوراة أكدوا لعبدة الأوثان في مكة أن قتال محمد حق واستئصاله أَرْضَى اللَّه ! لأن دين قريش أفضل من دينه ، وتقاليده الجاهلية أفضل من تعاليم القرآن !! وسُرَّت قريش بما سمعت وزادها إصراراً على العدوان فواعدت اليهود أن تكون معها في الزحف على المدينة .

وترك زعماء اليهود قريشاً إلى أعراب غطفان فعقدوا معهم حلفاً مشابهاً لما تم مع أهل مكة . ودخل في هذا الحلف عدد من القبائل الناقمة على الدين الجديد .

وبذلك نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ودعوته . وعرف المسلمون مبلغ الخطر المحدق بهم ، فرسموا على عجل الخطة التي يدفعون بها عن دعوتهم ودولتهم . وكانت خطة فريدة لم تسمع العرب قبلاً بمثلها . وهم الذين لا يعرفون إلا قتال الميادين المكشوفة ... أما هذه المرة فإن المسلمين حفروا خندقاً عميقاً يحيط بالمدينة من ناحية السهل ، ويفصل بين الغيرين والمدافعين .

وأقبلت الأحزاب في جمع غفير لا قبل للمسلمين برده . قريش في عشرة آلاف من رجالها ومن تبعهم من كنانة وتهامة . وغطفان في طليعة قبائل نجد . وبرز المسلمون بعد ما جعلوا نساءهم وذرايهم فوق الآطام الحصينة من يثرب . ثم انتشروا على حدود مدينتهم مسندين ظهورهم إلى جبل سلع ، ومرابطين على شاطئ الخندق الذي احتفروه بعد جهود مضنية ، وبلغت عدتهم في هذه المعركة نحو ثلاثة آلاف مقاتل ...

علم رسول الله أن الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة في ساحة ممهدة ليس طريق النصر . فاعسى أن تصنع قلة مؤمنة مكافئة مع هذا السيل الدافق ؟ لذلك لجأ إلى هذه المكيدة ، وروى أن الذي أشار بها سلمان الفارسي . وتقدم رجاله لإحكامها وإنجازها فأخذ يحفر بيده ويحمل الأتربة والأحجار على عاتقه وتأسى به الرجال الكبار ممن لم يألفوا هذا العمل قط ! فشهدت يثرب منظرًا عجبًا ، وجوهاً ناصعة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفتوس وتحمل المكائل وتتعري من لباسها وزينتها لتلبس حلالا من نسج الغبار المتراكم والعرق والغوب !! قال : البراء بن عازب : كان رسول الله ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبرَّ بطنه يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا

وهذا الغناء من شعر عبد الله بن رواحة كان المشتغلون في الخندق يزجون التعب عن أعصابهم بالاستماع إلى نغمه وترديد الكلمات الأخيرة من مقاطعه . وكان رسول الله يمد صوته بها معهم فيقول : لاقينا . . . أينا . مما يعيد إلى أذهاننا صور « الفعلة » الذين يحفرون الترع بالريف أو يبنون القصور بالمدن . إن الدفاع عن الإسلام ، وخافة الفتنة لو انتصر المشركون جعلت الرسول وصحابه يحاجون هذا العمل الثقيل ونفوسهم راضية مغتبطة مع ما يلقون فيه من عناء وصعوبة . ولا تحسبن عمل رسول الله في تعميق الخندق وقذف أثرته من قبيل التمثيل الذي يحسنه بعض الزعماء في عصرنا . كلا كلا .

إن الرجولة السكادحة الجادة في أنبل صورها كانت تقتبس من مسلك الرسول في هذه المعركة . يقول البراء : لقد وارى عنى الترابُ جلدة بطنه وكان كثير الشعر !! أجل إنه استغرق في العمل مع أصحابه فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثيل . . .

وكان الفصل شتاء ، والجو باردا . وهناك أزمة في الأقوات تعانيها المدينة التي توشك أن تتعرض لحصار عنيف . وليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس ، فلو تعرض المحصور لسوراته المقبضة فمزلق الاستسلام الذليل أمامه تنجرُّ به إلى الحضيض . لذلك اجتهد النبيُّ في تدعيم القوى المعنوية لرجاله حتى يوقفوا بأن الضائقة التي تواجههم سحابة صيف عن قليل تقشعُ .

ثم يستأنف الإسلام مسيره بمدُّ فيدخل الناس فيه أفواجا ، وتندك أمامه معاقل الظلم فلا يصدر عنها كيد ، ولا تُخشى منها فتنة .

ومن إحكام السياسة أن يقارن هذا الأمل الواسع مراحل الجهد المضى . قال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن وستة من الأنصار في أربعين ذراعا — من الأرض التي كلفوا بحفرها — فحفروا حتى وصلنا إلى صخرة بيضاء كسرت حديدنا وشقت علينا . فذهب سلمان إلى رسول الله يخبره عن هذه الصخرة التي اعترضت عملهم وأعجزت معاولهم . فجاء النبيُّ وأخذ من سلمان المعول ثم ضرب الصخرة ضربة صدعتها . وتطأير منها شرر أضاء خلل هذا الجو الداكن . وكبر رسول الله تكبير فتح وكبر المسلمون . ثم ضربها الثانية فكذلك ، ثم الثالثة فكذلك . . .

تفتت الصخرة تحت ضربات الرجل الأيِّد الجلد ، الموصول بالسما الراسخ على الأرض ، ونظر النبيُّ إلى صحبه وقد أشرق على نفسه الكبيرة شعاع من الثقة الغامرة والأمل الحلو فقال يحدث صحبه عن السنن المنقذ بين حديد المعول وحدة الصخر لقد أضاء لي في الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى ، كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها . وفي الثانية أضاء القصور الحجر من أرض الروم ، كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها . وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها . . . فأبشروا . فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعود صادق !

فلما انسابت الأحزاب حول المدينة وضيقوا عليها اختلفوا لم تطر نفوس المسلمين شعاعاً بل جابهوا الحاضر المرّ وهم موطّدوا الأمل في غد كريم « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله . وصدق الله ورسوله . وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » .

أما الواهنون والمرتابون ومرضى القلوب فقد تندّروا بأحاديث الفتح ، وظنّوها أمانيّ المغرورين . وقالوا عن رسول الله : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا ؟ وفيهم قال الله : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » .

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب . فقتلى الفريقين من المؤمنين والكفار يعدون على الأصابع . ومع تلك الحقيقة فهي من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام . إذ أن مصير هذه الرسالة العظمى كان فيها أشبه بمصير رجل يمشى على حافة قمة سامقة ، أو جبل ممدود فلو اختل توازنه لحظة وفقد السيطرة على موقعه لهُوى من مرتفعه إلى وادٍ سحيق ، ممزق الأعضاء ، ممزق الأشلاء ! ولقد أسمى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجزيرة المنقطعة وسط ظوفان يهددها بالفرق ليلاً أو نهاراً . وبين الحين والحين يتطلع المدافعون : هل اقتحمت خطوطهم في ناحية ما من منطقة الدفاع ؟ وكان المشركون يدورون حول المدينة غضاباً يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها فينفسوا عن حنقهم المكتوم ويقطّعوا أوصال هذا الدين الثائر . وعرف المسلمون ما يترى بهم وراء هذا الحصار فقرروا أن يرايطوا في مكانهم ينضحون بالنبل كل مقرب ويتحملون لأواء هذه الحراسة التي تنتظم السهل والجبل وتتسع ثغورها يوماً بعد يوم . وهم كما وصف الله : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم . وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً » .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو ، فإن فرض الحصار وترقب نتائجها ليس من شيمهم . فخرج عمرو بن عبد ودّ وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب ، وأقبلوا تمنق بهم خيلهم حتى وقفوا على حافة الخندق فلما رأوه

قالوا : والله إن هذه لكيدة ما كانت العرب تكيدها . ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، وضربوا خيلهم فاقتحمته . وأحس المسلمون الخطر المقرب فأسرع فرسانهم يسدون هذه الثغرة يقودهم عليّ بن أبي طالب .

وقال عليّ لعمر بن عبد ودّ . وهو فارس شجاع مُعَلَّم : يا عمرو إنك عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ؟ قال : أجل ، قال له عليّ : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ! قال عمرو : لا حاجة لي بذلك . قال : فإني أدعوك إلى النزال ! فأجاب عمرو : ولم يا ابن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك — استصغاراً لشأنه — قال عليّ : لكني والله أحب أن أقتلك !! فحُمي عمرو واقتحم عن فرسه فمقره وضرب وجهه ثم أقبل على عليّ ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله عليّ وخرجت خيل المشركين من الخندق منهزمة حتى اقتحمته هاربة ..

وكان الأولاد في البيوت يرقبون جهاد المدافعين وحركاتهم السريعة لصعد العدوان في مظانّه . فعن عبد الله بن الزبير ، جمعت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم ومعى عمر بن أبي سلمة ، فجعل يطأطأ لي فأصعد على ظهره فأنظر . قال : فنظرت إلى أبي وهو يحمل مرة ها هنا ومرة ها هنا ، فما يرتفع له شيء إلا أتاه . فلما أمسى جاءنا إلى الأطم . قلت : يا أبت ، رأيتك اليوم وما تصنع ! قال : رأيتني يا بني ؟ قلت : نعم . قال الزبير — مدلاً ولده — : فدى لك أبي وأمي ..

في هذه الآونة العصيبة جاءت الأخبار أن بني قريظة نقضوا معاهدتهم مع رسول الله وانضموا إلى كتائب الأحزاب التي تحدد بالمدينة .

وذلك أن حُيَّ بن أخطب — أحد نفر الذين حرضوا قريشاً وسائر العرب على حرب الإسلام — جاء إلى كعب بن أسد سيد قريظة وقرع عليه بابه . وكان كعب عند قدوم الأحزاب قد أغلق أبوابه ومنع حصونه ، وقرر أن يوفى بالعهد الذي بينه وبين المسلمين ، فلا يعين عليهم خصماً — وليته بقي على هذا العزم — إلا أن حُيَّياً لزم الباب وهو يصرخ بكعب : ويحك افتح لي ، فقال له كعب : إنك امرؤ مشئوم ، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه . ولم أر منه إلا وفاء وصدقا ... قال حي : ويحك افتح لي أكلّمك . قال : ما أنا بفاعل !! فقال حيّ :

والله إن أغلقت دوني إلا خوفا على جيشيتك أن آكل معك منها !! فأحفظ الرجل ففتح له ..

ودخل حيي يقول : ويحك يا كعب جئتكم بعز الدهر وبحر طام ! قال : وماذاك ؟ قال : جئتكم بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة . وبغطفان على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم إلى جانب أحد . قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه ..

قال كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماءه ، يُرعد ويُبرق وليس فيه شيء ! دعني وما أنا عليه . فإنني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا ..

وتدخل آخرون فقالوا : إذا لم تنصروا محمداً — كما يقضي الميثاق — فدعوه وعدوه . بيد أن حيي استطاع أن يقنع سائر اليهود بوجهة نظره ، وأن يزين لهم الغدر في هذه الساعة الحرجة ، وأن يضمهم إلى المشركين في قتالهم الذي أعلنوه ، وجعلوا الغاية منه ، ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه ، ومُضِيًّا في هذه الخطة الجائرة الخسيسة ، أحضرت قريظة الصحيفة التي كتب فيها الميثاق فمزقتها . فلما بعث النبيُّ رجاله ليستجلوا موقف قريظة بإزاء عدوان الأحزاب قالوا : مَنْ رسولُ الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ! وحاول سعد بن معاذ أن يذكركم بعقدهم فتصاموا عنه ، فلما خوفهم عقبي الغدر ، وذكر لهم مصير بني النضير قالوا له : أكلتَ أيرأبيك ..

وتبين أن حرص قريظة الأول على التزام العهد كان خوفاً من عواقب الغدر فقط . فلما ظنت أن المسلمين أحيط بهم من كل جانب وأنها لن تؤاخذ على خيانة ، أسفرت عن خيانتها وانضمت إلى المشركين المهاجرين .

ووجم المسلمون حين عادت رسلهم تحمل هذه الأنباء المقلقة ، وربت مشاعر الكره في صدورهم لأولئك اليهود حتى لأصبحوا أشوه أمام أعينهم من عباد الأصنام ووعوا أتم الوعي أن بني إسرائيل أقدموا على قرارهم هذا وهم يعلمون معناه ، وعقباه ، يعلمون أنه محاولة متعمدة للإجهاز على هذه الأمة ودينها ، وتسليمها إلى من يقتل رجالها ويسترق نساءها ويبيع ذرائعها في الأسواق .

وتَقَنَّعَ الرسول بثوبه حين أتاه غدر قريظة . فاضطجع ومكث طويلاً حتى اشتد على الناس البلاء . ثم غلبته روح الأمل فنهض يقول : أبشروا بفتح الله ونصره !! وفكر في أن يردَّ عن المدينة بعض القبائل التي فرضت الحصار لقاء ثلث الثمار يبذلها لها ويتقى به شرها . وكاد يصل في مفاوضاته مع قواد غطفان إلى هذا الحل . لكن سادة الأوس والخزرج عزَّ عليهم أن يرضوا به ، وقدَّروا للنبي شفقته عليهم وألمه لاجتماع العرب ضدهم . بيد أنهم قالوا : مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . وطال الحصار . قال موسى بن عقبة : وأحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم فحاصروهم قريباً من عشرين ليلة . وأخذوا بكل ناحية حتى لا يُدْرَى : أئتمَّ أم لا — هل احتلوا البلد أو لا ؟ — قال ، ووجهوا نحو منزل رسول الله كتيبة غليظة فقاتلها المسلمون يوماً إلى الليل فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة — من المنزل — فلم يقدر النبي ولا أحد من أصحابه أن يصلوا الصلاة على نحو ما أرادوا .

فانكفأت الكتيبة المشتركة مع الليل ، فزعموا أن رسول الله قال : شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارا .

فلما اشتد البلاء نافق ناس كثير ، وتكلموا بكلام قبيح ، ورأى رسول الله ما بالناس من البلاء ، والكرب فجعل ، يبشرهم ويقول : والذي نفسي بيده ليفرجنَّ عنكم ما ترون من الشدة ! وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً ، وأن يدفع الله إليَّ مفاتيح الكعبة ! وليهلكنَّ الله كسرى وقيسر ، ولتنفقنَّ كنوزها في سبيل الله .

ووقع ثقل المقاومة على أصحاب الإيمان الراسخ والنجدة الرائعة . كان عليهم أن يكتبوا مظاهر القلق التي انبعثت وتكاثرت في النفوس الخوارة الهلوع ، وأن يشيعوا موجة من الإقدام والشجاعة تغلب أو توقف نزغات الجبن والتردد التي بدت هنا وهناك . وطبائع النفوس تتفاوت تفاوتاً كبيراً لدى الأزمات العضوض .

منها الهش الذي سرعان ما يذوب ويحملة التيار معه كما تحمل المياه الغشاء والأوحال . ومنها الصلب الذي تمر به العواصف المجتاحة فتتكسر حدتها على ممتنه وتتحول رغبة خفيفة وزبداً .

أجل من الناس من يهجم على الشدائد ليأخذها قبل أن تأخذه . وعلى لسانه قول الشاعر .

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدم
ومنهم من إذا مسه الفزع طاش به فوّل الأدبار . وكلما هاجه طلب الحياة وحب
البقاء أوغل في الفرار . وقد نعى القرآن الكريم على هذا الصنف الجزوع موقفه
في معركة الأحزاب فقال :

« قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذا لا تُمَتَّعُونَ
إلا قليلاً . قل : مَنْ ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمةً .
ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وعندما حاولت قريش اقتحام الخندق ، وعندما حاولت احتلال بيت النبي ،
وعندما عجمت عود الرابطين تبحث عن نقطة رخوة لتثب منها إلى قلب المدينة ، كان
أولئك المؤمنون الراسخون سراعاً إلى داعي الفداء يجيئون من كل صوب ليستيقن
العدو أن دون مرامه الأهوال . .

روى ابن إسحق أن عائشة أم المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق .
وكان من أحرز حصون المدينة . وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن . قالت
عائشة وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب . فر سعد وعليه درع مقلصة خرجت منها
ذراعه كلها . وفي يده حربته يرفل بها ويقول :

لبث قليلاً يشهد الهيجا جمل ! لا بأس بالموت إذا حان الأجل !

فقال له أمه : الحق يا بني فقد - والله - آخرت . .

قالت عائشة : قفلت لها يأم سعد . والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي .
قالت : وخفت عليه حيث أصاب السهم منه . فرمى سعد بن معاذ بسهم قطع
منه الأكل .

ويظهر أن جراحة سعد كانت شديدة . وليس سعد بالرجل الذي يهاب المنايا .
ولكنه عميق الرغبة في متابعة الجهاد حتى يستقر أمر الإسلام وتنكس راية خصومه
فدعا الله قائلاً : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم

أحبَّ إلىَّ أن أجاهد ، من قومٍ آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه . وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة . ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة . ودعوة سعد الأخيرة تصوّر مبلغ ما انطوت عليه قلوب المسلمين من غيظ خيانة يهود وتمزيقها المعاهدة القائمة . ومسلّك بني إسرائيل بإزاء المعاهدات التي أمضوها قديماً وحديثاً يجعلنا نجزم بأن القوم لا يدعون خستهم أبداً ، وأنهم يرعون الموائيق ما بقيت هذه الموائيق متمشية مع أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم ، فإذا وقعت تطلّعهم الحرام نبذوها بنذ النواة . لو تركت الحمير نهيقها ، والأفاعي لدغها ترك اليهود نقضهم للعهود . وقد نبّه القرآن إلى هذه الخصلة الشنعاء في بني إسرائيل وأشار إلى أنها أحوالهم حيواناً لا أناساً ، فقال :

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتّقون » .

ونقل سعد إلى خيمة بالمسجد ، لتقوم على تمريضه إحدى المؤمنات الماهرات .

وجاء المسلمون إلى رسول الله يسألونه : هل من شيء نقوله ؟ فقد بلغت القلوب الحناجر . قال : نعم اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا . . .

وعن عبد الله بن أوفى دعا رسول الله على الأحزاب فقال : اللهم منزل الكتاب صريع الحساب اهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم . .

والله تبارك وتعالى لا يقبل الدعاء من متواكل كسول . ولا يستمع لشيء استماعه لهتاف مجتهد ، أن يبارك له سعيه . أو دعاء صابر ، أن يجمل له العاقبة وقد أفرغ المسلمون جهدهم في الدفاع عن رسالتهم ومدنيتهم حتى لم يبق في طوق البشر مدّخر ، فبقى أن تتدخل العناية العليا لتقمع صعر الظالم وتقيم جانب المظلوم .

ومن ثم أخذ سير المعركة يتطوّر على نحو لا يدرك الناس كنهه « وما يعلم جنود ربك إلا هو . وما هي إلا ذكرى للبشر » !!

ضاق الأعراب النازلون بالعراء ذرعاً لهذا المقام الغريب . لقد خيموا حول أطراف يثرب أياماً لا تؤذن بدايتها بانتهاء . وهم لم يجهئوا ليستنفدوا أقواتهم أمام خندق صعب الاجتياز ، وجبال رابط المسلمون أمامها ، واستقتلوا دون أن يقترب أحد منها . .

ثم إن الجوا غبرت أرجاؤه وترادفت أنوؤه . وهبت الرياح نكباء موحشة
الصغير تكاد في هبوبها تطوى الخيام المبعثرة وتطير بها في الآفاق .
والصلة بين أولئك الحلفاء لا تغرى بدوام الثقة ، إن غطفان وقبائل نجد أقبلت
يحدوها السلب والنهب ، وهي قد قبلت العودة من حيث أتت عندما أغريت ببعض
ثمار المدينة ، لولا أن المسلمين كبر عليهم أن يطعموهم منها رهبا .
وماذا صنت قريظة ؟

نقضت الموثق ونكصت عن الهجوم منتظرة من العرب أن يقوموا به ! إن
يهوديا خرج يطيف بحصن للمسلمين فنزلت إليه صفية بنت عبد المطلب فقتلته ، ولاغرو ،
فهي أخت حمزة !

وتلفت أبو سفيان يمنة ويسرة يتطلّب عوناً على ما ينبغي فلا يرى مأمناً ، مما أوقع
الوهن في قلبه ، وفي صفوف قريش معه .

وكان رسول الله يعرف هذا التصدع الخفي في صفوف الأحزاب فاجتهد أن يبرزه
ويوسع شقته ويستغله لجانبه . فلما جاء نعيم بن مسعود مسلماً ، أوصاه أن يكتم إسلامه
ورده على المشركين يوقع بينهم ، وقال له : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن
استطعت فإن الحرب خدعة . فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة — وكان لهم نديماً في
الجاهلية ، فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا :
صدقت ، لست عندنا بمتهم . فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأتم . البلد بلدكم
فيه أموالكم وأبناؤكم ونسائكم . لا تقدرون على أن تحوّلوا منه إلى غيره . وإن قريشاً
وغطفان قد جاء والحرب محمد وأصحابه . وقد ظاهروهم عليه . وبلدهم وأموالهم ونسائهم
بغيره . فليسوا كأنتم ! فإن رأوا نهزة أصابوها . وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا
بينكم وبين الرجل ببلدكم . ولا طاقة لكم به إن خلا بكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى
تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى
تتأجزوه . فقالوا له . لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قريشاً : فقال لأبي سفيان ومن معه : قد عرفتم ودي لكم ،
وفراق محمداً . وإنه قد بلغني أمرٌ رأيته على حقاً أن أبلغكموه ، نصحا لكم ، فاكتموا
عني . فقالوا : نفعل . قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم

وبين محمد . وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمننا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ، قريش و غطفان رجالا من أشrafهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ؟ ثم نكون لك على من بقى منهم حتى نستأصلهم . فأرسل إليهم أن نعم ! فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفان . فقال : يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي . ولا أراكم تهمونني . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . قال : فاكموا عني ، قالوا : نفعل ! ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس . وكان من صنع الله ورسوله أن أرسل أبوسفیان ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش و غطفان فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخفّ والحافر ، فاعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت . وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً . وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم . ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا . حتى نناجز محمداً . فإننا نخشى إن ضررستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشملوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا . ولا طاقة لنا بذلك منه ...

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة . قالت قريش و غطفان : والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحقّ ، فأرسلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا . فإن كنتم تريدون القتال ، فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذى ذكر لكم نعيم لحقّ . ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا . فإن رأوا فرصة انتهزوها . وإن كان غير ذلك انشملوا إلى بلادهم .

وهكذا أفلح المسلمون فى فصم عرا التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم ، فما مضت أسابيع ثلاثة على ذلك الحصار المضروب حتى دب القنوط والتخاذل فى صفوف المهاجرين على حين بقيت جبهة المدافعين سليمة لم تتلم .

وفى ليلة شاتية عاتية لفحت سبراتها الوجوه والجلود ، وأقعدت الرجال فى أماكنهم

ينشدون الدفء ويفرون من القر المتساقط على الصخور والرمال ، اتجهت نيات القوم إلى اتخاذ قرار حاسم في هذا القتال الفاسل !

وكأنما كان زئير الرياح الهوج سوطاً يلهب المهاجمين حتى لا يتوانوا في الخلاص من هذا الموقف . ونظر رسول الله من وراء أسوار المدينة . وحوله أعيابه جاثمون في مكانهم يرمقون الأفق بحذر ، ويرقبون الغيب بأمل ، والظلام البارد الثقيل يرين على كل شيء في الصحراء المترامية ، فهى كما قيل :

لا ينبج الكلب فيها غير واحدة حتى يلفّ على خيشومه الذنبا !!
قال حذيفة بن اليمان : رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود . وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقرينة أسفل منا نخافهم على ذرارينا . وما أتت علينا ليلة قط أشدّ ظلمة ولا أشدّ ريحاً منها تطنّ في رياحها أصوات أمثال الصواعق ، وما يستطيع أحدنا أن يرى إصبعه من قتامها السائد . ولم يكن على جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لا مرأتى لا يجاوز ركبتي . فأتانى الرسول وأنا جاث على الأرض . فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة . فقال : حذيفة ؟ فتقاصرت في موضعي وأنا أقول : بلى يا رسول الله — كراهية أن أقوم ! فندبني لما يريد وقال : إنه كأن في القوم خبر فأتني به . فخرجت وأنا من أشد الناس فزعا وأشدّهم قرأ ، فدعا لى بخير فضيت لشأني كأنما أمشي في حمام — إنها حرارة الإيمان وحماسة الطاعة جعلت الرجل يغلب بعاطفته المتقدة قسوة الجو —

قال حذيفة : وأوصانى الرسول حين وليت ألا أحدث في القوم حدثاً حتى آتبه ، فلما دنوت من معسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخيم يمد يديه إلى النار مستدفئاً ويمسح خصرته ، ويقول : الرحيل الرحيل . ولم أكن أعرف أبو سفيان قبل ذلك . فوضعت سهماً في كبد قوسى وأردت أن أرميه . ثم ذكرت وصاة رسول الله فأمسكت ، ولو رميته لأصبتة .

وأحسست عصف الريح في جنبات المعسكر لا تثير قدراً ولا ناراً ولا بناء ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش . إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، قد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى

مرتجل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فوالله ، ما أطلق عقاله إلا وهو قائم . . .

ورجع حذيفة إلى النبي يقص عليه ما رأى . . . وطلع النهار فإذا ظاهر المدينة خلاء . . . ارتحلت الأحزاب ، وانفك الحصار ، وعاد الأمن ، ونجح الإيمان في المحنة ! وهتف رسول الله يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . فلا شيء بعده . . . !!!

رجعت الطمأنينة إلى النفوس ، وظهرت خيبة الأحزاب بعدما أقبلت من كل فج لتجتاح يثرب وظهرت صلابة المسلمين في مواجهه الأزمات المرهقة . ولذلك قال رسول الله بعد هذه النتيجة الباهرة : الآن نغزوهم ولا يغزونا . .

مع قريظة

انفضت حشود الأحزاب حول المدينة . وعادت المطى بها حيث أتت تدرع رحاب الصحراء وليس تحمل معها إلا الفشل والخيبة ، وبقي يهود قريظة وحدثهم ، أوبقوا ومعهم غدرتهم التي فضحت طواياهم ! . فأصبحوا وأمسوا أشبه بالمجرم الذي ثبتت إدانته فهو يرقب بوجه كالح قصاص العدالة منه .

وكانت مشاعر التغيظ في أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها ، إنهم هم الذين استخرجوا العرب استخرجا . واستقدموهم إلى دار الهجرة ليحتاكوها من أقطارها ، ويستأصلوا المسلمين فيها . إن جراحات المسلمين لطردهم من ديارهم ومطاردتهم في عقيدتهم واستباحة أموالهم ودمائهم لكل فاهب ومغتال لما تندمل بعد ، بل لن تندمل أبدا . فكيف ساغ لأولئك الخونة من بني إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطة لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا النحو الذليل ؟ ؟

ثم ما الذي يجعل بني قريظة خاصة - وهم لم يروا في جوار محمد إلا البرّ والوفاء - يستديرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كي يشركوهم في قتل المسلمين وسلبهم وها قد دخل في حصونهم حي بن أخطب رأس العصاة التي طافت بمكة ونجد تحرض الأحزاب على الله ورسوله ، وتزعم أن الوثنية أفضل من التوحيد . . .

لذلك ما إن وثق المسلمون من منصرف الأحزاب عن المدينة حتى أمر رسول الله مؤذنا فأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة .

والأذان للقتال في هذه الضحوة المشرقة بالظفر والنجاة قرع مسامع المسلمين ندياً جلياً . فهم في غمرة من الشعور بتأييد الله وملائكته لهم ، أين هم اليوم مما كانوا عليه بالأمس القريب ؟ أنهم مدينون بحياتهم وكرامتهم للعناية العليا وحدها . .

أما خصومهم ، فإن قوى الكون المسخر بإذن الله هي التي فضت جموعهم وفلت حدودهم . فلا غرو إذا قال رسول للمؤمنين — محدثاً عن الروح الأمين — ما وضعت الملائكة السلاح بعد . . . إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة ، فإني أمد إليهم فرزلاً بهم .

وقد صدع الرسول بالأمر ، وشدد على المسلمين أن يسارعوا في إنفاذه . روى البيهقي أن رسول الله قال لأصحابه : عزمت عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بني قريظة ، فغربت الشمس قبل أن يأتوهم . فقالت طائفة من المسلمين : إن رسول الله لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا . وقالت طائفة : والله إنا لنرى عزيمة رسول الله ، وماعليتنا من إثم . فصلت طائفة إيماناً واحتساباً . وترك طائفة إيماناً واحتساباً . ولم يعنف رسول الله واحد من الفريقين .

وذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر مادامت عن اجتهاد برىء سليم ، والناس غالباً أحد رجلين ، رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة لا يعدها ، ورجل يتبين حكمتها ويستكشف غايتها ثم يتصرف في نطاق ماوعى من حكمتها وغايتها ولو خالف الظاهر القريب . وكلا الفريقين يشفع له إيمانه واحتسابه سواء أصاب الحق أو ندَّ عنه !

ومن العلماء من أهدر الوقت المعين للصلاة بعذر القتال ، وذلك مذهب البخارى وغيره وهذا — عندى — أدنى إل الصواب . فإن ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدد رسالة المسلم في الحياة . بل إنه لا يفهم دينه فهماً صحيحاً إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب .

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى . فيها الفرائض وفيها النوافل . ولا بد أن نعلم أن

الله لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة . فالرجل الذي يستكثر من أعمال التطوع في الوقت الذي يهمل فيه فرائض لازمة ، رجل ضال .

والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم . وكما أن الجسم لا يقوم بالمواد النشوية وحدها ، أو الزلالية وحدها ، بل لابد من استكمال جمل منوعة من الغذاء ، وإلا تعرض الجسم لعلل قد تنهكه أو تقتله .

فكذلك الدين . إنه لا قيام له في كيان الفرد أو في صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض الملوثة تصون حياته وتضمن عافيته ونماءه . وعلى المسلم أن يقسم وقته وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة ، فلا يشغله واجب عن واجب ، وبالأحرى لا تشغله نافلة عن واجب ..!!

وقد رأى رسول الله أن مباغثة بنى قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم ويقبوا حصونهم هو الواجب الأول في تلك الساعة . فلا ينبغي أن يشغل المسلم عنه ولو بالصلاة فحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال . . .

وتستطيع على ضوء هذا الإرشاد النبوي أن تحكم على مسالك المسلمين اليوم ، إن المدرس الذي ينشغل عن تعليم تلامذته ، والتاجر الذي ينشغل عن تمييز ثروته ، والموظف الذي ينشغل عن أداء عمله . لا يقبل الله من أحدهم عذراً أبداً في تضييع هذه الفرائض ولو كان أحدهم قد عاقه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة ، أو قرأ ألف آية ، أو عدّ أسماء الله الحسنى سبعين ألف مرة كما يفعل جهال المتصوفة !

ذلك أنه انشغال عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم تطلب ، وتعطيل لأمة يستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها في محاربة جهلها وفقرها وفوضاها . . .
والجهاد العام فريضة لا يغض من قدرها شيء . ولا تراحمها على وقتها عبادة كما رأيت .

حمل راية المسلمين إلى حصون قريظة على بن أبي طالب ، واستبق المسلمون يحتشدون حولها حتى إذا اقترب الجيش من منازل اليهود كان القوم لا يزالون على غوايتهم ، فقد نظروا إلى المسلمين ثم سبوا رسول الله ونساءه سباً قبيحاً . فرأى على أن يصرف النبي بعيداً عن أولئك السفهاء ، فاعترض طريقه وهو مقبل قائلاً :

يا رسول الله ، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث . فقال : لم ؟ أظنك سمعت لي منهم أذى ؟

قال : نعم يا رسول الله . قال : لو رأوني ، لم يقولوا من ذلك شيئا .
فلما دنا من حصونهم قال : يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته ؟
قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولا .

هذه خلال اليهود ، يسفهون إذا آمنوا ، ويقتلون إذا قدروا ، ويدكرون الناس بالمثل العليا إذا وجأوا ، ليستفيدوا منها وحدثهم لا لشيء آخر .
أما اليهود فهي آخر شيء في الحياة يقفون عنده .

على أن سفاهتهم لم تمنهم فقد أحكم المسلمون الحصار عليهم ، وأمسكوا بخناقهم فاستيقن القوم أن الاستسلام لا محيص عنه ، وامتلات قلوبهم باليأس والفرح .
قال كعب سيد بني قريظة : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون ،
وإني عارض عليكم خلا لا ثلاثا ، فخذوا أيها شتم قالوا : وما هي ؟

قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم إنه نبي مرسل ، وإنه
للذي تجدون في كتابكم ، فتأمنون على دماءكم وأموالكم ، وأبنائكم ونسائكم .
قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا . ولا نستبدل به غيره

قال : فإذا أيتم على هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه
رجالا مصلتين السيوف لم تترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك
نهلك ولم تترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن ظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء .
قالوا : نقتل هؤلاء الساكنين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟

قال : فإن أيتم على هذه . فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد
وأصحابه قد آمنونا فيها . فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة ؟

قالوا : نفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا ...

قال : ما بات رجل منكم منذ ولده أمه ليلة واحدة من الدهر حازما ...

وحاول بنو قريظة أن يظفروا بصلح كالذي ناله إخوانهم بنو النضير من قبل ،
بيد أن المسلمين أبوا عليهم إلا أن يسلموا دون قيد أو شرط ، فإن ما أسلف هؤلاء

من جرم بين ، وغدر شائن أحفظ عليهم الصدور ، فلم يَبْقَ فيها مكان لسماح ،
وتمحض الموقف للعدل المجرد يُقرُّ الأمور في نصابها كيف شاء .

واستقدم اليهود — وهم محصورون — أبا لبابة بن عبد المنذر يستشيرونه :
أيزلون على حكم محمد ؟ فقال لهم : نعم ، وأشار إلى حلقه ، كأنه ينبههم إلى أنه
الذبح !! ثم أدرك لفوره أنه خان رسول الله فمضى هائماً على وجهه حتى أتى مسجد
المدينة فربط نفسه إلى سارية فيه ، وحلف لا يفك منها حتى يتوب الله عليه .

وقد قبل الله منه ندمه ، ونزلت فيه بعد أيام الآية « وآخرون اعترفوا بذنوبهم
خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفورٌ رحيمٌ » .

واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة سمح المسلمون في أثناءها لليهود الذين رفضوا
الغدر بالرسول أيام الأحزاب أن يخرجوا . فجزَّوهم عن وفائهم خيراً ، وخلوا
سبيلهم ينطلقون حيث يرغبون .

ثم قرروا أن يهجموا على الحصون المغلقة ويقتحموها عنوة . فصاح عليٌّ :
يا كتيبة الإيمان . ومعه الزبير بن العوام — والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن
حصنهم ، فقال بنو قريظة : يا محمد نزل على حكم سعد بن معاذ .

فاستنزلوا من حصنهم وسيقوا إلى محبسهم ، ثم جيء بسعد بن معاذ ليقضى
في حلفائه بما يرى ..

وكان سعد سيد الأوس ، وهم حلفاء قريظة في الجاهلية ، وقد توقع يهود أن
هذه الصلة تنفعهم ، وتوقع الأوس أيضاً من رجلهم أن يتساهل مع أصدقائهم الأقدمين
فلما استقدمه الرسول ليصدر حكمه . جاء من الخيمة التي يمرّض فيها إثر إصابته
بسهم الأحزاب واكتنفه قومه يقولون له : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ...

لكن سعداً لم ينس في ضجيج الرجاء الموجّه إليه أن الإسلام وأبناءه ، والمدينة
وثمارها وحرثها ونسلها وحرمتها ، لم تنج من وطأة الأحزاب الهاجمين إلا بأعجوبة
خارقة . وأن بنى قريظة هؤلاء ومن آوؤهم كانوا المحرضين والشركاء القبوحين
في هذه الحرب التي أعلنت لاستئصال التوحيد الحق واجتياح أهله .

ولم ينس سعد : كيف نقضت قريظة عهدها ، واستقبلته بالألفاظ البذيئة عندما

ذهب ينأشدها الوفاء ! ألم يقل لهم يومئذ : أخشى عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمر منه فكان ردهم عليه ، أكلت أير أبيك !!
لذلك ما لبث سعد أن صاح بقومه — وقد أكرها عليه الرجاء : — قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم ...

وحكم سعد أن يقتل الرجال ، وتسبي الذرية وتقسّم الأموال ، وأقر النبيُّ هذا القضاء الحازم قائلاً لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .
وحفرت الخنادق بسوق المدينة لتنفيذ هذا الحكم ، وسبق إليها مقاتلة اليهود أرسالا — طائفة بعد أخرى — ليدفعوا ثمن خيانتهم وغدرهم
قال اليهود لسيدهم كعب وهم يساقون لمصارعهم : ما تراه يُصنع بنا ؟ قال :
أفي كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعي لا ينزع وأنه من ذهب به منكم لا يرجع ؟
هو والله القتل ...

أجل هو القتل . وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرض له بسوء صنيعه ،
وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتحقق ، ولو قد تحققت لكان ألوفاً
المسلمين هلكي تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية يحرضهم ويؤازرهم
أولئك اليهود .

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة وسبباً في هذه الكارثة التي حلت
ببني قريظة ، ولو أن حي بن أخطب وأضرابه سكنوا في جوار الإسلام وعاشوا على
ما أوتوا من مغنم ما تعرضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الخطير .

لكن الشعوب تدفع من دمها ثمناً فادحاً لأخطاء قادتها ، وفي عصرنا هذا دفع
الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثماً باهظة لأثرة الساسة المحدثين ...
ولذلك ينعى القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها
غيرهم قبلهم :

« أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ؟ جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ! » ...

لقد جىء بحَيٍّ ليلقى جزاءه وحى — كما علمت — جرثومة هذه الفتن ! فنظر إلى رسول الله ثم قال : أما والله ما لمت نفسى فى عدوانك ، ولكنه من يَحْذِلُ اللهُ يُحْذَلُ . ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ! ثم جلس ، فضربت عنقه ! وفى ذلك يقول الشاعر :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يَحْذِلُ اللهُ يُحْذَلُ
لجأه حتى أبلغ النفس عندها وقلقل يبنى العز كل مقلقل
والحق أن من مشركى قريش ومن رجال يهود أناساً واجهوا الموت بثبات . ولن تعدم المبادئ الباطلة والنحل الهازلة أتباعا يقتدون بها بالأرواح والأموال . غير أن شيئاً من هذا لا يجعل الباطل حقاً ولا الجور عدلاً .

إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس هو موقفهم من المسلمين اليوم ، فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود فى صمت وهم يحتلون فلسطين . والغريب أن اليهود تركوا من نصب لهم المجازر فى أقطار أوروبا ، وجبتوا عن مواجهتهم بشرّاً ! واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم من اثني عشر قرناً فنكلوا بهم على النحو المخزى الفاضح الذى لا يزال قائماً فى فلسطين . . . تشهده وتؤيده وتسانده دول الغرب .

فى طرد الأحزاب ودحر قريظة نزلت الآيات « وردَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتالَ وكان الله قوياً عزيزاً . وأزّل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم ، وقذف فى قلوبهم الرعبَ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كلِّ شىء قديراً » .

وقد المسلمون فى هذا الصراع ، مع الشرّكين أولاً ، ومع أهل الكتاب ثانياً ، عدداً يسيراً من رجالهم . منهم سعد بن معاذ . أجاب الله دعوته فمات شهيداً من جراحته التى أصابته يوم الأحزاب بعد أن شفى الله غيظه من يهود قريظة وبعد أن تبين فشل قريش فى هجومها على المدينة . وانقلابها لتُعزى فى عقر دارها لالتغزو الآخرين . ولم تنته الخصومة بين المسلمين واليهود بأنهمزام قريظة وانكسار شوكتها ،

فإن بعض مؤلبي الأحزاب على الإسلام فر إلى خير لائذا بحصونها مستظهاً بإخوانه فيها مثل أبو رافع بن أبي الحقيق ، وهو شريك حي في التطواف بالقبائل يستجلبها إلى يثرب بغية الإتيان على الإسلام وأهله . وليس يؤمن لليهود شر ما بقيت لهم قدرة على فعله . وقد صورّ حديث الرسول نقمة اليهود على الإسلام بقوله : « ما خلا يهودي بمسلم إلا همّ بقتله » ولا نعرف لهذه النقمة الدفينة علة ، إلا انحراف أصحابها عن الجادة . ومن حق المسلمين أن يحذروها وأن لا يدعوا لها بقية تنمو على الزمن .

لذلك خرج من المدينة خمسة من الخزرج ذاهبين إلى خير ، بغيثهم القضاء على أبي رافع وإلقاء الذعر في قلوب شيعته . وقد أمر الرسول عليهم عبد الله بن عتيك ، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة . . .

وقدم المغامرون أرض خير . وانهوا إلى دار ابن أبي الحقيق وقد أظلم المساء . قال عبد الله بن عتيك لصاحبه . . عندما دنوا من الحصن : امكثوا أنتم حتى أنطلق أنا فأنظر . قال : فاحتلت لأدخل الحصن ، فإذا الخدم فقدوا سحاراً لهم فخرجوا بقبس يطلبونه ! ! ، فخشيت أن أعرف ، فغطيت رأسي وجلست كأني أقضي حاجة . فقال البواب — بعد ما استرجعوا حاجتهم — : من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه ، فدخلت واختبأت في مربيط الدواب عند باب الحصن .

وتعشى أبو رافع وصاحبه ، وأخذوا يسمرون حتى ذهب ساعة من الليل ثم انصرف عنه جلساؤه قافلين إلى بيوتهم ، وهدأت الأصوات فما أسمع حركة . وخرجت . وأنا أعرف أين وضع البواب مفاتيح الحصن . فأخذتها وفتحت الباب حتى إذا أحس بي القوم انطلقت على مهل . ثم عمدت إلى أبواب غرفهم فغلقتها عليهم من ظاهر : ثم صعدت إلى أبي رافع — حيث يبيت في العلالى — فإذا البيت مظلم قد طفي سراجاه . فلم أدر : أين الرجل ؟ . فقلت : يا أبا رافع ! قال : من هذا ؟ فعمدت نحو الصوت فضربته ، فصاح ولم تغن شيئاً .

وجئت كأني أغشيته . فقلت : مالك يا أبا رافع ؟ — وغيرت صوتي — قال : لأملك الوبل ، دخل على رجل فضربني بالسيف ! فعمدت إليه فضربته ضربة ثانية . فصاح ، وقام أهله ، فجئت مرة أخرى إليه وهو مستلق على ظهره فأجهزت عليه

ثم خرجت دهشاً حتى أتيت السلم أريد أن أنزل ، فسقطت منه فأنخلعت رجلى ،
فعصبتها وأتيت أصحابي أحجل .

وعاد القوم إلى المدينة يبشرون من وراءهم أنهم أراحوا من طريق الدعوة
عقبة كداء .

تضعف الكفر بعد هذه الوقعات الغليظة . ورست أصول الإسلام واطمأنت
دولته . فما انتهت السنة الخامسة للهجرة حتى أصبح المسلمون قوة تفرض نفسها
وتذيق المعاندين بأسها . واستيقنت قريش وأحلافها أن رد المسلمين إلى عبادة
الأوثان ضرب من المستحيل ، كما استيقن اليهود أن خصامهم الخبيث للدين الجديد
والرسالة الخاتمة لم يزد هم إلا خبالاً .

ولم تقع بعد غزو الأحزاب هذا العام إلى أخريات السنة السادسة — أى إلى عمرة
الحديبية — أحداث ذات بال .

حاولت هذيلة أن تجمع للإغارة على المدينة ، فقتل قائدها خالد بن سفيان ، فقعدت
وهجم لصوص الأعراب على المدينة يقودهم عينية بن حصن في خيل لفظان . واستاقوا
إبلها ثم ولّوا بها هارين . غير أن سلمة بن الأكوع صرخ بأهل المدينة منذراً . وتبع
الغيرين وحده يرميهم بالنبل ويسترد منهم اللقاح المنهوبة حتى أدركه فرسان المسلمين ،
فلما رآهم المشركون فروا بعد ما قتل بعضهم وتركوا ما معهم . . .

ويروى البخاري أن ذلك كان بعد الحديبية لا قبلها ، ولعله أصح .

وفي هذه الفترة تزوج النبي بأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت مهاجرة مع
زوجها بالحبشة . فارتد صاحبها وهلك . وبقيت وحدها . فرأى النبي إعزازاً للسيدة
التي تركت أباهما — وهو زعيم مكة — وآثرت الهجرة إلى الله على البقاء في كنفه .
أن يتزوجها ، فأرسل إلى النجاشي مهرها ووكله عنه في العقد عليها .

وتزوج كذلك زينب بنت جحش . وسنتكلم عن تفاصيل ذلك في الباب الذي
نفرد به لتعدد الزوجات ، وزوجات الرسول .

ذلك . ويقال : إن الإسلام وقع في قلب عمرو بن العاص في هذه الأيام . فقد
أناره ما يلقاه محمد من ظفر . وقال لبعض صحبه : إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً

منكراً ثم اقترح عليهم أن يلحقوا بالحبشة ، ويرقبوا نتائج الصراع بين المسلمين وقومهم !! .

فلما ذهب إلى الحبشة ورأى إكرام نجاشيها للرسول ومن ينمى إليه مال إلى الدخول في دين الله . . ولكنه كتم ما بقلبه حتى اقترب فتح مكة والتقى بخالد ابن الوليد . وكان خالد قد أجمع أمره على الإسلام وانتوى الذهاب إلى النبي في مهجره ليتبعه قال له عمرو : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسم — وضح الطريق — وإن الرجل لنبي . اذهب — والله — فأسلم . فغتي متى ؟

وسر عمراً أن يجد له صاحباً كخالد ، فصارحه بما في نفسه . وانطلق الرجلان إلى يثرب مسلمين مهاجرين .

وقصة إسلامهما — كما قلنا — قبيل الفتح . فإن خالد كان في عمرة الحديبية قائداً لجيش قريش . وهي تصد المسلمين عن زيارة البيت العتيق .

(۷)

طوَرِ حَبَدِید

عمرة الحديبية

جاء تفكير المسلمين في زيارة المسجد الحرام بداية لمرحلة متميزة في تاريخ دعوتهم . أليسوا يعالنون بعزمهم على دخول مكة وهم الذين طردوا منها بالأمس ؟ وحوربوا حيث استقر بهم النوى ؟ وظلت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش لم تسفر عن نتيجة حاسمة ؟ فكيف ينوون العمرة في هذه الظروف ... ؟

والجواب أن النبيؐ أراد بهذا النسك المنشود إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم ، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكاً لقبيل يحتكر القيام عليه ويمكنه الصّدُّ عنه . فهو ميراث الخليل إبراهيم . والحج إليه واجب على كل من بلغه أذان أبي الأنبياء من قرون :

« وإذ بوأننا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً . وطهر بيتي للطائفين والقائمين ، والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق » .

ومن ثم فليس يجوز لأهل مكة أن يحجبوا المسلمين عنه ، ولئن استطاعوا قديماً إقصاء همّ إنهم بعد ما وقع من قتال لن يُصروا على خطئهم القديم ...

وإحرام النبيؐ وصحبه بالعمرة فحسب وهم يريدون دخول مكة آية على الرغبة العميقة في السلم ، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة ، وتأسيس علائق أهدأ وأرق .

ومتى يحدث هذا ؟ بعد أن استفرغت قريش جهدها في إيذاء المسلمين وبعد ما بدأ فشلها الذريع في ذلك ؟ لقد استمرت بضع سنين تقاتل وتبذل من دمها ومالها لتهمز الإسلام . فلم ترجع آخر الأمر إلا بالخسائر الفادحة والأزمات العضوض ، على حين رسخت أقدام المسلمين وعلت راياتهم وانكشف عدوّهم وهام أولاء يخرجون إلى مكة عباداً مخبتين لا غزاة منتقمين . أجل إنهم لا ييغون إلا أن ينالوا مثل ما لغيرهم من حق الاعتمار والحج ، ولا يسوغ أن يحرموا من ذلك أبداً ، وبذلك القصد السمع المذهب استنفر رسول اللهؐ جمهور المسلمين وأعراب البوادي وآذنه أنه يريد

العمرة ولا يريد قتالا ، وساق أمامه الهدى الذى سينبح ليطعمه فقراء مكة ؟ الفقراء الذين حشدوا لاستئصاله يوم الأحزاب ...

أكان الكافرون برسالة محمد يفقهون هذه النية ويقدرّون مكان صاحبها ؟ لا .. إنهم بقوا على العهد بهم من فساد الضمير ونية السوء . فالأعراب المنتشرون حول يثرب ومن على شاكلتهم من المناقطين ، عرفوا أن أهل مكة سوف يقاتلون محمداً أمراً قتالاً ، وأنه إذا أبى إلا زيارة البيت — كما أعلن — فلن تدعه قريش حتى تهلكه أو تهلك هي دون إبلاغه مأربه . فهى عمرة مخوفة بالأخطار فى نظرهم ، والفرار منها أجدى !! ولو فرض أن الرسول نجح فى مقصده هذا ، فالاعتذار إليه بعد عودته سهل .

« سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلّتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم نفعاً أو أراد بكم ضرراً . بل كان الله بما تعملون خبيراً ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظنّ السوء . وكنتم قوماً بوراً » .

وخرج المؤمنون الواثقون مع رسول الله ، وعددهم قريب من ألف وأربعمائة . وذلك فى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة . وساروا ملبيين يطوون الطريق إلى البيت العتيق . فلما بلغوا عسفان على مرحلتين من مكة جاء الخبر إلى المسلمين أن قريشا خرجت عن بكرة أبيها قد أقسمت ألا يدخل بلادهم مسلم ، وأن جيشهم استعد للنضال يقود خيله خالد بن الوليد .

وبدأ شبح الحرب أمام الأعين يملأ هذه البقاع المحرمة بالدماء والأشلاء ، والمسلمون لم يحيئوا لهذا . وما كان لأهل مكة أن يلجئوهم إليه . فقال رسول الله : يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب . فإن هم أصابوني كان ذلك الذى أرادوا ! وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين . وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة !! فما تظنّ قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة — يعنى إلى الموت — .

وَمُضِيًّا مَعَ الرِّغْبَةِ عَنِ الْقِتَالِ ، وَتَخْلِيصًا لِلنَّسِكِ الْمَقْصُودِ مِنْ شَائِبَةِ تَحَدٍّ سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ : مَنْ رَجُلٌ يُخْرِجُ بَنًا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا ؟ فُجِّأَ رَجُلٌ مِنْ أَسْلَمَ فَسَلَكَ بِهِمْ طَرِيقًا وَعَمَّا أَجْرَدَ شَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ اجْتِيَازَهُ ، ثُمَّ أَفْضَى بِهِمْ إِلَى أَرْضٍ سَهْلَةٍ عِنْدَ مَنْقَطَعِ الْوَادِي اثْنَتَيْنِ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَهَا يَمِينًا لِيَهْبِطُوا عِنْدَ الْحَدِيثَةِ أَسْفَلَ مَكَّةَ !

وَلَمْ تَخَفْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ عَنْ فَرَسَانِ قَرِيشٍ ، فَتَرَا كَضُوا رَاجِعِينَ إِلَى مَكَّةَ كَيْ يَحْوِلُوا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَدُخُولِهَا . وَمَضَى النَّبِيُّ بِأَصْحَابِهِ فِي وَجْهِهِمُ الْمَحْدَّةَ فَإِذَا بِنَاقَتِهِ تَبَرَّكَ لَا تَجَاوِزُ مَكَانَهَا ! وَدَهَشَ النَّاسُ لَمَّا عَمَرَاهَا فَقَالُوا : خَلَّتْ الْقِصْوَاءُ ! فَقَالَ النَّبِيُّ : مَا خَلَّتْ . وَمَا هُوَ لَهَا بِخَلْقٍ . وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ . لَا تَدْعُونِي قَرِيشَ الْيَوْمَ إِلَى خِطَّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صَلَاةَ الرَّحْمَنِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا ، ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَحْوِلُوا حَيْثُ انْتَهَى بِالنَّاقَةِ الْمَسِيرَ ...

وَنَزَلَ الْمُسْلِمُونَ كَمَا أَمَرُوا يَنْتَظِرُونَ مَعَ الْغَدِ الْقَرِيبِ أَنْ تَفْتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ مَكَّةَ فَيَطُوفُوا وَيَسْمَعُوا ، ثُمَّ يَعُودُوا وَافِرِينَ رَاجِعِينَ . لِنَهُمْ وَاقِفُونَ مِنْ إِدْرَاكِ بَغْيَتِهِمْ ، وَلِمَاذَا يُشَكِّوْنَ وَقَدْ سَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ بِشَرِيَّاتٍ كَثِيرَةٍ بِأَنَّهُمْ سَيَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمَنِينَ ، مُحَلِّقِينَ رِءُوسَهُمْ وَمَقْصَرِينَ ؟ .

أَمَّا قَرِيشٌ فَقَدْ ذَعَرَتْ لِهَذَا الزَّحْفِ الْمَبَاغَتِ ، وَفَكَّرَتْ جَادَةً فِي إِبْعَادِهِ عَنْ مَكَّةَ مَهْمَا كَلَفَهَا مِنْ مَغَارِمَ . وَذَلِكَ أَنَّهَا نَظَرَتْ إِلَى الْأَمْرِ مِنْ زَاوِيَةِ ضَيْقَةٍ فَرَأَتْ أَنَّ مَهَايِبَهَا سَتَنْزِعُ مِنْ أَفْتَدَةِ النَّاسِ قَاطِبَةً إِذَا دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ بِلَدَهُمْ عَلَى هَذَا النِّجْوِ بَعْدَ مَا وَقَعَ مِنْ حُرُوبٍ طَاحِنَةٍ .

غَيْرَ أَنَّ قَرِيشًا تَعْرِفُ حُرُوجَ مَوْقِفِهَا إِنْ نَشِبَ قِتَالٌ جَدِيدٌ . فَحُجَّتْهَا فِيهِ أَمَامَ نَفْسِهَا وَأَمَامَ أَحْلَافِهَا دَاحِضَةً ، وَقَدْ يَنْتَهَى بِكَارِثَةٍ تَوْدِي بِكَيَانِهَا كُلِّهِ . وَلِهَذَا سَيَّرَتْ الْوَسْطَاءُ يَفَاوِضُونَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَنْتَهُونَ مَعَهُ إِلَى مَخْلَصٍ مِنْ هَذِهِ الْوَرُطَةِ !!

وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ جَاءَهُ بِدَّيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ فِي رَجَالٍ مِنْ خَزَاعَةَ ، فَكَلَمُوهُ وَسَأَلُوهُ : مَا الَّذِي جَاءَ بِهِ ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ يَرِيدُ حَرْبًا ، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِلْبَيْتِ وَمَعْظَمُ حَرَمَتِهِ . فَرَجَعُوا إِلَى قَرِيشٍ يَقُولُونَ : يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ ، إِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ ، إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ . وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ . فَاتَهُمْ وَهُمْ وَجْهَهُمْ ، وَقَالُوا : وَإِنْ كَانَ

جاء لا يريد قتالا ... فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تحدّث بذلك عنا العرب !
ثم بعثت قريش مكرز بن حفص ، فعاد بما عاد به بُدَيْل الخزاعي .
ثم بعثوا سيد الأحابيش الحُلَيْس بن علقمة ، فلما رآه رسول الله قال : إن هذا
من قوم يتألمون فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من
عرض الوادي عاد إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ، إعظاماً لما شاهد ، فقال
لهم ذلك ، فأجابوه : إجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك ، فاستشاط الحليس وصاح :
يامعشر قريش ، والله ماعلى هذا حالنا كم ، ولا على هذا عاقدنا كم ، أيصد عن بيت الله
من جاء معظما له ؟ والذي نفس الحليس بيده لَتُخَلَّنَ بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرون
بالأحابيش نفرة رجل واحد ... فقالوا : مه ، كُفَّ عنا يا حليس حتى نأخذ
لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله عروة بن مسعود ، وكره عروة أن يعود من مفاوضة
المسلمين فيسمعه رجال قريش ما يسوءه فقال : يامعشر قريش ، إني قد رأيت ما يليق
منكم مَنْ بعثتموه إلى محمد من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والدوا نبي ولد .
وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي . ثم جئتكم حتى آسيتكم
بنفسي . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد أجمعت أوشاب الناس
ثم جئت إلى بيضتك لتفضها — إلى قومك لتجتاحهم — ! . إنها قريش خرجت
معها العوذ المطافيل — يقصد النساء والأطفال — قد لبسوا جلود الثور بعهدون الله
لا تدخلها عليهم أبدا . وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا وكان
أبو بكر خلف رسول الله يسمع فلما وصل عروة في حديثه إلى التعريض بالمسلمين قال له
هازئا : امصص بظر اللات ! أنحن نكشف عنه ؟

فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة ! فردّ عروة على أبي بكر
يقول : أما والله لولا يدك كانت لك عندي لكافأتك بها . ولكن هذه بهذه .

وعاد عروة حديثه مع رسول الله . وجعل يتناول لحيته وهو يكلمه — كأنه ينهيه
إلى خطورة ما سيقع بقومه — إلا أن المغيرة بن شعبه يقرع يده كلما فعل ذلك وهو
يقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك . فقال عروة له :

ويحك ما أفضلك وأغلظك ، ثم سأل النبي : من هذا يا محمد ؟ فأجاب الرسول وهو يتسم : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبه . فقال عروة للمغيرة : أى غدرٌ هل غسلتُ سوءَكَ إلا بالأمس^(١) .

وقد ردَّ النبيُّ على عروة بما يقطع اللجاجة وينفي الشبهة . إنه لا يبغي حربا . وإنما يريد أن يزور البيت كما يزوره غيره فلا يلقى صادًا ولا رادًا .

ورجع عروة ينوه بإجلال الصحابة لرسول الله . ويقول : إني والله ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه . ولقد رأيت قوما لا يسلمونه بشيء أبدا . فرَوَّا رأيكم .

إن الرجال الذين تكلموا باسم قريش في هذه المفاوضات لم تنهض لهم حجة ، بل إنهم عادوا إلى أهل مكة وهم أميل إلى ملاينة المسلمين وتمكينهم من أداء نسكهم ولم يلحف بعضهم في التصريح بذلك إلا لما لمسه من كبرياء قريش وعزوفها عن الحق بعد ما تبين . إن النزق استبد بهم وأطاش ألبابهم فقرروا ألا يدخل المسلمون البلد الحرام وليكن ما يكون . . .

وبقى المسلمون في أما كنهم يتلمسون للمشكلة حاولوا أخرى أفضل من اقتحام مكة في هجوم عام . وحاول فريق من السفهاء أن يشعل المعركة لكن المسلمين لزموا الهدوء وملكوا أعصابهم فعن ابن عباس أن قريشا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين وأمرهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، فأخذوا ، وأتى بهم إلى النبي ، فغفا عنهم وختل سبيلهم وكانوا رموا في العسكر بالحجارة والنبل . . .

وفي فظاظة قريش وسماحة المسلمين نزل قوله عز وجل :

« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا . وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » .

(١) كان المغيرة قبل إسلامه داهية فاتسكا قتل نفرا قوداهم عروة إطماء للفتنة .

ومن السكينة التي تنزلت على المسلمين أن رسل قريش كانت تغدو على رسول الله وتروح فلا يعترضها أحد . أما رسل المسلمين إلى قريش فقد تعرضت للهلاك كاد خراش بن أمية الخزاعي يقتل لولا أن أنقذه الأحابيش فرجع وقد عُقِرَ جملة . وكان النبيُّ أرسله ليبلغ أهل مكة حقيقة مجيئه وأنه يريد العبادة لا الحرب . .

والرسل لا تقتل ، بيد أن غليان قريش أفقدها الوعي . والرجل إذا فقد وعيه لا يبالي أن ينتحر . وقد انحرف كبراء مكة عن الصراط السوى ولم يكتروا للمصير القائم الذي ينتظرهم إذا ركبوا رءوسهم . فلو اصطدم المسلمون بهم ما قامت لهم قائمة ولا أصيبت حرمان مكة في صميمها .

« ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » . لكن رسول الله كره أن تجرى الأمور على هذا النحو ، ورأى أن يعيد محاولاته لإقناع أهل مكة بتركه يزور ، ويعود لشأنه .

فدعا عمر بن الخطاب ليذهب إلى القوم يحدثهم بما خرج المسلمون فيه . فقال عمر : يا رسول الله ليس بمكة أحد من بني عدى يغضب لى إن أوديت ، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته لا تزال بمكة ، وإنه مبلغ عنك ما أردت .

ودخل عثمان مكة في جوار قريبه أبان بن سعيد بن العاص ، واستطاع أن يبلغ رسالته كاملة ، وأن يفهم من لقيه الحقيقة الكريمة التي جاء المسلمون قاطبة بها فكان الرُّدُّ الذي حظى به عثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله .

ومما يذكر هنا أن مكة لم تخل من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات . كانت قلوبهم معلقة بالمسلمين المحجوزين خارج مكة ، لقد انتشر الإسلام سرّاً في بيوت كثيرة طالما تشوقت إلى اليوم الذي تستطيع فيه أن تظهر إيمانها ، وتتخلص من سطوة الكفر عليها . ويظهر أن عثمان اتصل بأولئك النفر المؤمن وبشرهم بقرب الفتح فرأت قريش أن عثمان قد عدا الحدود الممهودة ، وأمرت باحتباسه عندها وشاع لدى المسلمين أن عثمان قتل .

وحين بلغت هذه الشائعة مسامع النبيّ قال : لا نبرح حتى نناجز القوم . ودعا الناس إلى مبايعته وكان تحت شجرة متشابكة الغصون ، فهرع أصحابه إليه يبايعونه على الموت ، أو على أن لا يفروا .

حدث جابر بن عبد الله بعد ما كفّ بصره قال : قال لنا رسول الله يوم الحديبية أنتم خير أهل الأرض ، وكنا ألفاً وأربعمائة . ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة . وروى عن جابر أن عبداً لحاطب جاء يشكوه إلى رسول الله ويقول : ليدخلن حاطب النار . فقال له الرسول : كذبت ، لا يدخلها ، شهد بدرًا والحديبية وتسمى هذه البيعة بيعة الرضوان إشارة لقول الله في أصحابها .

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

وقد قطعت الشجرة ونسي مكانها ، وذلك خير . فلو بقيت لضربت عليها قبة وشدت إليها الرحال . فإن الرعاع سراع التعلق بالمواد والآثار التي تقطعهم عن الله . عن طارق بن عبد الرحمن انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون . فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع النبيّ بيعة الرضوان . فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله تحت الشجرة ، قال : فلما كان العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها . ثم قال سعيد : إن أصحاب محمد لم يعلموها ! وعلمتموها أنتم ؟ فأنتم أعلم ؟ ؟

وعند أخذ البيعة من المسلمين ضرب رسول الله بإحدى يديه على الأخرى وقال : هذه لعثمان . .

على أن عثمان لم يطل احتباسه ، فإن قريشا جزعت أن تصيبه بأذى وهو من سرياتها بمكان . وسارعت إلى بعث سهيل بن عمرو ليعقد مع محمد صلحاً . ولم يكن يعينها في هذا الصلح إلا أن يرجع المسلمون هذا العام ، على أن يعودوا بعد إذا شاءوا . وذلك إبقاء على مكانة قريش في العرب ! !

واستقبل رسول الله مفاوض قريش وهو أرغب ما يكون في موادة القوم ، وإن كان قادراً على تحكيم السيف وإزالة خصومه على منطقته الذي آثروه منذ صدوه عن

البيت ، وتكلم سهيل فأطال . وعرض الشروط التي يتم في نطاقها الصلح ، ووافق عليها النبي . ولم يبق إلا أن تسجل في وثيقة يمضيها الفريقان .

وحدثت في معسكر المسلمين دهشة عامة للطريقة التي سلكها رسول الله مع أوليائه ومع أعدائه . فأما مع أعدائه فقد ذهب في ملايتهم إلى حدود بعيدة وأولى به أن يقسو عليهم . وأما مع أصحابه فإنه — على غير ما ألفوا منه — لم يستشرهم في هذا الاتفاق المقترح . مع أنه في شئون الحرب والسلم التي سلفت كان يرجع إليهم . وربما نزل على رأيهم وهو له كاره . لكنه اليوم ينفرد بالعمل ويقر ما يكرهون ، على غير ضرورة ملجئة . . .

وقد شرحنا في غير هذا المكان^(١) موقف النبي في عمرة الحديبية خاصة . وأبنا أن تقدير الأمور لم يترك للنظر المعتاد ، بل كان للإلهام الأعلى توجيهه الصائب . إن الله الذي عقل الناقة أن تتابع سيرها لا يأذن لهذه الكتاب أن توالي زحفها وتشرع رماحها ، وقد تحرز نصراً أقل على الإسلام — في جدواه — من سلم مباركة النتائج قال الزهري : فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ . قال : بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ . قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر ازم غرزه — أمره — فإنني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ! ثم أتى رسول الله فقال : أأنت برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ، قال : أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيئني . . .

ثم دعا رسول الله علي بن أبي طالب ، فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقا تلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ! ؟ فقال رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله

سهيل بن عمرو ، اصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس
ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده
عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرذوه عليه !
وأن بيننا عمية مكفوفة — صدورنا منطوية على ما فيها — وأنه لا إسلال
ولا إغلال — لا سرقة ولا خيانة — وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده
دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .
وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة . وأنه إذا كان عام قابل خرجنا
عنك فدخلتها بأصحابك . فأقت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب
لا تدخلها بغيرها ...

فبينما رسول الله يكتب الكتاب إذ جاء ابن المفاوض عن قريش نفسه ، جاء
أبو جندل بن سهيل بن عمرو ! يريد الالتحاق بالمسلمين ، فقد دخل في دين الله ولقى
العذاب من أهله وها هو ذا يرسف في الحديد وتثقل به قيوده ...

ما كان المسلمون يشكون في فتح مكة ، فإن الرسول قصّ عليهم رؤيا أنه دخلها
وطوّف بالبيت العتيق فيها . فلما رأوا مارأوا من شروط الهدنة ، وأمر الصلح
والعودة ، وتعمت سهيل مع النبيّ واقتياته على شخصه ، دخل عليهم من ذلك كله
أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . ثم جاءت قصة أبي جندل فزادت الطين بلة ...

ورأى سهيل ابنه فقام إليه يضرب وجهه وأخذ بتلبينه ثم قال : يا محمد . قد لجت
القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا !! قال : صدقت . فجعل سهيل ينتر ابنه
بتلبينه ويحجّره ليرده إلى قريش . وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر
المسلمين ، أردّ إلى المشركين يفتنونى في ديني ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم .

وقال رسول الله : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولئن معك من
المستضعفين فرجا ومخرجا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك
وأعطينا عهد الله . وإنا لا نعذر بهم .

ونفذت القضية . وأعلنت خراعة دخولها في عقد المسلمين ، وأعلنت بنو بكر
دخولها في عقد قريش . ومضت شروط الهدنة ... !

والنظرة الأولى لهذه الشروط تدل على أنها مجحفة بحقوق المسلمين مرضية
لكبرياء قريش وحميتهم الجاهلة . وقد تساءل أصحاب رسول الله مستنكرين ! لماذا
يردّون إلى قريش من جاء منهم مسلماً . ولا ترد قريش من جاءها من المسلمين مرتداً ؟
وفسر رسول الله هذا الشرط بأن من ذهب إليهم كافرين ، فلا رده الله ، وقد
وُثق المسلمون خبيثه . أما المستضعفون من المسلمين . فستعي قريش بأحرهم ، كما عجزت
عن سابقهم ، وستكون العقبي لهم . ألم يكن النبي ومن معه مستضعفين ؟ ثم نصرهم
الله وخذل قريشا أمامهم ؟

ثم هاجت في نفوس المسلمين مرة أخرى خيبة الأمل ، لقد خدّثوا أنهم داخلون
في المسجد الحرام ، وهاهم قد ارتدّوا عنه . لكن الرسول بين أنهم عائدون إلى دخوله
كما وعدوا ، فهو لم يذكر أنهم سيطوفون به هذا العام ...

وعرا المسلمين وجوم تعيل لهذه النهاية الكئيبة . وزاغت نظراتهم لما ركبهم
من الحرج المفاجئ . فلما فرغ الرسول من قضية الكتاب قال لهم : قوموا فاحمروا
ثم احلقوا — ليتحللوا من عمرتهم ويعودوا إلى المدينة — فلم يقم منهم رجل ! حتى
قال ذلك ثلاث مرات ! . فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من
الناس فقالت أم سلمة : يا رسول الله أتحب ذلك . أخرج ، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة
حتى تنحر بُدْنَكَ ، وتدعو خالقك فيحلقك ...

نفرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك .

فلما رأى المسلمون ما صنع النبي زاح عنهم الذهول ، وأحسوا خطر المعصية
لأمره ، فقاموا عجّلين ينحرون هديهم ، ويحلق بعضهم بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل
الآخر لفرط الغم ...

ليت نيات الخير والشر تؤتي ثمارها الحلوة والمرّة بالسرعة التي ظهرت في عهد
الحديبية الآنف ، إنه لم تمر أيام طوال على إبرامه حتى كان تشدد المشركين فيه وبالا
عليهم ، فأخذوا يتشكّون من النصوص التي فرضوها ، أو فرضتها حميتهم الغليظة .
ونظر المسلمون كذلك مهوّرين إلى عواقب التسامح البعيد الذي أبداه النبي ،
فوجدوا من بركاته ما ألهم ألسنتهم بالحمد !

لقد انفرط عقد الكفار في الجزيرة منذ تم هذا العقد . فإن قريشا كانت تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التمرد والتحدى للدين الجديد . وعندما شاع نبأ تعامدها مع المسلمين خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها ، وتبعثت القبائل الوثنية في أنحاء الجزيرة ، وخصوصاً لأن قريشا جمدت على سياستها النفعية واهتمت بشؤونها التجارية فلم تجتهد في ضم أحلاف لها ، في الوقت الذي اتسع فيه نشاط المسلمين الثقافي والسياسي والعسكري . ونجحت دعايتهم في تألف قبائل غفيرة وإدخالها في الإسلام . وكثير من المؤرخين يعد صلح الحديبية فتحاً ، بل إن الزهري يقول فيه : ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة لم يُكَلِّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . ولقد دخل في تينك الستين — بعد الحديبية — مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر . قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج عام فتح مكة — بعد ذلك بستين في عشرة آلاف . أما المسلمون المعذبون في مكة ، فقد فر منهم أبو بصير عبید بن أسيد وهاجر إلى المدينة يعني المقام فيها مع المسلمين . فأرسلت قريش وراءه اثنين من رجالها يرجعان به إليها تنفيذاً لنصوص المعاهدة . فقال رسول الله : يا أبا بصير ، إننا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ! وإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك . وحزن أبو بصير وقال : يا رسول الله أتردني إلى المشركين ليفتنوني في ديني ؟ فلم يزد النبي عن تكرار رجائه في الفرج القريب ، ثم أرسل أبا بصير مع القرشيين المشركين ، ليعودوا جميعاً إلى مكة . ورفض أبو بصير أن يستسلم لهذا المصير ، فاحتال في أثناء الطريق على سيف أحد الحارسين وقتله به ففر الآخر مذعوراً ، وقفل راجعاً إلى المدينة يخبر رسول الله بما وقع لصاحبه . وإذا بأبي بصير يطالع متوشحاً بالسيف يقول : يا رسول الله وفّت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم وامتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعث بي . . . فقال الرسول : ويل أمه ، مسعر حرب لو كان معه رجال . . . وأدرك أبو بصير أنه لا مقام له في المدينة ، ولا مأمن له في مكة ، فانطلق

إلى ساحل البحر في ناحية تدعى العيص ، وشرع يهدد قوافل قريش المسارة بطريق الساحل ، وسمع المسلمون بمكة عن مقامه ، وعن كلمة الرسول فيه « مسعر حرب لو كان معه رجال ، قتلحقوا بأبي بصير يشدون أزره حتى اجتمع إليه قريب من سبعين نائراً ، فيهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو .

وألف أولئك المعذبون الناقون جيشاً ضيق الخناق على قريش فلا يظفر بأحد منهم إلا قتله ، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها .

وإذا بقريش ترسل إلى رسول الله تناشده الرحم أن يؤوى إليه هؤلاء فلا حاجة لها بهم .

وبذلك نزلت قريش عن الشرط الذي أملتة تعنتا ، وقبله المسلمون كارهين . وقصة أبي بصير وأبي جندل وإخوانهما لها دلالة مثيرة ، فهي قصة العقيدة المكافئة ، في لؤم من الأعداء ووحشة من الأصحاب ! وهي توضح أن الإيمان بالله أخذ طريقه إلى قلوب أولئك النفر مجرداً من كل شيء إلا سلامة جوهره . إنهم قد فقدوا الأمداد الروحية التي تجيئهم من مخالطة الرسول والإصغاء إليه وهو يتلو وينصح ، بيد أنهم عوّضوا عنها من الاتصال بكتابه والاعتباس من آدابه ، فكانوا في اهتدائهم للحق وإبائهم للضميم وإيثارهم للمغامرة مثلاً حسنى للإسلام المكافح العزيز .

ولم يعد أبو بصير إلى رسول الله ، ذلك أن الإذن بالمقام معه جاءه وهو يحتضر . وروى موسى بن عقبة أن رجال أبي بصير صادروا قافلة كان فيها العاص بن الربيع صهر النبي — وهو لما يدخل الإسلام بعد — وأسروا من فيها عدا العاصي لمكانته فذهب العاصي إلى زينب امرأته وشكلها ما وقع لأصحابه وما ضاع لهم من أموال ، وحدثت زينب رسول الله في ذلك . فقام رسول الله فخطب الناس قائلاً : إنا صاهرنا أناساً ، وصاهرنا أبا العاص فنعم الصهر وجدناه . وإنه أقبل من الشام في أصحاب له من قريش . فأخذهم أبو جندل وأبو بصير ، وأخذوا ما كان معهم ، وإن زينب بنت رسول الله سألتني أن أحيرهم ، فهل أنتم تحيرون أبا العاص وأصحابه ؟ فقال المسلمون : نعم .

وبلغ هذا الجوار أبا جندل فأفرجوا عن الأسرى ، وردّوا عليهم كل شيء أخذ منهم حتى العقال .

ثم جاء كتاب رسول الله إلى أبي بصير ليترك مكانه ويرجع حيث يحب . وكان أبو بصير يجود بأنفاسه الأخيرة . فأتاه والكتاب على صدره ، ودفنه أبو جندل !!... أما العاصي بن الربيع فارتحل ببضائع قريش حتى قدم مكة . فأدى إلى الناس أموالهم . حتى إذا فرغ قال : يامعشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم أردده عليه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً ، قد وجدناك وفياً كريماً !! قال : والله مامعنى أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا أن تظنوا أني أسلمت لأذهب بأموالكم ، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

وعاد إلى المدينة فرد عليه رسول الله امرأته زينب ، وكان اختلاف الدين قد فرق بينهما ، ولم ينشئ في ذلك عقداً جديداً .

وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى أوليائهن ، إما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب ، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتي أسلمن أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة ، وهن لا يسطعن مضطرباً في الأرض ورداً للسكيد كما فعل أبو جندل وأبو بصير وأضرابهما .. وأياً ما كان الأمر فإن احتجاز من أسلم من النساء تم بتعليم القرآن ، وكلف المسلمون أن يدفعوا لأزواجهن المشركين عوضاً يستعينون به على زواج آخر إذا لم يشاءوا الدخول في الإسلام والعودة به إلى أزواجهن الأوليات .

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهن الله أعلم بإيمانهن . فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار . لاهن حل لهن . ولا هم يحلون لهن » .

والآية تشير — بجانب ما فيها من أحكام — إلى ما كانت تستمتع به المرأة من استقلال فكري وكيان أدبي محترم .

ولو حدث ذلك اليوم لتساءل فريق كبير من المسلمين : من الذي يمتحن ؟ أهو رجل أم امرأة ؟ وإن كان رجلاً فهل يكون شاباً أو شيخاً ؟ وهل تمتحن المرأة مباشرة أو من وراء حجاب ؟

مع اليهود مرة أخرى

بقى أمام المسلمين فريقان من الخصوم الألداء .

أعراب البادية الذين يسيحون في عرض الصحراء كالإبل السائحة لا يعقلون شيئاً ، فإذا لاح مغيم طاروا وراءه ، وقبلما يلقفهم حديث الإيمان بالله واليوم الآخر .
وبنو إسرائيل الذين ظنوا النبوة حكراً عليهم فهم لا يفتأون يجهّون المسلمين ويكذبون محمداً ويحخدون رسالته ، وقد أغرتهم القشور التي ورثوها من التوراة فجادلوا المسلمين جداً لا طويلاً . وحرصوا أشد الحرص ألا يعترفوا بهم . ثم ذهبوا إلى حد التآليب عليهم كما رأيت فكانت سيرتهم مزيجاً غريباً من الحقد والكبر والذس . ومع ما ألهب جلودهم من سياط كاوية في صراعهم مع المسلمين فلم يتحولوا عن خطتهم المريبة قيد أنملة .

وجمعت عداوة الإسلام بين الأعراب البله ، وأهل الكتاب اليهود . وعند ما فشلت الأحزاب في اقتحام يثرب . وجنت قريظة عقبى غدرها . لم يهدأ يهود خيبر أو يحاولوا إصلاح شئونهم مع المسلمين ، كلا . إنهم شرعوا يصلون حبالهم بغطفان والأعراب الضارين حولهم ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى تكيد من جديد لمحمد وصحبه . لكن المسلمين كانوا أيقاظاً لهذه المؤمرات . فما إن عادوا من عمرة الحديبية آخر السنة السادسة حتى توجهوا في المحرم من السنة السابعة إلى خيبر لكسر شوكة إسرائيل بها .

ولم يفت المسلمين قبل مسيرهم أن يفصموا الجبهة المؤلفة ضدهم من يهود وغطفان فأوهموا غطفان أن الهجوم متجه إليهم . وأن قوة المسلمين توشك أن تلتف بهم . قال ابن اسحاق : بلغني أن غطفان لما سمعت بمنزّل رسول الله من خيبر جمعت له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهلهم حساً فظنوا أن القوم خالفوهم إليهم فرجعوا على أعقابهم ، وأقاموا في أهلهم وأموالهم ؛ وخلوا بين رسول الله وبين خيبر !!

وهكذا نجحت الخطة في عزل يهود خيبر عن حلفائهم المشركين . .

فلما أشرف رسول الله على القرية المحصنة وتبها لمنازلة أهلها قال لأصحابه : قفوا ثم تضرع إلى الله بهذا الدعاء .

« اللهم ربّ السموات وما أظللن ، وربّ الأرضين وما أقللن ، وربّ الشياطين وما أضللن ، وربّ الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها . ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها » .
ثم قال : أقدموا باسم الله . . .

ويظهر أن اليهود ظنوا أول وهلة أن زحف المسلمين صوب غطفان ، فلم يعيروا الأمر التفاتا بل أصبحوا غادين إلى حقولهم بمساحيهم ومكائهم حتى فوجئوا بالمسلمين يسرون نحوهم . فارتدوا إلى حصونهم فزعين . وهم يقولون : محمد والخميس !

إن اليهود — على ما ألف المسلمون من حروبهم — لا يعتمدون على تسير الجيوش في الفضاء الرحب ، تصيب ويصاب منها . إنهم يكرهون اللقاء في تلك الميادين المكشوفة . وديدنهم الذي لا ينفكون عنه هو الكفاح من وراء الجدران .

أذلك بقية من حرصهم على الحياة وتوقيهم للموت ؟ فلما رآهم النبي يهرعون إلى حصونهم أراد أن يقذف في قلوبهم الرعب فصاح : الله أكبر . هلك خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

والقرى الفاجرة تجر على نفسها الهلاك إن عاجلا وإن آجلا . روى عن رسول الله : « إذا شاع الزنا والزنا في قرية فقد أحلت بنفسها غضب الله » .

واليهود يشيع فيهم هذا الفساد المزدوج ، فهم إلى اليوم دهاقين الزنا في العالم . وهم قادة التبرج والعهر . ونسوتهم لا يرددن يد لأمس . ولا ينفي هذا أن فيهم فئة تعترف بالخلق والعفة ، ولكنهم قليل « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » والكثرة — لا القلة — هي التي تحدد مصائر الشعوب .

وشن المسلمون هجومهم على الحصون المشيدة ، فبدأت تتداعى تحت وطأتهم حصنا بعد حصن . ودافع اليهود عنها دفاع المستميت . فإن خير أخصب أرضهم وأمنع بقاعهم . ولما بدأ الحصار يمتد . وبنو إسرائيل إذا سقطت لهم قلعة تمسكوا بأخرى .

قال رسول الله : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ! فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها ؟ فلما أصبحوا غدوا إليه متطلعين إلى أخذها . فنادى النبي علي بن أبي طالب فأعطاها إياه . فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : أنفذ ، على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم .

وإنما ساق رسول الله هذا النصيح الرشيد حتى يقطع تطلع النفوس إلى المغامر المعجلة فإن ثروة يهود إذا هزموا ضخمة ، ولكن ثواب مقاتلتهم — إذا اهتدوا — أضخم .

ولو نزل القوم على أحكام الله ، وتركوا الخلال الدينئة التي عاشوا بها وعاملوا الناس بسوءها لأراحوا واستراحوا . غير أنهم أبوا إلا الحرب فهاجمهم علي وشدد النكير حتى سقط الحصن واحتله المسلمون .

وكان الشعار يوم خير يامنصور أمت أمت .

وخرج من حصون اليهود فارس يدعى مرجبا فنادى في المسلمين من يبارز ؟ وهو ينشد :

قد علمت خير أني مَرَّحِب شاكى السلاح بطل مُجَرَّبُ

أطعنُ أحيانا ، وحينما أضرب إذا الليوث أقبلت كَحَرَّبُ

ف قيل : فتك به علي بن أبي طالب . وقيل : بل قتله محمد بن مسلمة . وكان محمود ابن مسلمة أخوه قد ألقيت عليه في أثناء الحصار رحي فصرعه فثار محمد له بقتل مرحب وبرز بعد قتل مرحب أخوه ياسر ، فتصدى له الزبير . وكانت صفية أم الزبير بين النسوة اللاتي خرجن مع الجيش معاونات في قتال بني إسرائيل ، فخشيت على ابنها أن يُقتل ، فقال لها النبي : بل ابنك يقتله إن شاء الله ، فصرع الزبير ياسراً ... وتشبت اليهود بما بقي من حصونهم يذودون عنها زياد اليأس . وشدد المسلمون عليهم الحصار يريدون الانتهاء من هذا القتال مسرعين ، فقد أجهدهم الجوع وضاق بهم المقام ، وأصيب كثير منهم بعمل شتى لرداءة الجو ووخامة المستنقعات ثم جاء إلى النبي من أخبره أن اليهود لن يبالوا بهذا الحصار ، فإن لهم مشارب خفية ،

يخرجون إليها ليلاً فيستقون ويعودون . فأمر النبي بقطع مشاربهم ليكرههم على القتال أو التسليم ، فخرجوا واشتبكوا مع المسلمين في صراع شديد استشهد فيه عدد من المسلمين بعد أن مهدوا الطريق لسقوط الحصن ، ويسمى حصن الزبير ، وهو نهاية سلسلة من القلاع تسمى النطاة استولى المسلمون عليها جميعاً بعدما دخلوا حصون ناعم ، والصعب ، والوطيح والسلام .

وبقيت هناك سلسلة أخرى تهيأ المسلمون لمهاجمتها . فقام رسول الله على قلعة يقال لها : سموان . فقاتل عليها أشد القتال . وخرج منها رجل يسمى عزولا يبنى المبارزة . فهجم عليه الحباب بن المنذر فضربه بالسيف ضربة أطاحت يده اليمنى بنصف ذراعه ، ثم وقع السيف من يده وفر اليهودي راجعاً ، فأدركه الحباب فقطع عرقه ! وبرز آخر فقام إليه رجل من المسلمين فقتله اليهودي . فلحق به أبو دجانة فقتله وثأر لصاحبه ! . ثم كبر المسلمون وتحاملوا على الحصن وأمامهم أبو دجانة فاقتحموه بعد لأي ، ووجدوا به أثاثاً وطعاماً وغنائم .

وأقلت بعض المحصورين فانضموا إلى إخوانهم بحصن البراة وزحف المسلمون إليهم ، وتراشق الفريقان بالنبل فأصيب بنان النبي في المعركة . ولكن المسلمين استبسلوا في الكر على العدو حتى افتتحوا هذا الحصن الآخر ، وأخذوا من فيه باليد . ثم هم المسلمون بنصب المنجنقات ليهدموا الحصون الباقية على من اعتصم فيها فأيقن اليهود بالهلكة ولم يروا محيصاً من الاستسلام فنزل ابن أبي الحقيق وعرض الصلح على أن يخرجوا من أرض خيبر ولهم ما حملت ركبهم ، وللمسلمين سائر ما بقى . فقبل الصلح ، واشترط عليهم رسول الله ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد . . . فلما ثبت على بعضهم الغدر بما تمت عليه شروط الصلح قتل .

وخضعت سائر يهود ثم جاءت تعرض على رسول الله أن يعاملهم بالنصف في زراعة الأرض ، ولم يجعل ذلك على الأبد ، مخافة عبثهم بل قال لهم : إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم .

وحدث في إبان المعركة أن عبداً حبشياً أسود كان يرعى لسيده اليهودي غنمه ، فلما رأى أهل خيبر يحملون السلاح ويتأهبون للحرب سألهم : ما تريدون ؟ قالوا :

فقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي^١. فوقع في نفس الرجل ذكر النبوة وصاحبها ، فأقبل
بغنمه على رسول الله وسأله : ماذا تقول ؟ وإلام تدعو الناس ؟ فأجابه : أدعوا
إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسوله ، وأن لا تعبد غيره : قال العبد :
فما لي إن شهدت وآمنت ؟ قال : لك الجنة إن مت على ذلك ! فأسلم ثم قال : يا نبي الله
إن هذه الغنم عندى أمانة . فقال له رسول الله : أخرجها من عندك وارمها بالحصباء
فإن الله سيؤدى عنك أمانتك . ففعل ، فرجعت الغنم إلى صاحبها . فعلم اليهودى
أن غلامه أسلم ، ثم قام رسول الله وقد تهيأ الناس للقتال فوعظهم وحضهم على
الجهاد ، والتحم الفريقان ، فقتل العبد الأسود بين من قتل من المسلمين وحملت
جثته إلى المعسكر ، فرووا أن رسول الله اطلع في القسطنطينية الذى ضم جثمان الشهيد ،
ثم أقبل على أصحابه يقول : لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ، رأيت عند
رأسه ثنتين من الحور العين ولم يصل لله سجدة قط !

وفى هذه الغزاة أذن النبي^٢ لمن تطوع من النساء أن يخرجن معه . قال
ابن إسحاق : شهد خير مع رسول الله نساء من نساء المسلمين ، فرضخ لهن رسول
الله من الفداء — أعطاهن يسيراً — ولم يضرب لهن بسهم .

وروى الإمام أحمد عن حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه قالت خرجنا مع رسول
الله في غزاة خير ، وأنا سادسة ست نسوة . قالت فبلغ النبي^٣ أن معه نساء ، فأرسل
إلينا فدعانا . قالت : فرأينا في وجهه الغضب قال : ما أخرجكن وبأمر من خرجتن ؟
قلنا : خرجنا نناول السهام ونسقى السويق ، ومعنا دواء للجرحى ، ونغزل الشعر
فنعين به في سبيل الله قال : فانصرفن .

قالت : فلما فتح الله عليه خير أخرج لنا سهماً كسهام الرجال . فقلت لها يا جدّة
ما الذى أخرج لكن : قالت تمرأ .

ويرى ابن كثير أن الرسول أعطاهن من ثمرات الأرض كالرجال ، فأما أنه أسهم
لهن في الأرض نفسها كالرجال فلا . وهذا حق .

وفى حديث أبي داود أن نسوة من بنى غفار قلن يا رسول الله : قد أردنا أن

نخرج معك في وجهك هذا — وهو يسير إلى خير — نداوى الجرحى ونعين المسلمين
بما استطعنا . فقال : على بركة الله . . .

وكانت صفية بنت حي بن أخطب زعيم اليهود بين من أسرن من نساء خير ،
وقعت في يد أحد الصحابة فاستردها منه الرسول ، ثم أعتقها وبني بها . وجعل
مهرها عتقها . . .

فلما اطمأن به المقام أهدت له امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية مسمومة
وأكثر من السم في ذراع الشاة لما عرفته أن الرسول يؤثرها . وقد تناول النبي
مضغة منها ، فلا كها ثم لفظها ، وهو يقول إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم وكان
معه بشر بن البراء قاساغ اللحم وازدردده .

وجيء بالمرأة الجانية فاعترفت بما صنعت ، وقالت للنبي : بلغت من قومي مالم
يخف عليك . فقلت : إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيخبر فتجاوز
عنها النبي ، ثم مات بشر بعدما سرى السم في جسمه ، فقيل : اقتص له منها وقيل .
بل أسلمت وعفى عنها .

ومكث يهود خير يزرعون الأرض على النصف من نتاجها ، إلا أن بغضاءهم
للمسلمين حملتهم على اقرار بعض الجرائم . فقد اغتيل رجل من الأنصار ، وفدعت
يدا عبد الله بن عمر أيام خلافة أبيه . فخطب عمر الناس قائلا : إن رسول الله كان
عامل يهود خير على أن نخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا
يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصارى قبله . لا نشك أنهم أحبابه ، ليس لنا
هناك عدو غيرهم . فمن كان له مال بخير فليلحق به . فإني مخرج يهود . . . فأخرجهم .
ولا ريب أن الهزيمة التي أصابت بني إسرائيل في خير قضت على كياناتهم
العسكرية في الجزيرة قضاء تاما . فجاء يهود فدك يطلبون الأمان .

وقاتل يهود وادى القرى بعد ما دُعوا إلى الإسلام وأخبرهم رسول الله أنهم إن
أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم . وحسابهم على الله . فلما أبوا نشبت بين
الفريقين معركة محدودة انتهت مع الصباح بسقوط الوادى اليهودى عنوة .
واستسلم يهود تيماء .

ومد الإسلام رواقه على هذه الأرض بعد أن ظلت حيناً من الدهر في أيدي اليهود يعيشون عليها كما يشتهون .

والعظة التي نستخلصها من هذه المارك وما أعقبها من جلاء ، أن الأرض لله يورثها من يشاء . وهو لا ينزعها من قوم ويعطيها آخرين محابة . كلا . ولكن الأمة التي تفسد على النعمة تُسلبها ، ثم تساق النعمة إلى من يقدرها ويشكر الله عليها ! والأمة التي تتكبر مع الحرية وتبتر ، تفقد امتلاكها لنفسها ، وحقها ، وأمرها ، لتقع في إسار الآخرين فيصرفون شئونها كما يشتهون .

وقد طبق هذا القانون على بني إسرائيل بقسوة عندما أهدروا أحكام التوراة ، وتبعوا الهوى ! وطبق بعد ذلك على المسلمين يوم سددوا في الغواية وجحدوا ما لديهم من هداية « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذَه أليمٌ شديدٌ » . إن الحياة كرهٌ وفرٌّ ، وإقبال وإدبار . والنظرة العجلى إلى تاريخ البشر توحى بأن مكان المصادرة لم يثبت لأمة من الأمم إلا ربماً تهيأ أمة أخرى لانزاعه . والدول التي سادت أشبه بلجج البحر التي ترتفع حيناً ثم لا تلبث أن تضمحل رويداً رويداً حتى تنداح على الشاطئ ضعيفة متظامنة . ولا مانع من أن تعود مرة أخرى مع المد لتبلغ الأوج ، ثم تنفك عنها أسباب القوة فتهبط مستكينّة من جديد .

وقد ملك بنو إسرائيل وعزّوا بقدر حكيم ، ثم سلبوا الملك والعزة بقدر كذلك لترثهما دولة الإسلام الفتى الناهض ، وتم هذا التحول لخير البشر قاطبة .

لماذا تظاهر اليهودية الوثنية ضد الإسلام ؟ ولمصلحة من يقع هذا ؟ إن بني إسرائيل ينظرون إلى الدنيا والدين من خلال منافعهم الخاصة وذلك ما حدا بهم إلى مقاومة الإسلام بعنف . أما القدر الأعلى فيريد أن يجعل من الأمة الجديدة رسالة تغيير شامل لما شاع في العالم أجمع من مفاسد ولما عرا حضارته من تعفن وركود . فإذا وقعت حفنة من الأعراب أو حفنة من اليهود لتمعترض هذا التحول الهائل بدوافع من الحقد الرخيص أو المطامع الدنيا في التي جئت على نفسها إذا غرقت في الطوفان .

لو ظل اليهود ألف سنة أخرى في جزيرة العرب ما زادوها إلا انقساماً ، وما اكتسبت أقطار الأرض الأخرى من بقائهم شيئاً ، ربما نالت مزيداً من الحبوب والفواكه التي يتقنون زراعتها ، بيد أنها لن تظفر بهذه الزيادة إلا ومعها كفل من

الفساد الذى يصدره بنو إسرائيل إلى العالم مع معاملات الربا وأخلاق العهر والتحلل أما الإسلام فقد خرج من الجزيرة ، يوم خرج ، رسالة إيمان وإصلاح ، وبما يحمله فى طواياه من حق ونفع استحق الانتصار والانتشار .

فلما جرى على أمته من أسباب البلى والنجس ما جرى على اليهود الأولين تعرضت للطرد من أوطانها والتشرد هنا وهناك كما تعرض غيرهم حذوك النعل بالنعل !!!

عودة مهاجرى الحبشة

ووافق فتح خير قدوم جعفر بن أبى طالب ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة . وقد سُرَّ رسول الله أيما سرور لمحى هؤلاء الصحابة الكرام ، إنهم خرجوا من مكة فارين بدينهم من الفتان واليوم يعودون وأمر الإسلام يعلو ، وسلطانه يمتد شمالاً الجزيرة وجنوبها ، فلا خوف من غشم أو ظلم . . .

وعندما حلوا بالمدينة قال رسول الله مبهجاً : « والله ما أدري بأيهما أفرح ؟ بفتح خير أم بقدوم جعفر ؟ . وجعفر وإخوانه مكثوا فى الحبشة بضعة عشر عاماً ، نزل خلالها قرآن كثير ، ودارت معارك شتى مع الكفار ، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها فى أطوار متباينة ، حتى ظن البعض أن مهاجرى الحبشة — وقد فاتهم هذا كله — أنزل قدراً من غيرهم . فعن أبى موسى الأشعرى « . . . كان أناس يقولون لنا : سبقناكم بالهجرة . ودخلت أسماء بنت عميس — على حفصة زوج النبى زائرة — وكانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر . فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها . فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء ابنة عميس . قال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء : نعم ! قال عمر : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم ! ففضبت وقالت : كلا والله كنتم مع رسول الله يطعمم جائعكم ويعط جاهلكم . وكنا فى أرض البعداء البغضاء بالحبشة ! وذلك فى الله ، وفى رسول الله . وإيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله ووالله لا أكذب ولا أزيع ولا أزيد عليه . فلما جاء النبى قالت يا نبى الله إن عمر قال كذا وكذا ! قال : فما قلت له ؟ قالت كذا وكذا .

قال : ليس بأحق بى منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة . ولكم أنتم أهل السفينة

هجرتان .. ولم يمض كبير وقت على أولئك العائدين حتى اكتسبوا ما فاتهم من علم بالقرآن والسنة ، وانتظموا في موكب الجهاد مع من سبقوهم بإحسان .
وقد أشرّكهم النبي في مغامير خير ، مع أهل الحديبية ، ولم يقسم لأحد غيرهم معهم . فإن الله جعل خير مكافأة سخية لمن ساروا إلى مكة ، وبايعوا على الموت تحت شجرة الرضوان ...

تأديب الأعراب

أما عبدة الأصنام من البدو فإن المسلمين شرعوا يتعقبونهم مذ خلصوا من مشاكل اليهود . وقد أشرنا إلى أن شمل هؤلاء الأعراب انتكث بعد الوادعة التي تمت في الحديبية بين قريش والمسلمين ، كانوا أمس يحاصرون دار الإسلام أحزاباً متحدة ، لكن الحال تبدلت اليوم ، تمزق بنو إسرائيل ، وانسحب أهل مكة ، وأمكن للمسلمين أن ينفردوا بأولئك القوم قبيلة إثر قبيلة ولن يعجز المسلمون عن حسم شروهم ووقف فوضائهم . إن البدو جنس جاف غليظ ، ولن ننسى أنهم حتى القرن الأخير ، كانوا يستمرئون الفتك بقوافل الحجاج ، وقد يذبحون الحاج لدراهم معدودة ؟
وعلمهم بشئون الدنيا وحقوق الآخرة يُعبي المدرسين . وقد بذل الإسلام جهوداً جبارة في رفع مستواهم المادي والأدبي . إلا أن اغتيال الدعاة من القراء المربين جعل الإسلام يظاهر رجاله هؤلاء بالقوة التي تمنع الشعب وتقطع دابر الفساد .
وكان بث السرايا في فيافي نجد من أهم ما شغل المسلمين بعد ما رجعوا من خير ، في صفر من السنة السابعة حتى شدوا الرحال إلى مكة لعمرة القضاء ، كما نص على موعدها في عهد الحديبية .

ولا يعني لنا كثيراً أن تتبع هذه السرايا في مسيرها فهي — وإن وطّدت هيبة المسلمين العسكرية — أقرب إلى فرق الشرطة منها إلى الجيوش المعبأة . والهدف الأكبر من بعثها توطيد الأمن ، ومنع الغارات على المدينة ، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتهاليم الرسالة دون غدر أو خيانة .

إن أحوال هذه القبائل قريبة الشبه بأحوال قرانا في عهد الإقطاع القريب ، كان العمدة يملك ألف صوت لألف ناخب في قريته . فالحديث عن الحرية السياسية في هذا

الجو حديث خرافة . كذلك كان رؤساء القبائل الأولون ، تلتف حولهم عشائهم وبطونهم ليتفادوا في الحرب والسلم على ما يهوى السادة . فإذا كثرت في أولئك الحاكمين من يوصف بالأحمق المطاع . وإذا اشتغل أولئك الحق بالسكر والفر على نحو ما قال دريد بن الصمة :

يُفَار علينا وآثرين فيُشْتَفَى بنا إن أَصَبْنَا ، أو مُنْغِير على وَتَر !
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلّا ونحن على شطر !
أفترى أن الدعاة يسرون عزلا في هذه البيئة التي تخطف الأموال والعقائد ؟ إن العمل على توطيد الأمن شيء غير ! كراه الناس على الإيمان . هدف الأول إقصاء الضغط والفتنة عن المجتمع حتى إذا آمن فرد في قبيل لم يجد من يصب عليه سوط عذاب ، أما الآخر فيريد بالسوط أن يحمل الناس على عقيدة معينة .
والسرايا التي كان الرسول يسيرها إلى كل فج كانت تحمل معها كلام الله لتقرأ منه « قل : يا أيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ » ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ . والذين سَعَوْا في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أولئك أصحابُ الجحيمِ » فالسعى لمعاجزة الآيات أمر خطير . ولو كانت معاجزة باللسان ما اكثر لها أحد ! فهيات أن تغلب الخرافة الحق في معرض جدل حر ، إنها معاجزة بالسوط والقهر ! « وإذا تُتْلَى عليهم آيَاتُنَا يَنبَغِ تَعرُفٌ في وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يَسْطُون بالذين يتلون عليهم آيَاتُنَا ... » .

فإذا تأهب التالي حتى لا يروح ضحية هذا السوط فهو يؤدي واجبه ، وإذا سخرت القوة لتنهير الحياة من أسباب هذا السوط فأى غبار على هذا العمل ؟
وقد مضى المسلمون في نشر الدعوة داخل جزيرة العرب على ذلك الأساس العادل ومنذ أمضوا عهد الحديبية ، وهم دائبون على البلاغ والتبصرة ، ولذلك نجحوا نجاحا ملحوظا في هذا المضمار ، فدخلت قبائل كثيرة في عهدهم على حين انصرف جموع الأعراب عن قریش فلم يدخل في عهدهم أحد . وسير الأمور في هذا الاتجاه كان التمهيد الفعال لغلبة الإسلام ثم لفتح مكة نفسها فيما بعد .

والدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة لم تشغل النبي عن حق آخر من حقوق الله عليه وهو إعلام الناس كافة بما آتاه الله من بينات ، فليرفع السراج إلى أعلى لتصل

أشعته الهادية إلى مواطن أبعد ، مواطن غرقت في الظلام دهرا « ... وأوحى إلى هذا القرآنُ لَأُنذِرَكم وَمَنْ بَلَغ . أَلْأَنْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ؟ قُل : لَا أَشْهَد ! قُل : إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ . وَإِنِّى بَرِئٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ » .
فليتجه إلى المجوس ، وإلى النصارى ، يدعوهم إلى توحيد الله والإسلام له والخضوع لأحكامه ...

مكاتبة الملوك والأمراء

كان الفرس يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة ، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها . وقد انتشرت ديانة المحتلين في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم ومن العبث إرجاع هذا الانتشار للحرية العقلية المحضة . وعلى أية حال فإن المجوسية سادت الأقاليم التابعة لفارس ، والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للرومان ، وكان أمراء هذه الأقاليم يعينون من قبل الدول الحاكمة وينصاعون لأوامرها .
وقد رأى النبي أن يرسل بكتبه إلى رؤساء الدول الكبرى وإلى أمراء الولايات المحتلة على سواء يدعوهم إلى الله ، ويعرض عليهم الإسلام . روى مسلم عن أنس أن رسول الله كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي — وهو غير الذى صلى عليه — وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل .

بعث رسول الله دحية بن خليفة بكتابه إلى قيصر الرومان ، وليس الوصول إلى قيصر بدعوة غريبة على مسامعه أمراً سهلاً ، فكيف وهى — فى نظر الرومان — من أعرابى ساذج يتنمى إلى قوم تحت سلطانهم ؟ وتقديراً لهذه الأوضاع اختار النبي لتلك المهمة من يقوم بها إيماناً واحتساباً غير مبال بعواقبها عليه ، ولا نتائجها عند من يدعوهم . فعن ابن جبان أن رسول الله قال : من ينطلق بصحيفتى هذه إلى قيصر وله الجنة ؟ فقال رجل : وإن لم يقبل ؟ قال : وإن لم يقبل ! فأخذ دحية الكتاب وسافر به إلى أرض الروم فوافق هرقل وهو مقبل على بيت المقدس يزوره عقب انتصاره على الفرس ، قربى إلى الله .

وتناول قيصر الكتاب فقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام

أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين — الفلاحين —
و « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلى الله ولا نشرك
به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا : اشهدوا
بأننا مسلمون » .

وقد هاجت حاشية هرقل لاكتراث القيصر بهذه الرسالة ، وازدادوا هياجاً
عندما عرض عليهم — لاتدرى جاداً أما هازلاً — أن يعتنقوا هذا الدين !!
وهرقل في نظرنا سياسىٌ ما كر . وأمر الدين لايعنيه إلا بقدر مايدعم ملكه
وينمى قوته . وقد تولى شؤون الدولة في وقت كانت الخلافات الكنسية حول طبيعة
المسيح تغلى غليان المرجل ، وتثير في الأمة انقسامات مخيفة . وقد حاول التقريب
بين وجهات النظر المتباينة ، وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد فعجز ،
وتمرد عليه اليعاقبة وغيرهم في مصر والشام !

فالكلام في الإلهيات ليس غريباً عليه ، والتقريب بين وجهات النظر — لمصلحة
الدولة — ديدنه . ولعله في أعماق قلبه يحس سخف أولئك المختلفين جميعاً . وربما
تألفت في نفسه ، لوقت محدود ، فكرة الخروج من عقدة التثليث إلى بساطة التوحيد .
ثم انطفأت لما يستجره على الدولة من خلاف أشق في وهمه ، وأمر الملكة عنده
أنهم من أى شأن آخر !! ..

وشاءت لباقة قصر السياسى أن يستدعى دحية ، وأن يحاول إيهامه بأنه مسلم !
ثم أعطاه قدراً من الدنانير .. وصرفه !!
وعاد دحية إلى رسول الله بالنبا ، فقال النبي : كذب عدو الله ، ليس بمسلم !
وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين ..

أما الولايات العربية التابعة للرومان فإن النبي أرسل إلى أمراءها يعرض عليهم
الإسلام فكانت إجاباتهم أحسن وأقضى من رد القيصر نفسه ! .
قرأ أمير دمشق خطاب الرسول له « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله
إلى الحارث بن أبي شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإني أدعوك
أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبق ملكك » .

فلما قرأه رمى به الأرض . وقال : من ينزع ملكي مني ؟ وأخذ يعد العدة لقتال المسلمين !!!..

والحارث ليس بالملك الأصيل حتى يشمخ بملكه على هذا النحو . إنه مؤلّى من قبل الرومان الغالبين ليعمل أهواءهم ويمشي في ركابهم ، فهو كنفر من ملوك الشرق في عصرنا هذا . صنعهم المستعمرون ليكونوا جبالا تنجر بها الأمم المستضعفة وراء غاصبيها .

والهداية التي ردها هي الأمل الوحيد لجعله حاكماً شريعاً ، لو أنه قبلها وأشاعها . وبعث النبي إلى أمير بصرى — من ولايات الروم — مثل ما بعث به إلى أمير دمشق ، وحمل الكتاب الحارث بن عمير الأزدي . فاعترضه في الطريق شرحبيل ابن عمرو الغساني وسأله : أنت من رسل محمد ؟ قال : نعم . فأمر به شرحبيل فقتل ! . وترامت هذه الأخبار إلى المسلمين في المدينة فجزحت كرامتهم ، وأبانت لهم أن علاقتهم بالرومان لن تندفع في طريق العدل والاحترام إلا بعد جهود شاقة .

وردّ المقوقس على النبي رداً حسناً فلم يؤمن به ولم يتهم عليه . ولما تسلم كتابه من حاطب بن أبي بلتعة قال له : مامنعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ما منع عيسى — وقد أخذه قومه ليقتلوه — أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم ..

وكتب إلى رسول الله يقول : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأت كتابك . وفمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقى . وكنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط ، وبثياب ، وأهديت لك بغلة تركبها .. وماذا يفعل محمد بهذا ؟ لقد قبل الهدية تقديراً للعاطفة التي أملت بها . وإن كان يرى أن الإيمان بالله وحده أفضل ما يهدي إليه وخير ما ينتظره ويهش له .

وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب للمقوقس ، حتى يعرف القارئ أن هذه البعوث بلغت حداً من الفقه والخصافة يستحق الإعجاب البالغ .

قال حاطب : إن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم

له اليهود وأقربهم منه النصارى . ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى
بمحمد وما دعاؤنا إليك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل . وكل نبيٍّ
أدرك قوما فهم أمته . فحق عليهم أن يطيعوه . وأنت ممن أدرك هذا النبيّ ولسنا
ننھاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به . . .
وكان أثر هذه الدعوة الحارة الخطاب الذى سقناه آنفاً . . .

تلك مثل رسائله إلى رجالات النصرانية ومواقفهم منها . وقد ساق النبيّ كذلك
مبعوثيه إلى رؤساء المجوسية يدعونهم إلى الله . ويحدثونهم عن الدين الذى
لو تبعوه تقلهم من النى إلى الرشاد . وقد تفاوتت ردودهم بين العنف واللفظ ،
والإيمان والكفر . .

كتب رسول الله إلى كسرى أبرويز ملك فارس يقول بسم الله الرحمن الرحيم .
من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله
ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك
بدعابة الله فأنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا ويحق القول على
الكافرين . أسلم تسلم . فإن آيت فعليك إثم المجوس .

ومزق كسرى الكتاب ، وهو محقق ، ولعله حسب الجرأة على مكاتبة السامية
بعض ما رماه به القدر من مصائب ، فقد هزمه الروم هزيمة منكرة ، وها قد جاء
العرب يعلمونه ما لم يكن يعلم . .

وأصدر كسرى أمره إلى والى اليمن — وكانت لما تزل فى حكمه — يأمره أن
يرسل اثنين من رجاله الأشداء ، ليأتيا إليه بالرجل الذى تجرأ على مكاتبته ! !

وأبرويز هذا رجل حق ، ومنصبه يضفى عليه لقب ملك الملوك . والوثنية السياسية
إذا ظاهرتها وثنية دينية أمست ظلمات بعضها فوق بعض . وقد غلب على الرجل
السفه فى تصرّفه شئون الدولة وحكمه على الأشخاص والأشياء حتى ضاق قومه
أنفسهم به بل ضاق به أقرب الناس إليه وهو ابنه « شيرويه » فوثب عليه فقتله .
ويروى أن النبيّ لما بلغه ما صنع كسرى أبرويز بكتابه قل : مزق الله ملكه . .

والطريف أن والى اليمين لما صدر إليه أمر كسرى سارع إلى تنفيذه ، فأرسل اثنين من لدنه إلى المدينة يعرضان على النبي أن ينطلق معهما ليسأل عما فعل !!... ونظر النبي إلى الرجلين فوجدهما من ذلك النوع الذى تربيته الملوك فى القصور كما تربي النسوة الديكة الرومية . مناظر فارهة وبواطن تافهة . فلما رأى شواربهما مقتولة وخدودهما محلوقة أشاح عنهما . وقال : ويحكما من أمركما بهذا ؟ قالوا : أمرنا ربنا !! يعنينا كسرى ...

إن تأليه الملوك ضلال قديم ، وبعد أن انتشر الإسلام ذهبت حقيقة التأليه ، ثم عادت الآن آثاره وخصائصه ، فالملك يلقب صاحب جلالة ، ولا يسأل عما يفعل ، ويبطل شرائع الله ليقيم شرائع الهوى ، ويمتد هو وبطانته ، لتتكش أمامهما أمته ... ولما سمع النبي كلام الرجلين أمرهما أن يعودا من حيث أتيا إلى والى اليمين ، وقال : أخبروه أن ربى قد قتل ربه الليلة . وكان رسول الله قد علم قبلهما بمصرع كسرى ... وقد وقع الإسلام فى قلب والى اليمين ورجاله بعد هذه القصة . وانتشر انتشاراً عظيماً فى الجنوب بين الطائفتين جميعاً من نصارى ومجوس .

وأرسل النبي إلى أمير البحرين كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام ونبذ المجوسية . حمله إليه العلاء بن الحضرمي . وكان المنذر بن ساوى أمير البحرين رشيداً موفقاً فرحب بالدعوة وانشرح صدره لقبولها .

وقد أبلغ العلاء فى ترغيبه وإبراز محاسن الإسلام له .
فما قاله : « .. يا منذر ، إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة . إن هذه المجوسية شردين . ليس فيها تكبرم العرب ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون ما يستحي من نكاحه وبأكلون ما يُتنزه عن أكله . ويعبدون فى الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة ... ولست بعديم عقل ولا رأى . فانظر : هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا ألا تصدقه ، ولمن لا يخون ألا تأمنه ، ولمن لا يخلف ألا تثق به . هذا هو النبي الأمي الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ! أوليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه . إذ كل ذلك منه على أمانة أهل العقل وفكر أهل النظر . »

وقد أسلم المنذر . وعرض على قومه الإسلام . ففهم من أعجبه فدخل فيه ومنهم من كرهه . وبقي على مجوسيته ، أو على يهوديته . فلما استشار رسول الله ما يفعل بإزائهم كتب له « . . من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .

إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعروف المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل . لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم ، ويوسعونه جحوداً وكنوداً ؟ « وإذا رأوك أن يتخذونك إلهزوا : أهذا الذي بعث الله رسولا » فما يكون شأن الروم والعجم ، وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة ! ألا يكونون أسرع إلى السخرية وأدنى إلى الكفران ؟

بيد أن أصحاب الرسالات لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق المنكور فإن ثقهم العميقة في سيادة فكرتهم وامتداد نطاقها ، تصغر العقبات المفروضة في الطريق . وتجعلها — ولو كانت الشم الرواسي — هباء منثوراً .

ولو انحصر « كارل ماركس » في حدود مذهبه وهو فكرة مطاردة تصل بذويها إلى السجون لأصابه الشلل وقضى عليه وعلى أفكاره . لكنه مضى في سبيله وهو على أمل بالغ أن تقوم بتوجيهها دول كبرى . فإن كان هذا شأن الماديين من أصحاب الأفكار . فلا جرم أن المرسلين المؤيدين بالوحي يكتفون الملوك والأمراء وهم موقنون بأن مآلهم من حق سيعلو ما عداه ، وذلك ما كان يحول في نفس الرسول الكريم وهو يعالج هداية الأعراب الشاردين في الصحراء طوراً باللين وطوراً بالشدّة . ثم هو في الوقت نفسه ينصح لقادة الشعوب الأخرى أن يفكروا في هذا الدين الجديد ، وأن يعتنقوه وافرّين .

إن الخرافة التي أفسدت عقل بدوى تُتَرَّب إهابه وثيابه رياح نجد هي بعينها الخرافة التي تقسد فكر كسرى عاهل الفرس العظيم .

ما الفارق بين الحمىّ تصيب ملكاً أو تصيب صعلوكاً ؟ إن الطبيب يصف لها على الحالين دواء واحداً ، ويتخذ ضد عدواها حصانات واحدة !!

وقد أراد النبي أن يشفي الكبار والصغار من أمراض نفوسهم ، وأن يناولهم جميعاً الدواء الذي يصحون به « ونزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .

ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » فلا غرو إذا جمع في مصحفه بين الأحمر والأسود ،
والسادة والعبيد . أجل . قد يكون أولئك الملوك محجبين وراء أسوار مشيدة ، وحولهم
من الأتباع والجند والأبهة والرياش ما يبهر العين ، لكن أى عين تنبهر لهذه
المظاهر ؟ إن الطبيب المعالج لا يعنيه من مريضه إلا جسده الشاحب العليل . والأنبياء
لا يرون في القوم إلا أنهم جهال يجب أن يتعلموا . سفهاء يجب أن يسترشدوا . وأن
ما حولهم من الدنيا يجعل تبعتهم أخطر ، وجزاءهم على الهدى والضلال أضخم .

على أن هذه القوى المسخرة في حماية الباطل لن يطول أمدها ، إلا كما يطول
الليل على المؤرق ، ثم تطلع الشمس ، ويمحو الله بالآية المبصرة سدول الظلام .

ولذلك قال النبي لرسل إلى اليمن حين جاءوه « أخبراه أن ديني وسلطاني
سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهى إلى الخف والحافر ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك
ما تحت يديك وملكتك على قومك »

إنه وهو في المدينة يولى ويعزل ، عن حق لا عن غرور ، أليس موصولاً بمالك
الملك ، مبعوثاً من رب السموات والأرض ؟

ومن الطبيعي أن يعرف مشركو العرب أنباء هذه البعوث النبوية ، وأن يرقبوا
نتائجها عن كثب ، وقد استبشروا أول الأمر حين بلغهم صنع كسرى بن هرمز ،
وقال بعضهم لبعض : كُفِّتِمْ الرجل ، فقد نَصَّبَ له كسرى ملك الملوك ! وشاعت
هذه القالة في مكة والطائف . .

ثم مرت الأيام ، وطاح كسرى ، وبقي الإسلام يغزو الأفق والبلاد ... وجاءت
الأنباء أن بعوث محمد في بعض الأجزاء أمكنها نشر الإسلام وتثبيت هدايته ، حتى
دخلت فيه اليمن وعمار والبحرين ، فارتد استبشار الشركين خذلانا . وفكرت
قبائل شتى في الانقياد لحكمه ، خصوصاً ورقة الكفر تنكش يوماً بعد يوم أمام
موجات الوحي الجارف ، وبقيت أخرى مصرة على جاهليتها « بل متّعنا هؤلاء وآباءهم
حتى طال عليهم العمر » . أفلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .
أفهم الغالبون ؟ قل : إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون » .

عمرة القضاء

أوشكت السنة السابعة أن تنقضى ، وحق للمسلمين أن يعودوا إلى مكة ليؤدوا مناسك العمرة التي حرموا من أدائها قبلاً . لقد تأخروا عما وهم كارهون ، لكن مكاسبهم للدعوة في هذه الفترة أربت على الأمان ، وهام أولاء يسوقون الهدى إلى الحرم مرة أخرى ، ويجرون وراءهم أذيل نصر عريض .

وأحب أهل مكة أن يعزوا أنفسهم وهم يحلون عنها — وفق الاتفاق المبرم — ليدخلها النبي وصحابته معتمرين . فأشاعوا أن المسلمين يعانون عُسرة وجهداً ! .

قال ابن عباس : صَفَّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه . فلما دخل رسول الله المسجد اضطجع بردائه ، وأخرج عضده اليمنى . ثم قال : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة . ثم استلم الركن وأخذ يهرول ، ويهرول أصحابه معه حتى واره البيت منهم .

والتطواف بهذه السرعة إظهار لبأس المسلمين ، وتكذيب لإشاعات الضعف ، وقد مضت السنة به بعد ذلك .

وروى أن رسول الله لما دخل مكة كان عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته وهو ينشد :

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله خَلُّوا فكلُّ الخير في رسوله !
ياربِّ إني مؤمنٌ بقبيله أعرف حق الله في قبوله !
وأقام المسلمون ثلاثة أيام ، جاء في نهايتها نفر من قريش يذكرونه بانقضاء الأجل المضروب ويقولون له : اخرج عنا . فقال لهم الرسول : لو تركتموني فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ؟
قالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا .

وكان العباس عم رسول الله قد زوجه من ميمونة بنت الحارث ، خالة عبد الله ابن عباس ، فعقد عليها في مكة ، وبني بها في سَرَف . وفي هذه العمرة نزل قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا . فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » .

غزوة مؤتة

عز على المسلمين مصرع رسولهم إلى أمير بصرى ، والطريقة الشائنة التي عومل بها . فقد أوثق شرحبيل بن عمرو رباطه ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل أحد غيره من بعوث الرسول الكثيرة إلى الآفاق ، والرُّسل لا يقتلون . لذلك كان وقع هذه الإهانة شديداً على المسلمين ، فعزموا على الاقتصاص لرجلهم ، وعلى زلزلة الوالى الأثيم الذى صنع ماصنع لحساب الرومان .

وتجهز المسلمون فى جيش يعتبر بالنسبة لهم كبيراً ، إذ بلغت عدته ثلاثة آلاف ، وخرج أهل المدينة يودعون الجيش الزاحف وهم يقولون : صحبكم الله بالسلامة ! ودفع عنكم ! وردكم إلينا صالحين . فقال عبد الله بن رواحة يرد على هذا الوداع :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا !

أو طعنةً بيدي حرّان مُجهزةً بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا !

حتى يقال - إذا مروا على جدثى - : يا أرشد الله من غازٍ . وقد رشدنا !

ورتب النبيُّ قادة الجيش ، فجعل الأمير زيد بن حارثة ، وقال : إن أصيب فجعفر بن أبى طالب . فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة .

وانطلق الجيش إلى مشارف الشام .

إلا أن أخباره سبقته إلى الروم . ولا بد أن تهاويل كثيرة أحاطت بسمعة المسلمين وطاقاتهم الحربية مما جعل القوم يستعدون للقتال بجيش كثيف . فلما وصل المسلمون إلى « معان » عرفوا أن فى انتظارهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب .

والهجوم على جيش تلك عدته مجازفة مخوفة فأقام المسلمون ليلتين بعمان يتدبرون أمرهم . وقال نفر منهم : نكتب إلى رسول الله نخبه بعدد عدونا ، فيما أن يمدّنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له . ولم يَرُقْ ذلك لعبد الله بن رواحة فشجع الناس قائلاً : يا قوم ، والله إن التى تسكرهون للتى خرجتم تطلبون ، الشهادة !! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة .

وكان لهذه الكلمة الملهية أثرها ، فاختفت من صفوف المسلمين مشاعر التردد ، وقرروا القتال . مهما كانت النتائج .

وابن رواحة شاعر حاد العاطفة ، وقد أحس منذ خروجه أن الاستشهاد مقبل عليه فهو يتهيأ له بقلبه ولسانه . وقد تكون الحكمة العسكرية في تصرف غير ما أوحى به ، غير أن المسلمين ما إن سمعوا حديث الفداء والموت في سبيل الله حتى جاشت بأنفسهم محبة الآخرة . ثم ذكروا أنهم نُصروا في معارك سابقة باستعداد أقل من عدوهم . فأقدموا مطمئنين . عن أبي هريرة قال : شهدت مؤتة . فلما دنا المشركون رأينا مالا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكرع والديباج والحرير والذهب ، فبرق بصرى !! فقال لى ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعا كثيرة ؟ قلت : نعم — وأبو هريرة ممن أسلموا بعد الحديبية — فقال له ثابت : إنك لم تشهد بدرا معنا . إنا لم ننصر بالكثرة . . .

والتقى الجمعان . وعبثُ أن تنتظر من ثلاثة آلاف بطل أن يصالوا في ميدان مكشوف فيالقي تربو عليهم سبعين ضعفا .

قاتل زيد بن حارثة براية رسول الله حتى شاط في رماح القوم . وتلقف الراية جعفر بن أبي طالب فأقبل على الروم يجالدهم بعنف . روى أبو داود حديث شاهد عيان يقول : لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء ، ثم عقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو ينشد :

يا حبذا الجنة واقترابها ! طيبة ، وباردا شرابها !
والروم روم قد دنا عذابها ! كافرة بعيدة أنسابها !
علىَّ إن لاقيتها ضرابها !

قيل : إن رجلا من الروم ضربه ضربة فقطعه نصفين . . .
وقيل : أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل . وقد رزق جعفر هذه الشهادة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .
فلما قُتل حمل عبد الله بن رواحة الراية . ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فلما أحس

دقة الموقف وشدة الضغط عراه بعض التردد ، ثم أقنع نفسه بورود المصير الذى ذاق صاحباه . فأقبل على الساحة المضطربة يقول :

يا نفس إن لا تقتلى تموتى ! هذا حمام الموت قد صليت !
وما تمنيت فقد أعطيت ! إن تفعل فعلهما هديت !
ثم أقدم . وجاءه ابن عم له بقطعة لحم فناولها إياه وهو يقول : شدّ بها صلبك ،
فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، فما كاد يقطع منها مضغة حتى سمع الحطمة
فى ناحية من الجبهة استعرت بها الحرب . فقال لنفسه : وأنت فى الدنيا ؟ ورى
بالطعام من يده . . ثم انتضى سيفه وتقدم حتى قتل ...

وأخذ الراية التى تداولتها أيدي الأمراء الثلاثة ثابت بن أقرم . وصاح : يا معشر
المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ! قالوا : أنت ؟ قال : ما أنا بفاعل ! فاصطالح
الناس على خالد بن الوليد . وثابت أبى القيادة ، لانكوصا عن الموت بل شعورا
بوجوده كفاً منه فى الجماعة ، وحملانه الراية خشية أن تسقط من آيات الجراءة
فى هذا الموقف العصيب . ولت كل امرئ يعرف أقدار الناس يُنزلهم منازلهم التى
يستحقونها ، فلا يكلف أمته أن تحمل عجزه وأثرته ...

وأخذ الراية خالد فشرع يقاتل ويحتال للخلوص بالجيش من هذا المأزق المتضيق .
وقتل الانسحاب شاق مرهق خصوصا وخالد لا يريد إشعار الروم بهذه الخطة
روى البخارى عن خالد . اندقت فى يدي يوم مؤته تسعة أسياف ، وما ثبت فى يدي
إلا صفيحة يمانية ، ودخل الليل على التجارئين ، فكان هدنة مؤقتة ، فلما طلع الصبح
كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة ، فجعل المقدمة ساقة والميمنة ميسرة .

وجعل هدفه مناوشة الرومان بحيث يلحق بهم أذى الخسائر دون أن يعرض
كتلة الجيش لالتحام عام ، وقد أفلحت هذه الخطة فى إنقاذ الآلاف القليلة التى معه ،
وإنقاذ سمعة المسلمين فى أول معركة لهم مع الدولة الكبرى ، والعجيب أن الرومان
أعياءهم هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة . بل إن بعض فرقهم انكشف ، وولى
مهزوما ... واكتفى خالد بهذه النتيجة ، وآثر الانصراف بمن معه .

عن أنس بن مالك ، أن رسول الله نعى زيدا وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل
أن يأتيهم خبر . فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم

أخذها ابن رواحة فأصيب — وعيناه تذرفان — قال ، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم .

وروى ابن اسحاق عن رسول الله : لقد رفعوا إلى الجنة — فيما يرى النائم — على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة أزورارا عن سريري صاحبه فقلت : مم هذا ؟ فقليل لى : مضيا ، وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى .

والدلالة التي تعلق على الريب في هذه المعركة أن شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغت حداً لم تعرفه أمة معاصرة . وقد أكسبهم هذا الروح العالى إقداما حقر أمامهم كبرياء الأمم التي عاشت مع التاريخ دهرًا ، تصول وتجول لا يقفها شيء .

إن الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم ، بل هي قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز وحسبك أن جيش مؤتة لما عاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون : يافرار ، فررتم في سبيل الله ؟ ؟ إن أولئك الصغار الأغرار يرون انسحاب خالد ومن معه فراراً يُقابل بحشو التراب . أى جيل قوى نابه هذا الجيل الذى صنعه الإيمان بالحق ؟ أى نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام ؟ من آبؤهم ؟ من أمهاتهم ؟ كيف كان الآباء يربون ؟ وكيف كانت الأمهات يدلن ؟ إن مسلة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس . . .

تحدث النبي عن قادة الجيش الذين قتلوا ، فقال لأصحابه : مايسرهم أنهم عندنا ! أجل . إن الجوار الذى صاروا إليه أحب لنفوسهم وأقر لعيونهم من الدنيا وما فيها ومن فيها . أما أسرهم ففي كفالة الله . وهو نعم المولى ونعم النصير .

عن عبد الله بن جعفر — ابن الشهيد — جاءنا النبي ، بعد ثلاث من موت جعفر ، فقال : لا تبكوا على أخى بعد اليوم . وادعوا لى بنى أخى . .

قال عبد الله : فجئ بنا كأننا أفراخ . فقال : ادعوا إلى الخلاق . فجئ بالخلاق فخلق رؤسنا ثم قال الرسول — مداعبا — أما محمد فشبيهه عنما أبى طالب . وأما عبد الله

فشييه خَلَقَ وَخُلِقَ . ثم أخذ بيدي فأشالها وقال : اللهم اخلف جعفرًا في أهله .
وبارك لعبد الله في صفقة يمينه — قالها ثلاث مرات —

قال عبد الله : وجاءت أمنا فذكرت له يتمنا وجعلت تحزنه . فقال لها النبي :
العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة ؟ ؟

ولم ير المسلمون في نتائج مؤتة ما يسكن نائرتهم ، فإن القبائل المتنصرة بالشمال
استظهرت بالرومان على مقاتلتهم واستطاعت بذلك النجاة من عدوانها على الحارث
ابن عمير ، ولا بد من قذف الرعب في قلوبها ، وإشعارها بأن بعوث الإسلام لا تلقى هذا
الهوان وهكذا اتجه نشاط المسلمين العسكري إلى ميدان جديد بعيد .

ذات السلاسل

كانت مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة ، ولم يلبث المسلمون طويلا بعدها
حتى عادوا إلى مشارف الشام يلاحقون خصومهم قبل أن يستريحوا . فخرج عمرو
ابن العاص ليؤدب القبائل الضاربة هناك . إلا أنه خشي من كثرة عدوه فأرسل إلى
النبي يطلب مددا ، وانحاز إلى ماء يسمى السلاسل حتى يحميه العون .

وبعث رسول الله جيشاً من المهاجرين الأولين — فيهم أبو بكر وعمر — يقوده
أبو عبيدة بن الجراح . ووصاه رسول الله حين وجهه لنجدة عمرو فقال : لا تختلفا .

فلما وصل أبو عبيدة قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي . فقال له أبو عبيدة : لا .
ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه ! فقال عمرو : أنت مدد لي ! — وكان
أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً ، هيناً عليه أمر الدنيا — فقال : يا عمرو إن رسول الله
قال لي : لا تختلفا . وإنك إن عصيتني أطعتك ! قال عمرو : فإني أمير عليك وإنما أنت
مدد لي . قال : فدونك . ! فصلي عمرو بالناس وتولى قيادهم جميعاً . . .

وأخذ عمرو يطارد القبائل الموالية للروم . فتوغل في بلاد بلي وعذرة وبلقين وطي .
وكما انتهى إلى موضع قيل له : كان هنا جمع فلما سمعوا بك تفرقوا ! وظفر مرة بواحد
من هذه الجموع فاقتتلوا ، وحمل عليهم المسلمون فهزموا ، وأعجزوهم هرباً في البلاد .

ومع أن عمرا دوخ أولئك الأعراب وشتت شملهم إلا أنه لم يلقهم في معركة حاسمة وعلى أية حال فإن سمعة المسلمين انزاح عنها غبار كثير بهذه الغزوة .

وحدث أن عمرو بن العاص احتلم في ليلة باردة . وخشى على نفسه إن اغتسل أن يعقل فتيمم وصلى بالناس . وكان بعض الصحابة شك في هذا الصنيع من عمرو ، فذهب إلى النبي يقول له : إن عمراً صلى بنا وهو جُنُب ! فقال الرسول : يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فأخبره بالذي منعه من الاغتسال ، لقد خاف على نفسه قسوة البرد والله يقول : « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً » .

فضحك الرسول ولم يقل شيئاً

وفقه عمرو في هذه المسألة صحيح فإن التيمم يجوز إذا كان استعمال الماء مظنة الضرر .

الفتح الأعظم

شغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الإسلام على كل ذي عقل . وكان وفاؤهم لقريش أمراً مقررأ فيما أحبوا وفيما كرهوا . ورأى الناس من ذلك الآيات البينات ... لكن قريشا ظلت على جمودها القديم في إدارة سياستها غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية ، وتوشك أن تغيره في العالم كله . .

وقد جرّها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغوا . وذلك أنها مع حلفائها من بني بكر هاجموا خزاعة — وهي مع المسلمين في حلف واحد — وقتلوهم فأصابوا منهم رجالا . وانحازت خزاعة إلى الحرم ، إذ لم تكن متأهبة للحرب ، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم ، وقريش تـمـدّهم بالسلاح وتعينهم على البغي . .

وأحس نفر من بني بكر أنهم دخلوا الحرم — حيث لا يجوز قتال — فقالوا لرئيسهم نوفل بن معاوية : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال نوفل : لا إله اليوم يا بني بكر ... أصيبوا ثأركم ... !!

وفزعت خزاعة لما حل بها ، فبعثت إلى رسول الله عمرو بن سالم يقص عليه نبأها
فلما قدم المدينة وقف على النبي وهو جالس في المسجد بين ظهراى الناس يقول :

يارب إني ناشد محمدا حلفَ أئبنا وأئبيه الأتلا
قد كنتم وُلدا وكنا والدا مُتت أسلمنا فلم نزرع يدا
فانصر هداك الله نصرأ أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا أبيض مثل البدر يسمو صعدا
إن سيم خسفا وجهه تربدا في فيلق كالبحر يجرى مَرِدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقتك المؤكدا
وجعلوا لى فى كدأ رَصدا وزعموا أن لست أَدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا هم يبتونا بالوتير هُجدا
وقتلونا ركمأ وسجدا

فقال له رسول الله : نصرت يا عمرو بن سالم ...

وأحست قريش - بعد فوات الأوان - خطأها . فخرج أبو سفيان إلى المدينة
يصلح ما أفسده قومه ويحاول أن يعيد للعقد المهذر حرمة !

وبلغ المدينة فذهب إلى ابنته أم حبيبة ، وأراد أن يجلس على الفراش فطوته
دونه . فقال : يا بنية ما أدرى ، أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ فقالت :
بل هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ! قال : والله لقد أصابك بعدى شر !
ثم خرج حتى أتى رسول الله ، فكلمه ، فلم يرد عليه شيئا .

واستشفع أبو سفيان بأبى بكر ليحدث النبي فى هذا الشأن فرفض . فتركه إلى
عمر ، فقال عمر : أنا أشفع لكم عند رسول الله ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به .
فتركهما إلى على فرد عليه : والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر
ما نستطيع أن نكلمه فيه ، ثم نصحه أن يعود من حيث جاء ... فقفل أبو سفيان إلى
قومه يخبرهم بما لقى من صدود .

وأمر النبيُّ الناس أن يتجهزوا ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة ، وأوصاهم بالجد والبدار . وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ! واستمع المسلمون لأمر نبيهم ، فمضوا يعبثون قواهم للقاء المنتظر ، وهم مدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت .

ووقع في هذه الفترة الدقيقة حادث مستغرب ، فإن رجلاً من أهل السابقة في جهاد المشركين تطوع بإرسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه أن محمداً سائر إليهم بجيشه . . . !!

وقد رأيت أن المسلمين حراس على إخفاء خطة الغزو ، أليس مما يقرب نجاحهم ويخفف خسائرهم ، ولعله يدفع قريشا إلى التسليم دون أن تسفك الدماء عبثاً ؟ وماعنى الكتابة إليهم إلا التحريض على حرب الله ورسوله ، والاستكثار من أسباب المقاومة ؟

عن عليّ بن أبي طالب بعثني رسول الله أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة « خاخ » فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فانطلقنا نعاذى بناخيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة . فقلنا : أخرجى الكتاب . فقالت : مامعى ! فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الشيا ب !! فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله .

فإذا فيه « من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله . فقال : يا حاطب ما هذا ؟ فقال : يا رسول الله لا تعجل على . إني كنت امرأً ملصقاً في قريش — كنت حليفاً لها ولم أكن من صميمها — وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم . فأحببت إذ فاتني ذلك ، من النسب فيهم . أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ..

فقال رسول الله : أما إنه قد صدقكم ! فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ! فقال : إنه قد شهد بدراً . وما يدريك ؟ .. لعل الله قد اطلع على من شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ... ؟

ونزل قول الله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوِّي وعدوِّكم أولياء تُلقون إليهم بالموَدَّةِ وقد كفروا بما جاءكم من الحقِّ . يُخْرِجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي . تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » .

إن حاطباً خرج عن جادة الصواب بهذا العمل . وما كان له أن يواد المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران وتظاهروا على العدوان ، وصنعوا بالمسلمين ما حاطب أعلم به من غيره .

لكن الإنسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها . والله أبرُّ بعباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعف التي تعرو نورهم فيخبو ، وسعيهم فيكبو . وقد استكشف النبيُّ خبيثةَ حاطب فعرف أنه لم يكذبْ به في اعتذاره . إنيهم مقبلون على معركة كبيرة قد يهزمون فيها فتقوم العصبيات القديمة بحماية الأقارب الشاردين ؛ ويبقى حاطب لاجئاً له فليتخذ تلك اليد عند قریش حيلة للمستقبل .

ذاك ما فكر فيه حاطب . وهو خطأ . فإن المشركين لم يذكروا في عداوة الإسلام رحماً ولا أهلاً . وما ينبغي - ولو دارت علينا الدوائر - أن نبقى لهم ودّاً ، وقد خاصمناهم في ذات الله ، وأخذ علينا العهد أن نبذل في حربهم أنفسنا وأموالنا ... ولو جاز اتخاذ يد عندهم فكيف يُتَوَسَّل لذلك بعمل يعد خيانة كبيرة ، فادحة الإضرار بالإسلام وأهله ؟

على أن حاطباً شفع له ماضيه الكريم ، فجبرت عثرته ، وأمر النبيُّ المسلمين أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه . وبهذا التقدير السمع علمنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حيناً بعد أن أصابوا طويلاً .

سرى القلق في ربوع مكة عقب أوبة أبي سفيان ، ورأى العباس بن عبد المطلب أن يسلم هو وعياله وأن يهجروا مكة إلى المدينة . فقابلوا الرسول في الطريق مقبلاً بجيشه على مكة . وخرج كذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن

أبي أمية ، فلقيا النبيَّ بالأبواء — وهما ابن عمه وابن عمته — وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة . فأعرض عنهما لما ذكر من مساءتهما .

لكن علي بن أبي طالب أشار على ابن عمه أبي سفيان بوسيلة يترضى بها رسول الله ، قال له : أئنته من قبل وجهه وقل له ما قال إخوة يوسف : تالله لقد آتاك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً . ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وأنشده أبو سفيان أبياتاً جاء فيها :

لعمرك إني حين أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالدج الحيران أظلم ليله فهذا أواني ، حين أهدى فاهتدى
هداني هاد ، غير نفسي ، ودلني على الله من طردته كل مطرد
فضرب الرسول على صدره وهو يقول له : أنت طردتني كل مطرد .

وسار الجيش يطوى الوهاد والنجاد مسرعاً إلى مكة . حتى بلغ مر الظهران قريباً منها في العشاء ، فنزل الجيش ونصبت الخيام وأوقدت النيران في معسكر يضم عشرة آلاف حتى أضاء منها الوادي . وأهل مكة في عماية من أمرهم لا يدرون عن القضاء النازل بهم شيئاً ... وعز على العباس أن تُجتاح مكة في أعقاب قتال تتفانى فيه ولا يغنيها قتيلا .

فخرج يبحث عن وسيلة تقنع قريشاً بمسألة النبيِّ وتدخلها في أمانه . وصادف ذلك أن ثلاثة من كبراء مكة خرجوا يتعرفون الأخبار ، ويتسمعون ما يقال ، فلما اقتربوا من الوادي راعهم ما به . قال أبو سفيان زعيم مكة : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً !! ، فقال : بدیل بن ورقاء : هذه — والله — خزاعة حمشتها الحرب ! فرد أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ...

وكان المسلمون على خطتهم المرسومة ييثون العيون حولهم حتى يأخذوا قريشاً على غرة فلا ترى من التسليم بدا . فعثرت خيالتهم على رجال قريش أولئك ومعهم حكيم ابن حزام فأخذتهم ، وعادت بهم مسرعة إلى رسول الله ، ولحق العباس بالأسرى

وهو يعلن أنهم في جواره . فلما دخلوا على النبيؐ حادتهم عامة الليل ، فانشرح صدورهم بالإسلام . وإن كان أبو سفيان قد تأخر إسلامه حتى طلع الصبح . . .
ثم سأله الأمان لقريش . فقال رسول الله : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .
ومن دخل المسجد فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن .

وإنما أعطى رسول الله أبا سفيان هذه الميزة إرضاء لعاطفة الفخر في نفسه ،
وقد أرضاه بما لا يضر أحداً ولا يكلف جهداً ، ولا عليه أن يتحجب إلى نفس بمثل
هذا الثمن الميسور . وأراد رسول الله أن يستوثق من سير الأمور بعيداً عن الحرب
والضرب ، فضم إلى ذلك المسلك مع أبي سفيان أن أوصى العباس باحتجازه في مضيق
الوادي حتى يستعرض القوى الزاحفة كلها فلا تبقى في نفسه أثاراً لمقاومة . وهو سيد
مكة المتبوع . قال العباس : فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني
رسول الله ومرت القبائل على راياتها . كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هؤلاء ؟
فأقول : سليم ! فيقول : مالي ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة . فيقول : يا عباس من
هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ! فيقول : مالي ولزينة حتى نفذت القبائل ، ما تمر به قبيلة
إلا سألتني عنها . فإذا أخبرته قال : مالي ولبنى فلان ؟

حتى مر رسول الله في كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم
إلا الحديق من الحديد فقال : سبحان الله ! يا عباس من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول
الله في المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل
لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً !
قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة ! قال : فتعم إذن . . .

ودخل أبو سفيان مكة مبهوراً مدعوراً . وهو يحس أن من ورائه إعصاراً إذا
انطلق اجتاح ما أمامه ، فما يقف دونه شيء . ورأى أهل مكة الجيش الفاتح يقبل من
بعيد رويداً رويداً . فاجتمعوا على سادتهم ينتظرون الأوامر بالقتال ، فإذا بصوت
أبي سفيان ينطلق عالياً واضحاً : يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ،
فن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ! وشدهت امرأته هند بنت عتبة وهي تسمع من

زوجها هذا الكلام ، فوثبت إليه وأخذت بشاربه تلويه وصاحت : اقتلوا الحميت الدسم
الأحمس — أى هذا الزق المنتفخ — قُبِحَتْ من طليعة قوم !!

ولم يكثر أبو سفيان لسباب امرأته فعاود تحذيره : ويلكم لا تغرنكم هذه من
أنفسكم فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به ! فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . . .

قالوا : قاتلك الله ! وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .
ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وأصبحت أم القرى وقد قيد الرعب حركاتها ، واسترخت تجاه القدر المنساق
إليها فاختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة . أو اجتمعوا في المسجد الحرام يرقبون
مصيرهم وهم واجمون . . .

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم . ورسول الله على ناقته ، تتوج هامته عمامة
دسماء ، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله . لقد انحنى على رحله وبدأ عليه التواضع
الجم حتى كاد عثمونه يمسُّ واسطة الرحل . إن الموكب الفخم المهيّب الذى ينساب به
حشياً إلى جوف الحرم . والفيلق الدارع الذى يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة
شئ آمن ، إن هذا الفتح المبين لينذره بماض طويل الفصول ، كيف خرج مطارداً
وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً . . . وأى كرامة عظمى حفّه الله بها فى هذا
الصباح اليمون وكلما استشعر هذه النعماء ازداد الله تواضعاً ، وازداد على راحلته خشوعاً
وانحناء ، ويبدو أن هناك عواطف أخرى كانت تجيش فى بعض الصدور . فإن سعد
بن عباد زعيم الأوس ذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا فى جنب الله ، ثم شعر بزمam
القوة فى يده فصاح : اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل الحزمة . اليوم أذل
الله قريشاً .

وبلغت هذه الكلمة مسامع الرسول : فقال : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة .
اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً ، وأمر أن ينزع اللواء من سعد ويدفع إلى ابنه مخافة
أن تكون لسعد صولة فى الناس .

وسار رسول الله فدخل مكة من أعلاها وأمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من
قاتلهم فدخلت سائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى .

ودخل خالد بن الوليد من أسفل مكة . وكان هناك نفر من قريش غاظهم هذا التسليم فتجمعوا عند الخندمة يقودهم عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وصفوان ابن أمية ، إلا أن الحقيقة الكبيرة صدمت غرورهم فبددت ، فإن خالدًا حصدهم حصداً حتى لاذ القوم بالفرار . ومن طريف ما وقع أن حماس بن خالد من قبيلة بني بكر كان قد أعد سلاحاً لقتالة المسلمين . وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله : لماذا تعد ما أرى ؟ فيقول : لمحمد وأصحابه . وقالت امرأته له يوماً : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء ! فقال : إني والله لأرجو أن أُخْدِمَكَ بعضهم ... ثم قال :
 إن يقبلوا اليوم فما لي علة هذا سلاح كامل وألة — حربة —
 وذو غرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئاً من قتال مع رجال عكرمه . ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد . فخرج منهزماً حتى بلغ بيته فقال لامرأته : أغلق على الباب .. !

فقالت المرأة لفارسها المعلم : فأين ما كنت تقول ؟ . فقال يعتذر لها :
 إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفكر عكرمه
 وأبو يزيد قائم كالوثمة^(١) واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
 يقطعن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا يسمع إلا غمغمة
 لهم نهيت خلفنا وهممة لم تنطق باللوم أدنى كلمة ! !

وسكنت مكة . واستسلم سادتها وأتباعها . وعلت كلمة الله في جنباتها . ثم نهض رسول الله إلى البيت العتيق فطوّف به . وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله . ويضربها بقوسه ظهراً لبطن فتقع على الأرض مهشمة متناثرة . كانت هذه الحجارة — قبل ساعة — آلهة مقدسة . وهي الآن حص وتراب وأنقاض يهدمها نبيُّ التوحيد وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ...

ثم أمر بالكعبة ففتحت ، فرأى الصور تملؤها ، وفيها صورتان لإبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام ! فقال — ساخطاً على المشركين — قاتلهم الله . والله

(١) الاسطوانة وأبو يزيد سهيل بن عمر .

ما استقسما بها قط . ومحاذاك كله . حتى إذا طهر المسجد من الأوثان أقبل على قریش وهم صفوف صفوف يرقبون قضاءه فيهم . فأمسك بعضا دق الباب — باب الكعبة — وهم تحته . فقال : لا إله إلا الله وحده صدق وعده . ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .

ثم قال : يا معشر قریش . ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم ! قال : فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته . لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ...

وعندما كان رسول الله بالمسجد يجهز على الوثنية في عاصمتها الكبرى اقترب منه فضالة بن عميز يريد أن يجد له فرصة ليقته . فنظر إليه النبي نظرة عرف بها طويته إلا أنه في غمرة النصر الذي أكرمه الله به لم يجد في نفسه على الرجل ، بل استدعاه ثم سأله : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء ! كنت أذكر الله !! فضحك النبي ثم قال : استغفر الله .

وتلطف معه الرسول فوضع يده على صدره . فانصرف الرجل وهو يقول : ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه .

وكانت لفضاله في جاهليته هنات . فمر — وهو راجع إلى أهله — بامرأة لها معه شأن . فلما رآته قالت : هلم إلى الحديث . فانبعث يقول :

قالت : هلم إلى الحديث ، فقلت : لا يا أبى عليك الله والإسلام
لوما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أخفى بينا والشرك يغشى وجهه الإظلام

وصعد بلال فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم ، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالعرب في أفئدة الشياطين فلا يملكون أمام دويها إلا أن يولوا هاربين أو يعودوا مؤمنين .
الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر .

هذه الصيحات المؤكدة تذكر الناس بالغاية الأولى من محياهم ، وبالرجوع الحق بعد مماتهم ، فكم ضللت البشر غايات صغيرة أركضتهم على ظهر الأرض ركض

الوحوش في البرارى ، واجتذبت انتباههم كله ، فاستغرقوا في السعى وراء الخطام !
وامتلكت عواطفهم كلها ، فالحزن يقتلهم للحرمان والفرح يقتلهم بالامتلاء ،
ولم يسفهُ المرء نفسه بالغيوبة في هذه التوافه ؟ إن صوت الحق يستخرجه من وراء
هذه الحجب المتراكمة ليلقى في روعه ما كاد ينساه ، وهو تكبير سيد الوجود ورب
العالمين ، سيده ومولاه ...

أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله .

لقد سقط الشركاء جميعاً ، طالما ضرع الناس للوهم ، واعتزوا بالهباء ، وأمّلوا
الخير فيمن لا يملك لنفسه نفعا ، وانتظروا النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان
دبابة ، ولم الخبط في هذه التاهات ؟ إن كان المغفلون يشركون مع الله بعض خلأته ،
أو يؤلمونها دونه ، فالمسلمون لا يعرفون إلا الله ربا ، ولا يرون غيره مؤثلا .
والتوحيد المحض هو المنهج العتيد للغاية التي استهدفوها .

ولكن من الأسوة ؟ من الإمام في هذه السبيل ؟ من الطليعة الهادية المؤنسة ،
إن المؤذن يستتلي ليدكر الجواب :

أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله .

سيرة هذا الرجل النبيل هي المثل الكامل لكل إنسان يعني الحياة الصحيحة
إن محمداً إنسان ، يرسم بسنته الفاضلة السلوك الفريد لمن اعتنق الحق وعاش له .
وهو يهيب بكل ذى عقل أن يقبل على الخير ، وأن ينشط إلى مرضاة ولى أمره
وولى نعمته فيحث الناس أولا على أداء عبادة ميسورة رقيقة .

حى على الصلاة ، حى على الصلاة .

هذه الصلوات هي لحظات التأمل في ضجيج الدنيا ، هي لحظات المآب كلما انحرف
الإنسان عن الجادة ، هي لحظات الخضوع لله كلما هاج بالمرء الترق وطفعت على فكره
الأثره فنظر إلى ما حوله ، وكأنه إله صغير . هي لحظات الاستمداد والإلهام ، وما أقفر
الإنسان — رغم غروره — إلى من يلهمه الرشد فلا يستحمق ويمده بالقوة فلا يعجز
ويستكين ... ثم يحث الناس أخيرا على تجنب الخيبة في شئونهم كلها . والخيبة
إنما تكون في الجهد الضائع سدى ، في العمل الباطل لأنه خطأ . سواء كان الخطأ
في الأداء ، أو في المقصد ... وهو يحذر من هذه الخيبة عندما يدعو :

حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ .

ويوم يخرج العمل من الإنسان ، وهو صحيح في صورته ونيته ، فقد أفلح . ولو
كامن أعمال الدنيا البهتة ، ألم يعلم الله نبيه أن يجعل شئون حياته ، بعد نسكه وصلاته
خالصة لله ؟ « قل : إن صلاتي ونسكي ، ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ،
وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

ولا سبيل إلى ذلك إلا بإصغار ما عدا الله من غايات ، والتزام توحيده أبدا ، ومن
ثم يعود إلى تقرير الغاية والمنهج مرة أخرى .
الله أكبر الله أكبر ...

لا إله إلا الله ...

إن كلمات الأذان تمثل العناوين البارزة لرسالة كبيرة في الإصلاح . ولذلك جاء
في السنن الثابتة أن المسلم عندما يسمعها يقول :
اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه
مقاما محمودا . الذي وعده ، إنك لا تخلف الميعاد .

وفي يوم الفتح قد ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين ،
ولم يسمعوا صوت بلال يرن فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد ، ولم يروا الأصنام
مكبوبة على وجوهها مسوأة بالرغام ولم يروا عبّادها الأقدمين وقد ألقوا السلم واتجهوا
إلى الإسلام ...

إنهم قُتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة التي نشبت بين الإيمان والكفر . ولكن
النصر الذي يجني الأحياء ثماره اليوم لهم فيه نصيب كبير جزاؤهم عليه مكفول عند
من لا يظلم مثقال ذرة .

إنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق
والباطل . فقد يحترمه الأجل في المراحل الأولى منه . وقد يُصرع في هزيمة عارضة
— كما وقع لسيد الشهداء ومن معه —

والقرآن الكريم ينبه أصحاب الحق إلى أن الموعول في الحساب الكامل على الدار

الآخرة . لا على الدار الدنيا . فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعا . « فاصبر »
إن وعد الله حق . فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون . »

ودخل رسول الله مكة في رمضان ، وظل بها سائر الشهر يقصر ، ويفطر أكثر
من خمسة عشر يوما ، وكان قد خرج من المدينة صائما ثم أفطر هو وصحبه في الطريق .
فلما استقر الأمر شرع يبايع الناس على الإسلام ، فجاءه الكبار والصغار والرجال
والنساء فتمت البيعة على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا .
وسنة رسول الله في مبايعة النساء أن يأخذ عليهن الميثاق كلما لا مضاحفة ، فمن
عائشة « لا والله مامست يد رسول الله يد امرأة قط » .

وهكذا دخل أهل مكة في الإسلام . وإن كان بعضهم بقى على ريبته وجاهليته
يتعلق بالأصنام ويستقسم بالأزلام . وأولئك تركوا للأيام تشقى جهلهم وتحى مامات
من قلوبهم وألبابهم .
وما دامت الدولة التي تحمى الوثنية وتقاتل دونها قد ذهبت فسوف تتلاشى هذه
الخرافة من تلقاء نفسها .

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة ، ولقد أفلحت خطة المسلمين في تعمية
الأخبار على قريش حتى بوغتوا في عقر دارهم . فلم يجدوا مناصاً من الاستسلام ،
فما استطاعوا الجلاد ولا استجلاب الأمداد ، وفتح العرب جميعاً أعينهم فإذا بهم أمام
الأمر الواقع ، حتى خيل إليهم أن النصر معقود بألوية الإسلام فما ينفك عنها !

معركة جنين

بيد أن هذا القلب كان له رد فعل معاكس لدى القبائل الكبيرة القريبة من
مكة . وفي مقدمتها هوازن وثقيف وتعتبر الطائف قصبتهما ، وهى أكبر المدن في الجزيرة
بعد مكة وثرب .

اجتمع رؤساء هذه القبائل على مالك بن عوف سيد هوازن ، وأجمعوا أمرهم على
المسير لقتال المسلمين ، قبل أن تتوطد دعائم الفتح ، وقبل أن يتحركوا لاستئصال

ما بقي من معالم الوثنية المدبرة . وكان مالك بن عوف شجاعاً مقداماً ، إلا أنه سقيم
الرأى سيء الشؤرة .

فأمر قومه وهم خارجون للغزو أن يأخذوا معهم نساءهم وأموالهم وذرايعهم ،
ليشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمة وراه فلا يفر عنها ...

وقد اعترضه دريد بن الصمة ، وهو فارس مجرب محنك ، وقال له : هل يردُّ
المنهزم شيء ؟ إن كانت الدائرة لك لم ينفعك إلا رجل برحه وسيفه ، وإن كانت عليك
فضيحت في أهلك ومالك .

فسفّه مالك رأيه ، وأصر على خطته .

وعلم المسلمون بمخرج أعدائهم ، فأرسلوا عيونهم يتعرفون عدتهم وهيئتهم .
روى أبو داود أن رجلاً جاء إلى رسول الله فقال له : إني انطلقت بين أيديكم ، حتى
طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظفهم ، وبنعمهم وشأنهم ؛
اجتمعوا إلى حنين ... فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله ... !
إن السهولة التي تم بها فتح مكة ، وإحساس جمهور المؤمنين أن الجاهلية تلفظ
أنفاسها الأخيرة فلن تبدى مقاومة تذكر ، وظنّ حدثاء العهد بالإسلام أن شيئاً
مالن يقف في طريقه ، كل ذلك جعل الجيش يزحف للقاء المشركين وهو غير
مكترث لما سوف يواجهه ، ولم يكثرث ؟ إنهم — وهم قلة — كانوا يكسبون المعارك
الطاحنة . فكيف وهم اليوم يخرجون في عدد لم يجمعوا مثله قبلاً : قيل : إن أبا بكر
الصديق لما نظر إلى الجيش قال : لن تغلب اليوم من قلة ... !

ذلك أن المسلمين بلغوا اثني عشر ألفاً بمن انضم إليهم من أهل مكة ...

هزيمة ...

وسار الجيش الوثاق حتى وصل إلى وادي حنين . وكان مالك بن عوف ورجاله
قد سبقوا إلى احتلال مضايقه ، وانبثوا في الشعاب والأجناد النبعة . ثم تهيئوا
لاستقبال المسلمين . . .

وأقبلت الطلائع الففيرة تتدافع نحو الوادي — وهي غافلة عما يكمن فيه —
وكان وادياً أجوف منحدرّاً ينحطّ فيه الركبان كلما أوغلوا ، كأنهم يسرون إلى هاوية !

فلما تكاثرت في دربه الفرق الزاحفة لم يرعهم إلا وابل من السهام يتساقط فوقهم من المكامن العالية ، وكان غبش الفجر لا يزال يترك بقاياه في الجو الغائم فارتفعت المقدمة لهذه المفاجأة ، فهي في عماية من الليل وعماية من أمرها لاتعرف إلا أن تستدير ثم تولى الأدبار ..

وانتشرت موجة الفرع فكسرت الصفوف المرصوفة وبعثرتها . واستغل رجال مالك بن عوف هذا الارتباك فهجمت كتابتهم وحملت الخيل على ما أمامها ، فانكفأ المسلمون مهزومين لا يلوى أحد على أحد ...

ونظر زعماء مكة إلى الجيش المولى نظرة تشفٍ وفرح . وعاد إلى بعضهم كفره بالله ورسوله فقال أبو سفيان : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! ولا عجب فإن الأرقام التي يستقسم بها في جاهليته لا تزال في كنفاته ..

وقال كلدة بن الجعيد : الأبطال السحر اليوم ؛ فأجابه صفوان بن أمية — ولما نزل مشركا — : أسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يربنى رجل من قريش أحب إليّ من أن يربنى رجل من هوازن .

وانحاز رسول الله ذات اليمين ، وقد أغضبه هذا الفرار فقال : أين أيها الناس ؟ هلموا إليّ . أنا رسول الله . أنا محمد بن عبد الله ... فلا يردّ عليه شيء ، وركبت الإبل بعضها بعضا ، وهي مؤلّية بأصحابها .

ولمح النبي وراءها رجلا من هوازن على جمل له أحمّر ، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل . وهوازن خلفه . إذا أدرك الفارين طعن برمح . وإذا فاتوه رفع رمح لمن وراءه فاتبعوه ..

إن الذي تولى كبر هذه المهزلة الشائنة هم الطلقاء من أهل مكة ورعاع البدو . ووقف النبي ساكن الجأش يدير الرأي في خطة ينقذ بها سمعة الإسلام ومستقبله ، وقد أحاط به لفيف من المهاجرين الأولين ، ومن أهل بيته . فأمر العباس ابن عبد المطلب — وكان جهير الصوت — أن ينادى : يامعشر الأنصار ، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية ..

لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد ، ورجال الفداء عند الصدام . فهم
وحدهم الذين تنجح بهم الرسالات وتفرج الكروب .
أما هذا الغناء من العوام الحراص على الدنيا ، السعاة إلى المغنم فما يقوم بهم
أمر أو تثبت قدم .

الثبات والنصر

وفي ضجة الفزع الذي ساد المعركة أولا علت صيحات العباس ووصلت إلى آذان
الرجال المشدوهين لما وقع . فأخذوا يكافحون ليبلغوا مصدر الصوت . إذا أراد أحدهم
أن يعطف بغيره ليعود به لا يقدر من ضغط الفارين . فما يجد بدا من أن يقذف درعه
من عنقه ، ويحمل سيفه وترسه ثم يؤم الصوت .

واجتمع حول رسول الله عدد من الرجال الذين دعاهم . وهم يصيحون : لبيك
لبيك ، حتى قارب القوم مائة . فاستقبل النبي بهم المشركين ، وقد ملك زمام الموقف ،
وأعاد الكرة عليهم ، فاجتلد الفريقان اجتلادا شديداً .

وقصد على واحد الأنصار إلى حامل العلم في طليعة هوزان ، فضرب على عرقوبه
جملة فوقه على عجزه . ثم استمكن منه الأنصار فهوى به عن رحله .
وكان النبي على بغلته يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ويدعو : اللهم زل نصرك . والمهاجرون والأنصار قد التحموا مع رجال
هوازن وثقيف .

قال العباس : ونظر رسول الله — وهو على بغلته ، كالتطاول عليها — إلى قتالهم
فقال : الآن حمى الوطيس . ثم أخذ حصيات فرمى بهن في وجوه الكفار . ثم قال :
انهزموا ورب محمد .

قال العباس : فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى . فما هو إلا أن
وماهم فما زلت أجد حدهم كليلا وأمرهم مدبرا ...

ولم يطل وقت حتى كان رجال ثقيف ومن معهم يوغلون مولين الأدبار في وادي
حنين ! ورجع الطلقاء والبدو إلى رسول الله فإذا بهم يرون الأسرى مكثفين !

وفي هذه المعركة نزل قول الله عز وجل : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إِذْ أَجْمَعْتُمْ كَثْرَتَكُمْ ، فلم تُغْنِ عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها وعدب الذين كفروا . وذلك جزاء الكافرين » .

واعتصم بعض المهزمين بناحية يقال لها : أوطاس فأرسل النبي في أعقابهم أباعمر الأشعري فقاتلهم حتى قتل ، فأخذ الراية منه ابن عمه أبو موسى الأشعري فما زال يناوش القوم حتى بدد شملهم ، وهزموا شر هزيمة .

واضطرب مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه أن يمشوا في الفرار حتى يصلوا إلى الطائف فيمتنعوا بحصنها . تاركين في هذا الفرار مغائم هائلة ، فإن مالكا كما علمت خرج يغزو ومعه نساء القبيلة وما تملك . تخلف في الميدان أربعة وعشرين ألفاً من الإبل وأكثر من أربعين ألفاً من الغنم وأربعة آلاف أوقية من الفضة وهذا إلى جانب ستة آلاف من السبي .

الغنائم

وكره رسول الله أن يقسم على الناس هذه الغنائم ، وتأنى يبتغي أن يرجع القوم إليه تائبين فيحجزوا ما فقدوا .

ومكث ينتظرهم بضعة عشرة ليلة فلم يجئه أحد . فشرع يسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة ، وبدأ بتقسمة المال فكان المؤلف قلوبهم أول من أعطى ، بل أول من حظى بالأنصبة الجزلة ؟ أخذ أبو سفيان مائة من الإبل ، وأربعين أوقية من الفضة ؟ فقال : وابني معاوية ؟ ففتح مثلها لابنه معاوية ؟ فقال : وابني يزيد ؟ ففتح مثلها لابنه يزيد .

وأقبل رؤساء القبائل وأولو النّهمة يتسابقون إلى أخذ ما يمكن أخذه . وشاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، فازدهوا عليه يبعون المزيد من المال ، وأكب عليه الأعراب يقولون : يا رسول الله اقسم علينا فيئنا ، حتى اضطرروه إلى شجرة فانترعت رداءه ! فقال :

« أيها الناس ، ردّوا علىّ ردائي . فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعلما لقسمته عليكم ، ثم ما ألقيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذبا . »
ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرّة ، فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها فقال :
« أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه البرّة ، إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم . »

إن أعين القوم تكاد تخرج من المحاجر تطلما إلى الدنيا . وهؤلاء الأعراب والطلقاء والرؤساء ما أغنوا عن الإسلام شيئا في مآزقه الأولى ، بل كانوا هم العقاب الصلدة التي اعترضت مسيله حتى تحطمت تحت معاول المؤمنين الراغبين في ثواب الآخرة المؤثرين ما عند الله .

ولكنهم اليوم بعد ما أعلنوا إسلامهم ييغون من الرسول أن يفتح عليهم خزائن الدنيا ، فحلف لهم أنه ما يستبق منها شيئا لشخصه ، ولو امتلك ملء هذه الأودية مالا لوزعه عليهم .

والحق أن الرسول وسع بحلمه وكرمه مسالك بينة الطيش والجشع في سبيل تألف هؤلاء الناس وتجييبهم في الإسلام . ولو عاقبهم على جبنهم في حنين لنال منهم أي منال .

روى الإمام أحمد أن أبا طلحة — وهو من فرسان المسلمين العدودين — لقي أم سليم ومعهما خنجر ، فقال لها : ما هذا ؟ . قالت : إن دنأمني بعض المشركين أبعج بطنه — وذلك في معركة حنين — فقال أبو طلحة لرسول الله : أما تسمع ما تقول أم سليم ؟ فضحك النبي . فقالت أم سليم : يا رسول الله اقتل من بعدها الطلقاء . . انهزموا بك ؟ فقال : إن الله قد كفي وأحسن يا أم سليم :

والعجيب أن هؤلاء الذين فروا عند الفزع هم الذين كثروا عند الطمع ، وشاء النبي أن يلطف معهم وينسى ماضيهم تسكرا وتأليفا .

وماذا يصنع ؟ إن في الدنيا أقواما كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم . فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فها حتى تدخل حظيرتها آمنة ! فكذلك هذه الأصناف من البشر ، تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له .

عن أنس بن مالك قال : كُفْتُ أَمْشِي مع رسول الله ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابيٌّ فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته . قال : مر لي من مال الله الذي عندك !! فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء إن هذا الأعرابي لا يعجبه المنطق الدقيق ولا الطبع الرقيق قدر ما يعجبه من عطاء يملأ جيبه ، ويسكن مطامعه ومن هنا قال صفوان بن أمية : ما زال رسول الله يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إليَّ ، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليَّ منه . . .

حكمة هذا التقسيم

وهذه السياسة البعيدة لم تفهم أول الأمر ، بل أطلقت السنة شتى بالاعتراض فهناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضرباً من الإعراض عنهم والإهمال لأمرهم . روى البخاري عن عمرو بن تغلب قال : أعطى رسول الله قوماً ومنع آخرين : فكأنهم عتبوا عليه فقال : إني أعطى قوماً أخاف هلعهم وجزعهم ! وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى ! منهم عمرو بن تغلب . قال عمرو : فما أحب أن لي بكلمة رسول الله حمر النعم . . .

فكانت هذه التزكية تطبيقاً لخاطر الرجل ، أرجح لديه من أئمن الأموال . . . !! وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة ، لقد حرموا جميعاً أعطية حنين وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع رسول الله حتى تبدل الفرار انتصاراً ، وهام أولاء يرون أيدي الفارين تعود ملأى . أما هم . . . فلم يمنحوا شيئاً قط !!

عن أبي سعيد الخدري لما أصاب رسول الله الغنائم يوم حنين ، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن في الأنصار شيء منها قليل ولا كثير ، وجد هذا الحى من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه ، فبشي سعد بن عباد إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم ؟ قال : فيم ؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم

في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء؟ قال رسول الله : فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي .

فقال رسول الله : اجمع لي قومك في هذه الحظيرة . فإذا اجتمعوا فأعلمني ؟

فخرج سعد فصرخ فيهم فجتمعهم في تلك الحظيرة . . . حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه فقال : يا رسول الله اجتمع لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم .

فخرج رسول الله فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال : يا معشر الأنصار ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟؟ قالوا : بلى ؟ قال رسول الله : ألا تجيئون يا معشر الأنصار ؟

قالوا : وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك ؟ المنّ لله ورسوله ؟ قال : والله لو شئتم لقلتم فصدّقتهم وصدّقتهم : جئنا طريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وخائفاً فأمناك ، ومخذولاً فنصرك . . .

فقالوا : المنّ لله ورسوله .

فقال : أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً أساءوا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحلهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟

فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . ولولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار .

اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضوا لحامهم . وقالوا : رضينا بالله ربا ورسوله قسماً . . . ثم انصرف . . . وتمعنوا . . .

والأنصار — في تاريخ الدعوات — مثل فريدة للرجال الذين تقوم بهم الرسالات العظمى حتى إذا استوت على سوقها ، وتجاوزت أيام محنتها ومؤنتها ، وتدلّت ثمارها وحلا جنبها ، جاءت أيدي غير أيديهم فقطفت ما تشتهى ، ولم تكف بذلك ! بل لطمت أيدي الغارسين حتى لا تلتقط من الثمار الساقطة قليلاً ولا كثيراً !

ولا نقول ذلك تعليقا على توزيع الغنائم في هذا المقام ، فقد اتضح وجه الرشد في هذه القسمة الحصيفة ...

ولكننا نذكر في مناقب الأنصار ، وافترض ترفعهم عن الدنيا في سبيل الدين وتأليف الناس عليه أن شئون الحكم ابتعدت عنهم ، واحتازها غيرهم وهم لها أكفاء فلم تمض ثلاثون سنة حتى كانت في أيدي الطلقاء .

ولا ريب في أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى ، وأن شأن الدنيا أنزل قدرا من أن يأسى عليه رجل العقيدة .

غير أننا نتساءل ، أكان من مصلحة الرسالات نفسها أن تقع هذه الأثرة ؟ أم كان من سوء حظ الإسلام أن يلقى هذا اللون من الأحكام ، فيقتضي أصحاب السبق وأولو النصرة ويملك زمام الدين آخر الناس دخولا فيه وبصرا به ؟؟

عودة وفد هوازن

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلما ، وسألوا رسول الله أن يرده عليهم سبيلهم وثروتهم ! فقال لهم : إن معي من ترون ، وإن أحب الحديث إليّ أصدقه . فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا . فقام رسول الله في المسلمين فأتى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين . وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيلهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال بني الله علينا فليفعل . فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله . فقال لهم : إنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن ، فارجموا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم . فرجع الناس فكلهم عرفاؤهم ، ثم عادوا إلى رسول الله يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا .

حصار الطائف

أما ثقيف فإنها بعد أن تراجعت منهزمة في حنين وأوطاس دخلت حصونها ونهبت فيها الحصار طويلا . وعرف المسلمون أن القوم لا يزالون على إصرارهم والبقاء على جاهليتهم ، وأن الحسائر التي لحقت بهم لم تكسر شوكتهم ولم ترهق عزيمتهم ،

فقررُوا السير إليهم ومناجزتهم والمسلمين خبرة قديمة بهذا الأسلوب من القتال فقد حاصروا وحوصروا ، وعرفوا أنجع طرائق الهجوم والدفاع . ونهض رسول الله بجيشه حتى اقترب من الطائف فعسكر حولها وأخذت ثقيف من حصونها تقذف بالنبال فأصيب نفر من المسلمين واضطر الجيش أن يؤخر موافقه حتى لا يستهدف لقذائفهم . ويظهر أن النبي لم يحرص على اقتحام هذه الحصون واستئزال أهلها قسراً كما فعل بنو إسرائيل . أمل فيهم خيراً . وأدار المعركة حولهم في حدود ضيقة وبضحايا يسيرة . وظل يحاصريهم خمس عشرة ليلة . ثم بدا له أن يدعهم وشأنهم ، وأشار على المسلمين بذلك . فرغبوا أولاً في إطالة حصارها حتى تفتح عليهم . ثم نزلوا أخيراً على رأيه .

وروى : إن رسول الله استشار نوفل بن معاوية فقال : يا نوفل : ماترى في المقام عليهم ؟ فقال : يا رسول الله ، ثعلب في حجر إن أقت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك ! فأمر النبي عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل . فلما قفلت بهم الطايا ، قالوا : يا رسول الله ، أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم . فقال : اللهم اهد ثقيفاً !..

ولم يطل بقاء ثقيف على شركها . فها هي إلا شهور قلائل حتى أرسلوا وفدهم إلى المدينة يخبر النبي برغبتهم في الإسلام وانفساح قلوبهم له .

إلى دار الهجرة

عاد المسلمون من الطائف إلى مكة ، لاليعاودوا المقام فيها بعد أن فتحها الله عليهم ، بل لينظموا أمورهم ثم يرتحلوا إلى مهجرهم الخالد ... إن صلتهم بالمدينة أضحت من العمق والقوة بحيث لا يرجعها وطن قديم ولا ذكريات عزيزة .

روى أن النبي لما افتتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو ، وقد أهدقت به الأنصار ، فقامسوا فيما بينهم : أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لاشئ يا رسول الله ! فلم يزل بهم حتى أخبروه فقال : معاذ الله ! المحيا يحياكم والمات مماتكم ! .

ولما كان أهل مكة حدثاء عهد بالإسلام ، وفقههم في أحكامه ومراميه قليل .
فإن النبي خلف فيهم معاذ بن جبل يعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم .
وجعل عتاب بن أسيد أميراً على مكة وعمره يومئذ عشرون سنة . وكان عتاب
شاباً ذكياً قنوعاً شجاعاً . وقد تقرر له من مال المسلمين درهم كل يوم ، هو مرتب
الإمارة . فقررت بذلك عينه ، بل إنه خطب الناس فقال : أيها الناس ، أجاع الله
كبد من جاع على درهم . فقد رزقني رسول الله درهماً كل يوم . فليست
بي حاجة إلى أحد ...

ثم قدم رسول الله المدينة في الشهر الأخير من السنة الثامنة .
لله ما أفسح المدى بين هذه الأبوة الظافرة بعد أن تَوَجَّ الله هامته بالفتح المبين
وبين مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام !
لقد جاءه مطارداً ينبغي الأمان ، غريباً مستوحشاً ينشد الإيلاف والإيناس ،
فأكرم أهله ميثاء ، وآووه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أُنزل معه ، واستخفوا
بعداوة الناس جميعاً من أجله . وهاهو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته
مهاجراً خائفاً لتستقبله مرة أخرى وقد دانت له مكة وألقت تحت قدميه كبرياءها
وجاهليتها ، فأهبطها ليعزها بالإسلام وعفا عن خطيئتها الأولى .
« إنه من يتَّقِ ويصبر فإن الله لا يُضيع أجرَ المحسنين » .

موقف المنافقين

وكان حقيقاً بالذين خالجتهم الريبة في رسالة محمد أن يتوسموا في هذه الآيات البينات
ما يقربهم من دينه ويفرهم بالتصديق ونبد الجفوة والعناد . إلا أن النفوس الخسيسة
ترداد شراً وجحوداً كلما ازداد خصومها نجاحاً وصعوداً .
فما ظفنه سبب إقبالها قد يكون سبب انتكاسها ...

لذلك لا يُستغرب أن يرجع رسول الله إلى المدينة فيجد قلوب المنافقين لا تزال
مطوية على دخلها تبسم للفتاح العائد وهو تودّ لو لم ترشبهه يستوى في ذلك رؤساء
العشائر الذين وهى سلطانهم أمام انتشار الإسلام ، وسواد الأعراب الذين يرحون
في البادية كالسوائم الغفل لا يكادون يفقهون حديثاً ...

وتم أمر آخر زاد في غواية المنافقين وتربصهم الشر بالإسلام ،
ذلك هو عرفانهم بالخصومة التي نشبت بين المسلمين والرومان . وإدراكهم لما تحمله
في أطوائها من خطورة وعنق . فالعرب ينظرون إلى دولة الروم نظرة أهل أفريقيا
اليوم إلى أوربا وأمريكا .

إنها قوة لا تنال ولا تناوش .

ولئن كان الرومان بهذه المثابة المرهوبة إن محمداً — كما عرف القوم من سيرته —
لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ، وقد مضى برسائله يذيب ما اعترضه من
عوائق ، فتحا الوثنية وأجلى اليهودية وقاوم بطش الروم مقاومة الوائق المعتد .
والمنافقون مسرورون بهذه الخصومة الجديدة ، يحسبون أن مقبرة الإسلام
ستحفر فيها ...

لذلك لما أعلن النبي في المدينة أنه منطلق إلى تبوك تجمع رهط من المنافقين
فقال بعضهم لبعض — مشيرين إلى المسلمين — : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال
العرب بعضهم بعضاً ؟

والله لكاننا بكم غدا مقرّنين في الجبال ... إرجافاً وترهيباً للمؤمنين !!

تبوك

عزم النبي أن يرسى العلائق بين الإسلام والنصرانية على دعائم مكيّة . وهو
لا يقبل مساومة في ترك دعائه أحراراً يعرضون دينهم على الناس فإن راقهم دخلوه
وإن ساءهم تركوه . يجب أن تتاح الفرص المعقولة لإفهام الجماهير ما تدعى إليه !
أما أن تقطع أعناق الدعاة وتقام الأسوار الكثيفة في وجوههم ، فهذا ما يقاومه
الإسلام بالقوة . .

ثم إن الرومان في الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان قوم غزاة لا تربطهم
بأهل البلاد الأولين الاصلات القهر المادى والأدبى .

فالذى يعترض زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك :
لم سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب ؟ وعن الطريقة التي يباشرون بها حكم هذه
الأقطار المغلوبة على أمرها ؟

والمقارنة المنصفة تجعل ما يطلبه النبي شيئاً لا غبار عليه .
دعوا العقائد المختلفة تبين عن نفسها ، وتجذب الشعوب إليها أو تصرفهم عنها ...
لكن هذا الطلب قبول بالرد المسلح . فلا دولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن
الفرائس التي تضطرب داخل جدرانها .
ولا كنيسة الروم ترحب بهذا الجو الجديد .
قلنا في كتابنا : « التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » في صدد
غزوة تبوك .

« ... والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأى يخالف في الفروع التافهة .
فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها ، لأنه لا يرى بين العباد وربهم وسائط .
وينكر عقيدة الفداء التي ترتكز عليها لأنه يبني الجزاء على عمل الإنسان وحده . فليس
للإنسان إلا ما سعى . ولا ترز وزارة ووزر أخرى . ثم هو ينكر مبدأ الشركة
في الألوهية فليس للعالم إلا رب واحد يخضع له عيسى وأمه ...
لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة ترده
من حيث جاء . وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها ... وتضمن
الكنيسة أفرادها بالضمير البشرى . حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى
لؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده ، ويدعو للصلاة والفلاح .
وترامت إلى النبي في المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر . وتاريخ النصرانية منذ
تولت الحكم يؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت . فلم ير النبي بدا من استنفار
المسلمين للملاقاة هذا العدوان المبيت .
والتهيؤ للملاقاة الروم جاء في أيام قيظ وقحط . والسير إليهم يتطلب جهداً مضنياً
ونفقة كبيرة .

وقتل الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدة ، بل هو كفاح مرير مع
دولة تبسط سلطانها على جملة قارات ، وتملك موارد ثمة من الرجال والأموال .
على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب . والسكوت على تحدى النصارى
لهذا الدين ورغبتهم الملحة في القضاء عليه تعتبر انتحاراً وبناراً ... فليتحامل المسلمون
على أنفسهم إذا وليوا جهوا مستقبلهم بما يفرض من تضحيات وتفديات .

والظروف التي اكتنفت إعداد هذا الجيش سمي جيش العسرة . والآيات التي أنزلها الله في كتابه — متعلقة بغزوة العسرة — هي أطول ما نزل في قتال بين المسلمين وخصومهم ، وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الإسلام . وإفهام المسلمين مغبة تقصيرهم في أداء هذه الفريضة ، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تفريط في حماية دينه ونصرة نبيه ، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم يعتبر مزلة إلى الردة والنفاق « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل ربنا قلتم إلى الأرض ؟

أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تصروه شيئاً . والله على كل شيء قدير » .

ومضت الآيات تتحدث في صرامة وعنيفة ففضحت المنافقين ، وكشفت عن المترددين ، وأهانت طلاب الدعة والراحة الذين آثروا ظل القعود في بيوتهم وحقوقهم على حر الصحراء ووعاء السفر ومتاع الجلاد . « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . وقالوا : لا تنفروا في الحر قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » .

وأبناء جيش العسرة تقيض بها صفحات طوال من سورة التوبة . ولعل من البين في أسلوب القرآن وهو يصف هذا الجهاد أنه لم تأخذه هوادة في التنويه بمن اشتركوا فيه والتنديد بمن تخلفوا عنه . ولا عجب . فتجديد موقف الإسلام من النصرانية ، وهو بت في مستقبل الدين كله إلى الأبد . فإما ثبت المسلمون أمام لد الكنيسة المتعصبة . وإما أحرقتهم نارها فلم يبق لديهم أثر .

وكان لهذا الحزم أطيب النتائج . فخرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها . وانطلقوا صوب الشمال حيث تريض جيوش الروم ... »

وتجلت في هذا الإعداد طوايا النفوس ومقدار ما استودعت من إخلاص وشماعة ونشاط . فهناك أغنياء أخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش وإمداده بحاجته من الرواحل

والسلاح والحيل . منهم عثمان بن عفان الذي سبق في بذله سبقا بعيدا حتى أن الرسول عجب من كثرة ما أنفق وقال : اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض .
ومنها الفقراء الذين شاقهم الجود بأنفسهم في سبيل الله . ثم أعجزتهم الوسائل التي تبلىهم الميدان فسحت أعينهم الدمع لهذا الحرمان .

روى عن علي بن يزيد أنه قام من الليل يصلي ، فتهجد ما شاء الله ثم بكى وقال :
اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به ، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه . . . وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلة أصابني فيها في مال أو جسد أو عرض . . .

وأصبح الرجل — على عادته — مع الناس فقال رسول الله : أين المتصدق هذه الليلة ؟ فلم يبق أحد . ثم قال : أين المتصدق فليقم ، فقام إليه فأخبره . فقال رسول الله أبشر فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة . . .

وهناك أهل الريبة الذين يلتمسون للفرار الأعذار وتقعدهم بهم كراهيتهم للإسلام عن إسداء أى عون له ، فهيات أن يعدوا للخروج غداة ، أو يتمنوا للخارجين عودا . ومن أسخف الأعذار التي تمحلها أولئك القاعدون المنافقون ما قال الجذ بن قيس للنبي — وقد عرض عليه الجهاد — : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد محبا للنساء مني . وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر « الروم » ألا أصبر . . .

فأعرض عنه رسول الله ! وفيه نزلت الآية : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني . ألا في الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » .

وهذا الذين فترت أول الأمر همهمهم ، فلما جدّ الرحيل وانطلق الجيش أحسوا خطرا التخلف على إيمانهم فنهضوا يدركون ما يوشك أن يفوتهم .

منهم أبو خيثمة ، عاد يوما إلى أهله — بعد مسيرة التبي وصحبه — وكان اليوم قائظا فوجد امرأته كلتيهما قد أعدتا له الطعام الشهى والماء البارد الروى ، ووجد مسكنه مبللا رطبا وسط بستانه الذي أخذ يسره الأجر ينضج ويسود .

فاستيقظ ضمير الرجل ، وقال : رسول الله في الشمس والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد ؟ وطعام مهيا ؟ وامرأة حسناء ؟ في ماله مقيم ؟ والله ما هذا بالنصف . . . !

ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ، فهيئاً لي زاداً ففعلتما ثم قدم ناضحه فارتحله .
وأسرع الرجل المؤمن يطلب رسول الله حتى أدركه حين نزل تبوك .

وعانى الجيش الذهاب إلى تبوك مصاعب ثقيلة . روى الإمام أحمد في تفسير قول الله عز وجل « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ... » قال : خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير واحد وخرجوا في حر شديد . وأصابهم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراسها ويشربوا ماءها فكان ذلك عسرة في الماء وعسرة في النفقة وعسرة في الظهر ...

وعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن ساعة العسرة فقال عمر : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ... حتى أن الرجل لينحرب بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ، ثم يجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله عودك في الداء خيراً . فادع الله لنا ! فقال : أو تحب ذلك ؟ قال نعم . فرفع رسول الله يديه إلى السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء — أرى آذنت بمطر — فأطلت . ثم سكبت ، فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكر .

قال ابن اسحاق : وكان في الجيش رجل منافق فقالوا : ويحك هل بعد هذا من شيء ؟ فقال : سحابة مارة ... !!

وفي الطريق مر المسلمون بالديار التي كانت تمود تسكنها . وهي أطلال هامة وآثار بقيت تذكر بغضب الله على من كذبوا رسله وتعجلوا عقابه . فقال رسول الله : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم . والظاهر أن النبي يريد ألا يغفل المسلمون عن مواطن العظة ، وألا يستهينوا بما خلا قبلهم من مثلاًث . فإن المرء — لو قبيض له أن يزور السجون ويشهد مثلاًث غرفة الإعدام — فليس يليق أن ينظر إلى جبل المشنقة وهو شارد أو ضاحك . لا أقل من بعض الأسى لأحوال المجرمين ومصارعهم !!

وروى أحمد عن جابر لما مر النبي بالحجر قال : لا تسألوا الآيات — خوارق العادات — فقد سألها قوم صالح — فبعث الله لهم ناقة — فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعمقروها . وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما ، فعمقروها ، فأخذتهم صيحة أهد الله بها من تحت أديم السماء منهم . . . » .

والنهي عن سؤال الآيات عود بالناس إلى الأحوال المألوفة ، إذ لا جدوى في الخروج عليها . وخير للسائلين أن يبذلوا طاقتهم في أداء ما يكفون به ، وأن يرققوا قلوبهم حتى تلين لأمر الله ، فإن من قبلهم شهد العجائب ثم أغرته قسوة القلب بازدرائها فحاققت به اللعنة .

وبلغ المسلمون تبوك فلم يجدوا بها كيذا أو يواجهوا عدوا . ولا بد أن الروم آثروا الاختفاء داخل حدودهم عن ملاقة هذه القوة الفتية . . .

وصالح النبي متنصرة العرب الضارين في هذه الأرجاء . فدخل في عهده أهل أيلة ، وأذرح وتيما ودومة الجندل . وأيقنت القبائل التي تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه !

وغزوة تبوك تشبه غزوة الأحزاب . فإن بلاء المسلمين أولها كان شديدا . ثم جاء ختامها طمأنينة وعزة . ومكث الرسول هنالك بضعة عشر يوما يمد بصره وراء الصحراء حيث اختفى الرومان ، يرقب منهم حركة فلما رأى القوم قابعين مستكينين قرر أن يقلل عائدا إلى المدينة موفورا منصورا .

وقدم رسول الله المدينة . ولاحث له معالمها من بعيد . فقال : هذه طابة ! وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه ! وتسامع الناس بمقدمه فخرج النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعي

لقد قوبل جيش العسرة في مرجعه هذا بحفاوة بالغة . إنه أكبر جيش خرج مع رسول الله ، إذ وصل تعداده نحو الثلاثين ألفا . ولم ينس النبي في ذهابه وإيابه

أصحاب القلوب الكبيرة الذين صعب عليهم أن يجاهدوا معه فتخلفوا راغمين والعبرات تملأ عيونهم . عن أنس بن مالك أن رسول الله رجع من غزاة تبوك فدنا من المدينة فقال : إن بالمدينة أقواما ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، فقالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة وحسبهم العذر !

بهذه المواساة الرقيقة كرّم النبي الرجال الذين شيعوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم فأصلح بالهم وأزاحهما ثقيلًا عن أفئدتهم .

أما المنافقون من مؤملي الشر ودعاة الهزيمة ، والأعراب الذين اعتبروا الإسلام نكبة حلت بهم فهم يتربصون الدوائر بأهله !! أما هؤلاء وأولئك فأمامهم عناء طويل . . .

المخلفون^(١)

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس فجاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نيتهم وبإيعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله .

وجاءه كعب بن مالك فلما سلم عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال له : تعال . . . قال : فبجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : ما خلفك ألم تكن قد ابعت ظهرك ؟ فقلت : بلى والله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر . ولقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به علي ليوشكن الله أن يسخطك علي . ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله عني .

والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . . . !!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك . . . فقمتم .

(١) هذه الرواية من خلاصة لزاد المعاد .

وثار رجال من بنى سامة فاتبعوني يؤنبوني فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا . ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك . قال فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى .

ثم قلت لهم : هل لى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقليل لهما مثل الذى قيل لك فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى . فذكروا لى رجلين صالحين شهدا بدرهما أسوة . !!

فمضيت حين ذكروهما لى ...

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه .

فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى الأرض فما هى بالتى أعرف . !!
فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحبائى فاستسكانا وقعدا فى بيوتهما يبيكان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام أم لا . ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى وإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام . !!
فقلت : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت : فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم !

ففاضت عينائى وتوليت حتى تسورت الجدار .

فبينما أنا أمشى بسوق المدينة وإذا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان فإذا فيه . أما بعد فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك

ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيفة فالحق بنا نواسك . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء فتيمنت بها التنور فسجرتها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعزل امرأتك فقلت : أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا ولكن اعتزلها ولا تقربها .

وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك . فقلت لامرأتي الحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر .

فجاءت امرأة هلال بن أمية فقالت يا رسول الله أن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك . قالت إنه والله مابه حركة إلى شيء . والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال كعب فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه ؟ فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب . ولبثت بعد ذلك عشر ليال حتى مكثت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا . فلما صليت صلاة الفجر أصبح خمسين ليلة على سطح بيت من بيوتنا بينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ! . . .

فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج من الله .

وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون . وأركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على ذروة الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني زعت له ثوبتي فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلتقاني الناس فوجا فيهنوني بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك .

قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صاحفني وهنأني والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولست أنساها لطلحة .

فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت : أهو من عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال . لا بل من عند الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه .

فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن اتخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت فإني أمسك سهمي الذي بخير .

فقلت يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ما أبلاني والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومى هذا كذبا وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت فأزل الله تعالى على رسوله « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار » . إلى قوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسى من صدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد قال « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم » إلى قوله « فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

قال كعب وكان تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله : وعلى الثلاثة الذين خلفوا . وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجأه أمرنا عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

مسجد الضرار

سلك النبيُّ مع الذين يتظاهرون بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء يقبل منهم أعدارهم — وهي محتلفة — ويتكرم عن فضحهم وهم يتفلقون من قيود السمع والطاعة . فإذا تلبَّس أحدهم بحياة تهدر دمه رغب في التجاوز عنه حتى لا يقال : إن محمداً يقتل أصحابه وما هم في صحبته من شيء . ولكن هكذا سيقول الناس .

ولو أن هؤلاء المنافقين كانوا على قليل من الخير لأسرهم هذا الحلم وانخلعوا من خداعهم الصغير وأقبلوا على الإسلام طيين خالصين بيد أن هذا الأسلوب العالى في معاملتهم لم يزدهم على الله ورسوله إلا جرأة ، فزاد افتياتهم وربت شرورهم ، ولم يبق بدٌّ من كشف خبثهم وإشعار جمهور الأمة بما تنطوى عليه نفوسهم وأعمالهم وقد زلت الآيات أخيراً تندد بما فعل ويفعل أولئك المنافقون ، وتمزق الأستار التي يتوارون خلفها . وكانت ألعينهم قبل تبوك وبعدها هي النهاية الحاسمة للسماحة التي مرحوا في سعتها طويلاً ولم يقدروها حق قدرها . فأمر النبيُّ أن يعلن على الناس ذبذبتهم ونكوصهم ، وكلف ألا يقبل منهم وألا يصلى عليهم ، بل عرف أن استغفاره لهم لن يجاب ثم طوب المسامون كافة أن يقطعوهم

ومن أعجب ما تفتقت عنه حيل المنافقين أن يبنوا مسجداً يلتقون فيه وحدهم ، ويمكرون فيه بالإسلام تحت ستار التجمع على العبادة ، وقد ذهبوا للرسول قبل رحيله إلى تبوك يقولون له : بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة واليلة المطيرة ، ونحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ! فاعتذر لهم بأنه على جناح سفر وحال شغل . وقال : لو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه

فلما آب النبيُّ بجيشه ، وتخرج موقف المنافقين وانكشفت خباياهم ، أرسل اثنين من أصحابه إلى هذا المسجد وأمرهم أن يحرقوه ويهدموه . وانطلق الصاحبان إلى المسجد يحملان الشعل الحارقة وأخذا يأتیان عليه ، وفيه أهله الذين فروا مذعورين لمرأى اللهب يدمر آخر ما شاد النفاق من حيل .

ونزل قوله تعالى : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أُرْدنا إلا الحسنى . والله

يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا . لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ
أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ . . . » .

طلیعة الوفود

استغرق المسير إلى تبوك والمآب منها أياماً طويلاً ، فقد خرج المسلمون إليها
في رجب ، وعادوا في رمضان ليؤدوا ما عليهم من فريضة الصيام . ولم يلبثوا طويلاً
حتى جاءت البشريات بأن وفد ثقيف قدم المدينة ليقاوض رسول الله على الدخول
في الإسلام . لقد استجاب الله دعوة نبيه لأهل الطائف أن يسلس قيادهم للحق فيأتوا
طائعين . وكان أهل الطائف بعد أن انفض الحصار المضروب عليهم قد أخذوا يتروؤن
في شأنهم ومصيرهم إلا أن جمهورهم لما يزل على ولائه للأصنام وصدوده
عن الإسلام .

وحاول رئيسهم عروة بن مسعود أن يتحدث إليهم في نبذ هذه الجاهلية ، وعروة
فيهم سيد مطاع محبوب . غير أن نحوه الامتناع استبدت بهم فلما أظهر الرجل دخوله
في الإسلام ودعاهم إلى ذلك رموه بالنبل فقتلوه . . .

ولم يئأس العقلاء من رشد قومهم ، ولم تستطع ثقيف كذلك تجاهل ما حولها .
فإن دولة الأصنام تدبر في كل مكان . وأمر الإسلام يعاى يوماً بعد يوم . فاجتمع عمرو
بن أمية بعبد يا ليل بن عمر . وقال له : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة . إنه قد كان
من أمر هذا الرجل ما رأيت . وقد أسامت العرب كلها وليست لكم بحريهم طاقة
فانظروا في أمركم .

ورأت ثقيف أن تبعث وفدها إلى رسول الله ليصل معه إلى وضع تقرّبه ، وتألف
الوفد من ممثلين لعشائر ثقيف كلها حتى يلتزموا ما يصل إليه من شروط . . .

وجادل الوفد رسول الله جدالاً طويلاً ببغى أن يظفر منه بإقرار لبعض مآثر
الجاهلية . ورسول الله يأبى أشد الإباء . طلبوا منه أن يدع اللات ثلاث سنين
ثم يهدمها ، ثم ساوموه على سنتين ، ثم سنة ، ثم شهر واحد بعد مقدمهم . والنبي
يأبى إلا هدمها دون توقيت أمد معين . .

فلما يثسوا سألوه ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم . فأجابهم إلى ذلك بإرسال من يكسرها لهم !

وسألوه أن يضع عنهم الصلاة ! فقال رسول الله : لا خبر في دين بلا صلاة .

وعاد الوفد إلى الطائف . ومعه المغيرة بن شعبه وأبو سفيان بن حرب ليهدما « اللات » وكان هدم اللات يوماً مشهوداً فإن نسوة ثقيف خرجن حاسرات الرؤوس ييكنين ويصرخن وهن يرين الفئوس تهدم آلهتهن ، وطالما خشعن له وذبحن حوله وسقن له النذور ويروى أن المغيرة كلما هوى بالفأس على بنيان الصنم قال أبو سفيان : واهالك ، آهالك ، تأسفاً — ! ! ولعله كان يسخر أو يواسي نساء ثقيف . . .

ولا مراء في أن استسلام ثقيف ثم دخولها في الإسلام يعد كسباً كبيراً وفتحاً جديداً ، فلم يبق قبيل عزيز الجانب في الجزيرة إلا وقد دان لله ورسوله .

أما القبائل التي لما تزل على جاهليتها فهي أوزاع توشك أن تستبين الحق وتستريح له ، إن الليل المضروب عليها لن يطول سواده بل إن تباشير الفجر قد خالطته هنا وهناك حتى لم يبق لظلمته مكان تتشبث به .

قال ابن إسحاق : لما افتتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وذلك أن قريشاً كانوا أمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصریح ولد إسماعيل — وقادة العرب لا ينكرون ذلك — وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله وخلافه . فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام عرفت العرب أنها لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله أفواجا يضربون إليه من كل وجه .

يقول الله تبارك وتعالى لنبیه « إذا جاء نصرُ الله والفتحُ ورأيت الناسَ يدخلون في دين الله أفواجا . فسبحْ بحمد ربك واستغفرْه إنه كان تواباً » .

بعدكم من السنين بلغ النبيُّ هذه المرحلة ؟ بعد اثنين وعشرين سنة من الدعاية الحثيثة والتذكير الدائم وتحمل الأذى وكفاح العدوان ...
فإن كانت هناك بقايا من الغافلين لا تزال تضرع للأصنام وتحيا على الفوضى فإن فطامها عن هذه الرذائل لا ينكره ذولب أو مروءة . ومن ثم اتجه الإسلام إلى ضرورة تطهير الجزيرة كلها من عبادة الأوثان . وإشعار المشركين بأن أمامهم مهلة محدودة للتخلص من أدرانها ... ثم تعريفهم كذلك بأن الأصنام التي كانوا يقصدونها حول الكعبة قد أزيلت فأصبحت الكعبة قبلة مسجد يؤمه الموحدون . وليست مطاف جهال يتبركون بالحجارة ، وأن تقاليد العُري التي شاعت في الجاهلية وجعلت المطاف يزدهم بالسوءات المكشوفة قد نبذها الإسلام . فلن يسمح في عهده بالتبذل القديم .

وأقبل موسم الحج في السنة التاسعة . والمشركون على ما ألفوا . إنهم يؤمنون البيت العتيق ولا يتعطلون من مصير الأصنام التي تكسرت ! أين الآلهة التي قضوا أعمارهم ينحنون لها ويتوسلون بها ؟ لقد هُشِمت وديست ! ومع ذلك فإن عبادها لبثوا مشركين ... وقد تكون في نفوسهم حسرات خللو الكعبة منها ...
إن من حق المسلمين أن يضعوا حداً لهذه المهازل ، وأن يريحوا عن كرامة البشر هذا الهوان .

حج أبي بكر

بعث رسول الله أبا بكر أميراً على الحج ليقم بالمسلمين الناسك . فخرج من المدينة يسوق البدن أمامه مولياً وجهه شطر المسجد الحرام . ونزل الوحي بسورة براءة . بعد انصراف أبي بكر ووفد الحجيج . فأشير على رسول الله أن يبعث بالآيات إليه ليقرأها على أهل الموسم كافة ...

ورأى رسول الله أن يرسل بها علي بن أبي طالب قائلاً : لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتي وذلك من رسول الله تمشَّ مع عادة العرب في عهود الدماء والأموال . ألا ترى أنه قبل هجرته وكل إلى علي ردَّ الأمانات إلى أهل مكة ؟ إن أواصر القربى تقتضى التكافل التام في هذه الشؤون . فكأن الرسول أدب بيده ما أداه على عنه ، وكأنه قال بلسانه في الموسم ما سيقروؤه على بين الناس .

ورعاية هذه الأفهام ليست فريضة بل هي من النبي زيادة حيلة وإعذار ...
قال ابن إسحاق : ثم دعا علي بن أبي طالب فقال له : اخرج بهذه القصة من
صدر براءة . وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ،
ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله
عهد فهو إلى مدته .

فخرج علي يمتطي العضباء — ناقة رسول الله — حتى أدرك أبا بكر بالطريق .
فلما رآه أبو بكر سأله : أأمير أم مأمور ؟ قال : بل مأمور . ثم مضيا ...
أبو بكر — كما كلفه رسول الله — يقيم للناس المناسك . وعلي يؤذن في الناس
بما أمر به ، ويقرأ على العرب صدر السورة التي فصلت في أمرهم وأجهزت على الوثنية
في بلادهم .

وكان هناك مؤذنون آخرون بشهم أبو بكر في الجامع الكبيرة يعينون علياً على
إبلاغ رسالته ويصيحون هنا وهناك : لا يحج بعد العام مشرك ! ولا يطوف بالبيت
عريان ! وعن زيد بن نفع سألنا علياً : بأي شيء بعثت في الحجة ؟ قال : بعثت بأربع
لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يطوف بالبيت عريان ولا يجتمع مسلم وكافر
في المسجد الحرام بعد عامه هذا . ومن كان بينه وبين النبي عهد فعهدته إلى مدته .
ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر .

وقد تكلمنا في موضع آخر عن مكانة المعاهدات^(١) في الإسلام . وشرحنا
ما تضمنه صدر سورة التوبة من أحكام .
وليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كنشريع قانون بمحمو الأمية عمل
إنساني نبيل ، وأن اعتراضاً عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ويتمنى لها
السمو والكرامة !

وبحسب الإسلام أنه ظل اثنين وعشرين عاماً يحارب الخرافة بالتعليم والتربية كما
اتاحت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب ، وبالتقصص والقتال كما وقف في طريقه
الجهال والضلال يبطون سعيه أو يصدون عنه .

(١) تأملات في الدين والحياة .

وقد منح الإسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة . وترك من يرتد عنه يرجع إليها إذا شاء . ولم يفعل ذلك إعزازاً لها . إنما هو حسن ظن بعقل الإنسان وضميره . فقل من سيفهون أنفسهم ويتركون الله العظيم إلى صورة من حجر أو خشب أو طعام .

فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شيء . وأنهم يستغلون الحق الممنوح لهم في الفتنة والعدوان والقتل ... لم يبق لتركهم من حكمة . إن الكلب العقور لا يترك طليقاً . فإذا أفلت من قيده فأهدر دمه ، فن السفه اعتبار ما حدث جريمة قتل .

والذين يظنون أو يحلو لهم الظن بأن الإسلام عندما طارد الوثنية خفق حرية الرأي . هم أشخاص واهمون أو مغرضون .

وعلى هدى التجارب والمصائب التي عاناها المسلمون طوال اثنين وعشرين عاماً تعرف سر الغضب الذي اشتعل آخر الأمر ، ولم نزل الوحي يعالين المشركين بالقطعة ويرفض منهم كل اعتذار ؟ ثم يسرد ما سلفوا من سيئات على أنه خليفة فيهم لم ينفكوا عنها يوماً ، ولا يرجي أن ينفكوا عنها أبداً .

ومن ثم فلا مكان لأصنامهم بعد المهلة المضروبة لهم « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم » . .

ومن قبل هذا النذير المخوف ومن بعده كانت أفواج الوافدين تنطلق صوب المدينة تباع رسول الله على أن تخلع رداء الجاهلية وتدخل في الدين الحق . وهذه الوفود المقبلة عرفت خلال السنين السابقة طرفاً يسيراً عن الإسلام . فقد شاع في أرجاء الجزيرة كلها نبأ الرسالة الجديدة وما تضمنته من عقائد وما تقرضه على أتباعها من تعاليم .

وتتبع المحبون والمبغضون كفاحها الموصول في طلب الحياة ، ومبلغ ما بذلت وبذل أعداؤها حتى انتهت الأمور بهذا الختام المبين .

ونحن نعلم أن الحزب الذي يبدأ نشاطه بأنصار قلائل يتضاعف الإقبال عليه عندما تلعب له وقفات مشرفة ويتاح له نصر كبير . فكيف إذا اختفى خصومه وتألقت نجومه ؟ .

فلا جرم أن المدينة تندفق عليه سيول الراغبين في اعتناق هذا الدين . أو الراغبين في مسأله ورسم سياسة تقوم على التعاون معه .

ولسنا بسبيل إحصاء هذه الوفود القادمة من المشرق والمغرب ، لكننا نسوق مثلين لوفدين ، أحدهما وثني أقبل ببني الإسلام . والآخر نصراني جاء يستطلع النبأ ويفاوض ويعاهد بعد جدال ولجاجة .

وفد الأميين ووفد لأهل الكتاب

أرسلت قبيلة سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله . فامتطى ضمام بغيره حتى دخل المدينة فأناخه على باب المسجد ، ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله جالس في أصحابه .

وكان ضمام رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله في أصحابه . . فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله . أنا ابن عبد المطلب ! قال : أمحمد ؟ قال : نعم !
قال : يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك .
قال : لا أجد في نفسي فسل عما بدالك :

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك . آله بعثك إلينا رسولا ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فأنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك . آله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده لا نشرك به شيئا . وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟

قال : اللهم نعم .

وفي رواية أنه قال : يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ؟

قال : صدق ! قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله ! قال : فمن خلق الأرض ؟
قال : الله ! قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله .
قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال الله أرسلك ؟
قال : نعم . . .

قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال : صدق !
قال : فبالذى أرسلك الله أمرك بهذا ؟ قال نعم !
ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو . حتى إذا فرغ قال :
فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . وسأودى هذه الفرائض ،
وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص . . . وانصرف إلى بعيره راجعاً فقال
رسول الله : إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة .

فأتى ضمام بعيره فأطلق عقاله . ثم خرج حتى قدم على قومه . فاجتمعوا إليه .
فكان أول ما تكلم به أن قال : بثست اللات والعزى !! قالوا : مه يا ضمام !
اتق البرص اتق الجذام اتق الجنون . . . قال : ويلكم ، إنهما والله لا يضران
ولا ينفعان .

إن الله قد بعث رسولا وأزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه وإني أشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده
بما أمركم به ونهاكم عنه . .
قال : فوالله ما أسمى في الحى من ذلك اليوم رجل ولا امرأة إلا مسلماً .

ذاك وقد يمثل بساطة الأमीين في منطقتهم ، وسلامة طويتهم في جدهم وتساؤلهم
وخلو أذهانهم من العقد التى تعترض الحق في مسيله السمح .
ولا نكران في أن جهاد الدعوة القديم له أثره في الوصول إلى هذه
النتائج السريعة .

وهذا طبعى فإن تغيير دين ليس كتجديد زى . وضام بن ثعلبة كان يستحضر
في ذهنه وهو يسأل النبي ثم وهو يخطب قومه أن هذه الرسالة الجديدة مرّت بأطوار

شتى من المحن والفتن كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها ، فليس إيمانه وإيمان قومه وليد ساعة من كلام .

ذاك وفد الأميين . وهو مثل لوفود أخرى كبرت أو صغرت ، أمّت المدينة لترى هذا النبيّ وتبابعه ، ثم تؤوب إلى قومها حاملة الهدى والخير .

أما أهل الكتاب فإن قلة منهم شرحت صدرا بالحق وسارعت إلى اعتناقه ومؤازرته . والكثرة الباقية اختلفت عداوتها له شدة وفتورا .

أبى اليهود إلا إبادة الإسلام فوقعوا في شرور نيتهم وباد سلطانهم العسكري والسياسى قبل أن يدرکوا هذه الغاية .

وقبلهم الإسلام في دولته القائمة أفرادا ييقون على ديانتهم ما أحبوا . ولا يمكنون من تجمع على عدوان ودس .

وذلك حقه لا ريب !!

ولم تصدر الحقوق الشخصية ليهودى تحت سلطان الإسلام . وحسبك أن النبيّ نفسه لى يقترض من يهودى ارتهنه درعه . . . وما فكر قط في إحراجه بما يملك من سلطان بعيد . . .

وكان النصرارى أخف خصومة حيث ابتعدوا عن سلطان الكنيسة ، فأسلم بعضهم عن طواعية وإعجاب بما في الإسلام من سهولة واستقامة . وبقي الآخرون على ما ورثوا .

وسارت العلاقة بين الدينين في مجراها الذى أبتأ عنه آناً حتى تحولت إلى حرب طاحنة بين المساميين والرومان .

وكانت النصرانية — مع تفوق الرومان السياسى والعسكرى — تسود شمال الجزيرة وجنوبها .

فرأى المسامون ، وهم في حرب مع دولة الروم ، أن يحدّوا موقفهم مع نصرارى الجنوب ، خصوصاً وأن الروم كانوا يمدقون العطايا على مبشريهم هناك وبينون لهم الكنائس ويسيطون عليهم الكرامات ويشجعونهم على المضى في تصير القبائل المتوطنة بهذه الأرجاء .

فأرسل النبيُّ إلى أهل نجران كتابا جاء فيه « باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد .

وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد .

فإن أبيتم فالجزية . فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب . والسلام » .

فأرسلت نجران — وهي كعبة النصرانية جنوبا — وفدها إلى المدينة ليقابل رسول الله ويتفاهم معه . ووافى الوفد المدينة بعد العصر . ودخل المسجد . فكان أول ما صنع أن اتجه إلى بيت المقدس يصلي لله على ما تقضى به طقوس المسيحية . وأراد الناس منهم فقال رسول الله : دعوهم . حتى انتهوا من عبادتهم . . .

ورآهم النبيُّ قد لبسوا للملاقاته أردية الكهنوت الفاخرة وتحلَّوْا بخواتم الذهب وجاءوا يجنبون في الحرير وتبدو لهم بين القلائس والطياليس سيماء التكلف الشديد .

فأبى أن يتحدث معهم حتى يرجعوا إلى ملابس سفرهم ويدعوا هذه الزينة . والغريب أن بعضهم سأل النبيَّ : أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما يُعبد عيسى

ابن مريم ؟ وإلى ذلك تدعونا ؟

فقال رسول الله : معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره . ما بذلك بعثني ولا أمرني . وأنزل الله عز وجل في ذلك « ما كان لبشر أن يُؤْتِيَهُ اللهُ

الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عبادا لي من دون الله . ولكن كونوا ربَّانِينَ بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا . أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بعدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »

وعرض النبيُّ على أحرار نجران وسائر الوفد أن يُسلموا . فقالوا له : أسلمنا قبلك . قال : كذبتكم ، يمنعكم من الإسلام دغاؤكم لله ولدا وعبادتكم الصليب وأكلكم الخنزير .

فجادلوه في عيسى ، وقالوا : من أبوه ؟ فروى أن النبيَّ ردَّ عليهم قائلا : أَلَسْتُمْ تعلمون أن الله حي ، لا يموت وأن عيسى يَأْتِي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى . قال : أَلَسْتُمْ تعلمون أن ربَّنَا قَيِّمٌ على كل شيء يكلِّوه ويحفظه ويرزقه ؟ . قالوا : بلى . قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا : لا .

قال : أَلستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ قالوا : بلى . قال . فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما عُلِّم ؟ قالوا . لا . . . !
قال : أَلستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحديث ؟ قالوا : بلى ! قال . أَلستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة . ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبي . ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحديث ؟ قالوا : بلى .

قال فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟
فقالوا : أَلست تقول في عيسى : إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ؟ قال : بلى .

فلما رأى النبي أن الجدل يتمادى بالقوم . وأنهم مصرون على اعتبار عيسى إلهاً أو نِدّاً للإله قال لهم : أقيموا غداً حتى أخبركم .
فنزلت آيات الباهلة « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خَلَقَهُ من ترابٍ ثم قال له : كن فيكون . الحقُّ من ربِّك فلا تكن من المُمترِّين . فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقلْ : تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفُسكم . ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .
فأصبح رسول الله من الغد ، وقد أقبل بنفسه ، وحفيديه الحسن والحسين ، وابنته فاطمة .

واستعد أن يشترك مع وفد نجران في صلاة جامعة تُستَنزل فيها لعنة الله على المقتربين .

واستمع وفد نجران إلى هذا الاقتراح ، فأوجسوا خيفة من قبوله ! من يدرى ؟ قد يكون محمد صادقاً في أن عيسى بشرٌ مثله ويكونون هم واهمين في انتحال الألوهية له . فلماذا يبتهلون إلى الله أن يحقِّقهم ؟ .

ونظروا إلى محمد وطفليه وابنته فشعروا بأن الكاذب منهما لن يهلك وحده بل ستهلك معه أسرته . فخشوا على أولادهم وأهلهم البوار إن هم قبلوا هذه البُهالة . . ثم خلصوا نجيّاً .

قال بعضهم للآخر : إن كان هذا الرجل ملكاً فلن نأمن طعننا عليه وخصامنا له .
فإن دولته مقبلة وربما أصابنا قومه بجائحة .

وإن كان نبياً مرسلًا فلا عناه فلن يبق على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر
إلا هلك . فما الرأي ؟

فجاءه متحدث القوم شرحبيل بن وداعة . وقال له : رأيت خيراً من ملاعتك .
فقال النبي : ما هو ؟ قال : أدع لك الحكم فينا فمهما قضيت فهو جائز !! فقال
رسول الله : لعل وراءك أحداً يثرب عليك ؟ فقال شرحبيل : سل عني . فلما سأل
الرسول عنه خبر أن أهل الوادي لا يصدرون ولا يردون إلا عن رأيه ...
فقال : جاهد موفق .

ورجع رسول الله ولم يلاعهم ، وعقد معهم صلحاً أصبحوا بمقتضاه من رعايا
الدولة الإسلامية !! ..

وجاء في شروط هذا الصلح أن لنصارى نجران « .. جوار الله وذمة محمد النبي ،
على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم ، وأن
لا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من
أسقفته ولا راهب من رهبانته . . وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير .

وليس عليهم رية ولا دم جاهلية ولا يحشرون — يكفون بجهاد — ولا يعشرون
— يكفون بزكاة — ولا يطاء أرضهم جيش .

ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا
فدمتي منه بريئة . ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلى مافي هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتي الله بأمره
مانصحوه وأصلحوه فيما عليهم ، غير منقلبين بظلم .

وشهد على هذه المعاهدة أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف
والأقرع بن حابس والمغيرة بن شعبة .

فإذا كلف به نصارى نجران بإزاء هذه الحقوق ؟ أن يدفعوا للدولة ألفي حلة
في السنة ! وهي بدل تافه عن الزكاة التي يدفعها المسلمون وحدهم ، والجهاد
الذي يحملونه وحدهم .

وتلك هي الجزيرة التي ضربت على أهل نجران ، بعد المفاوضات التي رأيت .
وبذلك قطع الإسلام الصلة بين أولئك العرب المتصرين وبين دولة الروم التي
يشتبك معها في الحرب ، بعد ما ضمن الحرية الدينية لمن سالوه وكفوا عنه ..
ونحن نسأل — على وجه التحدى — : هل عاملت الطوائف المسيحية بعضها
بعضاً بهذه السماحة الرائعة ؟ أم كان ذلك مسلكاً أضاع به الإسلام وحده ظلمات
القرون الأولى ؟

ثم نسأل مرة أخرى : هل احترم أهل الكتاب ما عليهم من واجب ، وهل أنصفوا
الدين الذي رعى ذمامهم ؟

لقد دخلت السنة العاشرة على الإسلام وهو يبسط تعاليمه على حساب الوثنية
المتقلصة . فإذا ببعض القبائل في الجنوب ثور ضده . تحسب أن رجلاً من قريش ملك
العرب بادعاء النبوة . فليس يعجزها أن تقدم من مفاليكها من يزعم النبوة كذلك !!
لعله يملك مثل ممالك محمد بن عبد الله ...

ومن المؤسف أن النصارى في جنوب الجزيرة ساعدوا في إشعال هذه الثورات ،
وأن نصارى نجران كاتبوا الأسود العنسى فساد إليهم — وهو أحد المتنبئين —
ثم رحل عنهم إلى اليمن ، فلحقها حتى قتلتها امرأته هناك وأراحت الأرض منه ..
أكانت هذه الفتى معاونة لنصارى الشمال في حربهم ضد الإسلام ، أم كانت
شغباً عليه الكره المجرد فحسب ؟

ومافدا نصارى نجران في تأييد الأسود العنسى فعل مثله نصارى تغلب في تأييد
مسيمة الكذاب حين ادعى هو الآخر أنه نبي !! ..

ونحن نفهم أن يرفض أهل نجران وبنو تغلب الدخول في الإسلام ، وأن يؤثروا
البقاء على ما اقتنعوا به من ديانتهم الموروثة . لكننا لم نفهم بته أن يكذب رجل
بصحف الوحى وأن يؤمن مثلاً بالبعكوكة .

ذاك إن كانوا قد آمنوا حقاً بالأسود ومسيمه ...

أما إذا كان الأمر لا يعدو الإغاة على حرب الإسلام بأى سلاح ومع أى حليف ،
فهذه مسألة^(١) أخرى يختار في علاجها أطباء القلوب .

(١) راجع كتابنا التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام .

(٨)

أمهات المؤمنين

أثار بعض الكتّابين غباراً حول مبدأ تعدد الزوجات . وحاولوا تقييد ما أباحه الإسلام من ذلك أو منعه . محتجين تارة بأن الإسلام لم تثبت فيه هذه الإباحة بصورة حاسمة ، وتارة أخرى بأن تطوّر الحياة وصالح الجماعة يقتضيان أن يكتفى الرجل بامرأة واحدة لا يعدوها . وحسبه أن يوفق في رعايتها وكفالة أولاده منها ... !

ولا شك أن هذه الأفكار تولدت في بيئتنا نتيجة عوامل شتى تحتاج إلى حسن النظر وقوة الرد . ومنذ سنين حاول خصوم التعدد أن يستصدروا قانوناً بذلك ، ثم توقفت محاولاتهم أمام غضب العلماء وهياج الجماعات المشتغلة بالشئون الإسلامية . وقد كتبت آنذ كلمة في طبيعة التعدد أرى إثباتها^(١) هنا بين يدي الموضوع الذي نتحدث فيه لملها من صلة ظاهرة به .

« للحياة قوانين عمرانية واقتصادية ثابتة ، تفرض نفسها على الناس حتماً ، سواء عرفوها فاستعدوا لمواجهتها ، أم جهلوا فظهرت بينهم آثارها .

وصلة الرجل الفرد بعدد من النساء من الأمور التي تثبت فيها الأحوال الاجتماعية ويعتبر تجاهلها مقاومة عابثة للأمر الواقع .

وذلك أن النسبة بين عدد الرجال والنساء إما أن تكون متساوية ، وإما راجحة في إحدى الناحيتين . فإذا كانت متساوية أو كان عدد النساء أقل فإن تعدد الزوجات لا بد أن يخفى من تلقاء نفسه . وستفرض الطبيعة توزيعها العادل قسراً ويكتفى كل امرئ طوعاً أو كرها بما عنده .

إما إذا كان عدد النساء أربى من عدد الرجال . فنحن بين واحد من ثلاثة :

إما أن نقضى على بعضهن بالحرمان حتى الموت ...

وأما أن نبيح اتخاذ الخليلات ، ونقر جريمة الزنا ...

وإما أن نسمح بتعدد الزوجات

ونظن أن المرأة - قبل الرجل - تأبى حياة الحرمان ، وتأبى فراش الجريمة والعصيان .

فلم يبق أمامها إلا أن تشترك غيرها في رجل يحتضنها وينتسب إليه أولادها

ولا مناص بعدئذ من الاعتراف بمبدأ التعدد الذي صرح به الإسلام .

ثم إن هناك اختلافا كبيرا بين أنصبة الرجال من الحساسية الجنسية ، فهناك رجال أوتوا حظاً من كمال الصحة ويقظة الغريزة ونعومة العيش لم يُؤتَ غيرهم والمساواة بين رجل بارد المشاعر من نشأته وآخر قريب الاستثارة واسع الطاقة أمر بعيد عن العدالة ألسنا نبيح لدوى الشهية المتطلعة مقادير من الطعام لا نبيحها للمعودين والضعفاء ؟ فهذه بتلك ...

وتمَّ حكمة أخرى . قد تكون الزوجة على حال من الضعف أو المرض أو العقم أو تأخر السن . فلماذا تترك لهذه الأعذار ؟ إن من حق العشرة القديمة أن تبقى في كنف الرجل ، وأن تأتي إلى جانبها امرأة أخرى تؤدي وظيفة الزوجة أداء كاملاً .

ومع المبررات الكثيرة للتعدد فإن الإسلام الذي أباحه رفض رفضاً باتاً أن يجعله امتداداً لشهوات بعض الرجال وميلهم إلى المزيد من التمتع والتسلط . فالغرم على قدر الغم ، والمتع الميسرة تتبعها حقوق ثقيلة . ومن ثم فلا بد عند التعدد من تيقن العدالة التي تحرسه . أما إذا ظلم الرجل نفسه أو أولاده أو زوجاته فلا تعدد هناك .

الذي يُعدُّ يجب أن يكون قادراً على النفقة اللازمة . وإذا كان الشارع يعتبر العجز عن النفقة عذراً عن الاقتران بواحدة . فهو من باب أولى مانع من الزواج بما فوقها . إن الشارع يوصي الشاب الأعزب بالصيام ما دام لا يستطيع الزواج ويأمر العاجز عن الواحدة بالاستعفاف :

« وَلَيْسْتَ عَقْفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... »

فكيف الحال بمن عنده واحدة ؟ إنه بالصبر أحق وبلااستعفاف أولى ... وكثرة الأولاد تتبع عادة كثرة الزوجات والإسلام يوجب رعاية العدل مع الأولاد في التربية والتكريم ووسائل المعيشة مهما اختلفت أمهاتهم . وفي الأثر « لعن الله من استعق أولاده » فعلى الأب المكثّر أن يحذر عقبي الميل مع الهوى .

وكذلك يوجب الإسلام العدل مع الزوجات . ولئن كان الميل القلبي أعصى من أن يتحكم فيه إنسان إن هناك من الأعمال والأحوال ما يستطيع كل زوج فيه أن يرضى الحدود المشروعة وأن يزن تصرفه بالقسط وأن يخشى الله فيما استرعاه من أهل

ومال . قال رسول الله « إن الله سائل كل أمرئ عما استرعاه حفظ ذلك أم ضيعه » ؟
« بحسب امرئ من الإثم أن يضيع من يعول » .
تلك حدود العدل الذي قرنه الله بالتعدد فمن استطاع النهوض بأعبائها فليتزوج
مثنى وثلاث ورباع .

وإلا فليكتف بقرينته الغدة « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .
على أنه من المؤسف حقاً أن يهدر العوام هذه الحدود ، وأن يتجهوا إلى التعدد
دون وعى لمعنى العدل المفروض بل تلبية لنداء الشهوة ، ولو أدى إلى الافتيات
والجور الصارخ .

فالرجل قد يعجز عن نفقة نفسه ثم هو يسعى إلى الزواج ...
وقد يعجز عن رعاية واحدة ثم هو يبحث عن غيرها !!
وقد يحيف على بعض أولاده في التعليم ، وفي توزيع الثروة ، تمشياً مع هواه
وقد يتزوج الأخرى ليجر الأولى ويندرها كالمعلقة .

وربما ترى الرجل يستطيع البناء بأربع ، والإنفاق على ما ينجب من بنين وبنات
ومع ذلك الاقتدار . فهو يحيا على التسوّل الجنسي والتقلب في أحضان الساقطات
فما دواء هذه الفوضى ؟

هل منع التعدد يشفي الأمة من هذه الأدواء ؟
كلا ... إن تقييد مباح ليس مما يعي سياسة التشريع في الإسلام إلا أن مبدأ
التعدد لو سكت الدين عن إبداء الرأي فيه لوجب أن نبدي نحن الرأي فيه ونقول
بإباحته صيانة للمصلحة العامة التي أَوْضَحْنَاهَا في صدر هذا الكلام .

ولكن إقرار القاعدة شيء وسوء تطبيقها شيء آخر . وعندما يجيء دور التشريع
في إصلاح مجتمعتنا وإقامة عوجه — من هذه الناحية — فلتتجه همه الباحثين إلى
ضبط وسائل العدل ومظاهره إن أرادوا . أما الخبط في مبدأ التعدد نفسه ومحاولة
النيل منه فهو عبث .

وأستطيع القول بأنه أثر من آثار الغزو الصليبي الحديث لبلاد الإسلام . فإن

النصرانية دون سائر الأديان من عهد نوح انفردت بتحريم^(١) التعدد وحبس الرجل مهما كان شأنه على امرأة واحدة ، وترك المجتمع بعد ذلك يعالج كثرة النساء وهياج الغرائز بوسائله الأخرى .

وفي طبقات كثيرة الآن ينظر إلى التعدد على أنه منكر ! وإلى الزنا على أنه مسلاة تافهة ! أى أن المشكلة الآن مشكلة الدين كله والأخلاق كلها . وتقيد التعدد — والحالة هذه — محاولة سمجة لتلويث المجتمع على حساب الإسلام وباسم القانون . إن جمهوراً كبيراً من النيبين والصالحين تزوج بواحدة وبأكثر من واحدة ولم يخذش ذلك تقواه . وفي صفح العهد القديم الموجودة الآن ما يؤيد ذلك .

والإسلام لا يرى التبتل عن النساء عبادة — كما يفعل الرهبان — ولا الزواج إلى أربع معصية — كما ينسب إلى النصرانية . إنما المعصية في ترك الغريزة الجنسية تتنزي كيف تشاء ، أو في كبتها لتتسرب وراء وراء كما تتسرب المياه الجوفية تحت أديم الغبراء . . . !!

والمحفوظ من سيرة نبي الإسلام أنه تزوج بالسيدة خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكانت هي في سن الأربعين وظل معها وحدها ، لا يضم إليها أخرى حتى تجاوزت السيدة الفضلى الخامسة والستين وماتت وهو — صلوات الله عليه — فوق الخمسين .

ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لئداً أن ينسب إليه دنسا ، أو يتهمه بريية ، في هذه الفترة الخصيبة الرحبة من عمر الإنسان ، كان رونق العفاف والشرف يتألق في جبينه حيث سار ، ولو أنه أحب الزوج بأخرى ما عاقه مانع من شرع أو عقل أو عادة . فإن التعدد كان مألوفاً بين العرب ، معروفاً في ديانة أبى الأنبياء إبراهيم . إلا أنه ظل مكثفياً بمن استراح إليها واطمأن بصحبتها . ولو أنها طعنت في السن وبقي هو في كمال قوته وتتمام رجولته . . . ولهذا المسلك دلالتة القاطعة .

فلما انتقلت خديجة ، وأحب النبي أن يتزوج لم يكن البحث عن الجمال في مظانّه

(١) نحن نعتقد أن التعدد هو حكم الله في الأديان كلها — ومن بينها النصرانية — ولا نقيم وزناً لما عداه .

هو الباعث له على تخير شريكته في حياته ، أو شريكاته — ولو قد فعل ذلك ما تعرض للوم — . بيد أن الباعث الأول كان الارتباط بالرجال الذين آزره في دعوته وعاونوه في رسالته . فاختار عائشة بنت أبي بكر على صغر سنّها واختار حفصة بنت عمر على قلة وسامتها

ثم اختار أم سلمة أرملة قائدته الذي استشهد في سبيل الله . وعانت معه امرأته ما عانت في الهجرة إلى الحبشة وفي الهجرة إلى المدينة . ومن قبل هؤلاء كانت معه سودة . وهي امرأة نزلت عن حظها من الرجال لكبرها وعزوفها .

والعيشة مع أولئك الأربع لا تقوم على متاع ملحوظ ودنيا سارة . ولو قد قامت على ذلك ما كان على رسول الله من حرج . فلائى مؤمن أن يستمتع بأربع نسوة . وتحقيق العدل متيقن في سيرة رسول الله .

قد تقول : لكن هذا الرسول مات عن تسع نسوة فكيف وقع هذا ولم نال ما لم ينل غيره ؟ ؟

أليس هذا فتحاً لباب التشهى وإجابة لدواعى الملذّة ؟

وتقول : أين مكان المتعة في حياة رجل لم يستريح يوماً من عناء الكفاح الموصول والجهاد المضنى ؟

إن حملة الرسائل الإنسانية المحدودة تعيهم هموم العيش ومشاكل الشعوب فلا يحظون بساعة راحة إلا ليستجموا قليلاً ثم . . . ينهضون لاستئناف اللغوب ! فكيف بصاحب الرسالة العظمى ؟ وقد لقى من العرب ما رأيت ؟ ونسأل أيضاً : ما كان المتعة في حياة رجل عزف عنها وهو شاب . فكيف يفرق فيها وهو شيخ ؟

إن الظروف التي أحاطت بالزوجات الخمس الآخر تجعل البناء بهن بعض ما كلف الرسول بتجشّمه من سياسة الأفراد والجماعات ، وبعض ما كلف بتحقيقه من إقامة الخير ونحو الضرر .

خذ مثلاً زواجه بزَيْنَب بنت جحش . كان هذا الزواج امتحاناً قاسياً لرسول الله ،

أمره الله به لإبطال تقليد شائع عند العرب ، وأقدم عليه الرسول وهو شديد التحرج والحياء والأذى .

وزينب هذه من قريبات الرسول . فهو يعرفها حق المعرفة من طفولتها . وقد رغب في أن يزوجه من زيد بن حارثة فكرهت ذلك ورفض أخوها . اعتزازاً بما للأسرة زينب من مكانة ، فهي من ذؤابة قريش ، وما زيد ؟ إنه كان عبداً ولو أن الرسول أكرمه فيما بعد وألحقه بنسبه فصار يدعى زيد بن محمد ! !

إلا أن زينب لم تجد بدا من الانصياع لأمر النبي ، فقد أراد أن يحطم الاعتزاز بالأنساب وأن يُمكح زيدا زينب ! فرضيت وفي نفسها غضاضة ، وقبل أخوها وهو يؤدي حق السمع والطاعة فحسب ، بعد ما نزل قوله تعالى :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » .

ودخل زيد بزینب فوجد امرأة مصروفة الفؤاد عنه ، تسلمه جسدها وتحرمه العطف والتقدير . فثارت رجولته وقرر ألا يبقى معها . وتدخل النبي بين الحين والحين لإصلاح ذات البين دون جدوى .

في هذه الحال أوحى الله لنبيه أن يدع زيدا يطلق زوجته ، وأن يتزوجها هو بعد انتهائها منه . . .

فاعترى الرسول همٌّ مقلق لهذا الأمر الغريب ، وساوره التوجس من الإقدام عليه بل أخفاه في نفسه خوفاً من مغيبته ، فسيقول الناس تزوّج امرأة ابنه . . . وهي لا تحل له ! !

ولكن هذا الذي سيقوله الناس هو ما أراد الله هدمه . ويجب على النبي أن ينفذه دون تهيّب .

وقد تربّث النبي في إنفاذ أمر الله ، ولعله ارتقب من الله — لفرط تحرجه أن يعفيه منه ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فعندما جاء زيد يشكو امرأته ويعرض نيته في تطليقها قال له النبي : أمسك عليك زوجك واتق الله . . .

عند ذلك نزل الوحي يلوم على الرسول توقفه ، ويعتب عليه تصرفه ، ويحضه على إمضاء رغبة زيد في فراق امرأته ويكلفه بتزوجها ، ولو قال الناس : تزوّج امرأة

ابنه . فإن ادعاء النبوة لون من التزيير تواضع عليه العرب مراغبة للحق ، وينبغي أن يقلعوا عنه ، وأن يهدروا نتائجها وليكن عمل الرسول بنفسه وبمن التصق به أول ما يهدم مآثر الجاهلية في هذا العرف الشائع . . .

هذه هي القصة كما بدأ القرآن الكريم يرويها :

« وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً . . . » .

على أن الغريب في هذه القصة ما أدخله المغفلون عليها من دسائس الشهوة ومظاهر الحب الرخيص ، فقد زعموا أن الرسول أحب زينب ، ثم كتم هذا الحب ، ثم ظهر . . . فتزوجها بعد ما طلقت !!!

ثم زعموا أن صدر الآية السابقة جاء عتاباً له على هذه العاطفة المكبوتة ، ونحن نتمعجب أشد التعجب لهذا الخبط الهائل ومحاولة تلبيس الحق بالباطل .

من كان يمنع محمداً من الزواج بزينب وهي من أسرته . وهو الذي ساقها إلى رجل لم تكن فيه راغبة ؟ وطيب خاطرها لترضى به .

أفبعد أن يقدمها لغيره يطمع فيها ؟
ثم لننظر إلى الآية وما يزعمون أنها تضمنته من عتاب .

إنهم يقولون : الذي كان يخفيه النبي في نفسه ، ويخشى فيه الناس دون الله هو ميله لزينب ، أي أن الله — بزعمهم — يعتب عليه عدم التصريح بهذا الميل !
ونقول : هل الأصل الخلق أن الرجل إذا أحب امرأة لفظ بين الناس مشهراً بنفسه وبمن أحب ؟ وخصوصاً إذا كان ذا عاطفة منحرفة جعلته يحب امرأة رجل آخر ؟

هل يلوم الله رجلاً لأنه أحب امرأة آخر فكتم هذا الحب في نفسه ؟
أكان يرفع درجته لو أنه صاغ فيها قصائد غزل ؟
هذا والله هو السفه ! . . .

وهذا السفه هو ما يريد بعض المغفلين أن يفسروا به القرآن !!

إن الله لا يماثل أحدًا على كتمان حب طائش ، وإنما سياق الواقعة كما قصصنا عليك . فالذي أخفاه النبي في نفسه تأذيه من هذا الزواج المفروض وراحيه في إنفاذ أمر الله به وخوفه من لغط الناس عندما يجدون نظام التبني كما ألفوه قد أنهار .

وقد أفهم الله نبيه أن أمره لا يجوز أن يقفه توهم شيء ما . وأنه بإزاء التكليف الأعلى لا مفر له من السمع والطاعة شأن من سبقه من المرسلين . .

وإذا عدت إلى الآية التي تتضمن القصة وجدتها ختمت بقوله تعالى :
« ... وكان أمر الله مفعولا » . أى من حقه أن يقع حتما . ثم أعقبها ما يؤكده هذا المعنى :

« ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له . سنة الله في الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدرا . مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله . وكفى بالله حسيبا » .

إنك عندما تثبت قلب رجل فتقول له : لا تخش إلا الله . لا تقول ذلك له وهو بصدد ارتكاب معصية . إنما تقول ذلك له . وهو يبدأ القيام بعمل فاضل كبير يخالف التقاليد المتوارثة .

وظاهر في هذه الآيات كلها أن الله لا يجزئ نبيه على التذلل بحب امرأة ، إنما يجزئه على إبطال عادة سيئة يتمسك الناس بها . ويراد منه كذلك أن ينزل على حكمها ولذلك يقول الله بعد ذلك مباشرة — وهو يهدم نظام التبني :
« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين .
وكان الله بكل شيء عليما » .

أما السيدات الأخريات اللاتي بنى بهن الرسول . فهن نساء تنميهن أصول عريقة حتى ليُعتبرن بنات ملوك ! وقد أحاطت بهن عند دخول الإسلام ملابسات لا يليق أن يجملها قائد دعوة .

قام حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها عشرين سنة في حرب

الإسلام أو يزيد ، أنذا أسلمت وراغمت أبأها وقومها في ذات الله ، ثم هاجرت إلى الحبشة تاركة مكة حيث يسود أبوها وتعلو كلمته ؟

أترى مثل هذه السيدة إذا مات زوجها تترك لمن يחדش مكانها ؟

لقد ضمها النبي إلى زوجاته إعزازاً لشأنها وتقديراً لصنيعها ...

وصفية بنت حيي ؟ كان أبوها ملك اليهود ، وفي الصراع بين بني إسرائيل والإسلام هلك أبوها وأخوها وزوجها ، ووقعت في سهم جندي لا يعرف إلا أنها أسيرة حرب ، من حقه بملك اليمين أن يسلك معها كيف يشاء . فإذا رقى النبي لحالها ، ووهبها حريتها ، ثم جبر كسرهما وقدر ماضيها ، فتزوجها ليستطيع بإحسانه وإكرامه تطيب خاطرهما ، فهل ذلك مما يلام عليه ؟

وجويرة بنت الحارث . إن أبأها زعيم بني المصطلق ، وقد انتهت حربه مع المسلمين بهزيمة نكراء ، وكادت قبيلته تهون وتذل عقب هذه الهزيمة . فواسى النبي القائد المهزوم ، ثم أصره إليه حتى يشعر المسلمين بما ينبغي لأتباعه من كرامة ومعونة . وقد وقع ما أحبه النبي ، فعادت الحرية إلى القبيلة رجالاً ونساء ، إذ تخرج المسلمون أن يسيئوا إلى قوم تزوج النبي ابنتهم ...

وقد يسبق إلى أذهان البعداء عن السيرة أن حياة رسول الله الخاصة قامت على التوسع في المطاعم والمشارب ... والمتع الأخرى .

والصورة التي قد ترسم بادی الأمر لرجل عنده عدة نساء . إنه مغمور بالسعادة المادية . يقوم عن الموائد الحافلة باللحوم والفواكه ليرتوي من الأشربة التي تسرى في أوصاله بالنشوة ، ثم يتقلب بين أحضان البيضاوات والشقراوات . ويصبح يستقبل الدنيا بعد ذلك خالي البال .

وقد تكون هذه الصورة مساوية أو مقاربة لما يدور في قصور الملوك .

لكن حذار أن تسفه نفسك فتحسب شية من هذا العيش الرخي في بيوت محمد بن عبد الله .

انتقل على عجل إلى لون آخر من الحياة الخشنة لترى فيه رجلاً تعلقت همته بالحق

وحده فهو ينتعش بمعرفته ويجهد لجمع الناس عليه . وقرة عينه في خطوة تقربه من غايته شبرا . أما أهواء الدنيا فهي تحت قدميه ودير أذنيه ...

إذا استطاعت قذائف المدفع على ظهر الأرض أن تبلغ النجوم البعيدة استطاعت مغريات الحياة أن تقترب من قلب محمد الزكيّ النقيّ . ذاك إنسان اصطفته العناية فهو يخلق في مدى آخر ، يقول فيه : « مالى وللدنيا إنما أنا كرجل قال تحت ظل شجرة ثم راح وتركها » .

يربطهم البشر بالمثل العليا ، وما تصير إليه عند الله فيقول : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها . ولغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها » .

وحياته مع زوجاته نهج من الشطف لا يطيقه أحد ، روى البخارى عن أنس بن مالك قال ما أعلم النبي رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميماً بعينه قط !!

وعن عائشة قالت : إن كنا ننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت في أبيات رسول الله نار !

فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يُعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء . وقالت عائشة أيضاً : لقد توفى رسول الله وما في رفق من شيء بأكله ذوكبد إلا شطر شعير في رفق لي

أما الفراش الذي يأوى إليه هذا النبي فهو من آدم — جلد — حشوه ليف ! يشوى فيه قليلاً فما أن يستدفئ به حتى يسمع الصارخ — الديك — فينهض متاهباً لصلاة الفجر ...

ولا نغني بهذا الوصف أن الإسلام يعاف الطينيات أو أن نبيه يسُنُّ للناس تركها . كلا . فشريمة الإسلام في هذا بيئة نيرة . وإنما نسرد الواقع من حياة رجل صدفت نفسه عما يقتتل الناس عليه . إن الرجل قد يترك لأولاده الصغار لعبة يفرحون بها ويختصمون عليها لأن طبيعة رجولته في شغل عن عبث الصبية .

إن بعض المحترعين والمفكرين يذهلون عن الطعام المهيأ لهم ، لا ازدراء له ، ولكن استغراقاً فيما ملك عليهم مشاعرهم ...

وكأنى أتخيل هذا النبىؑ ، وهو يرى سواد الناس يتفانون على الحطام الذاهب
فيهز رأسه أسفا . ويقول : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ...
ثم يضرع إلى الله « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا ... »

إن من الزاوية بالعقل والجور الفاحش على التاريخ أن يجيء رجل من عرض
الطريق فيرى أو يقال له : إن محمدا كان لديه نسوة عديدات ، فيظن المسكين أن ذلك
دلالة استكثار من الشهوات وتشجيع من الدنيا .

ولا يحسبن هذا الإخشيان فعل من لا يجد ! وأنه لو فتحت إلى بيوت هذا
النبىؑ نافذة تطل على مجبوحة الحياة الرغدة لاستمتع واكتنز ، واستمتع نسوته وابتهجن .
لا . كان قادرا أن يحتجز من المال الذى يمر به ويحكم فيه ما يشاء ، لو يشاء .
لكن هذا النبى السمع كان فوق التطلع إلى اللذات الصغيرة ، لأن عينيه ترمقان
هدفا أسمى ولو سيقت إليه خزائن الأرض لفكر قبل كل شىء فى إشباع مهمة
الناس منها .

عن أبى ذر كنت أمشى مع النبىؑ فى حرة المدينة ، فاستقبلنا أحدٌ . فقال :
يا أبا ذر ، قلت لبيك يا رسول ! فقال : ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهباً ،
تمضى على ثلاثة وعندى منه دينارٌ — إلا شيئاً أرصده لدين —

إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه
ثم مشى فقال : إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا ،
عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل ما هم » .

إن أشهى الطعام فى فم الرجل الشبعان الممتلىء لا مذاق له ، وقد كان هذا النبىؑ
شبعان القلب ، فما يخفُ إليه غيره من زينة الدنيا لا يحرك منه شعرة ، فلا غرو إذا
بعثر ما يصل إليه على المحتاجين والمترقبين . أما هو فغناه فى قلبه .

ذاك أدب أخذه الله به من قديم منذ قال له :

« ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه .

ورزق ربك خير وأبقى . وأمرُ أهلك بالصلاة واصطبر عليها . لا نسألك رزقاً نحن نرزقك . والعاقبة للمتقوى » .

غاية ما يبغيه هذا النبي أن ينجو من مآسى الدنيا ومظالم البشر ، فلا تستذله أو يستذل أهله فاقه !

إنه يعيش على قاعدة « ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى » وفي حدود هذا القليل الكافي يود أن يخلص من عقابيل الخلق ، لاله ولا عليه . ولذلك يدعو الله :
« اللهم إني أعوذ بك من الفقر والفاقة ، والقلة والذلة ، وأن أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يُجهل عليَّ » ويقول : « إني أسألك الهدى والتقى والعافية والغنى »
— الاستغناء —

وهذا المنهج الصارم في المعيشة تقاضى نساءه أن يتحملن شدة ما كنَّ يعرفنها من قبل ، لقد جئن إليه من بيوتات كبيرة ، وأكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة ، إما مع آبائهن وإما مع رجالهن السابقين . فلا عجب إذا تملكن من هذه الحياة الجديدة . وطلبن الرغد والنعومة ، واجتمعن على ما يبينهن من خلاف — ليسألن الرسول مزيداً من النفقة !

إنهن في بيت أعظم رجل في العرب فيجب أن تتكافأ معيشتهن مع مكاتهن ، وقد ترغم هذه المطالب عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وتبعهن الباقيات ...
وحزن رسول الله لهذه المظاهرة . إنه المسلم الأول على ظهر الأرض ، وأبصار المؤمنين والمؤمنات تنو إلى من كل ناحية . وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها وسط ألوف مؤلفة من الخصوم المتربصين فإذا لم يعيش بيته عيشة المجاهد المحصور . فكيف يواصل الكفاح ويكلف الرجال والنساء من أمته أن يذهلوا عن كل شيء إلا السير بدينهم حتى يبلغ مأمنه ؟ ؟

لذلك رفض النبي الاستجابة لرغبات نساءه في توسيع النفقة ، وكره منهن هذا التطلع فقرّر مقاطعتهم ، حتى شاع بين الناس أن النبي طلق نساءه جملة ...
وفزع أبو بكر وعمر لهذه الإشاعة . فابنة كليهما عند رسول الله . فذهبا يستأذنان

اليد خلا عليه ، وليتعرفا جليلة الخبر . فلما دخلا وجدا النبي صامتا ، وحوله نساءؤه واجبات !! وسأله عمر : أطلقت نساءك يا رسول الله قال : لا ... إلا أن جو الحزن كان يحجيم على المسكان . فقال عمر : لا تكن رسول الله لعله يضحك !

فقال : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد — يعني زوجته — سألتني النفقة أنفا فوجأت عنقها ، فضحك النبي حتى بدا ناجذه . وقال : هنّ حولى يسألني النفقة . فقام أبو بكر إلى عائشة يؤدها ، وقام عمر إلى حفصة .

كلا يقول : تسألان النبي ما ليس عنده ؟

فهى النبي الأيوين أن يصنعا بينتيهما شيئا . وكانت نساءؤه يقلن نادمات : والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده ! .

وهجرهن النبي شهرا لا يتصل بهن حتى يشعرن بما فعلن ، ونزلت آيات التخخير من عند الله تطلب إليهن جميعاً إما التجرد للدار الآخرة مع رسول هذه طريقته فى حياته ! وإما اللحاق بأهلهن حيث الملابس الحسنة والمساكل الدسمة ...

وكان هذا الدرس كافياً ليمحو آخر ما فى أنفسهن من رغبة لم تتجاوز المباحات المشتهة ! فاخترق جميعاً البقاء مع النبي على قاعدته العتيدة « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » وعشن معه للجهاد والتهجد ، والبذل والمواساة ، والتواضع والخدمة . « يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتنّ تردنّ الحياة الدنيا وزينتها فتعالينّ أمتعنّ وأسرحنّ سراحا جميلاً . وإن كنتنّ تردنّ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ له حسناتٍ منكنّ أجراً عظيماً ... »

فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة ... وعشن مع النبي معينات على الحق راغبات فى الثواب .

وبهذا التفانى فى خدمة الرسالة والإهمال لمطالب النفس رفع الله درجاتهن فلم يصبحن زوجات رجل يطلبن فى ظله المتاع بل صرن شريكات فى حياة فاضلة غالية ، واستحققن قول الله عز وجل « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم .. » وتوكيداً لهذه الأمومة الروحية شرع الحجاب الدقيق على أمهات المؤمنين ،

فلا يجوز لأحد من الأجانب أن يلتقى بهن — ولو مع محرم — وسؤالهن في شئون الدين والدنيا إنما يكون من وراء الحجاب ، كما لا يجوز لأحد — بعد وفاة الرسول — أن يتزوج بإحداهن ...

وبهذا التشريع الصارم قطع دابر الفضوليين والثقلاء الذين يكثر التردد على بيوت الزعماء ، كما قطع دابر المتربصين منهم الذين ينشدون الرفعة من وراء الاقتران بأولئك النساء . ولا تستغرب مثل هذا التشريع ! فقد تأدت الجرأة ببعض الناس أن يقول أحدهم : لو قبض النبي ﷺ تزوجت عائشة ...!! ومن حق النبي ﷺ أن يصاب شعوره ، وأن يصد عنه وعن أهله أولئك الأعراب السفهاء ...

ولم يعقب الرسول من زواجه أولئك ولدا ، أما بناته اللاتي أعقبهن من خديجة فقد متن وهو حي . عدا فاطمة فإنها بقيت بعده شهورا ثم كانت أول أهله لحوقا به ...

ودخل رسول الله ﷺ بمریم التي بعث بها المقوقس إليه بعد أن أسلمت وحملت منه ، ثم وضعت له ابناً أسماه إبراهيم باسم جده أبي الأنبياء . ولم يعمر طويلاً بل مات وهو رضيع .

قال أنس : لقد رأيته وهو يجود بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ . فدمعت عليه عيناً النبي ﷺ . قال : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى ربنا . وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ...

واتفق أن الشمس كسفت في ذلك اليوم ، فتحدث الناس أن الشمس كسفت لموت ابن النبي ﷺ . فقام النبي ﷺ مصلياً بالناس ثم قال : يا أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا يتكسفان لموت بشر . فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فصلوا حتى تنجلي ...

استقرار

زالت غبرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة كما تزول بقايا الليل أمام طلوع الشرق . وصحت العقول العلييلة فلم تعد تخشى وترجو إلا الله بعد ما ظلت دهورا تعبد أصناما جامدة ، وُسُمع الأذان للصلوات يشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التي أحيائها الإيمان الجديد . وانطلق القراء شمالا وجنوبا يتلون آيات الكتاب ، و يقيمون أحكام الله ، ويعلمون العرب ما لم يعلموا هم ولا آبائهم . إن هذه الجزيرة منذ نشأ فوقها عمران لم تهترأ بمثل هذه النهضة المباركة ، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها .

وكان النبي ﷺ في المدينة يستقبل الوفود ويشيعها بعد ما ينفخ فيها من روحه الكبير ويزودها بحكمته الباهرة فتعود من حيث أتت لتنشئ في مواطنها القصية معاقل للإسلام وصحائف بيضا في تاريخ أمة . ولم يكنف النبي ﷺ بترقب الوفود المقبلة ، بل أرسل رجاله الكبار إلى الجنوب ليزيد رفعة الإسلام هناك اتساعا . فإن في اليمن وما حولها قبائل كثيفة العدد . ولأهل الكتاب السابقين نشاط قديم . وقد نشأ الإسلام هناك حقاً ، وتخلص ظل الفرس لغير عودة . إلا أن هذه البقاع النائية تحتاج مزيداً من رعاية وتفقد . ومن ثم بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد ، ثم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ، ثم علي بن أبي طالب .

وكان هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله يشعره أن مقامه في الدنيا يوشك على النهاية ! فإنه بعد أن علم معاذ بن جبل كيف يدعو من يلقاتهم ، وكيف يعرفهم دينهم ، خرج معه إلى ظاهر المدينة يوصيه ، ومعاذ راكب ورسول الله يمشي تحت راحلته !! فلما فزع قال :

يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عاى هذا ! . ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبرى ! فبكي معاذ خشعاً لفراق رسول الله . ثم التفت النبي ﷺ بوجهه نحو المدينة فقال : إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا ...

وقد وقع ما أوماً إليه الرسول ، فإن معاذاً أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع ثم كانت وفاة النبي ﷺ بعد الحج الأكبر بأحد وثمانين يوماً . ومعاذ باليمن ...

وقد كان للعناية باليمن ما يبررها ، فقد ظهر فيها وفي بني حنيفة دجالان يزعمان النبوة ، ولم يكن لكلا الدجالين من خلال الرجولة وآيات الخير ما يجمع عليه حفنة من الرجال ، ولكن داء العصبية العمياء جعل قبيلة كبيراً من الرعا يقول : نحن نعلم أن مسيامة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر !!

وقد اشتعلت فتن المتنبيين حيناً ثم داستها أقدام المجاهدين بعد فأخذت جذوتها وذهبت نبوة مسيامة وغيره كما تذهب بولة شاة على أديم الثرى . . .

حجة الوداع

أعلن رسول الله نيته بالحج ، وأشعر الناس بذلك حتى يصحبه من شاء . فترك المدينة أواخر ذي القعدة بعد أن أمر عليها في غيابه أبا دجاجة . . .

والحج هذه المرة جاء مغايراً لما ألفته العرب أيام جاهليتها . انتهت اليهود المعطاة للمشركين ، وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام . فأصبح أهل الموسم قاطبة من الموحدين الذين لا يعبدون مع الله شيئاً . وأقبلت وفود الله من كل صوب تيمم وجهها شطر البيت العتيق ، وهي تعلم أن رسول الله هو في هذا العام أمير حجهم ومعلمهم مناسكهم . . .

ونظر رسول الله إلى الألوف المؤلفة وهي تلبى وتهرع إلى طاعة الله فشرح صدره انقيادها للحق ، واهتداؤها إلى الإسلام . وعزم أن يغرس في قلوبهم لباب الدين وأن ينتهز هذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبدد آخر ما أبقّت الجاهلية من مخلفات في النفوس ، وتؤكد ما يحرص الإسلام على إشاعته من آداب وعلائق وأحكام .

فألقى هذه الخطبة الجامعة :

أيها الناس اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا ، بهذا الموقف أبداً . . .

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم حكمة يومكم هذا وحكمة شهركم هذا . وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . وقد بلغت ...

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع .

ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ! وإن ربي العباس بن عبد المطلب موضوع كله ...

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع . وإن أول دمائكم أضع ، دم ريبة بن الحارث بن عبد المطلب — وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل — فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية ...

أما بعد — أيها الناس . إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبداً . ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به ، مما تحقرون من أعمالكم ! فاحذروا على دينكم !!

أيها الناس . إن النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤوا عدة ما حرم الله . فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب — الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس . فإن لكم على نساءكم حقاً ولهن عليكم حقاً . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف : واستوصوا بالنساء خيراً . فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً . وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . فاعقلوا أيها الناس قولي فإنني قد بلغت ...

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه ...

أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين أخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت ؟

قالوا اللهم نعم ... فقال رسول الله : اللهم اشهد ...

قال ابن اسحاق : كان الرجل الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله — وهو بمعرفة — ربيعة بن أمية بن خلف .

يقول له رسول الله : قل يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون أى شهر هذا ؟ فيقول لهم ... فيقولون : الشهر الحرام . . . ! فيقول : قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا ...

ثم يقول : قل : يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون أى بلد هذا ؟ فيصرخ به ! فيقولون : البلد الحرام . فيقول : قل اللهم : إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا !

ثم يقول : يا أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أى يوم هذا ؟ فيقول لهم ... فيقولون : يوم الحج الأكبر ! فيقول : قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ...

كان الرسول يريد — بعد بلاء طويل فى إبلاغ الرسالة — أن يفرغ فى آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصيح . كان يحس أن هذا الركب سينطلق فى بيداء الحياة وحده ، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذى انطلق به القطار يوصيه الرشد وينذره بما ينفعه أبدا ...

وكان هذا النبى الطيب كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس عاود صيحات الإنذار ، واستشار أقصى مافى الأعماق من انتباه . ثم ساق المهدى والعلم ... وقطع العاذر المنتحل ، وانتزع بعد ذلك شهادة من الناس — على أنفسهم وعليه — أنهم قد سمعوا ، وأنه قد بلغ ...

لقد ظل ثلاثا وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء ، ويتلو على القاصى والدانى آى الكتاب الذى نزل به الروح الأمين على قلبه . ويغسل أدران الجاهلية التى التاث بها كل شىء ، ويربى من هؤلاء العرب الجليل الذى يفقه الحقائق ويفقه العالم فيها . وها هو ذا يقود الحجاج فى أول موسم يخلص فيه من الشرك ويتمحض فيه لله الواحد القهار ، وها هو ذا على ناقته العضباء يستنصت الجماهير المأجبة ليؤكد المعانى التى بعث بها والتى عرفهم عليها ، ويحلى ذمته من عهد البلاغ والتبيان التى نطت بعنقه .

لقد أجيت دعوة أبي الأنبياء إبراهيم حين هتف وهو بين البيت العتيق :
 « ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة
 ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم »

إن العزيز الحكيم تجلّى باسميه الجليلين على هذه الديار ، فوهب العزة والحكمة
 أو قل : القوة والسياسة محمد بن عبد الله فعالج بها الآثام الجاثمة على صدر الأرض
 فما استعصى على الأناة والحلم استكان للتأديب والحكم .

وبهذا المنهج الجامع بين العدل والرحمة أخذت رقعة الباطل تنكش رويدا رويدا
 حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها وثبت الإسلام ثم أصاخ العرب — بعد مالان قيادهم —
 إلى صوت الحق الأخير في حجة الوداع .

وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة نزل قول الله عز وجل : « اليوم أكملت
 لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً . . . » .
 وعندما سمعها عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال
 إلا النقصان . وكأنه استشعر وفاة النبي صلوات الله عليه وسلامه .

والحق أن مشاعر التوديع للحياة والأحياء كانت تتضح بها بعض العبارات التي
 ترد على لسان الرسول منها ما سبق ذكره في خطبته بالموسم . ومنها ما يقع في أثناء
 تعليمه الوفود المحتشدة حوله ، كقوله عند جرة العقبة . خذوا عني مناسككم فلعلى
 لا أحج بعد عاي هذا ...

إلى المدينة

فلما قضى الرسول مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة لئلا يأخذ خطأ من
 الراحة ، بل ليستأنف حياة الكفاح والكدح لله .

إن المبطلين لا يدعون لأهل الحق مهلة يستجمعون فيها . وأحباب الرسالات
 أنفسهم لا يستعيدون نشاطهم في القعود عن العمل بل يستمدون الطاقة على العمل
 من الشعور بالواجب .

وراحتهم الكاملة يوم يرون بواكير نجاحه دانية القطاف ... !!

قفل الرسول إلى المدينة ليعبى جيشا آخر يقاتل به الروم . فإن كبرياء هذه الدولة على الإسلام جعلها تأبى عليه حق الحياة ، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه .

كان فروة بن عمر الجذامى واليا من قبل الروم على معان وما حولها من أرض الشام ، فاعتنق الإسلام ، وبعث إلى النبي يخبره بذلك .

وعضب الرومان فجردوا على فروة حملة جاءت به ، وألقى في السجن حتى صدر الحكم بقتله ، فضرب عنقه على ماء لهم يقال له : عفراء بفلسطين ، وترك مصلوبا ، ليرهب غيره أن يسلك مسلكه ! وقيل إنه لما قدّم للقتل قال :

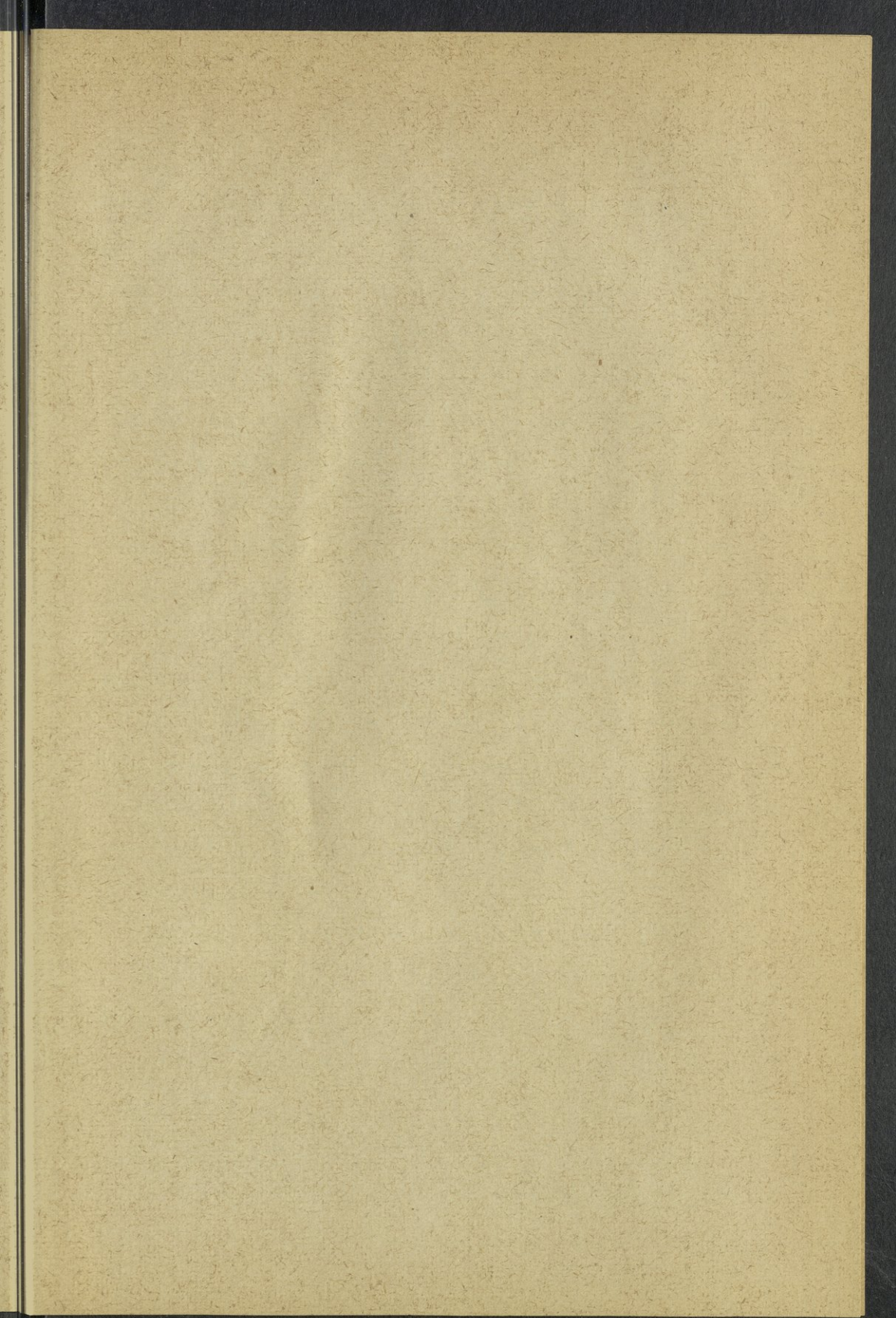
بلغ سرّاة المسلمين بأننى سلّم لربّى ، أعظمى ودماء !!
فأعدّ رسول الله جيشاً كبيراً ، وأمرّ عليه أسامة بن زيد بن حارثة . وأمره أن يوطىء الخيل تحوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يينغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضارين على الحدود ، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الختوف فحسب .. ولما كان أسامة شابا لا يتجاوز الثمانية عشر فإن بعض الجهال ساءتهم هذه الإمارة ، واعترضوا أن يقود الرجال الكبار شاب حدث ...

ولا شك أن النبي لا يلتفت في ولايته إلا إلى الجدارة ، فمن استحق منصبا بكفائته قدمه له غير مكترث بحداثة سنه . فإن كبر السن لا يهب الأغبياء عقلا ، ولا الصغر ينقص الأتقياء فضلا ...

فما الحداثة عن حلم بمناعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب
ولذلك قال رسول الله ردّا على اعتراض الناقدن : لئن طعنتم في تأميرى أسامة لقد طعنتم في تأميرى أباه من قبل .

وايم الله إن كان خليقا بالإمارة وإن ابنه من بعده خليق بها . وإن كان لمن أحب الناس إلى ...

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة وينتظمون في جيشه .
إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله أكرهتهم على التريث حتى يعرفوا ما يقضى به الله ...



(٩)

الرفيق الأعلى

شعر رسول الله بوعكة المرض الذي نزل به أواخر صفر من السنة الحادية عشرة .
وبدأت آلامه صداعا حادا عاناه في سكون ، حتى ثقل عليه الوجد وهو في بيت زوجته
ميمونة .. فلم يستطع الخروج .

وأذن له نساؤه أن يُمرَّض في بيت عائشة لما رأين من ارتياحه إلى خدمتها له .
فخرج من عند ميمونة بين الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب . وكان الألم
قد أوهى قواه . فلم يستطع مسيراً . فانتقل بينهما معسوب الرأس تخط قدماه على
الأرض ... حتى انتهى إلى بيتها .

واشتدت وطأة المرض على رسول الله ، وانقدت حرارة العلة في بدنه . فطلب
أن يأتيه بماء يتبرد به ... ماء كثير !! أهريقوا عليَّ سبع قرب من آبار شتى ...
قالت عائشة : فأقعدها في مخضب لحفصة ، ثم صبينا عليه الماء .. حتى طفق
يقول : حسبكم ، حسبكم ...

وعندما أحس الرسول بأن سورة الحر خفت عن بدنه استدعى الفضل بن عمه
العباس . فقال : خذ يدي يا فضل — وهو موعوك معسوب الرأس — قال الفضل :
فأخذت يده — حتى دخل المسجد ، وجلس على المنبر . ثم قال : ناد في الناس ..
فاجتمعوا إليه ...

وكانت ظهيرة تظللها الكآبة وتغمرها الرقة . اشربت فيها الأعناق إلى الرجل
الذي أحيا موات القلوب وأخرجهم وذرياتهم ونساءهم من الظلمات إلى النور .
تطلعت إليه الأعين الحائرة فرآته متعبا .

انهزمت العافية في بدنه الجلد أمام سطوة المرض العاتى .
إلا أنه أخذ يحدثهم ويربهم ، على عهدهم به دائما . وأنصتوا فإذا بهم يسمعون
منه عجبا .. إنه لما أحس بدنوَّ أجله أحب أن يلقي الله وليس هناك بشر يطلبه بتبعة .
إنه تحرى العدالة في شئونه كلها . لكن من يدرى ؟ ربما عرض له سهو عما يعرض
لبنى آدم أو خطأ . فجار وهو الذي يبرأ منه الجور وذويه !!

إذن ليخطب الناس في هذا حتى يستريح ضميره ... قال : أما بعد أيها الناس ،
فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ...

فمن كنت جللت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه !.

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني . ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقاً ! إن كان له . أو أحلني مني فلقيت الله وأنا طيب النفس .

وقد أرى أن هذا غير مغنٍ عني حتى أقوم فيكم مزاراً .
قال الفضل : ثم نزل فصلى الظهر . ثم رجع جلس على المنبر . فعاد لمقاتته الأولى في الشحناء وغيرها .

فقام رجل فقال يارسول الله : إن لي عندك ثلاثة دراهم ! فقال : أعطه يا فضل ...

ثم قال النبي : أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده . ولا يقل : فضوح الدنيا ..
ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة !

فقام رجل فقال : يارسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله . قال : ولم غللتها ؟ قال : كنت إليها محتاجاً . قال : خذها منه يا فضل !

ثم قال : أيها الناس من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدع له . فقام رجل فقال : يارسول الله ، إني لكذاب ، إني لفاحش ، إني لنؤوم !! فقال النبي : اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وأذهب عنه النوم .

ثم قام رجل آخر فقال : والله يارسول الله إني لكذاب ، وإني لمنافق ، وما من شيء إلا قد جنيتّه .

فقام عمر بن الخطاب فقال له : فضحت نفسك . فقال النبي : يا بن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة . اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وصير أمره إلى خير .

وعاد النبي إلى بيته اللاصق بالمسجد لينام في فراش السقام وهو الذي لم يتعود أن يركن إليه أو يهدأ فيه .

وكانت هناك مهام كثيرة ترتب صحوه ليبت فيها . ولكن أعباء العلة حبسته في قيودها فلم يستطع منها فكاً . وإذا استطاع أن يخرج في فترات قليلة تحف فيها حدة المرض ، إلى المسجد ليلقي نظرات أخيرة على الأمة التي صنعها والرجال الذين أحبهم !! .

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله جلس يوما على المنبر فقال : إن عبداً خيراً
الله بين أن يؤتیه من زهرة الدنيا ماشاء وبين ما عند الله فاختار ما عند الله . فبكى أبو بكر
ثم قال : فدينك يا بائنا وأمهاتنا يا رسول الله ...

قال أبو سعيد : فتعجبنا له وقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يجد رسول الله
عن عبد يخير . ويقول : فدينك يا بائنا وأمهاتنا ! .
قال : فكان رسول الله هو المخير . وكان أبو بكر أعلمنا به ... فقال رسول الله :
إن آمن الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر . ولو كنت متخذاً خليلاً لا تأخذت
أباً بكر خليلاً . ولكن أخوة الإسلام . وفي رواية : ولكن صحبة ، وإخاء إيمان ،
حتى يجمع الله بيننا عنده ...

وحدث في أثناء المرض أن مرت أوقات هائلة ، خيلت لمحبي الرسول أن أمانتهم
في عافيته نجحت وأنه يوشك أن يقوم ليستأنف كفاحه في سبيل الله . وليظل يحبوهم
مطّفه وحرصه وإيناسه ورحمته .

فمن عبد الله بن كعب بن مالك أن ابن عباس أخبره أن عليّ بن أبي طالب
خرج من عند رسول الله في وجعه الذي توفّي فيه . فقال الناس : يا أبا حسن ،
كيف أصبح رسول الله ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً .
فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال : ألا ترى ؟ . إنك بعد ثلاث عبد العصا !
وإني أرى رسول الله سيتوفى في وجعه هذا . وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب
عند الموت ...

فأذهب إلى رسول الله . فسله فيمن يكون هذا الأمر . فإن كان فينا علمنا ذلك .
وإن كان في غيرنا استوصى بنا خيراً . قال عليّ : والله لأن سألتها رسول الله فمنعناها
لا يعطيناها الناس أبداً . والله لا أسأله رسول الله أبداً .
وظاهر أن العباس يعني الخلافة ! فقد شعر الرجل بأن النبي في مرض الموت ،
وخبرته بأقاربه حين يحتضرون جعلته صادق الحدس في تبين مسأيرهم .

ولما كان عميد بني هاشم قد أمهم أن يعرف لمن ستكون سيادة الناس بعد وفاة
الرسول ؟ وقد اتجه إلى عليّ بيته مكنون نفسه ، لأن علياً بسابقته وكفايته ومنزلته

في الناس وموضعه من الرسول يُعَدُّ أول بني هاشم ترشيحاً لهذا الأمر . بيد أن علياً كره أن يكلم النبي في ذلك ، وآثر ترك الأمر للجمهور المسلمين .
وكان النبي نفسه قد همَّ بكتابة عهد يمنع شغب الطامعين في الحكم ، ثم بدا له فاختار أن يدع المسلمين وشأنهم . ينتخبون لقيادتهم من يُحبُّون .

وزادت وطأة المرض على رسول الله ، وعانى من برحائه ألماً مضاعفاً . حتى تأذت فاطمة ابنته من شدة ما يليق . فقالت : وا كرب أبتاه ! فقال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ..

وترامت الأخبار إلى جيش أسامة . فشاع الحزن والاضطراب في صفوفه .
عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : لما ثقل رسول الله هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة . فدخلنا على رسول الله وقد أصمت لا يتكلم . فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على . فعرفت أنه يدعولي .

وأغنى عليه مرة فلده أهله . فلما أفاق كره ذلك منهم .
وكان إلى جواره قدح فيه ماء ، يغمس فيه يده ثم يمسح وجهه بالماء ويقول :
اللهم أعني على سكرة الموت .

وحين عجز النبي عن الصلاة بالناس استقدم أبا بكر ليؤمهم .
فخشيت عائشة أن يكره الناس أباهم ويتشاءموا من طلعته . فقالت : إن أبا بكر رجل رقيق ، وإنه متى يقيم مقامك لا يطيق ! فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس .
فكررت عائشة اعتراضها . فغضب رسول الله وقال : إنكن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس ...

وصلى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة .
وهذه الأيام التي تخلف فيها النبي عن أن يؤم المسلمين كانت من أشد الأيام ثقلاً عليه . وصح عنه أنه قال : إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم .
ومع فيح الحمى وحدة مسها لبدنه فقد ظل يقظ الذهن مهموماً بتعاليم الرسالة حريصاً على تذكير الناس بها .

وكان يخشى أن ترتكس أمته فتتعلق بالأشخاص «الأضرحة» كما ارتكس أهل الكتاب الأولون .

وشدته في إخلاص التوحيد لله هي التي جعلته وهو يعالج سكرات الموت يهرب المسلمين من هذا المزلق . عن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله طفق يطرح خميصة له على وجهه . فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا » .
وكان يخشى أن تغلب شهوات الغنى والكبر على أمته ، فإن الذين يتبعون شهوات الغنى ينسون الصلاة والذين يتبعون شهوات الكبر يطغون على ما تحت أيديهم من خدم ومرءوسين ورقيق .

والأمة التي تستبد بها هذه الشهوات ، لا تصلح للحياة ولا تصلح بها حياة ومن اليسير أن يتركها الله تلقى جزاء ما تصنع ، وهو خزي الدنيا وعذاب الآخرة . هذه الخشية حملت النبي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن ينبه المسلمين إلى معاهد الخير ليمسكوا بها .

عن أنس بن مالك قال : كانت عامة وصية رسول الله حين حضره الموت ، الصلاة وما ملكت إيمانكم . حتى جعل رسول الله يفرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه ...

وربما غلبه الشوق لحضور الجماعة ورؤية الأصحاب في أيامه الأخيرة فتحامل على جسمه النهوك ونسل إلى المسجد من حجرة عائشة ، فصلى بالناس وهو قاعد . قال ابن عباس لما مرض النبي أمر أبا بكر أن يصلي بالناس ثم وجد خفة فخرج فلما أحس به أبو بكر أراد أن ينكص فأومأ إليه الرسول فجلس إلى جنب أبي بكر عن يساره واستفتح من الآية التي انتهى إليها أبو بكر . فكان أبو بكر يأتى بالنبي والناس يأتون بأبي بكر .

على أن أبا بكر ظل يصلي بالناس هذه الأوقات التي مرض فيها رسول الله حتى صليحة اليوم الذي قبض فيه وكان الرسول معلق القلب بشئون أمته . وكأن الله أراد أن يطمئنه على كمال انقيادها وحس اتباعها فأشده آخر وقت حضره وهو في الدنيا .

إذ أقبل المؤمنون من بيوتهم إلى المسجد فجر الاثنين الذي قبض فيه ، واصطفوا لصلاتهم خشعاً مخبئين وراء إمام رقيق التلاوة فياض الإخلاص . ورفع النبيُّ الستر المضروب على منزل عائشة وفتح الباب وبرز للناس . فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم ابتهاجاً برؤيته وتفرجوا يفسحون له مكاناً . فأشار بيده : أن اثبتوا على صلاتكم . وتبسم فرحاً من هيئتهم في صلاتهم . قال أنس بن مالك : ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه في تلك الساعة .

ثم رجع وانصرف الناس وهم يظنون أن رسول الله قد أفاق من وجعه . واطمأن أبو بكر لهذا الظن فرجع إلى أهله بالسنح — في ضواحي المدينة . قالت عائشة : وعاد رسول الله من المسجد . فاضطجع في حجرى . ودخل علينا رجل من آل أبي بكر في يده سواك أخضر . فنظر رسول الله إلى يده نظراً عرفت منه أنه يريد . فأخذته فألتمته له ثم أعطيته إياه . فاستن به كأشد ما رأيت يستن بسواك قبله . ثم وضعه .

ووجدت رسول الله يثقل في حجرى .

فذهبت أنظر في وجهه .

فإذا نظره قد شخص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة ...

قلت : خيَّرتَ فاخترتَ والذي بعثك بالحق ...

وقبض رسول الله ...

وتسرَّب النباُ الفادح من البيت المحزون ، وله طنين في الآذان ، وثقل رزح تحته النفوس وتدور به البصائر والأبصار .

وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت ، فتركهم لوعة الشكل حيارى لا يدورن ما يفعلون .

ووقف عمر بن الخطاب وقد أخرجه الخبر عن وعيه يقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى ، وإن رسول الله مات . ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات ...

والله ليرجمن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات !!!

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس . فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله في بيت عائشة ، وهو مُسَجًى في ناحية البيت عليه بردٌ حَبْرَةٌ .

فأقبل حتى كشف عن وجهه . ثم أقبل عليه فقبله . ثم قال : بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها . ثم لن يصيبك بعدها موت أبداً .

ورد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس . فقال : على رسلك يا عمر فأنصت

لكن عمر ظل مهتاجاً مندفعاً في كلامه .

فلما رآه أبو بكر كذلك أقبل على الناس وشرع يتكلم . فلما سمعه الناس انصرفوا عن عمر وأقبلوا عليه

ومحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية « وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً . وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .

خاتمة

لم تمض أيام معدودات على وفاة الرسول حتى اشتبك الإسلام في صراع رهيب مع الوثنية التي عاودتها الحياة فجأة ، والصليبية الرابضة في شمال الجزيرة تمنع الدخول في الإسلام وتجبط دعايته بالقوة .

ولم تشهد الصحراء في حياة النبي نفسه مثيلاً لهذه المعارك الطاحنة .
فقد اتسعت ميادينها وتتابعت أمدادها وفدحت مغارمها وكثرت ضحاياها ...
إلا أن الرجال الذين رباهم محمد على معرفة الحق والفناء فيه صدقوا الله في عملهم ونهضوا كأعنى الأبطال بالأثقال الباهظة التي رُمُوا بها ...
ضربوا الوثنية في الجزيرة ضربة كسرت فقارها واعتصرت روحها فهمدت إلى الأبد ...

وطردوا الرومان عن الحدود التي تمردوا فيها ...
ثم عادوا إلى المدينة لالاستجموا ، بل لينتشروا خلال المعمور من أرض الله يومئذ ، في نظام رتيب وبوحي شريعة محكمة .
وما هي إلا سنوات قلائل حتى كان الإسلام ملء البر والبحر ملء السمع والبصر ..

والآن مرت قرون أربعة عشر على هذه الحقبة الزاهرة .
إن الإسلام — بعد مجد كبير — لا يحكم أمته فضلاً عن أن يوجه العالم إلى بر يذكر أو خير يشكر ...

والأديان الأخرى تعيش على هامش الحياة .
فالحضارات القائمة أو المتربصة لا تمكن الدين من زمامها .
الوثنية في الشرق الأقصى وفي بقاع أخرى لا تزال تظلل الجوانب الداكنة من حياة العامة ومسالك الجماهير السائجة .
واليهودية تنحاز بأبنائها جانباً لتغرس في قلوبهم الحقد على البشر ، والنفاذ من خلل الصفوف المتناصرة بأكبر غنم لإسرائيل ...

أما الصليبية ، فهي كالتبات المتسلق في خط الاستواء ، تعتمد في بقائها على الالتحاق بالفلسفات السائدة والنظم الغالبة كي تضمن حياة أى حياة لدعائهم الأولى من تقاليد وقرابين .

والمسلمون سرت إليهم لوثبات الاحتراف والتعلق بالقشور والمراسيم .
وردتهم ردائل الضعف والجهالة إلى أحوال أشبه بما كان يسود اليهود والنصارى على عصر النبوة والخلافة الراشدة .

وقلة يسيرة منهم هي التي بقيت إلى يوم الناس هذا تغالب الجاهلية وتتشبث بالحق .
إن كان مما يعين على الأمل أن الإسلام ظل من الناحية العلمية محفوظا في مصدريه الخطيرين : الكتاب والسنة .

على أن الذين يعملون للإسلام عملا صحيحا يلقون مقاومة عنيفة من شتى الجهات الأخرى ، أعنى الجهات التي قاومت امتداده من أربعة عشر قرنا . ولم تبرد عداوتها له يوما ...

وقد يسأل سائل : هل العالم اليوم بحاجة إلى هذا الإسلام ؟ . ونقول : إذا كان العالم بحاجة إلى أن يعرف الله ويستعد للقاءه ويقدم حسابا على ما أدى في هذه الدنيا فلا بد له من الإسلام .

إن الارتقاء المادى لا يغنى فتىلا عن التقيد بهذه الحقائق الكبيرة .
قد يقال : لكن من الناس من لا يؤمن بإله قائم أو يوم آخر . ومنهم من يؤمن بذلك على نحو غير ماجاء به الإسلام .
فدعوا الناس وما يروون ...

ونقول : لير الناس ما يشاءون . ولكن ليس من حق العميان أن يخلعوا عيني المبصر أو يضيقوا عليه الخناق لأنه يرى مالا يروون !

فليدعوه يمشى بهدى بصره ، وليدعوه كذلك يصف ما يرى في طريقه وما يتوقع .
فمن تبعه من غير استكراه فلينطلق معه ولترفع من أمامه العوائق .
وذلك ما ينبغي الإسلام فحسب ...

إن المبطلين يكرهون الإسلام لأنه حق ناطق يجادل عن نفسه ويستعلن بما فيه ويرفض أن يتوارى أو يصمت .

هذه الخاصة في الإسلام ، خاصة إحقاق الحق وإبطال الباطل أزجحت أعداءه ، وجعلتهم يختلقون له التهم . فإذا رفض المداهنة فهو مهاجم ، وإذا أبى أن يموت أمام كيد الخصوم فهو ينتشر بالإكراه ...

وذاك سر الخرافة التي راجت أن الإسلام ساد بالسيف .

والإسلام إنما امتشق الحسام لينجوه من غوائل الرعاع والقطاع . ولو ترك من غير ترويع ما أثقل عاتقه برمح ، ولا كتفى من السنان باللسان .

نعم إنه إنه كان في هذه السبيل صارما ... وهل ينتظر منه إلا ذلك في ملاقة خصوم يجرون وراءهم كبرياء القرون الطوال ؟ وضلالات تحتمى وراء غابات متشابكة من الرجال والسلاح ؟

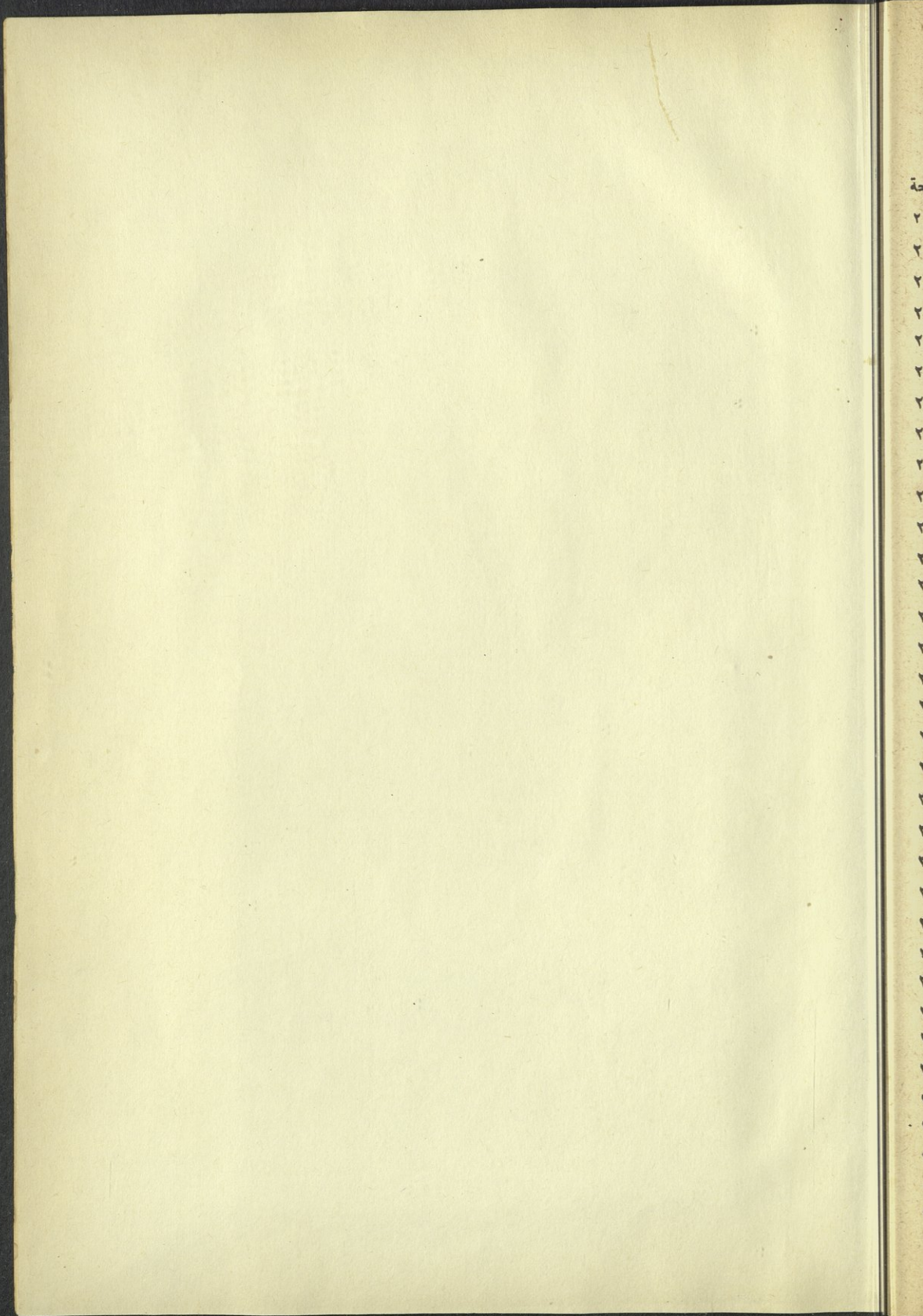
إنه لولا هذه الصرامة ما بقيت أصوله العلمية والنفسية سليمة إلى اليوم . فإن الديانات التي ضعفت قبله أفلح أعداؤها في جرّها عن أصولها جرّاً شنيعاً فلم تعد إلى قواعدها سالمة ... !!

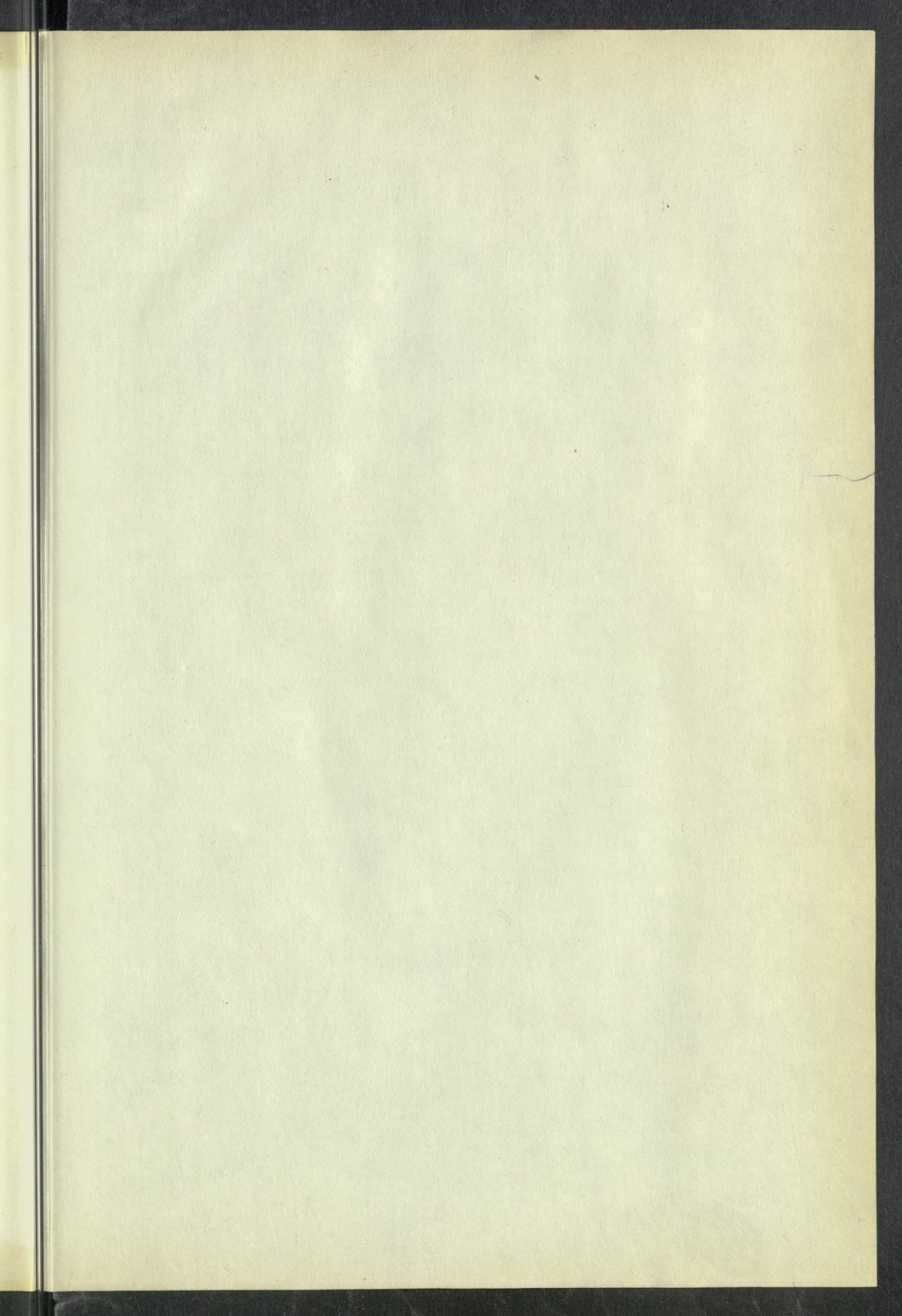
أما الإسلام فإنك واجدّه اليوم ، ولو في كتابه ، إن لم يكن في أصحابه ...

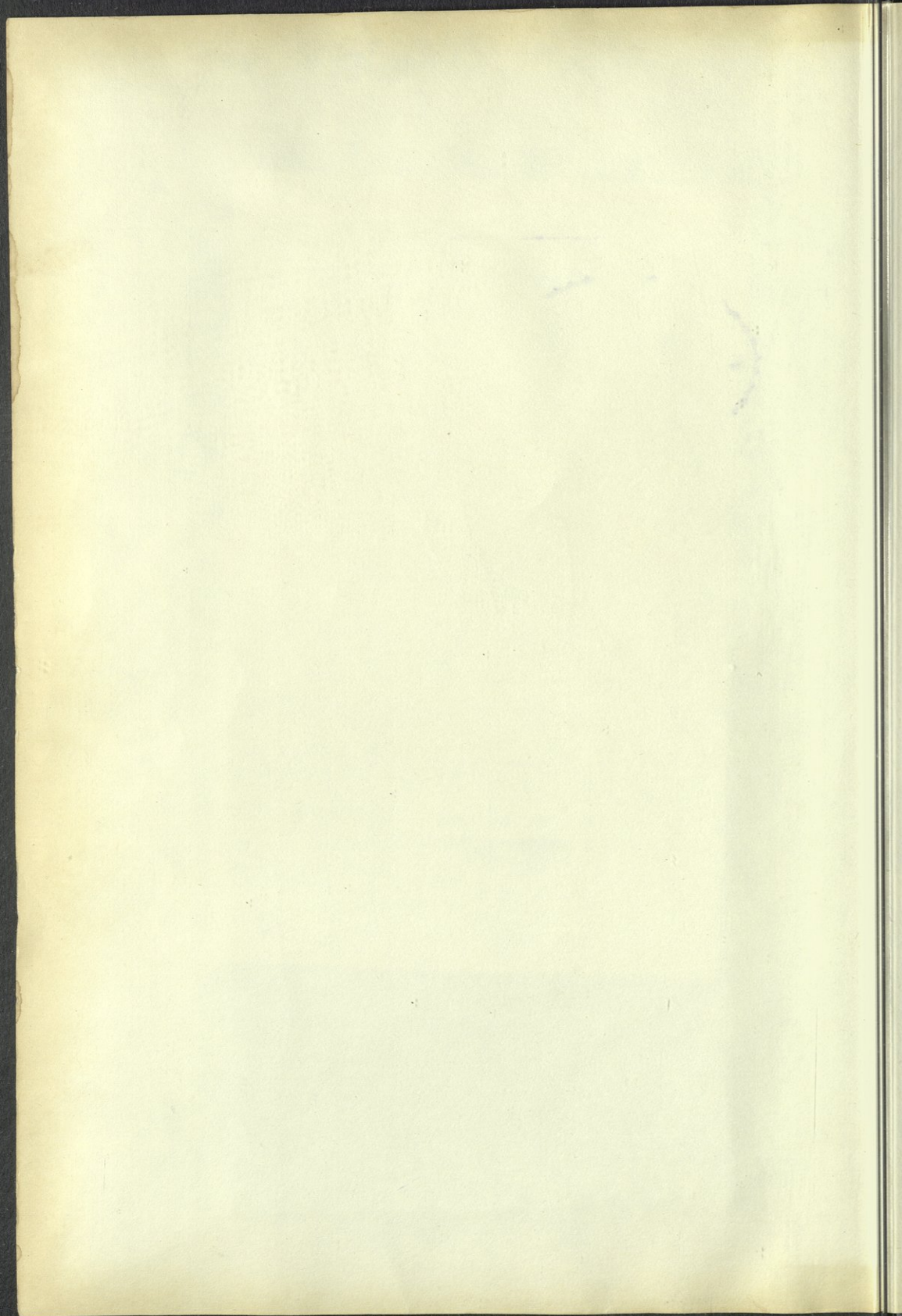
قد تظن أنك درست حياة محمد إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة . وهذا خطأ بالغ . لن تفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن الكريم والسنة المطهرة . وبقدر ماتنال من ذلك تكون صلتك بنبي الإسلام ...

فهرست

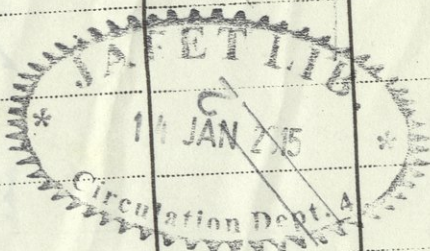
الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
مقدمة	٣	قريش والإسراء	١٠٨	بدر الآخرة	٢١٥
رسالة ولإمام	٩	الهجرة العامة مقدماتها ونتائجها	١١١	دومة الجندل	٢١٥
الوثنية تسود الحضارات القديمة	١٠	فروق بين البلدين	١١٣	حديث الإفك	٢١٩
طبيعة الرسالة الحاتمة	١٣	صنع اليهود	١١٣	غزوة الأحزاب هـ	٢٢٣
العرب حين البعثة	١٦	بيعة العقبة الأولى	١١٥	مع قريظة	٢٣٥
رسول معلم	١٩	بيعة العقبة الكبرى	١١٦	طور جديد	٢٤٥
النبي وخوارق العادات	٣٤	طلائع الهجرة	١٢١	عمرة الحديبية	٢٤٦
من الميلاد إلى البعث	٤٣	في دار الندوة	١٢٤	مع اليهود مرة أخرى	٢٥٩
شق الصدر	٤٨	هجرة الرسول	١٢٥	عودة مهاجري الحبشة	٢٦٦
بحيرا الراهب	٥١	درس في سياسة الأمور	١٢٦	تأديب الأعراب	٢٦٧
حياة الكدح	٥٢	في الفار	١٢٧	مكاتبه الملوك والأمراء	٢٦٩
حرب الفجار - حلف الفضول	٥٥	في الطريق إلى المدينة	١٢٨	عمرة القضاء	٢٧٦
قوة ونشاط	٥٧	دعاء	١٣٠	غزوة مؤتة	٢٧٧
خديجة	٥٨	الوصول إلى المدينة	١٣٢	ذات السلاسل	٢٨١
الكعبة	٦١	الاستقرار بالمدينة	١٣٣	الفتح الأعظم	٢٨٢
باحثون عن الحق	٦٣	أسس البناء للمجتمع الجديد	١٣٧	هزيمة	٢٩٤
في غار حراء	٦٥	المسجد	١٣٨	الثبات والنصر	٢٩٦
ورقة بن نوفل	٦٧	الأخوة	١٤٠	الفنائم	٢٩٧
جهاد الدعوة	٧٠	غير المسلمين	١٤٣	حكمة هذا التقسيم	٢٩٩
إلام يدعو الناس	٧٣	المصطفون الأخيار	١٤٦	عودة وفد هوازن	٣٠١
الرعيل الأول	٧٥	معنى العبادة	١٥٠	حصار الطائف	٣٠١
أبو طالب	٧٨	قيادة تهوى إليها الأفئدة	١٥٥	إلى دار الهجرة	٣٠٢
الاضطهاد	٨١	الكفاح الدامي	١٦١	موقف المنافقين	٣٠٣
عمار بن ياسر . بلال . خباب	٨٢	سرايا	١٦٥	تبوك	٣٠٤
مفاوضات	٨٤	سرية عبد الله بن جحش	١٦٧	الخلفون	٣١٠
الهجرة إلى الحبشة	٨٧	معركة بدر	١٦٩	مسجد الضرار	٣١٤
إسلام حمزة وعمر	٩١	محاسبة وعتاب	١٧٩	طليعة الوفود	٣١٥
المقاطعة العامة	٩٣	في أعقاب بدر	١٨٢	حج أبي بكر	٣١٧
عام الحزن	٩٧	بدء الصراع بين اليهود والمسلمين	١٨٤	وفد اللأميين ووفد لأهل الكتاب	٣٢٠
في الطائف	٩٩	مناوشات مع قريش	١٨٩	أمهات المؤمنين	٣٢٧
الإسراء والمعراج	١٠١	معركة أحد هـ	١٩٢	استقرار	٣٤٢
حكمة الإسراء	١٠٥	عبر المحنة	١٩٩	حجة الوداع	٣٤٣
إكمال البناء	١٠٦	شهداء أحد	٢٠٥	إلى المدينة	٣٤٦
سلامة الفطرة	١٠٧	آثار أحد	٢٠٨	الرفيق الأعلى	٣٤٩
فرض الصلاة	١٠٨	لجلاء بني النضير	٢١٢	خاتمة	٣٥٧







DATE DUE



297.63:G41fA:c.1

الغزالي، محمد

فقه السيرة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011172

297.63
G41fA

